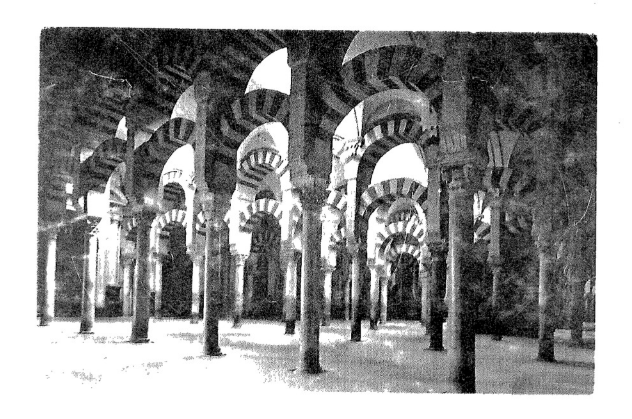
شرق الأندلس في العصر الإسلامي

(٥١٥ - ٦٨٦ هـ / ١١٢١ - ١٢٨٧ م)

دراسة في التاريخ السياسي والحضاري



دكتور

محمد أحمد أبو الفضل

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة طنطا

١٩٩٦

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - اسكندرية

ت ٤٨٣٠١٦٣

شرق الأندلس في العصر الإسلامي

(٥١٥ - ٦٨٦ هـ / ١١٢١ - ١٢٨٧م)

دراسة في التاريخ السياسي والحضاري

دكتور

محمد أحمد أبو الفضل

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة طنطا

١٩٩٦

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الازاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦

مقدمـــة

أولا ـ موضوع البحث ومنهج الدراسة:

تشغل منطقة شرق الأندلس منذ انهيار دولة المرابطين وانتزاع محمد بن سعد بن مردنيش بها قدراً كبيراً من أحداث تاريخ الاسلام فى الأندلس، وقد تتابعت الأحداث خلال هذه الفترة الانتقالية وتداخلت مناطق النفوذ وتشابكت تشابكاً عقد من طبيعة الأوضاع السياسية بحيث يستعصى على الباحث تأريخ هذه الفترة على نحو يتكافأ مع الأهمية التى تستحقها قبل أن تستقر أقدام الموحدين فى شرق الأندلس، وقد حظيت هذه المنطقة باهتمام الموحدين لمتاخمتها للثغور المسيحية من جهة الشمال، كما نعمت فى ظل سلطانهم باستقرار نسبى كان له أعظم الأثر فيما أصابته هذه المنطقة من رخاء وازدهار اقتصادى انعكس على الفنون والصناعات والعمران. غير أن الأوضاع السياسية لم تلبث أن اضطربت فى شرق الأندلس عندما انهار سلطان الموحدين السياسى لا سيما بعد هزيمة العقاب وما اجترمه الناصر الموحدى نحو زعماء الأندلس قبيل الاشتباك الذى أدى إلى هذه الهزيمة، بالإضافة إلى انقسام الموحدين على أنفسهم واختلافهم فيما بينهم، وسوء تصرف بعض المتأخرين من زعمائهم فى الأندلس كما فعل السيد أبو زيد والى بلنسيه حين لجأ إلى أراجون ليستعين بها واعتنق النصرانية، كل ذلك أدى إلى الإطاحة بهيبة الموحدين فى نظر أهل الأندلس وإقدام هؤلاء على التخلص من سلطانهم، وعلى هذا النحو كانت منطقة شرق الأندلس فى مقدمة مناطق الأندلس التى ثارت عليهم وإن كانت هذه الثورة قد أعادت المنطقة إلى نزعتها الإقليمية المعهودة، فاستقل بإمارة مرسيه الأمير أبو عبد الله محمد بن هود الذى اتخذ مرسيه قاعدة لإمارته وحكم معظم ما تبقى من مدن الأندلس تحت شعار العباسيين ورغبة منه فى أن يحظى حكمه بنوع من الشرعية أمام منافسيه من أمراء الأندلس أمثال محمد بن نصر بن الأحمر، استرضاء للعامة الذين يتطلعون إلى الخلافة العباسية التى يستمدون منها القوى المعنوية والروحية. أما بلنسيه فقد ثار فيها زيان بن مردنيش، أحد سلالة بنى مردنيش على أميرها الموحدى السيد أبى زيد عبد الرحمن بن محمد بن أبى حفص بن عبد المؤمن وأخرجه منها، واستمر زيان يقاوم الأرغونيين زهاء عشر سنوات من سنة ٦٢٦هـ إلى سنة ٦٣٦هـ اضطر بعدها إلى أن يسلم بلنسيه إلى جاقمه (خايمى الأول). ولم تلبث قواعد شرق الأندلس بعد ذلك أن تساقطت تباعاً خلال سنوات قلائل فى أيدى الأرغونيين والقشتاليين إلى أن انتهى الأمر بقيام دولة بنى الأحمر فى نطاق ما بقى من ملك الاسلام فى الأندلس.

لقد كان إحساسى بخطورة الدور الذى لعبته هذه المنطقة فى الفترة موضوع الدراسة وأهميته بالنسبة لتاريخ الأندلس مع ندرة الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع كان ذلك العامل الرئيسى الذى شجعنى على اختيار منطقة «شرق الأندلس في عصر دولة الموحدين» موضوعاً للبحث، وكان يحدونى عند اختياره الأمل فى أن أتوصل إلى حقائق قد تسلط مزيداً من الأضواء التي تتيح إزالة ما اكتنف هذا التاريخ من غموض. ومن الجدير بالذكر أن الدراسات الأسبانية المتعلقة بالتاريخ المحلى القومى وليدة النزاعات الإقليمية فى أسبانيا كان لها أعظم الأثر فى تسهيل مهمتى لدراسة هذه المنطقة دراسة شاملة متكاملة، وأعظم ما كتب فى هذا المجال الكتاب الذى وضعه الأستاذ امبروزو أويثى ميراندا عن مدينة بلنسيه فى العصر الاسلامى ويتألف من ثلاثة أجزاء بعنوان :

Huici Miranda (A), Historia de Valencia y su region, 3 Tomos, Valencia, 1970.

والبحث الذى أصدره أندريه أبارس عن بلنسيه أيضاً بعنوان:

Ibars (A), Valencia Arabe, Tomo I, Valencia, 1901.

وعن مدينة مرسيه الاسلامية الكتاب الذى أصدره جاسبار ريميرو بعنوان:

Gaspar Remiro (M): Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1905.

والكتاب الذى ألفه روكى شاباس عن مدينة دانيه، تكلم فى الجزء الثانى منه عن تاريخها فى العصر الاسلامى بعنوان:

Roque Chabas (LLorens), Historia de la Ciudad de Denia, Tomo II, Tercera Edicion, Alicante, 1972.

والكتاب الذى أعده أرست جسبرت عن أوريوله وعنوانه:

Eresto Gisberte Ballasteros, Historia de Orihuela, Orihuela, 1901.

وكتاب السيد/ كانوباس كوبنيو عن تاريخ مدينة لورقة وعنوانه:

Canovas Cabeno, Historia de la Ciudad de Lorca, Lorca, 1903.

ثم المختصر التاريخى عن جزر البليار فى العصر الاسلامى الذى وضعه ألبارو كامبانير أى فورتيس بعنوان :

Alvaro Campaner y Fuertes, Bosquejo Historico de la Dominacion Islamita en las Islas Baleares.

ولقد حاولت منذ البداية أن أتوصل إلى هدفين أساسيين قامت عليهما الرسالة، أولهما إبراز الدور الأساسي الذى لعبته المنطقة فى تاريخ الأندلس، وثانيهما، إجلاء الصورة الحضارية للمنطقة موضوع الدراسة علمياً واجتماعياً واقتصادياً مع الإشارة إلى أهم آثارها الباقية. وقد حاولت أيضاً خلال دراستى للموضوع أن أتقصى الحقائق التاريخية متبعاً فى كل ذلك المنهج العلمى القائم على المقابلة بين النصوص والتحليل توطئة لاستنباط الحقائق التى يمكن أن يدور عليها البحث، ومستعيناً بعدد كبير من المصادر العربية والأسبانية التى تعرضت من قريب أو من بعيد لموضوع الدراسة، ومعظمها لا يعدو بحوثاً تاريخية تسجل أحداثاً وحوليات تتضمن روايات لمؤرخين لم تصل إلينا كتبهم. كما عشت فترات متقطعة ـ أتاحها وجودى فى أسبانيا خلال ثلاث سنوات ـ فى مناطق الأحداث كنت أطوف خلالها مع قلة الإمكانيات المتاحة بالمراكز العمرانية القديمة الواقعة داخل نطاق المجموع العام للعمران المدنى لهذه المنطقة وكنت أتفحص التخطيطات القديمة وأقابلها بالتخطيطات المعاصرة بغية الخروج من تلك المقابلات بحقائق تعيننى على تصور ما كانت عليه مدن هذه المنطقة فى عصر الموحدين، ولم أكن أتردد فى تجشم متاعب الرحلة إلى المواقع التاريخية التى شهدت المعارك الدامية بين الفئات المتصارعة أو حتى فى ارتياد المواقع الصعبة التى تقوم عليها القلاع والتحصينات فى مختلف أنحاء شرق الأندلس.

وعلى هذا النحو قسمت موضوع الدراسة إلى بابين رئيسيين، تسبقهما دراسة تمهيدية، أولهما ويتعلق بالتاريخ السياسى يتضمن خمسة فصول فى حين أفردت الباب الثانى لدراسة بعض مظاهر حضارة شرق الأندلس وضمنته أربعة فصول ـ وفيما يلى عرض عام لفصول الرسالة:

فى الباب الأول: خصصت الفصل الأول منه لدراسة شرق الأندلس فى السنوات الأخيرة من عصر المرابطين، فتعرضت صدى الأحداث المغربية فى هذه الفترة فى الأندلس ويتمثل فى الثورة العارمة ضد المرابطين التى اجتاحت مدن الأندلس من غربها إلى شرقها، كما أوضحت دوافع الثورة القرطبية أولى الثورات المحتدمة فى الأندلس ضد الوجود المرابطى، مبيناً أسباب الحكم المرابطى التى لم تكن تتسم بكثير من الرفق والكياسة، وعجز المرابطين عن مواجهة أخطار المد المسيحى الشمالى الذى تمثله حملة ألفونسو الأول المحارب على بلنسية والأندلس، وهى الحملة التى أظهرت مدى عجز المرابطين عن حماية قواعد الأندلس، ثم الحملات الأرغونية التى تبعتها مبيناً موقف المرابطين منها، واستجابتهم لمطلب محمد بن يوسف يدر والى شرق الأندلس فى توجيه يحيى بن غانيه إليه لمعاونته لما يتميز به من شهرة حربية فائقة فى

غرب الأندلس آنذاك، ومبرزاً الدور الذى لعبه ابن غانية فى أحداث شرق الأندلس وغيرها، وفى انتصار المرابطين فى يوم إفراغه، وهو الانتصار الذى أدى إلى إرغام راميرو الراهب ملك أرغون على عقد هدنة مع ابن غانية لمدة عامين، كما أدى إلى استرداد المرابطين لمدينة مكننسة وإحكام الحصار حول أريليبه. ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن الثورة العامة ضد المرابطين فى بلنسيه ومرسيه وانهيار سلطانهم فيهما، فبدأت الحديث بعرض مقتضب لطبيعة الثورة الأندلسية ضد المرابطين ثم تعرضت للحديث عن ثورة ابن قسى فى غرب الأندلس ودور ابن غانية فى إخمادها، ثم عن ثورة قرطبة بزعامة قاضيها أبى جعفر حمدين بن محمد بن على بن حمدين وانتقال رياحها العاصفة إلى شرق الأندلس حيث هب أهـل بلنسية على المرابطين الذين تخلوا عنها بعد أن فرّ عنهـا واليها أبو محمد عبد الله بن غانية واستيلاء قاضيها مروان بن عبد العزيز على زمام الحكم، مع ذكر تفاصيل الصراع بين الوالى المرابطى وقاضى المدينة، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن ثورة أبى محمد بن الحاج فى مرسيه وما تبع ذلك من أحداث مبرزاً دور سيف الدولة بن هود فيها، واستيلاء قائده عبد الله بن فتوح الثغرى على المدينة، الذى لم يلبث أهل مرسيه، أن خلعوه من ولاياتها، مقدمين عليهم الفقيه أبى جعفر بن عبد الله بن أبى جعفر الخشنى الذى لم يتردد فى الدعوة لابن حمدين صاحب قرطبة، وأوضحت الدور الذى لعبه الخشنى فى إنجاد مروان بن عبد العزيز فى شاطبة وابن أضحى فى غرناطة، ثم تكلمت عن ولاية أبى عبد الرحمن بن طاهر على مرسيه نائباً عن سيف الدولة بن هود، ثم لنفسه بعده، ثم إقدام أهل مرسيه على خلع ابن طاهر ومبايعتهم لمحمد بن عبد الرحمن بن عياض نائباً عن سيف الدولة ابن هود، وانتقلت بعد ذلك إلى ذكر أحداث بلنسيه وتتناول خلع واليها مروان بن عبد العزيز وتولية ابن عياض باسم سيف الدولة مع التعريف به وبدوره فى شرق الأندلس، ثم موقعة البسيط التى دارت بين القشتاليين وقوات شرق الأندلس بقيادة سيف الدولة وابن عياض مع ذكر الأسباب والنتائج وأهمها مصرع ابن هود وانفراد ابن عياض بالسلطة مستقلا بمدينتى بلنسيه ومرسيه، وفى ختام هذا الفصل تعرضت لذكر الأحداث المتلاحقة فى المنطقة، من انتزاء عبد الله الثغرى بحكم مرسيه مرة ثانية ثم استعادة ابن عياض لإمارته فيها ثم مبايعة أهل مرسيه وبلنسيه لمحمد بن سعد بن مردنيش نائب ابن عياض الذى كان قد توفى آنذاك مبيناً الاستقرار النسبى لهذه المنطقة طوال خمس وعشرين عاماً حكمها ابن مردنيش.

أما الفصل الثانى، فخصصته لدراسة موقف الموحدين من ابن مردنيش، فعرفت بشخصية محمد بن سعد بن مردنيش، ثم عرضت لعلاقاته الودية مع الممالك

المسيحية، ثم تحدثت عن نائبه إبراهيم بن همشك وانتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن استيلاء النصارى على ثغر المريه وعلى طرطوشة ولارده وإفراغه موضحاً موقف ابن مردنيش من هذه الأحداث، ثم تحدثت عن موقف الموحدين من انتزاء ابن مردنيش في بلنسية ومرسيه موضحاً الأسباب الحقيقية فى موقفهم السلبى من حركته وأهمها يرجع إلى الثورات التى احتدمت ضد الموحدين فى أرض المغرب كثورة الماسى، وثورات قبيلتى برغواطة ودكالة وحركة ابن تمركيد، ومؤامرات أخوى المهدى بن تومرت وانبعث ذلك بالحديث عن الثورتين اللتين واجههما ابن مردنيش وكادتا تطيحان بدولته وأعنى بهما ثورة ابن هلال فى بنشكلة، وثورة ابن شلبان فى بلنسيه ثم تابعت الحديث عن ابن مردنيش فأشرت إلى حملاته التى انتهت باستيلائه على بسطة ووادى آش، كما تعرضت فى نفس الوقت إلى ذكر موقف الموحدين من تحركاته، ونجاحهم فى استرداد ثغر المريه وبياسة وأبده ثم عاودت من جديد الحديث عنه فذكرت افتتاحه لمدينة جيان وغاراته المتكررة على مدينة قرطبة ودور قوات شرق الأندلس بقيادة ابن همشك فى مناوأة الموحدين أمام قرمونة وغرناطة وتناوب الفريقين السيطرة على هاتين المدينتين، ثم عالجت بعد ذلك أبرز الأحداث التى تلت ذلك من هزيمة ابن مردنيش فى موقعة فحص الجلاب، وتوحيد ابن همشك وإقدام الموحدين على انتزاع أندوجر وغيرها من سيطرة ابن مردنيش، واختتمت هذا الفصل بالحديث عن حملة الموحدين على مرسيه وبلنسيه وهى الحملة التى انتهت بسيطرتهم عليهما ودخول منطقة شرق الأندلس بأكملها فى طاعتهم.

أما **الفصل الثالث** ويتعلق بموقف الموحدين من بنى غانيه أصحاب الجزائر الشرقية (البليار)، فقد بدأته بالحديث عن محمد بن على المسوفى المعروف بابن غانيه الوالى المرابطى للجزائر الشرقية وعن ظروف توليته لها والآراء التى قيلت فيه، وعن موقفه من انهيار دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين فى المغرب والأندلس، وعن ارتباطه برابطة الولاء للمرابطين، وهى رابطة تمثلت فى استقلاله بجزر البليار وتمسكه بإعلان الخطبة لأمير المسلمين المرابطى ولبنى العباس، هذا بالإضافة إلى تلقيه لمن كان يلجأ إلى أكنافه من فلول المرابطين بالجزائر وإحاطته لهم بحمايته ورعايته موضحاً أن قيام دولة ابن مردنيش فى شرق الأندلس طوال خمس وعشرين عاماً كانت عامل اطمئنان واستقرار لابن غانيه، إذ كانت دولته بمثابة دولة حاجزة بينه وبين الموحدين، ثم تحدثت عن خلفه إسحاق بن محمد بن غانيه مبيناً ازدهار أحوال الجزائر الداخلية فى عهده وتفوق قوته البحرية غرب البحر المتوسط الأمر الذى دعا جمهوريات جنوة وبيزه والبندقية إلى السعى إلى تجديد المعاهدات أو الارتباط معه بمعاهدات جديدة، كذلك

قمت بتوضيح موقف إسحاق بن غانيه من الموحدين خاصة بعد أن استكملوا سيطرتهم على منطقة شرق الأندلس مشيراً إلى أنه عمل على موادعتهم ومسالمتهم بعد أن استقرت لهم السيادة الفعلية فى شرق الأندلس، ثم تحدثت عن استشهاده فى إحدى المعارك التى خاضها مع النصارى واستخلاف ابنه محمد بن إسحاق الذى تسجل ولايته الاعتراف بسيادة الموحدين، فتحدثت عن سفارة أبى الحسن على بن الربرتير مبعوث الموحدين إليه بهدف الدخول فى طاعتهم وبينت استجابة محمد بن إسحاق لطلبهم رغم معارضة إخوته وأكابر أصحابه الأمر الذى أدى إلى قيامهم بالثورة عليه وإقدامهم على اعتقاله واعتقال المبعوث الموحدى بعد أن قدموا للإمارة أخاهم علياً الذى لم يتردد فى إعلان رفضه طاعة الموحدين بل إنه انتهز فرصة استشهاد الخليفة أبى يعقوب يوسف فى شنترين وعمل على انتزاع بجاية من أيدى الموحدين، ثم انتقلت مرة أخرى إلى الحديث عن أحداث ميورقه وتغلب المبعوث الموحدى ابن الربرتير على قصبة ميورقه واستعادة محمد بن إسحاق بن غانيه حكمه عليها وبذلك عاد نفوذ الموحدين مؤقتاً إلى الجزائر الشرقية، على أن هذا النفوذ لم يدم طويلا إذ استطاع عبد الله بن غانية أن يعود من أفريقية وتمكن بمساعدة وليام الثانى صاحب صقلية من استرداد الجزائر الشرقية وطرد أخاه منها وأعادها مرة ثانية إلى حظيرة بنى غانية وقد أوضحت بهذه المناسبة كيف أن إخفاق الموحدين الاستيلاء على ميورقة أدى إلى تركيز همهم للسيطرة على جزيرتى يابسة ومنورقة، ثم تحدثت عن ميورقة فى ظل إمارة عبد الله بن غانية، وقد اختتمت هذا الفصل بالحديث عن سيطرة الموحدين على ميورقة وكان لزاماً علىّ لاستيفاء هذا الموضوع أن أعرض الصراع العنيف بين علىّ بن إسحاق بن غانيه ثم خلفه يحيى بن إسحاق وبين الموحدين فى أفريقية وذلك قبل أن انتقل إلى ذكر أحداث ميورقة التى انتهت بخضوع الجزر بأكملها للسيطرة الموحدية ونهاية دولة بنى غانية فى جزر البليار.

أمـا فى الفصل الرابع فقد خصصته لدراسة فترة السيطرة الموحدية على شرق الأندلس، ومهدت له بالإشارة إلى إذعان أبى القمر هلال بن سعد بن مردنيش بالطاعة للموحدين وتنازله لهم عن أملاكه عقب وفاة والده، ثم بدأت دراستى بالحديث عن حملة وبذه واشتراك قوات شرق الأندلس فيها مفصلا خط سير الحملة وهجومها الأول على أعمال وبذه ثم مواجهتها للقوات القشتالية مشيراً إلى أن جيش الموحدين فى هذه المعركة عاد إلى قواعده عبر أراضى شرق الأندلس، ثم تحدثت عن أسرة محمد بن سعد بن مردنيش فى خدمة الموحدين، وأصهار الخليفة أبو يعقوب منهم بزواجه من الزرقاء بنت محمد بن سعد بن مردنيش، ثم عن اختيار هلال بن محمد

بن سعد بن مردنيش المستشار المفضل بمجلس الخليفة العالى واشتراك أخيه غانم مع القوات الموحدية فى بعض الحملات، ثم انتقلت إلى الحديث عن اشتراك قوات بلنسيه ومرسيه مع الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف فى حملة شنترين فتحدثت عن والى بلنسية أبى الحجاج يوسف بن مردنيش وعن السيد أبى يوسف بن عبد المؤمن والى مرسيه وعن أحداث الأندلس قبل غزوة شنترين والاستعدادات الموحدية لهذه الغزوة، ثم تكلمت عن غزو والى مرسيه الموحدى السيد أبو حفص عمر الملقب بالرشيد وسيرته فى شعب مرسيه إلى أن لقى مصرعه، ثم تعرضت بوجه عام إلى ذكر موقعة الأرك بواعثها وظروفها وانتصار الموحدين فيها، وعقد الهدنة مع قشتالة لمدة عشر سنوات، مشيراً إلى الهجوم القشتالى على شرق الأندلس، وانتقلت إلى الحديث عن هزيمة الموحدين فى وقعة العقاب مع تفصيل أحداثها وذكر أهم نتائجها بالنسبة لمصير الأندلس عامة وشرق الأندلس بوجه خاص، ثم تعرضت للحديث عن شرق الأندلس فى أعقاب هذه الهزيمة وموقف أبى محمد عبد الله بن المنصور والى مرسيه من الخلافة وإعلان نفسه خليفة وتلقبه بالعادل مع ذكر العقبات التى صادفته إلى أن تولى الخلافة فى مراكش، ثم انتقلت إلى الحديث عن المأمون أخ العادل الذى تلقب بالخلافة ومدى تأثير هذه الأحداث على منطقة شرق الأندلس حتى ظهور محمد بن يوسف بن هود الذى غير مصير هذه المنطقة تماماً.

أما الفصل الخامس والأخير من الباب الأول فقد أفردته للحديث عن تفكك الأندلس فى آخر عصر الموحدين وسقوط قواعده، فبينت أثر ثورة العادل فى مرسيه وخروجه على الخليفة أبى محمد عبد الواحد وتلقبه بالخلافة فى إحياء النزعة القومية فى نفوس أهل شرق الأندلس الأمر الذى أدى إلى قيام محمد بن يوسف بن هود بالثورة فى هذه المنطقة وتمكنه من السيطرة على مرسيه وإيقاعه الهزيمة بواليها الموحدى أبى العباس بن أبى موسى بن عبد المؤمن، وأبرزت دور السيد أبو العلا والى أشبيلية من ثورة ابن هود وما اتخذه من اجراءات فى هذا الشأن لولا عدوله المفاجئ عن متابعة هذه المواجهة ومحاصرة مرسيه بعد أن قر عزمه فجأة العودة إلى أشبيلية، وأبرزت أثر ذلك فى امتداد سيطرة ابن هود على قواعد الأندلس الوسطى والجنوبية، كما أوضحت صدى ثورة ابن هود فى بلنسيه وموقفه من انتزاء أبى جميل زيان ببلنسيه، وأوضحت أن هذه المنازعات أتاحت الفرصة لألفونسو التاسع ملك ليون أن يحقق مشاريعه ويستولى على مدينة لارده بعد أن أخفق ابن هود عن إنجاد أهلها، ثم انتقلت إلى الحديث عن السيد أبى زيد والى بلنسية وتعاونه مع الأرغونيين وتحوله إلى النصرانية، وكان لزاماً علىّ مادمت بصدد الحديث عن ابن هود أن أشير إلى علاقته

بالخلافة العباسية واعترافه بسلطتها الروحية وتلقيه من الخليفة العباسى الراية والتقليد، ثم تحدثت عن المد الأرغونى على حساب أراضى الاسلام مشيراً إلى استيلاء جايمى الأول على ميورقه عام ٦٢٧هـ وكيف أن الوضع الاسلامى كان يحتم ظهور قائد يجمع شمل المسلمين ويعيد توحيد صفوفهم ولم شعثهم وأن هذا الزعيم قدر له أن يظهر متمثلا فى شخصية محمد بن الأحمر المنافس الأول لابن هود والذى قدر له أن يؤسس مملكة بنى الأحمر التى عاشت تصارع المسيحية فى أسبانيا طوال قرنين ونصف من الزمان، ثم تحدثت عن الدفع القشتالى وكيف انتهى بسقوط قرطبة ثم تعرضت لذكر الظروف السيئة التى لقى فيها ابن هود مصرعه بالمريه وتولية ابنه الواثق حكم شرق الأندلس، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن سقوط قواعد شرق الأندلس فى أيدى النصارى فعرضت مقدمات سقوط بلنسية على أيدى جايمى الأول ممثلة فى معركة أنيشة التى كانت كارثة على المسلمين، ثم تحدثت عن خلفاء المتوكل ابن هود على مرسيه، وانتزاء أبى بكر عزيز بن خطاب فيها، ثم إسناد أهل مرسيه ولايتها إلى زيان بن مردنيش، مفصلا الأحداث التى وقعت فى هذه الفترة حتى سقوط المدينة نهائياً فى أيدى النصارى، ثم اختتمت هذا الفصل بالإشارة إلى سقوط جزيرة منورقة فى أيدى النصارى وانتهاء الوجود الاسلامى نهائياً فى منطقة شرق الأندلس.

أما الباب الثانى ويتضمن أربعة فصول فقد أفردته لدراسة بعض مظاهر الحضارة فى شرق الأندلس، وأول هذه الفصول يتعلق بالحياة الإجتماعية، وذلك لعرض صورة المجتمع فى هذه المنطقة وهى صورة أساسية لتسجيل أحد الجوانب الرئيسية للحضارة فى شرق الأندلس، فتحدثت عن طبقات المجتمع المدنى وانتقلت إلى دراسة بعض المظاهر الاجتماعية كالزى والأطعمة والأشربة وفن الموسيقى والغناء ، كما تناولت بالدراسة الاحتفالات والأعياد. ففيما يتعلق بطبقات مجتمع شرق الأندلس كان طبيعياً أن أتعرض للحديث عن الفئات المختلفة وبمعنى أصح الطوائف التى كانت تشكل المجتمع وتتفاعل فيه وتتواصل وأعنى بها العناصر المؤلفة للسكان ومنهم العرب والبربر وبعض العناصر التى تنتمى إلى أصول صقلبية وأسبانية وهم المولدون وأخيراً العجم أو المستعربون. وفيما يتعلق بالأزياء فقد ميزت بين أزياء العامة وأزياء الخاصة فى فصلى الصيف والشتاء، موضحاً الأثر العراقى الذى رسخ فى الأندلس منذ عصر الإمارة الأموية فى فن الأزياء، متناولا بالدراسة الأنواع المختلفة لملابس الرجال والنساء والتعريف بكل نوع منها. أما الأطعمة والأشربة فقد صنفت الأنواع المعروفة منها فى هذا العصر على قدر الإمكان ومعظمها مغربية وإن كان بعضها ما يزال يحتفظ بالتقليد

الشرقى الذى بثه زرياب فى الأندلس.

وعندما تطرقت إلى فن الغناء والموسيقى رأيت من الأنسب أن أمهد له بدراسة عامة عن هذا الفن منذ عصر الدولة الأموية مبيناً تأثير زرياب في رسوخ التأثيرات الفارسية فى هذا المجال فى أرض الأندلس وتمازجها مع الفنون المحلية والمغربية ثم تطورها بعد ذلك تطوراً أكسبها أصالة تتجلى بوضوح فيما وصلنا عن أخبار هذا الفن فى المصنفات العربية، وأوضحت ازدهار هذا الفن فى شرق الأندلس منذ عصر ابن مردنيش معدداً أسماء الآلات الموسيقية المعروفة آنذاك. ثم اختتمت هذا الفصل بدراسة الاحتفالات والأعياد فى شرق الأندلس ومظاهر ذلك وأهم هذه الأعياد عيدى الفطر والأضحى والاحتفال بليلة القدر وعيدى النيروز والمهرجان مع بيان أصل هذين العيدين ومظاهر الاحتفال بهما.

وعالجت الجانب الاقتصادى وهو في اعتبارى أهم مقومات الحضارة على الإطلاق فى الفصل الثانى فقدمت دراسة تفصيلية تتضمن الحرف الثلاثة التى يعتمد عليها الانتاج البشرى بوجه عام وعليها تتوقف النظم الاقتصادية دعامة الحياة الإنسانية والعمران المدنى وأعنى بها الزراعة فى المجال الأول، ثم الصناعة القائمة على الزراعة وعلى استثمار الخامات المعدنية المتوافرة فى شرق الأندلس وأخيراً التجارة سواء الداخلية أو الخارجية والبحرية أو النهرية وما يتعلق بذلك بالضرورة من دراسة الأسواق والسلع والعملات. أما الزراعة وهى حرفة ازدهرت فى شرق الأندلس بوجه خاص لسهولة أرضه وخصب تربته ووفرة مياهه ودفء مناخه وهى المقومات الأساسية لهذه الصنعة فقد أوليتها جانباً رئيسياً من اهتمامى. ومهدت دراستى بعرض أوضحت فيه مدى اهتمام علماء الأندلس بصنعة الفلاحة معرفاً بأهم المصنفات التى وضعت فى هذا المجال فى العصر موضوع الدراسة.

ثم تحدثت عن العوامل التى ساعدت على تقدم الانتاج الزراعى فى المنطقة، وانتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن أهم المحاصيل الزراعية فى إقليم شرق الأندلس كالزيتون والكروم والبرتقال وما إلى ذلك ثم تحدثت عن نظم الرى فى الإقليم والمواسم الزراعية مشيراً إلى محكمة الماء التى انفردت بها المنطقة كإرث عن مسلمى شرق الأندلس.

وفى مجال الصناعة فقد بدأت بدراسة أهم الصناعات القائمة على الانتاج الزراعى ومنها صناعة السفن واستخراج الدقيق واستخراج الزيوت وصناعة الورق، ثم تحدثت عن الصناعات القائمة على الطبيعة الجغرافية والمواد الخام كالخزف بوجه خاص ولأهمية هذه الصناعة في منطقة شرق الأندلس، قدمت تصنيفاً لمجموعات

صناعات الخزف مع عرض نماذج لكل مجموعة، ثم تحدثت عن مراكز صناعة الخزف فى شرق الأندلس وأهمها بطرنة ومنيشه والجزائر الشرقية، ثم تحدثت عن صناعة النسيج والبسط الصوفية والوطاء وصناعة آلات الصفر والحديد وصناعة الحصر المستخرجة من نبات الحلفاء وصناعة الزجاج.

ثم عالجت الجانب الثالث من جوانب النشاط الاقتصادى وهو التجارة التى ترتبط بالانتاجين الزراعى والصناعى ارتباطاً وثيقاً، وبدأت الحديث عن طرق التجارة الداخلية والخارجية سواء البرية أو النهرية أو البحرية، ثم انتقلت إلى الحديث عن حركة الصادر والوارد وتشتمل على التجارة الداخلية والخارجية وأهم السلع الواردة أو الصادرة.

ثم انتقلت إلى دراسة التنظيمات الاقتصادية، فتحدثت عن الأسواق والقيساريات والفنادق فى مدن شرق الأندلس، ثم تحدثت عن العملة لما لها من أهمية فى التبادل التجارى، فقدمت لها بدراسة موجزة عن تطور العملة فى الأندلس حتى عصر الموحدين مع ذكر نماذج لعملات شرق الأندلس فى عصر ابن مردنيش وعصر الموحدين وعصر ما بعد الموحدين، وأخيراً تحدثت عن أنواع المكاييل والموازين المستخدمة فى هذا العصر وأوجه استخدامها.

وأفردت الفصل الثالث للحياة العلمية، وفيه تعرضت للحديث عن الموقف الإيجابى الذى وقفه الموحدون من الحركة الفكرية ودعمهم للحياة العلمية فى مختلف حواضر الخلافة الموحدية، ومن هذا المنطلق تناولت بالدراسة جانبين رئيسيين من العلوم، الأول العلوم الدينية التى تخدم مباشرة القرآن الكريم والحديث الشريف مصدرا التشريع الاسلامى، وتشمل علم القراءات والتفسير وعلوم الحديث والفقه، وفى مجال هذا الجانب من العلوم أوضحت الازدهار الكبير الذى أصابته شرق الأندلس مدللا على ذلك بأسماء كثير من العلماء الذين برزوا فى كل فرع منها مع ذكر أهم مصنفاتهم فيها. أما القسم الثانى فأعنى به العلوم اللغوية وآدابها، وهى علوم خضعت فى تطورها لطبيعة منطقة شرق الأندلس وتأثرت بالظروف السياسية والاجتماعية وتطور الأوضاع الحضارية فى المنطقة المذكورة وصلاتها مع بقية الأندلس من جهة والعالم الاسلامى من جهة ثانية، وقد أوضحت فى هذه الدراسة أن المشرق الاسلامى كان المصدر الرئيسى لهذه العلوم الأدبية منه استمدت صورها ومنه اقتبست قوالبها المعبرة مؤكداً أن بيئة شرق الأندلس أثرت بدورها وبشكل واضح على ما وصل إلينا من الانتاج الأدبى لهذا العصر، وقد تعرضت للحديث عن أغراض الشعر التى تناولها شعراء هذه المنطقة مع ذكر نماذج من أشعارهم، كما تحدثت عن الموشحات والأزجال وأتيت

ببعض الأمثلة لكل منهما ثم عن النثر الفنى وتطوره منذ عصر الخلافة حتى العصر موضوع الدراسة مع الإشارة إلى صوره المتعددة من رسائل ديوانية وإخوانيات ومفاخرات معرفًا بأبرز من برع من كتاب النثر الفنى فى شرق الأندلس وعلى الأخص شخصيتين برزتا فى هذا الفن هما : أبو المطرف بن عميرة، وعبد الله بن الآبار، ثم تعرضت لدراسة علوم اللغة ثم علمى التاريخ والجغرافيا وبعض العلوم العقلية كالطب والرياضيات والهندسة وهى علوم تألقت فى سماء شرق الأندلس مشيراً إلى من برز فى هذه العلوم من علماء المنطقة وأهم مصنفاتهم.

أما الفصل الرابع والأخير من الباب الثانى فقد خصصته لدراسة العمران المدنى وأهم آثاره الباقية فى شرق الأندلس، وبدأت دراستى بالحديث عن التوسع العمرانى فى الإقليم ويشمل ذلك مدينتا مرسيه وهى مستحدثه وبلنسيه القاعدة الهامة فى إقليم شرق الأندلس، كما تعرضت فى هذه الدراسة لذكر النطاق العمرانى فى المدينتين وأعنى به الأسوار وما ينفتح فيها من أبواب وما يدخل فى نطاقها من منشآت دينية ومدنية وما يقع خارجها من أرباض ومتنزهات. ثم انتقلت إلى دراسة الآثار الباقية فقسمتها قسمين، الآثار المدنية من حمامات وقصور وشواهد قبور وصهاريج مياه وقناطر وقد قمت بدراستها تاريخياً وأثرياً، ثم الآثار الحربية وتتعلق بدراسة ما تبقى من أسوار وقلاع ومن بينها حصن Olocau، والزيادات الموحدية فى قلعة شاطبة، وآثار برج بوفيا، وبقايا برج موسى، وآثار برج ترياس.

وانتهيت من دراستى عن شرق الأندلس بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التى توصلت إليها على مدى الرسالة.

ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان والعرفان بالجميل لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم الذى لا أجد الكلمات المناسبة التى أعبر بها لسيادته عن شكرى وامتنانى وعظيم تقديرى فقد كان هذا الكتاب فى أصله رسالة تقدمت بها للحصول على درجة الدكتوراة من جامعة الإسكندرية تحت إشراف سيادته، لقيت خلال إعدادها من سيادته كل رعاية وحسن توجيه، فقد أفسح لى صدره للسؤال والاسترشاد وحسن الاستفادة طوال فترة إشرافه على رسالتى، وفتح لى مكتبته العامرة، ولم يبخل علىّ بأكثر الكتب ندرة وأعظمها فائدة، وكثيراً ما قام سيادته بالاتصال بالجهات العلمية الأسبانية لتسهيل مهمتى فى جمع المادة العلمية وإعداد بحثى، هذا كله فضلا عن الرعاية الاجتماعية والمادية والأدبية التى حبانى بها أثناء إقامتى بأسبانيا، ولهذا فلست مبالغًا فى القول بأن كلماتى تعجز عن التعبير لسيادته عن شكرى وعظيم تقديرى، حفظه الله وأدامه ذخراً للعلم وأهله.

هذا ولا يفوتنى أن أقدم شكرى وتقديرى أيضاً للسيد الأستاذ فرانشيسكو أوتراى مدير المعهد الأسبانى العربى للثقافة بمدريد الذى قدم لى مشكوراً منحة دراسية لمدة ثلاث سنوات مكنتنى من السفر إلى أسبانيا لجمع المادة العلمية المتعلقة ببحثى وزيارة المعالم الآثرية بشرق الأندلس، وتفضل بتذليل بعض الصعاب التى واجهتنى هناك وأولانى من رعايته وعنايته الشيء الكثير، فجزاه الله عنى خير الجزاء.

ثانياً ـ عرض لأهم مصادر البحث:

اعتمدت فى بحثى على عدد من المصادر العربية المتخصصة فى التاريخ والجغرافيا والأدب والتراجم والحسبة، بعضها معاصر للأحداث، وبعضها الآخر متأخر عن العصر موضوع الدراسة، ولكنها تتضمن نقولاً عن مصادر معاصرة لأحداث الفترة التى أعالجها ولم تصل إلينا، وهنا تكمن القيمة العلمية الحقيقية لهذه المصادر. كذلك اعتمدت على عدد كبير من المراجع الحديثة المتخصصة بعضها مصنفات عربية أو معربة لباحثين محدثين تعمقوا فى دراسة تاريخ الأندلس ببحوثهم العديدة أمثال الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابيه «عصر الطوائف» و«تاريخ الأندلس فى عصر دولتى المرابطين والموحدين» والدكتور أحمد مختار العبادى فى كتابه «دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس»، والدكتور السيد عبد العزيز سالم فى كتابه «المغرب الكبير وقرطبة حاضرة الخلافة والمرية قاعدة أسطول الأندلس»، ومعظم المراجع الحديثة لمصنفين أسبان ومستعربين أثروا المكتبة العربية الأندلسية ببحوثهم القيمة التى أسهمت فى تفسير كثير من القضايا التاريخية الغامضة أمثال كوديرا فى بحثه «انهيار دولة المرابطين وسقوطها» وأويثى ميراندا فى بحوثه العديدة عن المرابطين والموحدين وجسبار ريميرو فى دراسته عن مرسيه الاسلامية وليفى بروفنسال فى بحوثه المجموعة بكتاب «الاسلام فى المغرب والأندلس»، وفيما يلى عرض لأهم مصادر الرسالة:

أولا ـ المصادر التاريخية:

١ ـ ابن عذارى المراكشى، (ت : فى أواخر القرن السابع الهجرى)

«البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب»

يعتبر بحق أهم مصادر تاريخ المغرب والأندلس فى العصر الاسلامى وحتى الفترة التى تسبق نهاية دولة الموحدين عرض فيه هذا التاريخ منذ الفتح الاسلامى حتى ما بعد منتصف القرن السابع الهجرى سنة ٦٦٤هـ، إذ اعتمد فيه على مصادر مغربية وأندلسية ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الهجريين، أشار إليهما ابن عذارى فى مؤلفه ونخص بالذكر منها البكرى وابن الرقيق والقضاعى وابن شرف وابن صاحب

الصلاة وغيرهم [١].

وقد اعتمدت في بحثي بوجه عام على القسم الخاص بعصر دولتي المرابطين والموحدين [٢]، ففيما يتعلق بعصر دولة المرابطين أفدت كثيراً من النصوص التي أوردها البيان وتتعلق بتفاصيل حملة ألفونسو الأول الطويلة على بلنسية والأندلس، والحملة الأرغونية على شرق الأندلس، فضلا عما تضمنه من أخبار عن يحيى بن غانية ودوره في استرداد مدينة مكننسة، وما أورده من أخبار عن معركة الرينسول أو أرينسول، كما أفدت من نصوصه المتعلقة بعصر الموحدين في تتبعي للأخبار المتعلقة باستيلاء الموحدين على مدينتي بياسة وأبده، واستيلاء ابن مردنيش على مدينة جيان ثم استيلاء ابن غانية على بجاية وعن الصراع بين بنى غانية والموحدين في أفريقية والأحداث المقترنة باسترداد الموحدين لميورقة، وخضوع محمد بن إسحاق بن غانية للموحدين، وموقف الموحدين من يحيى بن إسحاق بن غانية في أفريقية كما اعتمدت على هذا القسم اعتماداً خاصاً فيما يتعلق بأخبار جزيرة ميورقة قبل خضوعها نهائياً للموحدين، وذكر ولاة الموحدين عليها. كما اعتمدت في الفصل الرابع من القسم الخاص بالتاريخ السياسي على الروايات التي أوردها لمؤرخين معاصرين للأحداث فقدت كتبهم أمثال ابن صاحب الصلاة، لا سيما الروايات التي كان يحتويها السفر الأول والثالث من مصنفه وتتعلق بسيرة هلال بن محمد بن سعد بن مردنيش وأخيه غانم في ظل البلاط الموحدى، وأخبار أبي الحجاج يوسف ابن مردنيش، وغزوة شنترين واستشهاد الخليفة أبو يعقوب، وتمرد والى مرسيه أبي حفص عمر الملقب بالرشيد وسيرته في مدينة مرسيه حتى مصرعه، وكذلك ما تضمنه من أخبار عن موقعة الأرك وموقف الموحدين من الهجمات الأرغونية، وعن موقعة العقاب هذا وقد اعتمدت في الفصل الخامس من هذه الرسالة على ما أورده من أخبار عن ابن هود، وامتداد نفوذه على قواعد الأندلس الوسطى والجنوبية، وعن مصير السيد أبي زيد والى بلنسيه السابق من قبل الموحدين بالإضافة إلى أخبار محمد بن يوسف بن الأحمر والأحداث التي سبقت سقوط مدينة مرسيه في أيدى القشتاليين. والقيمة التاريخية للبيان المغرب تتمثل في تفاصيله الدقيقة للأحداث التاريخية المعاصرة لموضوع الرسالة هي تفاصيل عاصرها ابن عذارى أو اعتمد فيها على مصادر أكثر معاصرة لها، هذه التفاصيل تسلط أضواءً كافية على تلك الفترة المضطربة التي تعرض فيها شرق الأندلس لثورات شعبية وحملات

(١) انظر: السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦، ص١٠١.

(٢) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، القسم الخاص بالمرابطين، بيروت، لبنان، ١٩٦٧، والقسم الثالث تحقيق الأستاذ أويثي ميراندا وآخرون، تطوان، ١٩٦٠.

عسكرية وغزوات متعددة متشابكة ومتداخلة فيما بينها وبفضلها استطعت أن أوضح الصورة الحقيقية لأحداث المنطقة.

٢ ـ ابن الخطيب (لسان الدين)، (ت : ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م):

يعتبر ابن الخطب آخر كاتب عظيم أنجبته الأندلس[١] ، لكثرة مصنفاته التاريخية والأدبية وأهم هذه المصنفات التى اعتمدت عليها فى دراستى ما يلى:

ـ كتاب «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام» [٢] :

كتاب هام فى تاريخ المغرب والأندلس وإن كانت تغلبه السرد العام دون التفاصيل وهو لهذا لا يرقى إلى مستوى كتاب البيان. وقد اعتمدت فى بحثى على القسم الأندلسى من هذا الكتاب لارتباطه الوثيق بدراستى موضوع الدراسة، ويتضمن روايات هامة تتعلق بثورة ابن هلال على ابن مردنيش وانتزائه بينشكله وباستيلاء ابن مردنيش على مدينتى بسطة ووادى آش فضلا عن تفاصيل لها قيمتها وأبعادها التاريخية تتعلق ببعض الشخصيات البارزة فى عصر دولتى المرابطين والموحدين بشرق الأندلس.

ـ كتاب «الإحاطة فى أخبار غرناطة»:

ويقع فى أربع مجلدات [٣]، وهو كتاب تراجم لشخصيات أندلسية لها علاقة بتاريخ غرناطة، وتتضمن هذه التراجم بعض الأخبار المتناثرة هنا وهناك تتعلق بأحداث شرق الأندلس، وقد استطعت أن أستخرج من هذه التراجم حقائق تاريخية هامة أفادتنى كثيراً فى تأريخى لأحداث المنطقة إبان مرحلة الانتقال بين دولتى المرابطين والموحدين،

---

(١) بالنثيا (جونثالث)، تاريخ الفكر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٢٥٩، وراجع أيضاً حول ترجمة ابن الخطيب، المرجع السابق، من ص ٢٥٢ إلى ص ٢٥٧، السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، من ص ١٠٥ إلى ص ١٠٧، أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب العربى الأسبانى، مقال بمجلة عالم الفكر، من ص ٦٥ إلى ص ٦٧ ، محمد بن أبى بكر التطوانى، ابن الخطيب من خلال كتبه، تطوان، ١٩٥٤.

(٢) ابن الخطيب (لسان الدين)، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

(٣) ابن الخطيب (لسان الدين)، الإحاطة فى أخبار غرناطة، أربعة مجلدات، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، القاهرة، المجلد الأول، الطبعة الثانية، ١٩٧٣، المجلد الثانى، ١٩٧٤، المجلد الثالث، ١٩٧٥، المجلد الرابع، ١٩٧٧.

ومنها خبريشير إلى طلب تقدم به والى بلنسيه فى عصر المرابطين محمد بن يوسف يدر إلى الأمير على ابن يوسف ليوجه إليه يحيى بن غانيه ليعاونه فى صد الخطر الأرغونى المتواصل على ثغور بلنسيه يضاف إلى ذلك أن من بين التراجم الهامة التى أوردها المؤلف تراجم لشخصيات وثيقة الصلة بشرق الأندلس مثل ابن مردنيش ونائبه ابن همشك، هذا إلى جانب إشارات واردة فى ثنايا التراجم لها صلة باسترداد الموحدين لثغر المريه، وأهم ما استخرجته من تراجم الإحاطة التأريخ للحركة العلمية فى شرق الأندلس فى عصر الموحدين.

٣ ـ ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجى)، (ت فى أواخر المائة السادسة):

«تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين»، السفر الثانى، تحقيق الأستاذ عبد الهادى التازى، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٤.

هو أندلسى الأصل من بلدة باجة ولذلك نسب إليها، عاش فى المائة السادسة وتوفى فى أواخرها [١]. ولم يصل إلينا من مؤلفاته سوى السفر الثانى من تاريخ المن بالإمامة الذى حققه الدكتور عبد الهادى التازى، كذلك لم يصل إلينا مصنفه الآخر بعنوان: «تاريخ فى ثورة المريدين» الذى أشار إليه ابن صاحب الصلاة فى سياق حديثه عن ثورة محمد بن سعد بن مردنيش فى شرق الأندلس.

ويعتبر كتاب «المن بالإمامة» من أهم مصادر تاريخ دولة الموحدين، فضلا عن كونه مرجعاً لمعظم المؤرخين المتقدمين منهم والمتأخرين الذين اعتمدوا عليه فى نقولهم مثل ابن القطان فى كتابه نظم الجمان، وابن عذارى فى البيان المغرب [٢]، الذى يعتمد فى تأريخه منذ سنة ٥٣٤هـ اعتماداً كاملا على ابن صاحب الصلاة، كما اعتمد عليه ابن الآبار فى كل من كتابيه «الحلة السيراء» و«التكملة»، وابن أبى زرع فى كتابه «روض القرطاس»، وابن الخطيب فى «الإحاطة»، وابن خلدون فى «العبر»، والمقرى فى «نفح الطيب»، وابن سماك العاملى فى «الحلل الموشية»، ولا شك أن لهذه النقول قيمة كبيرة إذا اعتبرنا أن معظم الكتاب مفقود وأنه لم ينشر منه سوى السفر الثانى فقط بينما ضاع سفراه الأول والثالث. ومما يرفع من قيمة كتاب «المن» والنصوص التى نقلت من سفريه المفقودين أن المؤلف كان معاصراً للأحداث

(١) راجع ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٢٦ من مقدمة المحقق والدراسة التى عقدها فى هذا الشأن.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٧، ص ٤٨، من مقدمة المحقق.

الموحدية وأنه عاين مواضعها في معظم الأحوال ولهذا اعتمدنا علينا اعتماداً خاصاً واعتبرناه المصدر الأساسي لتاريخ شرق الأندلس في عصر الموحدين خاصة ما يتعلق بابن مردنيش وأسرته.

٤ ـ عبد الواحد المراكشي، (ت : النصف الثاني من القرن السابع الهجري)
كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» (١)

يعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر التاريخية لعصر الموحدين لأن مؤلفه نشأ في كنف هذه الدولة وعاصر كثيراً من أحداثها، ومن هنا يمكننا أن نثق في كثير مما أورده من روايات، هذا إلى جانب قيمته الأدبية العظمى النابعة من كونه مصدراً تاريخياً وحضارياً عاماً للأندلس (٢).

وقد استعنت بهذا المصدر في كثير من فصول الرسالة واعتمدت عليه بوجه خاص عندما تعرضت للحديث عن الصراع بين ابن مردنيش وبين الموحدين.

٥ ـ ابن القطان (أبو الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي) : (ت: ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م)
جزء من كتاب «نظم الجمان في أخبار الزمان» (٣)

هو قطعة من موسوعة ضخمة في تاريخ المغرب والأندلس وتتضمن هذه القطعة أخبار ثلاث وثلاثين عاماً (من سنة ٥٠٠هـ ـ ٥٣٢هـ) حققها الأستاذ الدكتور محمود علي مكي. وترجع أهمية هذه القطعة إلى أنها تضمنت نقولا من كتب ضاعت نص ابن القطان عليها، نخص بالذكر منها كتاب : «فضائل المهدي لأبي القاسم المؤمن المغربي»، وكتاب لابن الراعي لم يورد عنوانه، وكتاب «المغرب في أخبار محاسن أهل المغرب» لليسع بن عيسى بن حزم بن اليسع الغافقي، و«المقياس في أخبار المغرب والأندلس وفاس» لعبد الملك بن موسى الوراق وغيرها، فضلا عن أن علاقة المؤلف بالخليفة المرتضى واشتغاله في ديوان رسائله مكنته من الاطلاع على

---

(١) عبد الواحد المراكشي، كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب، الطبعة الأولى ، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مصر ، ١٩٤٩.

(٢) انظر : سالم، المرجع السابق، جـ٢، صفحات ١٠٨، ١٠٩؛ أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي الأندلسي، بيروت ١٩٧٢، ص ٥٤٠؛ ليفي بروفنسال ، مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، رباط الفتح، ١٩٤١، ص ١ من مقدمة المحقق.

(٣) ابن القطان (أبو الحسن علي)، نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، الرباط، ١٩٦٤.

بعض الوثائق الرسمية للدولة وهى وثائق نقل بعضها فى مؤلفه[1].

وبالرغم مما اتسمت به كتابة ابن القطان من تعصب ظاهر لدولة الموحدين ومهاجمته خصومها بشدة، إلا أن الكتاب يضم تفاصيل موسعة لكثير من أحداث الأندلس والمغرب مرتبة على السنين استفدت منها كثيراً فى دراستى للتمهيد التاريخى والتأريخ السياسى لمنطقة شرق الأندلس.

٦ ـ كتاب الحلل الموشيه فى ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف مجهول [2] (القرن الثامن الهجرى):

تم تصنيف هذا الكتاب فى ١٢ ربيع الأول ٧٨٣هـ/١٣٨١م فى عهد كل من السلطانين، محمد الخامس ـ الغنى بالله ـ ملك غرناطة، وأبى زيد ابن عبد الرحمن بن أبى الحسن المرينى ملك المغرب.

أما عن مؤلف هذا الكتاب فقد اختلف فى ذكر اسمه ويمكننا أن نرتب فيما يلى المراحل التى انتهت إلى التوصل لمعرفة اسمه الحقيقى:

١ ـ نسب هذا الكتاب خطأ إلى ابن الخطيب عندما نشر فى تونس لأول مرة فى سنة ١٣٢٩هـ/١٩١٠م.

٢ ـ اتفق بعض المؤرخين المغاربة المحدثين على نسبته إلى أديب مالقى اسمه عبد الله بن أبى المعالى ابن السماك العاملى، كان ما يزال حياً فى أواخر القرن الثامن الهجرى [3].

٣ ـ رجحت الدكتورة ماريا خيسوس روبييرا فى بحث نشرته بالفرنسية بعنوان «حول مؤلف محتمل لمدونة الحلل الموشية» رجحت فيه نسبة هذا الكتاب إلى نفس كاتب «الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة» وهو محمد بن أبى المعالى بن السماك المالقى [4].

---

(١) راجع ابن القطان، نفس المصدر، ص ٢، من مقدمة المحقق.

(٢) كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول، والمنسوب خطأ لابن الخطيب، طبعة تونس، ١٩١٠م.

(٣) انظر : مقال الدكتور أحمد مختار العبادى، دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية، مجلة تطوان، العدد الخامس، ١٩٦٠، ص ١٣٩، وانظر أيضاً ما أورده نفس المؤلف من ثبت بهؤلاء المؤلفين المغاربة بنفس المرجع وانظر له أيضاً : فى التاريخ العباسى والأندلسى، ص ٥٥٦.

(4) Maria Jesus Rubiera: Sur un possible auteur de la chronique intitulée Al-Hulal al - mawsiyya fi dikir al- ajbar al - marrakusiyya, en II coloquio Hispano - Tunecino de estudios Arabes (Madrid - Barcelona), Mayo, 1972, 143-146.

٤ ـ أخيراً قدم الأستاذ الدكتور محمود على مكى دراسة تحليلية دقيقة وقيمة قدم بها لكتاب «الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة» عالج فيها الحجج التى ساقتها الدكتورة ماريا خيسوس مع دراسة مقارنة لكتابى «الزهرات» وكتاب «الحلل»، رجح فيها الدكتور مكى أن الكتابين يمكن أن ينسبا لمؤلف واحد وهو محمد بن أبى العلاء محمد بن سماك العاملى [١].

وأيًا ما كان الأمر فإن كتاب «الحلل الموشية» بما يتضمنه من تفصيلات تاريخية عن عصر دولتى المرابطين والموحدين يعتبر من المصادر التاريخية الهامة للفترة موضوع الدراسة، فهو يتناول تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين والموحدين حتى نهاية خلافة عبد المؤمن بن على بشىء من التفصيل، وقد اعتمد مؤلفه فى تصنيفه على مصادر معاصرة ذكر أسماء أصحابها منهم ابن الصيرفى وابن القطان وغيرهما، كما اعتمد فى عصر الموحدين على رواية أبى بكر الصنهاجى الملقب بالبيذق [٢]. وقد استفدت من هذا المصدر فى دراستى للباب الأول من الرسالة وهو القسم المتعلق بالتاريخ السياسى.

٧ ـ ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن محمد بن أحمد بن عمر)، (ت: فى منتصف القرن السابع الهجرى):

«الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس» [٣]:

مؤلف هذا الكتاب كان كاتبًا للسلطان أبى سعيد عثمان المرينى (٧١٩-٧٣١هـ)، ولعل اشتغاله فى هذا المنصب يسر له توفير المادة التاريخية لمصنفه الذى يعتبر لذلك من أهم مصادر تاريخ المغرب والأندلس وأكثرها ثقة إذ ضمنه المؤلف أخبارًا هامة لتاريخ المغرب الأقصى من سنة ١٤٥هـ إلى سنة ٧٢٦هـ، تتعلق بالدول الخمس التى تتابعت على حكم المغرب فى هذه الفترة، وهى دولة الادارسة ودولة زناتة (المغراويين، اليفرانيين)، ثم دولتى المرابطين والموحدين ثم دولة بنى عبد الحق أو بنى مرين [٤]، ولكن الأخبار التى أوردها المؤلف لتاريخ الحقب السابقة على عصره

---

(١) انظر : محمود علي مكى، الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة لابن سماك العاملى، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، العدد العشرون، ١٩٨٠، ص ٣٥-٤١.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، جـ٢، ص ١١٠.

(٣) ابن أبى زرع (أبو الحسن علي)، الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق كارل يوحن تورنبرغ، أبساله، ١٨٤٣م.

(٤) أحمد مختار العبادى، فى التاريخ العباسى والأندلسى، ص ٥٥٧، ٥٥٨.

يشوبها الخطأ فى كثير من الأحيان [1]. ومع ذلك فإن ما أورده عن أخبار الدولة الموحدية ودولة بنى عبد الحق يدعو للثقة والاطمئنان. وقد أفادنى هذا المصدر فى دراستى لكثير من جوانب التاريخ السياسى وعلى الأخص فى الفصل الرابع.

ثانياً ـ كتب الجغرافيا:

١ ـ العذرى (أحمد بن عمر بن أنس)، (ت: ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م):

«ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك» [2]:

مصدر هام عن جغرافية الأندلس وتاريخها، أولى مؤلفه منطقة شرق الأندلس اهتماماً خاصاً، والقسم المحقق من الكتاب على حد قول محققه لا يتجاوز عشر حجم الكتاب [3]. والكتاب يجمع بين المادة الجغرافية والأخبار التاريخية المتعلقة ببعض المواضع التى يتعرض لها المؤلف، على النحو الذى انتهجه جغرافيو الأندلس الأوائل أمثال الرازى والبكرى.

وقد اعتمدت اعتماداً خاصاً على نصوصه الخاصة بتاريخ مدن شرق الأندلس مثل تدمير وبلنسيه وشاطبه ولورقة إذ تتضمن إلى جانب المادة الجغرافية والتاريخية نصوصاً هامة عن خصائص هذه المدن وما تتميز به من صناعات أو انتاج زراعى أو ما اشتهرت به اقتصادياً على الرغم من أن المؤلف كان يعيش فى القرن الخامس أى قبل أن يتدخل المرابطون عسكرياً فى الأندلس، فإن النصوص التى أوردها أفادتنى كثيراً فى دراستى عن العمران وعن بعض مظاهر الحياة الاقتصادية.

٢ ـ الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك بن إدريس) المعروف بالشريف الإدريسى (ت: ٥٦٤هـ/١١٦٩م)

«صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس»، مأخوذة من كتاب «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» [4]

يعتبر هذا الكتاب أعظم مصدر جغرافى عربى خاصة القسم الخاص بالأندلس

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، جـ٢، ص ١١٥.

(٢) العذرى (أحمد بن عمر بن أنس)، المعروف بالدلائى، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى، مدريد، ١٩٦٥م.

(٣) انظر : نفس المصدر، ص ١ من مقدمة المحقق.

(٤) الإدريسى (الشريف محمد)، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، نشره دى غويه ودوزى ، ليدن، ١٨٦٦م.

والكتاب غنى بمادته الجغرافية والملاحظات الاجتماعية والاقتصادية التى سجلها المؤلف كثمرة لمشاهداته أثناء سفراته ورحلاته عبر مدن الأندلس لا سيما ما يتعلق بمدن شرق الأندلس، وفيها يذكر شهرة كل موضع فى الانتاج الصناعى والزراعى وقد يتعرض لذكر أسواقه ومتاجره أو أسواره وقصابه وحماماته وجامعه وكثيراً ما يصف بعض هذه الآثار الأمر الذى يعين الباحث على دراسة التطور العمرانى لمدن المنطقة وإعادة تصور ما كانت عليه فى العصر موضوع الدراسة، وإن كان الإدريسى يسبقه بما يُقرب من نصف قرن، والواقع أن التطور الحضارى لا يساير قط التطور التاريخى لأن الأول بطىء والثانى سريع ولهذا يعول دائماً على المصادر الجغرافية فى تصوير الجانب الحضارى لأن نصوصها خاصة القريبة من العصر الذى نتناوله بالبحث يمكن تطبيقها إلى حد ما على نفس العصر ذلك أن القيم الحضارية ترسخ عادة لقرون عديدة. وهكذا كان نزهة المشتاق عظيم الفائدة لدراستى عن العمران المدنى فى شرق الأندلس.

٣ ـ الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم)، (ت:٨٦٦هـ/١٤٦١م):

«كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار» (١)

وعلى الرغم من أن الحميرى من رجال القرن التاسع الهجرى إلا أن مصنفه يعتبر ركيزة هامة للباحثين فى تاريخ الأندلس وحضارتها فى العصر الاسلامى (٢)، فهو إلى جانب كونه معجماً جغرافياً لمدن الأندلس، يتضمن أخباراً تاريخية هامة لها اتصال مباشر بتاريخ المدن التى أوردها وأهم الأحداث المتعلقة بها، نقلها من مصادر قديمة ضاعت وعيبه أنه لا ينص على هذه المصادر التى نقل منها. وقد اعتمدت على هذا الكتاب فى كثير من موضوعات الرسالة لاسيما ما يتعلق بالمواقع التى دارت فى شرق الأندلس كموقعة فحص الجلاب واستيلاء الموحدين على جزر البليار هذا بالإضافة إلى ما أورده عن الأسباب التى أدت إلى تأسيس مرسيه، وعرضه الرائع لخصائص هذه المدينة وشهرتها فى الصناعات المختلفة وما تتميز به بلنسيه وشاطبه من صناعات فنيه أعانتنى كثيراً فى إعداد القسم الخاص بالصناعات بالرسالة، زد على ذلك أن الكتاب باعتباره معجماً لأسماء مواضع الأندلس يضم أسماء أماكن وحصون وقلاع فى شرق الأندلس ورد ذكرها فى كثير من النصوص التاريخية، ولهذا اعتمدت على كتاب الحميرى فى التعريف بها وذكر تفاصيل عنها.

---

(١) الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم)، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، نشر الأستاذ ليفى بروفنسال، القاهرة، ١٩٣١م.

(٢) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسى، ص ٣١١.

٤ ـ كتاب «جغرافية الأندلس وتاريخه» لمؤلف مجهول [١]:

كالشأن في كتب الجغرافية الأندلسية يشتمل هذا الكتاب على مادة جغرافية وتاريخية في آن واحد، نهج مصنفه في تأليفه نهج الرازى، ففصل المادة الجغرافية عن المادة التاريخية، كما اعتمد في كتابته على نقول من مؤرخين سابقين صرح كثيراً بأسمائهم، مثل أحمد بن أبي الفياض والدلائى (أى العذرى)، وابن القوطية وابن حيان والرازى وغيرهم[٢]، ومن خلال المعلومات التى أوردها يتضح لنا أن المؤلف رجل عارف بما يكتب مطلع على أحوال الأندلس ملم بتاريخه، وقد أفدت كثيراً من كتاباته عن جغرافية شرق الأندلس.

٥ ـ ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله)، (ت: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م):

«معجم البلدان» [٣]:

معجم جغرافي للعالم الاسلامي، يمتاز باتساع مادته وغزارتها ويجمع بين المادة التاريخية والأدبية والجغرافية، وتظهر فيه معرفة مؤلفه الواسعة بالعالم الاسلامي من خلال تجاراته وأسفاره في أنحائه، فلقد زار مصر والشام والعراق وفارس وبلاد العرب وبلاد ما وراء النهر بالإضافة إلى اعتماده على النقل من كتب التاريخ والجغرافية بأمانة، مسنداً كل ما ينقله من مادة جغرافية إلى مصادرها الأصلية [٤]، وقد اعتمدت عليه، خاصة في التمهيد الجغرافي وفي تحقيق بعض المواضع الأندلسية بالإضافة إلى تتبعى للغلات الزراعية في إقليم شرق الأندلس.

ثالثاً ـ كتب التراجم:

١ ـ أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق:

كتاب «أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين» [٥]:

من المصادر الهامة التى تحدثت بتفصيل عن سيرة المهدى بن تومرت مؤسس

---

(١) جغرافية الأندلس وتاريخه، لمؤلف مجهول، نسخة مصورة بالمعهد المصرى للدراسات الإسلامية من المخطوطة المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط.

(٢) انظر: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٦٧م، ص ٥٩٩.

(٣) ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله)، معجم البلدان، الطبعة الأولى، المجلد الخامس، القاهرة، ١٣٢٣هـ.

(٤) انظر: السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧، ص ١٩٦.

(٥) أبى بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق، كتاب أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، باريس، ١٩٢٨.

الدعوة الموحدية وقيام دولة الموحدين في المغرب بل المصدر الوحيد المعاصر لحركة المهدى ودعوته وقيام دولة الموحدين، لا سيما إذا وضعنا في الاعتبار أن البيذق كان يرافق المهدى صاحب الدعوة الموحدية وكان تلميذاً له يأخذ عليه ورفيقاً يصاحبه في رحلاته ويعمل في خدمته، حضر معظم غزوات المهدى ومعركة البحيرة، كما رافق عبد المؤمن في غزوه للمغربين الأقصى والأوسط، وأهمية الكتاب وقيمته تكمن في أن مؤلفه كان شاهد عيان شهد أهم الأحداث وعاصرها ووصفها بدقة وأمانة، كما أنه سجل في كتابته صورة واضحة من المجتمع الذى عاش فيه فكتابه على هذا النحو وثيقة هامة للباحث الاجتماعي الذى يعنى بدراسة الحياة اليومية في المغرب في العصر الذى نتناوله بالدراسة. وقد أفدت من هذا الكتاب في دراستى التمهيدية كما اعتمدت على بعض رواياته في دراستى للباب الأول من الرسالة.

٢ ـ ابن الآبار (محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى)؛ (ت: ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م):

كتاب «الحلة السيراء» (١)

أى الثوب المخطط كناية عما يتضمنه من أدب وشعر وتاريخ (٢)، والكتاب يتناول أخبار المغرب والأندلس منذ الفتح الاسلامى إلى منتصف القرن السابع الهجرى، وهو مقسم إلى قرون مستقلة تبدأ بالقرن الأول الهجرى وينتهى الكتاب إلى المائة السابعة. وقد استفدت مما أورده من روايات عن بعض أمراء شرق الأندلس في دراستى للباب الأول.

ـ كتاب «التكملة لكتاب الصلة» (٣):

وهو تكملة لصلة ابن بشكوال، لا يعدو تراجم لأسماء علماء الأندلس وأمرائها مرتبة حسب حروف الهجاء، وقد استفدت كثيراً من هذا الكتاب في دراستى للباب الحضارى وخاصة في الفصل الذى عقدته لدراسة الحركة العلمية، كما استخرجت من تراجم لعلماء الأندلس مادة طيبة عن أسماء المواضع والحصون والمساجد بقواعد شرق الأندلس.

---

(١) ابن الآبار (محمد بن عبد الله)، كتاب الحلة السيراء، الجزء الثانى، نشر الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣.

(٢) انظر: أحمد مختار العبادى، في التاريخ العباسى والأندلسى، ص ٥٤٥.

(٣) ابن الآبار (محمد بن عبد الله)، كتاب التكملة لكتاب الصلة، جزءان، طبع بعناية كوديره وزيدان، مجريط، ١٨٨٦.

٣ ـ ابن عبد الملك (محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصارى) ، (ت: فى أواخر محرم ٧٠٣هـ) :

ـ كتاب «الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة» :

هو تذييل لكتاب «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضى وكتاب «الصلة» لابن بشكوال، وتتمة لمن جاء بعد ابن بشكوال من أئمة، واستدراك لما فاته وفات ابن الفرضى [١]. والكتاب يضم تراجم لرجال الأندلس ومن رحل إليها من المغاربة والمشارقة حتى أواخر القرن السابع الهجرى مرتبة على حروف المعجم، وكان يقع فى تسعة أجزاء، سبعة منها لأهل الأندلس، واثنان للغرباء الداخلين إليها، وأخيراً يضم الكتاب تراجم للنساء الأندلسيات والمغربيات اللائى زرن الأندلس [٢]. ولقد ضاعت بعض أجزاء هذا الكتاب، وأما الأجزاء الباقية فيقوم على نشرها الأستاذان إحسان عباس ومحمد شريفة وقد ظهر منها حتى الآن:

- السفر الأول ـ القسم الأول والثانى، بتحقيق الدكتور محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت.
- بقية السفر الرابع، بتحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- السفر الخامس، القسم الأول والثانى، بتحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

والكتاب من الموسوعات الهامة التى تهتم بتراجم الرجال استفدت منه كثيراً فى دراستى للحركة العلمية بشرق الأندلس.

رابعاً ـ كتب الرحلات:

١ ـ ابن سعيد المغربى (أبو الحسن على بن موسى):

ـ «المغرب فى حلى المغرب» [٣] :

هذا المؤلف ضاع معظمه ولم يبق منه سوى أجزاء بسيطة تضمنت تراجم لبعض الشخصيات البارزة فى الأندلس وأشهر الشعراء والكتاب حتى نهاية عصر

---

(١) انظر ، ابن عبد الملك، الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ، ص ٢٢ ، ص ٥١ من مقدمة المحقق.

(٢) انظر : أحمد مختار العبادى، المرجع السابق، ص ٥٤٧.

(٣) ابن سعيد المغربى (أبى الحسن علي بن موسى)، المغرب فى حلى المغرب، الجزء الثانى، تحقيق الدكتور شوقى ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣.

الموحدين، أعاننى كثيراً فى دراستى لسير الشخصيات الهامة فى شرق الأندلس، فضلا عما تضمنه من معلومات جغرافية عن قواعد شرق الأندلس على جانب كبير من الأهمية، وقد حفظ لنا المؤرخون المتأخرون أجزاءً كثيرة من هذا الكتاب، أمثال ابن خلدون فى تاريخه، والمقرى فى نفخ الطيب لاسيما فى الجزء الأول منه.

ـ «اختصار القدح المعلى فى التاريخ المحلى» [1]:

ترجم فيه لطائفة مختارة من علماء وأدباء الأندلس الذين قضى جلهم خلال النصف الأول من القرن السابع الهجرى فى صميم الفترة التى أعالجها فى دراستى ولهذا اعتمدت عليه فى دراستى عن الحركة العلمية.

٢ ـ التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد)، (ت:٧١٨هـ):

ـ «رحلة التجانى» [2]:

ينتسب مؤلفه إلى بيت التجانى من أعظم بيوتات تونس، الذين ينحدر أصلهم إلى قبيلة «تجان» المغربية، وأول من وفد منهم إلى تونس هو أبو القاسم التجانى، إذ اشترك فى الجيش الذى سيره عبد المؤمن الموحدى لفتح أفريقية، ثم استقر التاجنيون فى تونس وساهموا بنصيب وافر فى النهضة العلمية التونسية فى عصر الموحدين ثم فى عصر بنى حفص [3].

وقد سجل التجانى فى رحلته التى رافق فيها شيخ الموحدين الأمير أبو يحيى زكريا بن اللحيانى، الذى قربه إليه وصحبه معه عندما عزم على تفقد بلاده استعداداً لمحاربة الأسبان المغتصبين لجزيرة جربه وذلك فى سنة ٧٠٩هـ تلك الرحلة التى استمرت نحو عامين وثمانية أشهر وبضعة أيام، سجل فيها التجانى مشاهداته فى البلاد الأفريقية بأسلوب سلس ودون انطباعاته عن العمران التونسى فى المدن والقرى مع التعريف بأخبارها وذكر النابهين من أبنائها [4].

---

(١) ابن سعيد المغربى (أبى الحسن علي بن موسى)، اختصار القدح المعلى فى التاريخ المحلى، تحقيق الأستاذ إبراهيم الإبيارى، القاهرة، ١٩٥٩.

(٢) التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد)، رحلة التجانى، تقديم الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، ١٩٥٨.

(٣) راجع مقدمة الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب لرحلة التجانى صفحات ٣م-١٩م؛ وانظر أيضاً : السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٢٣.

(٤) راجع: حسن حسنى عبد الوهاب، صفحات ٤١، ٤٢، ٤٣ من المقدمة، وانظر أيضاً : سالم، نفس المرجع ، ص ٢٣٤.

خامساً ـ كتب الأدب:

١ ـ مجموع رسائل موحدية[1]:

عبارة عن مجموعة من الوثائق من إنشاء كتاب الدولة الموحدية، تتكون من سبعة وثلاثين رسالة، ذات قيمة من الناحية التاريخية والأدبية، فأما من الناحية التاريخية فإنها تعرض لنا بياناً مباشراً دقيقاً منظماً لأهم الحوادث التي وقعت في أيام الموحدين من تدابير سياسية وإصلاحات اجتماعية وغزوات وانتصارات حربية، وأما من الناحية الأدبية فإنها تفيد كل من يدرس الأدب الموحدي لما تتضمنه من نماذج شتى عن فن الكتابة الديوانية في هذا العهد، وقد أمكنني أن أستنبط من هذه الرسائل حقائق هامة تتعلق بكثير من حوادث شرق الأندلس وأن أستشهد بما ورد فيها لتأكيد حدوثها.

٢ ـ ابن المرابط (محمد بن علي بن عبد الرحمن المرادي):

كتاب «زواهر الفكر وجواهر الفقر»، مخطوط الأسكوريال رقم ٥٢٠:

ترجع أهمية هذا الكتاب لما احتواه من معلومات تاريخية هامة، فضلاً عما تضمنه من عدد كبير من الرسائل الديوانية والإخوانيات من القرن السابع الهجري على جانب كبير من الأهمية. ويضم المخطوط ١٩٤ لوحة، وأول من أشار إلى محتوياته الغزيري الذي اعتمد على ما جاء في الصفحة الأخيرة من المخطوط [2]، وفيها يرجع تاريخ الفراغ من تأليفه بفاس إلى عام ٧٢١هـ/١٣٢١م، وتابعه في هذا الرأي نيرنبرج [3]، وقام المستشرق الأسباني ملتشور أنطونيا [4] بعمل تحليل موجز ودقيق عن المخطوط مسلطاً الأضواء من جديد على أهميته التاريخية، وعلى الأخص من الناحية الأدبية، كما أعطى بروكلمان [5] موجزاً عن المخطوط مع الاهتمام بتحقيق اسم مؤلفه أو مصنفه وعنوان المخطوط، ومكان وجوده ورقمه في مكتبة

---

(١) مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، اعتنى بإصدارها الأستاذ ليفي بروفنسال، رباط الفتح، ١٩٤١.

(2) Casiri (M); Bibliotheca Arabico-Hispano Escurialensis, t. I, Madrid, 1970, p. 151.

(3) Derenbourg (H); Les manuscrits Arabes de - L'Escorial, T. I, Paris, 1884, pp. 347-348.

(4) Antuna (M); Notas sobre dos Mss escurialensis mal catalogdos, en Al-Andalus, VI, 1941, p. 276.

(5) Brockelmann, Geschichte der Arabischem Litteratur, Supplementhan, II, Leyden, 1937-1949, p. 331.

الأسكوريال، وبين أن المخطوط الحالي لا توجد له نسخة أخرى مسجلة في أي مركز علمي آخر، وأن مخطوط الأسكوريال هو النسخة الوحيدة المعروفة حتى الآن.

وينقسم المخطوط إلى ثلاثة أقسام منفصلة:

القسم الأول : بعنوان «كتاب زواهر الفكر وجواهر الفقر»، مؤلفه أو مصنفه، محمد بن علي بن عبد الرحمن المرادي المشهور بابن المرابط وكنيته أبو العلاء.

القسم الثاني : يتألف من جزئين مبتوري الأول والآخر، عبارة عن قطع شعرية أدبية تشابه أسلوب ابن المرابط، ويعتقد الأستاذ أميليو لويث أن هذه القطع تنتمي إلى كتاب مفقود إلى اليوم أمر بتأليفه سعيد بن حكم صاحب منورقة، وكان يحمل عنوان «كتاب لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتاب»، مجهول المؤلف حتى الآن،وأن مؤلفه كان شخصية قريبة من البلاط المنورقي (١).

القسم الثالث : عبارة عن آخر لوحة من المخطوط، وهي منفصلة، عبارة عن ورقة كتبها المؤلف وخصصها لعالم سبتة عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي، تتعلق بكتاب أبو بكر محمد بن إدريس القيوشي، معنون «كتاب في عروض الذوبتين» وهي ورقة مكتوبة في فاس ليلة الجمعة ١٧ رمضان ٧٢١هـ.

ولقد استفدت من الرسائل الواردة في هذا المخطوط في دراستي للفصل الخامس من الباب الأول وتتضمن أخباراً عن إمارة المتوكل بن هود وعلاقاته بحاكم بلنسيه زيان بن مردنيش، كما ذيلت رسالتي بقطعتين من المخطوط كملاحق.

سادساً ـ الموسوعات:

١ ـ المقري (أبا العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي العيش)، (ت: ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»(٢).

يعتبر هذا الكتاب من المصادر الأساسية في تاريخ الأندلس والمغرب، وتنحصر

---

(1) Emilio Molina lopéz, Murciay el Levante espanol en el Siglo XIII (1224-1226) A traves de la correspondencia oficial personal y diplomatica, Granada, 1978, p. 9.

(٢) المقري (أبا العباس أحمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، عشرة أجزاء، المكتبة التجارية ، القاهرة، ١٩٤٩.

أهميته لما تضمنه من روايات هامة لمؤلفات سابقة ضاع معظمها، وقد أورد مصنفه هذه الروايات فى موسوعته فى غير نظام ولكن فى دقة وضبط حسن [1].

وقد استفدت كثيراً من هذا الكتاب ولا سيما فيما أورده من أخبار عن ولاة الموحدين على ميورقه، ورواية المخزومى فى كتابه المفقود عن كائنة ميورقة، وعن أسباب غزو النصارى لها، ثم ما أورده من أخبار عن ثورة أبى عثمان سعيد بن حكم القرشى بمنورقة وانتزائه بها بعد سقوط جزيرة ميورقة فى يد خايمى الأول، وكذلك فيما أورده من معلومات جغرافية، وتراجم لبعض علماء شرق الأندلس، انتفعت بها فى دراستى للباب الحضارى.

٢ ـ القلقشندى (أبو العباس أحمد)، (ت: ٨٢١هـ)

«صبح الأعشى فى صناعة الإنشا»:

كتبه فى ديوانه الإنشاء بمصر، ورتبه على مقدمة وعشرة فصول وخاتمة[2]، والكتاب بحق يعتبر موسوعة علمية وأدبية كبيرة لا غنى عنها للباحثين.

وقد استفدت من الرسالة الواردة فيه فى دراستى للفصل الخامس من الباب الأول وتتضمن رغبة زيان بن مردنيش فى عقد السلم مع فرناندو الثالث ملك قشتالة واستعداده للتفاوض مع من يرسله إليه ملك قشتالة من رجاله لهذا الغرض. ومما أورده القلقشندى من معلومات عن صناعة الانشاء وخاصة فى عصر الموحدين أعاننى فى دراستى للباب الحضارى.

سابعاً ـ المراجع الأجنبية والعربية:

كما اعتمدت على العديد من المراجع الأجنبية والعربية التى تتصل بموضوع رسالتى وأهمها:

ـ كتاب «تاريخ بلنسيه الاسلامية» للأستاذ امبروزو أويثى ميراندا:

ويقع فى ثلاثة أجزاء، الأول يتناول تاريخ بلنسية من الفتح الإسلامى حتى عصر ملوك الطوائف، والثانى، يدور حول مشروعات السيد القمبيطور التوسعية فى منطقة شرق الأندلس ابتداءً من استيلائه على بلنسيه إلى أن استعادها المرابطون،

---

(١) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسى، ص ٣٠٣.

(٢) راجع: عبد اللطيف حمزة، القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى، مجموعة أعلام العرب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١، ص ٦٠، وانظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٩٩.

والثالث، يعالج تاريخ بلنسيه فى ظل دولة المرابطين وعلاقات مسلمى بلنسيه بمسيحى أرغون وموقف يحيى بن غانية والى بلنسيه من قبل المرابطين حتى نهاية سيطرة المرابطين عليها، كما يتضمن دراسة تفصيلية عن دولة محمد بن سعد بن مردنيش فى شرق الأندلس خلال خمسة وعشرين عاماً وعن دخول بلنسيه فى طاعة الموحدين والمصير الذى آل إليه آخر ولاتها الموحدين ثم انتزاء زيان بن مردنيش بحكم بلنسيه حتى سقوطها نهائياً فى يد جايمنش بن بطره (خايمى الفاتح) ملك أرغون.

ويعتبر هذا الكتاب من المراجع الرئيسية لدراسة مدينة بلنسيه الاسلامية بوجه خاص وشرق الأندلس بوجه عام، وترجع أهميته إلى اعتماد مؤلفه على مصادر عربية أسبانية معاصرة بحكم معرفته باللغة العربية الأمر الذى ساعده كثيراً على مقابلة النصوص العربية والأسبانية، وأكثر ما اعتمدت من هذا الكتاب الهام الجزء الثالث الذى أفدت منه فى الرجوع إلى بعض المدونات المسيحية المتعلقة بموضوع الدراسة.

- كتاب «اضمحلال وانهيار دولة المرابطين في أسبانيا» ، للمستعرب الأسبانى فرانسيسكو كوديرا:

يتناول هذا الكتاب تاريخ دولة المرابطين فى أسبانيا، والثورات التى اشتعلت ضدهم، كما يؤرخ للإمارات المستقلة التى قامت على إثر هذه الثورات، ومنها إمارة محمد بن سعد بن مردنيش وعلاقاته بالنصارى، واتساع ملكه فى شرق وجنوب الأندلس، مع عرض لتاريخ جزر البليار فى ظل المرابطين، فضلا عن بحثه الذى خصصه لدراسة العملات فى عصر المرابطين. وقد أفادنى هذا المرجع فى دراستى لفترة عصر الطوائف الثانى لاسيما عندما تعرضت لدراسة عصر محمد بن سعد بن مردنيش، كما اعتمدت عليه كذلك فى دراستى عن النظام النقدى وذلك فى الباب الذى خصصته للنظم الحضارية.

- كتاب «مرسيه الاسلامية» للأستاذ جاسبار ريميرو:

يتناول تاريخ مدينة مرسيه منذ الفتح الاسلامى حتى نهاية دولة الاسلام فى الأندلس، اعتمد فيه على أهم المصادر العربية المعروفة فى زمن تأليفه للكتاب وعلى الرغم مما بذله المصنف من جهد فى إبراز أحداث مرسيه فى العهد الاسلامى الأخير إلا أن تشابك الأحداث وقلة ما اعتمد عليه من المصادر العربية أدى كل ذلك إلى اضطراب عرضه خاصة وقد فاته الرجوع إلى بعض المصادر التى كانت مخطوطة زمن تأليفه لهذا الكتاب وقدر لها أن تحقق فى تاريخ لاحق كالجزء الثالث من «البيان المغرب» لابن عذارى بتحقيق الأستاذ أويثى ميراندا وآخرين وكتاب «المن بالإمامة» لابن صاحب الصلاة وهى مصادر يسلطت كثيراً من الأضواء على تاريخ مرسيه الاسلامية، ومع ذلك فالكتاب دراسة هامة لا غناء عنها للباحث فى تاريخ شرق

الأندلس بوجه عام وإسهام لا شك فيه فى تاريخ أسبانيا الاسلامية، وقد رجعت إلى آرائه الشخصية واجتهاداته فى تفسير بعض الأحداث وذلك عندما تعرضت لدراسة التاريخ السياسى للمنطقة موضوع الدراسة.

ومن أهم المراجع العربية الحديثة، كتاب «عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس، العصر الثالث،» القسم الأول والثانى للأستاذ محمد عبد الله عنان:

يعتبر هذا الكتاب من أهم المؤلفات العربية التى تناولت التأريخ لهاتين الدولتين بإسهاب، وترجع أهميته إلى أن مؤلفه لم يعتمد فقط على العديد من النصوص العربية المعاصرة مطبوعة كانت أم مخطوطة، وإنما تجاوز ذلك إلى المدونات المسيحية الأمر الذى أتاح له فرصة المقابلة والنقد والتحليل، بالإضافة إلى اهتمامه بمعاينة مواقع الأحداث واعتماده على المشاهدة سواء فى المغرب أو الأندلس مما كان له أكبر الأثر فى تيسير فهم طبيعة الحروب الأهلية التى جرت خلال هذه الفترة ودوافعها وبواعثها.

وقد استعنت بهذا المرجع فى دراستى للباب السياسى، هذا بالإضافة إلى أنه أرشدنى إلى بعض الكتب المخطوطة مثل مخطوط «زواهر الفكر وجواهر الفقر» لابن المرابط، الذى يعالج الفترة الأخيرة من أحداث شرق الأندلس على الأخص فى أوريولة ومرسيه ويتضمن عدداً من الرسائل الرسمية التى تستنبط منها بعض الأخبار التاريخية الهامة.

- كتاب «دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس» للأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى:

هو مجموعة بحوث فى تاريخ المغرب والأندلس تتضمن العديد من النصوص التاريخية، ويعتبر بحثيه عن دولتى المرابطين والموحدين من أهم ما كتب فى المصنفات العربية الحديثة لاعتماده على كثير من المخطوطات العربية بالإضافة إلى تحليله العميق للنصوص العربية بحيث أمكنه أن يستخرج منها مادة علمية أصيلة.

- كتاب «قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس» للأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم:

يقع فى جزئين، ويتناول أولهما تاريخ مدينة قرطبة فى العصر الاسلامى حتى سقوطها نهائياً فى أيدى القشتاليين، وثانيهما يتناول تخطيط وعمران مدينة قرطبة مع دراسة فى جوانب الحضارة القرطبية المختلفة. ويعتبر هذا الكتاب أول مصنف عربى فى دراسة تاريخ مدينة قرطبة وحضارتها فى العصر الاسلامى، وهو كتاب أقل ما يقال عنه أنه جامع مانع تعرض فيه المؤلف أستاذى الدكتور السيد عبد العزيز سالم إلى دراسة كل تاريخ أسبانيا الاسلامية فى شخص قرطبة كما عالج عدة موضوعات حضارية

على مستوى الأندلس كلها كفن الغناء والموسيقى، وقد اعتمد على العديد من المصادر العربية المعاصرة والمدونات المسيحية والمراجع الأسبانية المتخصصة مما أتاح لى فرصة الاستفادة من مادته الغزيرة سواء فى معالجتى للباب السياسى أو الحضارى من البحث.

- كتاب «تاريخ المغرب العربى الكبير» لنفس المؤلف:

موسوعة ضخمة، تعرف بتاريخ المغرب الاسلامى كوحدة مرتبطة بذاتها لأول مرة فى المكتبة العربية فهو يتناول تاريخ المغرب العربى منذ الفتح الاسلامى حتى نهاية دولة الموحدين، تاريخياً وحضارياً، ويعتبر بحق من المراجع الهامة فى تاريخ المغرب والأندلس التى لا يستغنى عنها أى باحث فى تاريخ المغرب والأندلس، وقد فتح هذا المؤلف أفاقاً كثيرة أمام الباحثين والدارسين على السواء.

دراســـة تمهيديــة

أولا : المسرح الجغرافى.

أ ـ كورة بلنسية.

ب ـ كورة تدمير.

ج ـ الجزائر الشرقية

ثانياً : حقائق تاريخية عن دولة الموحدين.

مفهوم شرق الأندلس:

يعني شرق الأندلس أو Levante من الناحية الجغرافية المناطق الأسبانية التى تطل على ساحل البحر المتوسط الغربى [1]، أى المنطقة الممتدة من طركونة شمالا حتى مرسيه ولورقة جنوبا والتى تشمل كور طرطوشة وبلنسية وتدمير وجزر البليار، بما فى ذلك كورتى سهلة بنى رزين والثغر حسبما يشير ابن سعيد [2].

وقد بدأ هذا المفهوم يتحدد سياسياً منذ انتزاء الفتيان العامرية بهذه المنطقة بعد تغلب البربر على حكومة قرطبة وانهيار الدولة العامرية بمقتل عبد الرحمن شنجول وتربع محمد بن هشام المهدى على كرسى الخلافة فى جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ/فبراير ١٠٠٩م، فتوجس الفتيان العامريون غدر البربر، ففروا من قرطبة إلى شرق الأندلس، وانتزى فحولهم مثل مجاهد الذى غلب على مدينة دانية والجزائر الشرقية ولبيب الذى غلب على طرطوشة، ومظفر ومبارك على بلنسية، ونبيل على شاطبة، وخيران العامرى بالإضافة إلى المرية على مرسيه وأوريولة.

ومنذ ذلك الوقت خرجت منطقة شرق الأندلس من سيطرة الحكومة المركزية وقامت بها دويلات الطوائف، حتى أننا نجد اصطلاح شرق الأندلس يتداول فى كتابات المؤرخين [3]. واستمر الحال كذلك حتى استطاع المرابطون فرض سيطرتهم تماماً على هذه المنطقة، فاحتلوا مرسيه فى شوال سنة ٤٨٤هـ/ أكتوبر ١٠٩١م، ثم استولوا فى العام التالى ٤٨٥هـ على شاطبة وشقورة ودانية، وبدخول المرابطين بلنسية فى شهر شعبان سنة ٤٩٥هـ/مايو ١١٠٢م انضوت هذه المنطقة نهائياً تحت سيطرتهم.

وكانت منطقة شرق الأندلس فى عصر المرابطين تشمل ولاية بلنسية ومرسيه والجزائر الشرقية التى كانت دائماً تلحق به، وكان يتبع بلنسيه سائر الأراضى والقواعد الممتدة شمالا من شاطبة حتى الثغر الأعلى، ومن البحر غرباً حتى قونقة، ويتبع مرسيه سائر الأراضى والقواعد الواقعة على ضفتى نهر شقورة والممتدة جنوباً حتى ولاية المريه، أما الجزائر الشرقية فكانت تشتمل على جزر ميورقة ومنورقة ويابسة وفومنتيرا.

أ- كورة بلنسية:

تشغل هذه الكورة السواحل الشرقية لشرق الأندلس شرقى كورة تدمير

(١) انظر مادة Levtane فى :

Enciclopedia Universal, Tomo XXX, Espasa Calpe, Madrid - Barcelona, p. 291.

(٢) انظر : المغرب فى حلى المغرب، جـ٢، ص ٢٩٢.

(٣) راجع على سبيل المثال: العذرى، ترصيع الأخبار، ص ١٦؛ ابن خلدون ، العبر ، جـ٤، ص٣٥٥.

(مرسيه)، وكانت على حد قول الرازى : كورة كبيرة، جمعت البر والبحر والزرع والضرع، وأرضها سهلية خصبة تخترقها فى بعض المواضع سلاسل جبلية، وتشقها الأنهار، وتضم هذه الكورة عدداً من المدن العظيمة الجليلة نذكر منها : بلنسيه Vale-ncia ، وشاطبة Jativa، ومربيطر Murviedro [1]، ودانية Denia، وجزيرة شقر Jucar[2] وأندة Onda[3].

. وسنلقى فيما يلى بنظرة مختصرة عن جغرافية كل مدينة، نعرف بها اسماً وموقعاً جغرافياً ومناخاً وبيئة.

١ ــ مدينة بلنسية (قاعدة الكورة) :

إحدى قواعد شرق الأندلس فى العصر الإسلامى، أسسها الرومان عام ١٣٨ق.م[4] وكان موضعها عند الفتح الإسلامى فرضه (مرسى صغير) تسمى فالنشيا[5]، ثم عربت إلى بلنسية وأصبحت تسمى فى المصادر الإسلامية بهذا الاسم.

تقع مدينة بلنسية على مسافة تبعد ثلاثة أميال من ساحل البحر المتوسط وسط سهل زراعى خصب يمتد بمحاذاة ساحل البحر وترويه شبكة من القنوات تتفرع من النهر الأبيض المعروف Guadalaviar أحد فروع نهر توريا Turia المسمى بالنهر الأحمر وينبع من جبال أرطونة ويصب فى البحر المتوسط شمالى بلنسية [6]، ولبلنسية ميناء

---

(١) راجع نص الرازى فى : Provençal (L.), La description de L'Espagne D'Ahmad Al-Razi, en Al-Andalus, Vol. XIII, FasceI, 1953,pp.71-72.

ابن غالب (محمد بن أيوب)، نص أندلسى جديد، قطعة من كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع، فصله، مطبعة مصر، ١٩٥٦، ص ١٦، المقرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ١، تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة ، ١٩٤٩م، ص١٢٨، ص ١٢٩، حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مدريد، ١٩٦٧، ص ٦٦.

(٢) العذرى (أحمد بن عمر بن أنس)، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الاثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٦٥، ص ١٩.

(٣) الحميرى (أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم)، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧، ص ٣١.

(٤) ليفى بروفنسال، مادة بلنسية فى دائرة المعارف الإسلامية، جـ٤، ص ١١٢٨.

(٥) حسين مؤنس ، فجر الأندلس، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٢٧٥.

(٦) أبو الفدا (عماد إسماعيل بن محمد بن عمر)، تقويم البلدان، تحقيق de Slane, Reinaud باريس ١٨٤٠، ص ١٧٩، الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٧-٥٥؛ تاريخ الأندلس لابن الكرديوس ووصفه لابن الشباط، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى، مدريد، ١٩٧١، ص ٨٤، هـ٢، ليفى بروفنسال، مادة بلنسية فى دائرة المعارف الاسلامية، جـ٤، ص ١١٢٨.

يسمى جراو Grao[1]، ونظراً لما تميزت به من شهرة زراعية أطلق عليها عدة تسميات وردت فى كتب الجغرافية الأندلسية فعرفت بـ «مدينة التراب» لاتساع محاراتها ومزارعها وخصوبة أرضها[2]. وكان الأندلسيون يطلقون عليها «مطيب الأندلس» لكثرة بساتينها [3] كما عرفت بـ «بستان الأندلس» [4]. وتمتد غرب مدينة بلنسية سلسلة جبلية وفى جنوبها يوجد جبل لقنت، وفى جنوبها أيضاً بحيرة مشهورة تسمى Al Bufera تقع بالقرب من ساحل البحر [5].

ومناخ مدينة بلنسية طيب معتدل، ومتنزهاتها وبساتينها وجناتها كثيرة تدور بها من البر، وجميع أقاليمها وجبالها مغروسة بأنواع الأشجار [6]، وينبت بها الزعفران ويزرع الأرز بكثرة [7]. ومن أكثر بساتينها ورياضها شهرة منية الرصافة ومنية ابن أبى عامر [8]. وقد أسهب الشعراء وأبدعوا فى وصف بساتينها وجناتها [9].

---

(١) ليفى بروفنسال، نفس المرجع ، جـ٤، ص ١١٢٨.

(٢) العذرى ، المصدر السابق، ص ١٧، ابن غالب الأندلسى، المصدر السابق، ص ١٦.

(٣) المقرى، المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٠٧.

(٤) ابن سعيد المغربى (أبى الحسن علي بن موسى)، كتاب الجغرافيا، تحقيق الأستاذ إسماعيل العربى، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٠، ص ١٦٧.

(٥) ابن سعيد المغربى، المغرب فى حلى المغرب، جـ٢، تحقيق الدكتور شوقى ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣، ص ٢٠٧.

(٦) ابن غالب، المصدر السابق، ص ١٦، العذرى، المصدر السابق، ص ١٨.

(٧) مخطوط جغرافية الأندلس لمؤلف مجهول، صورة بالمعهد المصرى للدراسات تحت رقم م٣٦، عن الأصل الموجود بالخزانة العامة بالرباط، لوحة ٣٤/٣٣، وراجع أيضاً : العذرى، المصدر السابق، ص ١٧.

(٨) ابن سعيد المغربى، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٩٨، المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٦٨، ومنية الرصافة كما وصفها ابن سعيد ، مناظر وبساتين ومياه جارية وهى من أبدع متفرجات الأندلس»، انظر : (ابن سعيد المغربى ، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٤٢)، وتقع جنوب شرقى بلنسيه، راجع: الحميرى، المصدر السابق، ص ٧٨، والترجمة الفرنسية، ص ٩٧، هـ١.

(٩) يقول الشرف أبو جعفر بن مسعدة الغرناطى:

هى الفردوس فى الدنيا جمالا ∴ لساكنها وكارهها البعوض

انظر : المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٦٨.

وفيها يقول الشاعر ابن الزقاق البلنسى:

بلنسية - إذا فكرت فيها ∴ وفى آياتها - أسنى البلاد

وأعظم شاهدى منها عليها ∴ وأن جمالها للعين بادى

كساها ربُّها ديباج حسن ∴ لها علمان من بحر ووادى

=

وتضم بلنسية عدداً كبيراً هائلا من القرى والأقاليم يقال أنها تبلغ ١٦٠٠ قرية في كل قرية جامع ومنبر [١]، وقد ذكر العذرى عدداً من هذه القرى والأقاليم هي حسب ما ذكره : «إقليم المنارة، إقليم أنده، إقيم شبرب، إقليم زناته، إقليم كنانة، إقليم شلنيه، إقليم أولهيل، إقليم لبايه، ولها رتبة أولية، إقليم سمح، إقليم شارقة، جزء الساحل، جزء قلييره، جزء الجزيرة، جزء البيضاء وفلنار، جزء الإسناد، جزء فحص شاطبة، جزء براكانة، جزء مدينة التراب، جزء مصمودة، جزء بني غتيل، جزء قسطانية، جزء فقيرة، جزء مسل، جزء مربيطر [٢].

وهناك قرى أخرى أورد ذكرها ابن سعيد وابن الأبار والحميرى نذكر منها: قرية المنصف وتقع غربها[٣]، وقرية بطرنة[٤]، وقرية بتة [٥] ، وقرية

= انظر : المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٦٨. ويقول ابن سعيد عن والده عن مروان ابن عبد الله بن عبد العزيز:

كأن بلنسية كاعب ∴ وملبسها سندس أخضر

إذا جئتها سترت نفسها ∴ بأكمامها فهى لا تظهر

انظر : المقرى، نفس المصدر والجزء والصفحة، بينما ينسب ياقوت الحموى هذه الأبيات إلى أبي العباس. أحمد بن الزقاق في وصف بلنسية، راجع: معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والمرعى في كل مكان، المجلد الثاني، القاهرة، ١٢٣٣، ص ٢٧٩.

وفي وصف بلنسيه يقول الشاعر أبو عبد الله محمد الرصافي:

خليلى ما للبلد قد عبقت نشراً ∴ وما لرؤوس الركب قد رجحت سكراً

هل المسك مفتوقاً بمدرجة الصبا ∴ أم القوم أجروا من بلنسيه ذكراً

انظر : ياقوت الحموى المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٧٩.

وفي أبيات لأبي الحسن بن حريق المرسى:

بلنسية نهاية كل حسن ∴ حديث صح في شرق وغرب

فإن قالوا محل غلاء سعر ∴ ومسقط دمنتى طعن وضرب

فقل هى جنة حفت رباها ∴ بمكروهين من جوع وحرب

انظر : ياقوت الحموى، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٧٩.

(١) مخطوط جغرافية الأندلس لمؤلف مجهول، لوحة رقم ٣٤/٣٣.

(٢) ترصيع الأخبار، ص ٢٠، والإقليم عند الأندلسيين هو القرية الكبيرة الجامعة، راجع: ياقوت الحموى ، المصدر السابق، جـ١، ص ٣٢٩.

(٣) ابن الآبار (أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي)، التكملة لكتاب الصلة، جـ١، طبع بعناية كوديرا وزيدان ، مجريط، ١٨٨٦، ص ٨٣، ترجمة ٢٧٧ (طارق بن موسى ابن يعيش بن الحسين بن علي بن هشام المخزومي، ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٥٤.

(٤) ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٥٥، المقرى، المصدر السابق، جـ١، ١٧٠.

(٥) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٦١، وراجع أيضاً : الضبى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة)، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق كوديرا وزيدان، مجريط، ١٨٨٤، ص ١٨٢، ترجمة ٤٤٢، (أحمد عبد المولى البتى).

ألبونـت[١]، وقرية شـون[٢]، وقرية قشتليون[٣]، وفريسة بقانة[٤]، وقرية أسيلة[٥] وبريانة[٦] وقرية بنيول[٧]، ومن ثغورها : أبيشة[٨] وركانه [٩]. ومن حصونها: حصن منيطة[١٠]، وحصن كواليه[١١]، وحصن شريون[١٢]، وحصن شارقة ويقال لها قلعة الأشراف[١٣]، وحصن طرنته [١٤].

ومن أعمال كورة بلنسية:

٢ ـ مدينة شاطبة:

من الاسم الروماني Saetabis[١٥]، وهي مدينة أزلية [١٦]، تقع على بعد ثلاثين ميلا إلى الجنوب الغربي من بلنسية [١٧]، ولها حصن يضرب به المثل في الحسن

---

(١) الحميرى، المصدر السابق، ص ٥٦.

(٢) ابن الآبار، التكملة ، جـ١، ص ٢٠٢، ترجمة ٩٠٧ (محمد بن حسين بن عبد الله بن عمر ابن هرون بن موسى)، و ص ٢٣٩، ترجمة ٧٧٨ (محمد بن يوسف بن غزلون بن مطرف).

(٣) ابن الآبار ، التكملة، جـ١، ص ٢٣، ترجمة ٥٣ (حسن بن عبد العزيز بن إسماعيل التجيبي.

(٤) نفس المصدر والجزء، ص ١٦٤، ترجمة ٥٨٠ (محمد بن أحمد بن غالب بن خلف بن محمد ابن عبد الله اللخمي).

(٥) نفس المصدر والجزء، ص ٢٥٥، ترجمة ٨٢٣ (محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف بن حسين ابن مأمون الأموى).

(٦) نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٩.

(٧) نفس المصدر والجزء، ص ٢٨٢، ترجمة ٨٧٣ (محمد بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز العبدرى).

(٨) نفس المصدر والجزء، ص ١٦٧، ترجمة ٨٥٠ (محمد بن عبد العزيز بن محمد بن هذيل العبدرى).

(٩) ابن الآبار، التكملة، جـ١، ص ٤٨، ترجمة ١٦١ ، (خلف بن أحمد بن داود الصدفي).

(١٠) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٦١، المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٧٠.

(١١) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ١، ص ٨٧، ترجمة ٢٨٩.

(١٢) نفس المصدر والجزء، ص ١٦٠، ترجمة ٥٦٤ (محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن خلصة)، ياقوت الحموى، المصدر السابق، جـ٥، ص ٢٦١.

(١٣) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٥١، ترجمة ٥٥٦ (عبد الرحمن بن العاص الأنصاري الخزرجي)، ابن غالب المصدر السابق، ص ١٦.

(١٤) ابن سعيد المغربي (أبي الحسن علي بن موس)، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، اختصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبيارى، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٨٤، ترجمة: ٥٣ (أبو سليمان داوود الطرنتي).

(١٥) ابن الكردبوس ، المصدر السابق، ص ٩٦، هـ٣، وراجع أيضاً : Carrero (Carlos Sarthou), El Castillo de Jativa y sus historicos prisioneros, tercero édicion, Valencia, 1951, p. 11.

(١٦) مخطوط جغرافية الأندلس لمؤلف مجهول، لوحة رقم ٣٤.

(١٧) الإدريسي (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي)، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن ١٦٦٨، ص ١٩٢.

والمنعة[1]، يقع على مرتفع، ولها بساتين جميلة وفيها الزرع والضرع والشمر [2].

ومن أعمالها قرية انشيان[3]، وقرية منتيشة [4]، وقرية انشيان [5]، ومن متفرجاتها البطحاء والغدير والعين الكبيرة [6]، وإليها ينسب العالم الكبير الشيخ محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى نزيل الإسكندرية [7].

٣ـ مدينة مربيطر:

وتقع إلى الشمال الشرقى من بلنسية على بعد نحو ١٢ ميلا، على مقربة من البحر المتوسط، وهى بلدة تحيط بها الضياع وتكتنفها الغابات والأشجار [8]، وكان لها حصن وقصر قديم[9]، كما كانت تضم من الآثار الرومانية الملعب القديم[10]، وتعرف اليوم باسم ساجونتو Sagunto واسمها هذا مشتق من الاسم الرومانى Saguntum[11].

٤ـ مدينة بريانة:

وهى من المدن التابعة لبلنسية وكانت مدينة عامرة جليلة وتقع إلى شماليها على بعد نحو ٧٢ ميل [12]، وبينها بين البحر ثلاثة أميال، وأرضها سهلية خصبة تكثر بها الأشجار والكروم[13].

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) العذرى، المصدر السابق، ص ١٨.

(٣) المقرى: المصدر السابق، جـ ٣، ص ٢٦١، ورد فى ترجمة أبو أحمد جعفر بن لب اليحصبى.

(٤) ابن الأبار: التكملة، جـ ١، ص ١٥٤، ترجمة ٥٤٤ (محمد بن عبد الرحمن بن يونس بن عياض المخزومى).

(٥) نفس المصدر والجزء، ص ١٨٣، ترجمة ٦٤٦ (محمد بن عبد العزيز بن يونس بن ميمون اليحصبى).

(٦) ابن سعيد: المغرب، جـ ٢، ص ٣٨.

(٧) المقرى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٤٠.

(٨) الأدريسى: المصدر السابق، ص ١٩١.

(٩) العذرى: المصدر السابق، ص ١٩.

(١٠) ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ٨، ص ١٤، الحميرى: المصدر السابق، ص ١٨٠، ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٧٥.

(11) Madoz (Pascual): Diccionario Geografico - Estadistico: de Espana, Tomo XI, Madrid, 1848, pp. 773 - 784.

(١٢) الأدريسى: المصدر السابق، ١٩١.

(١٣) نفس المصدر، ١٩١، الحميرى: المصدر السابق، ص ٤٤.

٥ ـ مدينة دانية:

وتقع جنوبى بلنسية على ساحل البحر المتوسط، واسمها العربى والأسبانى مشتق من اسمها الرومانى القديم دانيوم Danium[١].

وكانت فى العصر الإسلامى مدينة حصينة مسورة، لها قصبة منيعة فى أعلى جبلها[٢]، وهى الآن مركز إدارى تابع لمحافظة لقنت Alicante[٣]، وإليها ينسب فى العصر الإسلامى دار صناعة السفن[٤]، التى أسست زمن عبد الرحمن الناصر، وكان يتبع هذه البلدة عدد من القرى كسيت جميعاً بأشجار الكروم والتين والزيتون[٥].

ومن أعمالها قسنطانية Cocentania[٦]، وأندارهٔ[١٧]، وحصن بكيران Bocai-rente[٨]، وهو حصن عامر منيع كالمدينة له سوق وبه عمارات متصلة، وحصن بيران Bairan[٩].

٦ ـ جزيرة شقر:

اسم شقر أو Jucar يطلق من الناحية الجغرافية على نهر بهذا الاسم يعرف بوادى شقر، وينبع من الجبال الواقعة شمال شرقى مدينة كونكة ويصب فى البحر المتوسط جنوبى بلنسية، ويحصر فرعاً مصبه جزيرة أطلق عليها المسلمون اسم جزيرة شقر، ومنها الترجمة الأسبانية الحالية لمدينة Alcira[١٠].

---

(١) زيبولد، مادة دانية فى دائرة المعارف الإسلامية، جـ ١، ص ٩٦٣.

(٢) الأدريسى: المصدر السابق، ص ٢٩٢، الحميرى: المصدر السابق، ص ٧٦، العذرى: المصدر السابق، ص ١٩.

(٣) الحميرى: المصدر السابق، الترجمة الفرنسية، ص ٩٥، هـ ١.

(٤) الأدريسى: المصدر السابق، ص ١٩٢، الحميرى: المصدر السابق، ص ٧٦.

(٥) ابن غالب الأندلسى: المصدر السابق، ص ١٦، راجع أيضاً:

Roque C habas (Liorens: Historia de la Ciudad de Denia tercera édicion, tomo II, Instituto de Estudios Ali Cantinos, Alicante, 1977,p. 167.

(٦) ابن الأبار: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٨٨، ترجمة ٩٨٨ (محمد بن اسماعيل بن محمد ابن اسماعيل بن خميس الجمحى).

(٧) ابن الأبار: المصدر السابق، جـ١، ص١٧٧، ترجمة ٦٢١ (محمد بن عبدالملك المعافرى).

(٨) ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤١٧.

(٩) ابن سعيد المغربى، المصدر السابق، جـ٢ ص ٤١٩، ياقوت الحموى: المصدرالسابق، جـ٢، ص ٣٢٧.

(١٠) راجع، الحميرى: المصدر السابق، الترجمة الفرنسية، ص ١٢٦، هـ ٢، ابن غالب الأندلسى: المصدر السابق، ص ١٦، زيبولد، مادة Alcira فى دائرة المعارف الإسلامية، جـ١، ص ٢٥١، ص ٢٥٢.

وجزيرة شقر تبعد عن بلنسية بمقدار ١٨ ميلا، وكانت حسنة البقعة كثيرة الأشجار والثمار والأنهار [١].

ب ـ كورة تدمير :

تقع كورة تدمير جنوبى كورة بلنسية، وكانت هذه الكورة غنية بأشجارها وثمارها وأهمها الكمثرى والرمان والسفرجل[٢]، وتتميز بخصوبة تربتها وبأن جميع أراضيها تروى عن طريق النهر على نفس طريقة الرى فى مصر، كما تتوفر فى أرضها المعادن فبساحلها يستخلص معدن الفضة بكميات وفيرة [٣]، كما تتوفر فى أرضها معادن الرصاص[٤]، وقبد لخص الرازى فى عبارة واحدة مزايا هذه الكورة فقال: «وهى تجمع بين مزايا البحر والبر، ففيها السهول الخصبة والمدن الرائعة والمواضع الحصينة» [٥].

وينسب مؤرخو العرب تسمية هذه الكورة بتدمير إلى تدمير بن عبدوس أو غندريس [٦] Teodomiro B. Ergobado الذى كان يتولى إمارتها من قبل ملك القوط [٧]، لكن أحد الباحثين المحدثين يفسر التسمية المذكورة خطأ بأن عبد الرحمن الأوسط سماها تدمير باسم تدمر الشام [٨]. والحقيقة أن عبد الرحمن الأوسط الذى ينسب إليه بناء مدينة مرسيه على أنقاض مدينة إله Ello القديمة لم يسمها باسم تدمر الشام كما يزعم هذا المؤرخ المحدث، إذ أن تدمير هو اسم الكورة فقط، وأما مرسيه

---

(١) الأدريسى: المصدر السابق، ص ١٩٢، العذرى: المصدر السابق، ص ١٩، ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، جـ٢ ، ص ٣٦٣.

(٢) العذرى: المصدر السابق، ص٢.

(٣) راجع العذرى، نفس المصدر والصفحة، ونستدل علىٰ كثره هذا المعدن من رواية العذرى عند تعرضه لثورة ديسم بن اسحق بتدمير، فقد ذكر أن هذا الثائر عثر على معادن الفضة بتدمير فضرب الدراهم على اسمه، ثم عاد وضربها على اسم الأمير عبد الله (ترصيع الأخبار، ص ١٢)، كما ورد فى رواية العذرى بشأن زيادة المنصور بن أبى عامر للخازن أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدحيم بن مروان بن خطاب فى مرسية، فقد ذكر أن هذا الخازن أهدى إلى المنصور قناطر من الفضة الخالصة، (نفس المصدر السابق، ص ١٥).

(٤) العذرى: نفس المصدر، ص ٢.

(5) Provencal (L.): La description de L'Espagne D'Ahmad El Razi, pp. 70-71.
وراجع أيضاً: ابن غالب الأندلسى المصدر السابق، ص ١٥ ، ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٤٥ (نقلاً عن الرازى).

(٦) العذرى: المصدر السابق، ص ٤ .

(٧) الحميرى: المصدر السابق،، ص ٦٢ المقرى: المصدر السابق، جـ١ ، ص ٢٤٧، وراجع أيضاً: السيد عبد العزيز سالم: مدينة مرسية، موطن الشيخ الزاهد العارف بالله القطب الأكبر «أبو العباس المرسى»، (فصلة من مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية، ١٩٦٩، ص ٤).

(٨) محمد محمود زيتون : الأمام أبو العباس المرسى، الاسكندرية ١٩٦٧، ص ٢٣ .

فمدينة إسلامية اسمها عربى قد يكون مشتقاً من المراسة بمعنى الشدة [١]، أو التمرس بمعنى الجلد على النوائب[٢].

وقد شبهت تدمير بمصر لأن أرضها تسقى بنهر كالنيل بمصر [٣]، فهو يفيض عليها فى وقت معين من السنة، ثم ينضب عنها، فتزرع كما تزرع أرض مصر [٤]. ويذكر العذرى أن الموضع الذى كان يعرف بالفندون منها يماثل النيل لأنه كان يسقى مرة واحدة [٥]، ونهر تدمير المعروف بالنهر الأبيض أو وادى لبيد أو وادى شقورة Segura[٦]، قسيم الوادى الكبير يتفرع قرب مصبه إلى دلتا ذات شعبتين أو فرعين، كدلتا مصر على نحو مصغر، أحدهما يسقى قبلى مرسيه، والثانى يسقى جوفيها[٧].

وكانت كورة تدمير تضم فى زمن الفتح الإسلامى عدداً من المدن منها : أوريوله Orihuela وبلتنه Baltana، وموله Mula، وبلانه Villena ولورقة Lorca، وإله Ello، ولقنت Alicante[٨].

وسنتناول بالدراسة أهم مدن هذه الكورة وأعمالها: مرسيه، وأوريوله، ولقنت، ولورقة.

١ ـ مدينة مرسيه (قاعدة الكورة):

تقع إلى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة أيبيريا، وتبعد عن البحر المتوسط بنحو ٦٤ كم، وفرضتها قرطاجنة الحلفاء Cartagena[٩]. ومرسيه مدينة إسلامية محدثة

---

(١) الزبيدى: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق الأستاذ محمود الطناحى، الكويت، ج ١٦، ١٩٧٦، ص ٥٠١ (مادة مرسى).

(٢) نفس المراجع، ص ٥٠٢.

(٣) العذرى: المصدر السابق، ص ١.

(٤) الحميرى: المصدر السابق، ص ١٨١، المقرى: المصدر السابق، جـ ١، ص ١٥٥.

(٥) العذرى، المصدر السابق، ص ٢.

(٦) ليفى بروفنسال: مادة مرسيه فى دائرة المعارف الإسلامية، جـ ٣، ص ٧٨٣ - ص ٧٨٤.

(٧) الحميرى: المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٨) الحميرى: المصدر السابق، ص ٦٣، راجع أيضاً، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، الاسكندرية، ص ١١١.

(٩) ليفى بروفنسال: مادة مرسيه فى دائرة المعارف الإسلامية، جـ ٣، ص ٧٨٣ - ص ٧٨٤.، وراجع أيضاً:-

Torres Balbas (L.) : Ciudades Hispano - musulmanas de nueva Fundacion, en Etudes d´orientalisme dédices a la mémoire de Lévi - Provencal, Paris, 1962, pp. 788-789.

أمر الأمير عبد الرحمن الأوسط ببنائها فى ٤ ربيع الأول سنة ٢١٠هـ /٢٣ أبريل ٨٢٥م لتحل محل مدينة إله أو (أية حسب تسمية العذرى) [١] الحاضرة القديمة لكورة تدمير، وكان الأمير عبد الرحمن قد أمر جابر بن لبيد عامله على إله بتهديمها بسبب الفتنة التى احتدمت فى هذه الحاضرة بين العصبيتين المضرية واليمنية واستمرت قائمة حتى عام ٢١٣هـ/٨٢٨م، ومنذ أن أسست اتخذت داراً للعمال وقراراً للقواد [٢] وترتفع مرسيه بمقدار ١٤٠ قدم فوق مستوى سطح البحر فى موضعها المعروف بحدائق مرسيه، ويرويها نهر شقورة [٣]

وتقع مدينة مرسيه وسط بساتين نضرة بحيث تبدو واحة خضراء وسط مناطق فقيرة جرداء [٤]، ولذلك عرفت باسم «بستان الشرق» [٥]، لكثرة جناتها المحيطة بها، وكان لتوافر المياه فى بقعتها أعظم الأثر فى كثرة بساتينها وفرة فواكهها وأشهرها كالتين والكروم [٦].

ولمدينة مرسيه عمل كثير وحصون وقرى متصلة تمتد إلى ما يزيد على ستين ميلا [٧] ومن أعمالها موله Mula وتقع فى غربها وهى ذات بساتين بهجة، وقرية الحرلة Alherilla وتقع على نهر مرسيه [٨]، وقرية منتانة وتندة Cutanda [٩] وبليانة Villena [١٠]، وملينة Molina [١١]، وبقصره [١٢] والش

---

(١) ترصيع الأخبار، ص ٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٦، وراجع أيضاً:

Lévi - Provencal: Espana musulmana, en Histoire de Espana, dirigida por Ramon menéndez pidal, t. V, Espasa - Calpe, Madrid, 1957,p. 217.

(٣) ليفى بروفنسال: مادة مرسيه فى دائرة المعارف الإسلامية، جـ ٣، ص ٧٨٣ – ص ٧٨٤.، وراجع أيضاً:-

Joaquin Vallve Bermejo: La division territorial en La Espana Musulmana (II) La cora de "Tudmir (Murcia), en Al - Andalus, Vol. xxxVII, Fasc I, 1972,pp. 173- 177.

(٤) ليفى بروفنسال: المرجع السابق، ، ص ٧٨٣ – ص ٧٨٤.

(٥) ابن سعيد المغربى، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٤٥، المقرى، المصدر السابق، جـ١ ،ص١٥٥.

(٦) الإدريسى: المصدر السابق، ص ١٩٤، وأنظر أيضاً، الحميرى: المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٧) مخطوط جغرافية الأندلس لمؤلف مجهول، لوحة ٣٣.

(٨) ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٧١، أبو الفداء، المصدر السابق، ص ١٧٨، ومازالت هذه القرية تعرف حتى اليوم باسمها العربى، أنظر: Joaquin vallve Bermejo: op. cit, p. 176.

(٩) ابن سعيد: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٦٢، ص ٢٦٤.

(١٠) نفس المصدر والجزء، ص ٢٧٢.

(١١) ابن الأبار: التكملة، جـ١، ص ٣٣٣، ترجمة ٩٧٥ (محمد بن موسى بن هشام الهمذانى).

(١٢) نفس المصدر والجزء، ص ٣٢، ترجمة (حبيب بن سيد الجذامى).

Elche[١] وجمله Jumilla[٢] ومن حصونها، حصن يكه Yecla[٣]، ومن متفرجاتها ومتنزهاتها المشهورة الرشاقة والزنقات وجبل أيل [٤].

٢ ـ أوريولة:

وتفسير أوريولة باللاتيني الذهبية [٥]، وهي مدينة قديمة أولية، وكانت أحد المواضع السبعة التي صالح عليها تدمير بن عبدوس عبد العزيز بن موسى بن نصير [٦] وتقع إلى الشمال الشرقي من مرسيه على مسافة تبعد عنها بنحو ٢٣ كم [٧]، ويرويها نهر شقورة فكان لوفرة المياه فيها أعظم الأثر في كثرة بساتينها وعظم منتجاتها الزراعية، وكانت لهذه المدينة على قمة جبلها قصبة غاية في المنعة [٨]، ومن أشهر أعمالها قرية طوس [٩].

٣ ـ لقنت :

كانت مرسى مرسيه يجوز منها التجار إلى أفريقية [١٠]، وأهم أعمال كورة تدمير، وكانت في العصر الإسلامي مدينة صغيرة عامرة، لها قصبة منيعة على قمة جبل [١١] كما كانت لها داراً لصناعة السفن، تصنع فيها المراكب السفرية والحراريق[١٢]. وقد اشتهرت لقنت في العصر الإسلامي بكثرة فواكهها وعلى الأخص التين والأعناب [١٣].

---

(١) نفس المصدر والجزء، ص ٦١، ترجمة ١٩٥ (خفاجة بن عبد الرحمن بن أحمد الأسلمي).

(٢) ابن الأبار: التكملة، جـ١، ص ٣٠٠، ترجمة ٩١٣ (محمد بن محمد عبد السلام بن محمد بن يحيى المرادي.

(٣) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٦٦، وراجع أيضاً:
Torregrosa (Fausto soriano): Historia de yecla, desde la prehistoria hasta los tiempos actuales, Imprenta - Editorial J. Doménech, Valencia, 1972, p. 89.

(٤) ابن سعيد: نفس المصدر، جـ٢، ص ٢٤٦، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٥) العذري: المصدر السابق، ص ١٠، الحميري: المصدر السابق، ص ٣٤.

(٦) العذري: نفس المصدر، ص ٤، ص ٥، وأنظر أيضاً: الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة): بغية الملتمس، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧، ترجمة رقم ٦٧٥ (حبيب بن أبي عبيدة)، ص ٢٧٤، الحميري: المصدر السابق، ص ٣٤.

(٧) الحميري: المصدر السابق، الترجمة الفرنسية، ص ٤٣، هـ ١.

(٨) الأدريسي: المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٩) العذري: المصدر السابق، ص ١١.

(١٠) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٧٤.

(١١) الأدريسي: المصدر السابق، ص ١٩٣، الحميري: المصدر السابق، ص ١٧٠.

(١٢) الأدريسي: نفس المصدر، ص ١٩٣، الحميري: المصدر السابق، ص ١٧٠.

(١٣) الأدريسي: نفس المصدر، ص ١٩٣، الحميري: المصدر السابق، ص ١٧٠.

٤ ـ لورقة :

يفسر الحميرى لورقة باللاتينى «الزرع الخصيب» [١]، فى حين يفسرها العذرى عن اللاتينية أيضاً بالدرع الحصين [٢]، وتفسير العذرى أدق لأن اللفظ اللاتينى الذى صار فى الأسبانية Loriga يعنى الدرع [٣]. وقد كانت لورقة أحد المعاقل السبعة التى صالح عليها المسلمون تدمير[٤].

وتقع مدينة لورقة على بعد نحو ٤٠ ميلا جنوب غرب مرسيه على ظهر جبل يقوم عليه حصن منيع[٥]، وبربضها سوق كان يحيط به سور، وكانت بقعتها فى العصر الإسلامى من المواضع الخصبة، كثيرة الزرع والضرع، إذ يشق أرضها نهر له مجريان أحدهما أعلى من الآخر، أقيمت عليه السواقى، وتخرج منه شبكة من الجداول العظيمة [٦]، ويمتدح ابن سعيد لورقة ـ نقلا عن المسهب ـ خضرة أراضيها ووفرة بساتينها وبهجة واديها ومنعة قصبتها [٧].

ومن أعمالها فحص الفندون La vega de al-fundun[٨]، وفحص شنقنيره La vega de Sangonera[٩]، وحصن سرنيط وهو من حصونها البرانية [١٠]، ومن قراها تازه [١١]، وبليس [١٢].

---

(١) الروض المعطار، ص ١٧٢.

(٢) ترصيع الأخبار، ص ١.

(٣) أنظر، العذرى: المصدر السابق، حاشية، ص ١٢٩.

(٤) الحميرى: المصدر السابق، ص ١٧١، وراجع أيضا:

ليفى بروفنسال: مادة لورقة فى دائرة المعارف الإسلامية، جـ ٣، ص ٣٣.، وأنظر أيضا:-

Joaquin Vallve Bermejo: op. cit., pp. 169- 172.

(٥) الأدريسى: المصدر السابق، ص ١٩٦.

(٦) الحميرى: المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٧) ابن سعيد: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٧٥.

(٨) الحميرى: المصدر السابق، ص ١٧٢ وأنظر أيضاً:

Maria Arcos campoy: EL "iqlim" de lorca, contribucion al estudio de la division administrativa y a los intinerarios de al-Andalus, en Cuadernos de Historia del Islam, serie miscelanea - islamica occidentalia - No I, Granada 1971, p.87.

(٩) العذرى: المصدر السابق، ص ١٠

(١٠) الحميرى: المصدر السابق، ص ١٧١.

(١١) نفس المصدر، ص ١٧٢.

(١٢) ابن الأبار: التكملة، جـ١، ص ٢٦٦، ترجمة ٢١٣ (رفاعة بن محمد).

جـ ـ الجزائر الشرقية Islas Baleàres

وتشمل أربعة جزائر أكبرها ميـورقة Mallorca وأوسطهـا منورقة Menorca ويابسة Ibiza [1] وأصغرها فرمنتيرا Formentera [2]، وتقـع جنوبى جزيرة يابسـة[3]، والاسمان الأولان من أصل لاتينى فى حين أن الاسم الثالث عربى خالص، وتمتد هذه الجزر بحذاء الساحل الشرقى من شبه جزيرة أيبيريا تجاه سواحل دانية وبلنسية وبريانة وطرطوشة من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى، ولذلك فإن هذه الجزائر تدخل فى نطاق شرق الأندلس وتاريخها جزء لا يتجزأ من تاريخه [4]. وتتوسط جزيرة ميورقة أكبر هذه الجزر كلا من جزيرتى منورقة فى الشمال الشرقى ويابسة فى الجنوب الغربى.

وقد أثبتت الدراسات الجغرافية أن هذه الجزر كانت قديماً جزءاً من شبه جزيرة أيبيريا ثم انفصلت عنها بفعل الحركات الأرضية، وأقرب هذه الجزر من ساحل شرق الأندلس لا يتجاوز ٨٥كم، وأبعدها ٣٣٢كم [5].

وكان للموقع الاستراتيجى الهام الذى تشغله هذه الجزر فى أقصى الطرف الغربى من حوض البحر المتوسط أعظم الأثر فى التنافس الشديد بين قوى المنطقة على السيطرة عليها فى العصور الوسطى [6]

أ ـ جزيرة ميورقة :

اشتق اسمها من اللاتينية Majorica أى الكبرى، وسميت هكذا لأنها أكبر الجزر التى يتألف منها الأرخبيل[7]، المسمى بالبليار والذى يسميه العرب الجزائر الشرقية [8]. ولا تتجاوز المسافة بين جزيرتى ميورقة ومنورقة خمسين ميلا، بينما يفصل بين ميورقة ويابسة سبعون ميلا، وجزيرة ميورقة مسطحة تخلو من المرتفعات ولهذا اهتم امراؤها بتحصينها، ويبلغ طول جزيرة ميورقة من الغرب إلى الشرق سبعون

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : الجزر الشرقية فى (دائرة معارف الشعب)، العدد ٦١، ص ٨٤.

(٢) محمد عبدالله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى فتح المرابطى، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٨٥.

(٣) نفس المرجع، ص ٢٠٢.

(٤) عثمان الكعاك: الحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط، مجموعة محاضرات ألقيت بمعهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٤٢.

(5) Torrero (José):Geografia de Espana, Barcelona, 1958,p. 883.

(6) Torrero: Ibid, p. 884.

(7) Torrero: Ibid. p. 889.

(٨) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٢٧٨.

ميلا وعرضها خمسين ميلا[1]، وبوسطها بحيرة دورها تسعة أميال، ويحيط بميورقة سور مرتفع يتقدمه سور أمامى أقل ارتفاعاً يفصل بينهما خندق ويتوسط المدينة مسجدها الجامع وإلى جواره تقع قيسارية العطارين، أما دار الصناعة فتقع قريباً من البحر [2]. وقد عرفت ميورقة فى العصر الإسلامى بوفرة مزروعاتها [3]، ومن المعروف أن بقعتها «من أخصب بقاع الأندلس تربة، وحاضرة ميورقة مدينة بلمة، وتتوزع حولها القرى العديدة وأشهرها قرية قطين»[4].

ب ـ منورقة:

كان يطلق عليها زمن الفينيقيين La Nura، وهى أكثر الجزائر بعداً عن ساحل شبه جزيرة أيبيريا[5]، فهى تقع إلى أقصى الشمال الشرقى من مجموعة جزائر البليار وتقابل الساحل الممتد من طرطوشة فى الشمال إلى قسطلونة جنوباً [6]. ويتوسط الجزيرة حصن مانع [7] ومن أهم مدنها ماهون Mahon وثيوتاديلا Ciudadela[8].

جـ ـ يابسة :

كانت قديمة مستعمرة فينيقية تعرف باسم ايبيسوس Ebussos, Ebyssos وفى عام ٦٥٤ق.م أسس القرطاجنيون فيها قاعدة بحرية [9].

وأقرب بر لجزيرة يابسة مدينة دانية [10]، ويبعد مرساها بنحو مائة ميل[11]، ولقد كان لطبيعة سواحل هذه الجزيرة أثر فى تعدد مراسيها الصالحة للملاحة، فيذكر الحميرى أنه كان بها عشرة مراسى [12]، وبها أنهار جارية وقرى كثيرة وعمائر متصلة وينبت بها شجر الصنوبر الجيد العود الصالح لبناء السفن، وتتصل بجزيرة يابسة

---

(١) الحميرى: المصدر السابق، ص ١٨٨، وراجع أيضا:

Al Fred Bel: Ies Banou chanya, paris, 1903, p. 17.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، الجزر الشرقية (دائرة معارف الشرقية)، ص ٨٧.

(٣) المقرى: المصدر السابق، جـ ٤، ص٢١٧.

(٤) الضبى: بغية الملتمس، ص ٤٣٩، ترجمة رقم ١٢٧٤

(5) Torrero: op. cit, p. 899.

(٦) يذكر الأدريسى أنها تقابل مدينة برشلونة، راجع (المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، ص ٢١٤).

(٧) ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، جـ ٢، ص ٤٦٩ .

(٨) زيبولد: مادة جزر البليار، دائرة المعارف الإسلامية، جـ١ ، ص ٦١٧، ص ٦١٨.

(9) Torrero: op. cit, p. 886.

(١٠) الأدريسى: المصدر السابق، ص ٢١٤، الحميرى: المصدر السابق، ص ١٩٨ .

(١١) الحميرى: نفس المصدر والصفحة .

(١٢) نفس المصدر والصفحة.

من الجنوب جزيرتان بينها وبينهما مجازات تسمى الأبواب [١]، وإحداهما الجزيرة المعروفة اليوم بفرمنتيرا. وبجزيرة يابسة أشجار الصنوبر الكثيفة من النوع المسمى باليشبين [٢]، وقد عرفت بكثرة كرومها وأعنابها[٣]، ولذلك فإن اسم الجزيرة يتناقض مع معناه فهى كثيرة الشجر والخصب[٤].

ثانياً ـ حقائق تاريخية عن دولة الموحدين

كانت حالة العالم الإسلامى قبيل قيام دولة الموحدين فى المغرب لا تبشر بخير ولا تبعث على الاطمئنان، فالخلافة العباسية فى بغداد والخلافة الفاطمية فى القاهرة بلغتا طور أقصى درجات الإعياء والكهولة، ودولة المرابطين بالمغرب كانت فى نظر المهدى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين ونظر أتباعه كافرة مجسمة، وكان ابن تومرت قد أدرك خلال رحلته إلى المشرق فى طلب العلم هذه الحالة السيئة التى انزلقت إليها شعوب الإسلام وأيقن أن علاج ذلك كله يتركز فى تأسيس خلافة تستهدف تحقيق إصلاح دينى شامل، وقد قدر له أن يضع الأسس الأولى لهذه الحركة لتتحقق على يد خليفته سراج الموحدين عبد المؤمن بن علي.

نشأ ابن تومرت متعطشاً للتحصيل وطلب العلم الدينى، ففى عام ٥٠١هـ جاز البحر إلى الأندلس لهذا الغرض فدرس بقرطبة حيناً، ثم جاز من ثغر المرية إلى المشرق[٥] فقصد إلى الإسكندرية، ومنها إلى مكة حيث أدى فريضة الحج، ثم تابع الرحلة إلى بغداد ليستزيد من معارفه على شيوخها فدرس أصول الفقه وأصول الدين على أبى بكر الشاشى وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار وغيره من

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) ابن أبى دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، القاهرة، ١٩٥٤، ص ١٣٠، وراجع أيضاً اميلو جارثيا جوميث: الشعر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، ص ١٠٤، عندما احتاج بن على بن موسى أمير ميورقة سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩م) إلى أسطول بحمية من ملوك النصارى عزم على استجلاب الأخشاب من غابات يابسة، راجع (المقرى : نفح الطيب، جـ ٦، ص ٢١٢).

(٣) الأدريسى، المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٤) ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٧، وأنظر أيضاً، ابن دحية المصدر السابق، ص ١٣٠.

(٥) راجع، ابن القطان (ابو الحسن على بن محمد الكتامى الفاسى) : نظم الجمان فى أخبار الزمان، تحقيق الدكتور محمود على مكى، الرباط، ١٩٦٤، ص ٤، ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد السادس، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٥٩، ص ٢٦٢، الحلل الموشية، تونس، ١٩١١، ص ٧٥.

المحدثين[1]، وتقول بعض الروايات الموحدية أنه التقى بحجة الاسلام أبى حامد الغزالى وأنه درس عليه وأن هذا اللقاء كان من الأسباب الرئيسية التى دفعته إلى القيام بدعوته، وتقول الرواية أن الغزالى عندما أحيط علماً بما فعله المرابطون بكتبه التى وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها، وكان ابن تومرت موجوداً وقتئذ فى مجلس الغزالى، فعلق الغزالى قائلا: «ليذهبن عن قليل ملكه (أى ملك على بن يوسف بن تاشفين)، وليقتلن ولده، وما أحسب المتولى لذلك إلا حاضراً مجلسنا» [2]، وأحس ابن تومرت أنه يعنيه ويومئ إليه بهذه العبارة فأحس فى قرارة نفسه بأنه صاحب هذه الرسالة.

وإذا جاز الشك فى صحة هذه الرواية على زعم أن الغزالى كان قد ترك التدريس فى ذلك الوقت وعكف على حياة الزهد والتصوف، فمن المقبول أن تؤخذ الرواية على أنها تعبير عن تأثر ابن تومرت بتعاليم الغزالى[3].

قضى ابن تومرت ما يقرب من أحد عشرة سنة يجوب عواصم المشرق الإسلامى، فلما اكتملت معارفه اعتزم العودة إلى المغرب، وكان قد قطع فى دراسته وبحوثه مرحلة بعيدة المدى، حتى غدا على قول ابن خلدون «بحراً متفجراً من العلم، وشهاباً وارياً من الدين» [4]. مرّ بمصر فى عهد الآمر بن المستعلى الفاطمى، وقضى بالإسكندرية بعض الوقت، تردد خلال مقامه بها على مجلس الفقيه أبى بكر الطرطوشى، ويبدو أنه كان ساخطاً على مظاهر الترف التى أقبل عليها أهل الإسكندرية، ولم يطق صبراً على ذلك مما اضطر متولى الإسكندرية حينئذ إلى طرده على إحدى المراكب المتوجهة نحو تونس[5]. فغادرها عائداً إلى المغرب وظل خلال رحلته هذه يبث تعاليمه سواء فى تونس أو الجزائر أو المغرب الأقصى، ولم يأل جهداً فى الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومحاربة البدع، وكثيراً ما استخدم عصاه واشتبك مع الأهالى وخرج هارباً ساخطاً من بلد إلى آخر وما ناله بسبب ذلك

---

(١) المراكشى (عبد الواحد)، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، الطبعة الأولى، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى، المكتبة التجارية، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، ص ١٧٨، وأنظر أيضاً، سعد زغلول عبد الحميد: محمد بن تومرت وحركة التجديد فى المغرب والأندلس، محاضرة ألقيت فى جامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٤، السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ ٢ ، الاسكندرية، ١٩٦٨، ص ٧٧٠.

(٢) المراكشى، المعجم فى تلخيص أخبار المغرب، ص ١٧٨.

(٣) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٥.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السادس، ص ٤٦٦.

(٥) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الاسكندرية، ١٩٦١، ص ١٧٨، وراجع أيضاً له، المغرب الكبير، الجزء الثانى، ص ٧٧١.

من الأذى لشخصه «احتسبها من صالح أعماله» [1]. والتقى أثناء عودته إلى المغرب بعبد المؤمن بن علي أثناء إقامته بملالة فأدناه إليه وقربه من نفسه واختاره الخليفة من بعده.

وفيما يتعلق بنظرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التى اتخذها ابن تومرت شعاراً لدعوته، فنظريته تقوم على التضامن لحماية المجتمع من الرذائل التى ينهى عنها الدين، وقد تناول ابن حزم القرطبي هذه النظرية فى كتابه الجامع «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» [2]، وشرح فيه أصول هذه الفكرة ومغزاها، وفى تطبيق هذا الشعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فابن تومرت أخذ هذه النظرية شعاراً له، وكان المرابطون، حكام المغرب والأندلس فى ذلك الوقت، جماعة سلفية على مذهب أهل السنة والجماعة، يتمسكون بمذهب مالك بن أنس، ويكرهون المتكلمين وعلم الكلام، وينفرون من الرأي والتأويل والخوض فى مسائل التوحيد، ويرون الاقتداء بالسلف فى قبول النصوص على علاتها، وإقرار المتشابهات كما وردت والإيمان بها كما هى. من هذه الناحية هاجم ابن تومرت المرابطين وفقهاء المالكية، ونادى بضرورة تأويل النصوص ونفى الصفات والتشبيه عن الخالق، واتهمهم بالتجسيم والشرك لأنهم يقرون الصفات إلى الله تعالى وهى شبهة إشراك غيره معه، بينما سمى أصحابه «الموحدين» تعريضاً بالمرابطين فى أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم [3].

وقد اضطر ابن تومرت إلى الاصطدام بالمرابطين عندما عمد إلى تطبيق أفكاره وآرائه فأخرج من كل موضع وطئته قدماه، ثم حل بأغمات آن وايلان ومنها إلى أغمات وريكة ونزل بموضع منها يقال له ايغيل، ثم مضى بعد ذلك إلى قريته ايجليز من هرغة فنزل داره فى عام ٥١٤هـ وأقام رابطة للعبادة، ثم عكف على تدريس العلم، ووفدت إليه الناس من كل فج يدرسون عليه. وبعث الخاصة من أتباعه للتبشير بدعوته بين القبائل.

ولما أيقن ابن تومرت بأن دعوته قد أتت ثمراتها وأصبح الطريق لها ممهداً، قام

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، جـ ٦، ص ٤٦٧.

(٢) ابن حزم (أبو محمد على بن سعيد الأندلسي): الفصل فى الملل والأهواء والنحل، جـ ٤، القاهرة، ١٣٢١ هـ، صفحات ١٧١، ١٧٢، ١٧٦.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد السادس، ص ٤٦٩ – ص ٤٧١، وراجع أيضاً أحمد مختار العبادى: الموحدون والوحدة الإسلامية، مقال فى مجلة التربية الوطنية المغربية، العددان ١، ٢، مارس – ابريل، ١٩٦٢.

في الخامس من شهر رمضان عام ٥١٥هـ/ديسمبر ١١٢١م خطيباً في أصحابه وأتباعه وأعلنهم أنه الإمام المهدى المنتظر ودعاهم إلى بيعته [١]. فكان أول من بايعه عبد المؤمن بن علي ثم سائر أصحابه، وتلقب بالمهدى، وصرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المعصوم فأقبل إليه الأشياع والأتباع من سائر قبائل المغرب الأقصى، ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تزداد، وفتنتهم به تشتد، وتعظيمهم له يتأكد حتى بلغوا في ذلك إلى حد «لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير ابطاء» [٢].

ولما تمت بيعة ابن تومرت،ولقبه أنصاره بالمهدى الإمام المعصوم، وسمى المهدى أصحابه وأهل دعوته بالموحدين تعريضاً بلمتونه في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم، وضع لهم كتابه «التوحيد» باللسان البربرى، فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كما يقول صاحب «روض القرطاس» : «كالقرآن العزيز لأنه وجدهم قوماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمر الدين ولا من أمر الدنيا» [٣]، كما صنف لهم تصانيف في العلم منها كتاب «أعز ما يطلب» وعقائد في أصول الدين [٤]، ومنذ ذلك الحين أخذت دعوة المهدى في الانتشار، ووفد الناس عليه في جموع غفيرة من كل صوب يبايعونه بالإمامة حتى كثر جمعه وذاع صيته وأضحت دعوته تمثل خطراً حقيقياً على دولة المرابطين.

وعندما استوثق من أتباعه دعاهم إلى القيام معه أولا على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن هذا المنطلق وجههم إلى قتال «المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين» [٥]. وأسفر أول اشتباك بين الموحدين وقوى المرابطين في قلعة ايجليز عن انتصار حاسم للموحدين تم في شعبان سنة ٥١٦هـ/أغسطس ١١٢٣م.

واستمرت الاشتباكات الأولى بين الموحدين والمرابطين منذ عام ٥١٦هـ حتى

---

(١) ابن ابى زرع (أبو الحسن على بن عبدالله) ؛ الأنيس المطرب بروض القرطاس، تحقيق كارل يوحن تورنبرغ، أبسالة، ١٨٤٣م، ص ١١٣، ابن الخطيب (لسان الدين) تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبارى والأستاذ ابراهيم الكتانى، الدار البيضاء، ١٩٦٤، ص ٢٦٩، الزركشى (إبو عبد الله محمد بن ابراهيم) ؛ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق الأستاذ محمد ماضور، الطبعة الثانية، تونس، ١٩٦٦، ص ٦.

(٢) المراكشي؛ المصدر السابق، ص ١٩١.

(٣) روض القرطاس، ص ١١٤.

(٤) المراكشي؛ المصدر السابق، ص ١٨٨.

(٥) المراكشي؛ المصدر السابق، ص ١٩٢.

عام ٥١٧هـ، وبلغت على حد قول صاحب البيذق ـ تسع غزوات متوالية كانت كلها ضد المرابطين إلا واحدة منها وجهت ضد قبيلة هسكورة[1].

وفي سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م غادر المهدى جبل ايجليز بعد أن أقام به ثلاث سنوات وارتحل فى أتباعه إلى تينملل التى اتخذها قاعدة لقواته ومستقراً له ولأتباعه وقدر له من هناك أن يسيطر على كل منطقة السوس، ثم بدأ يتأهب للمرحلة التالية فى صراعه مع المرابطين وكانت خطته فى البداية تهدف إلى التزام الدفاع فى معاقله الجبلية الوعرة دون أن يهبط إلى الساحل، لكى يحمل أعدائه المهاجمين على أن يصعدوا إليه إذا شاءوا قتاله.

ومنذ سنة ٥٢٤هـ أخذت هذه الاشتباكات تأخذ طابعاً عسكرياً عنيفاً مع جيوش المرابطين يعتمد فى جوهره على الهجوم بدلا من الدفاع، ففى هذه السنة انهزمت قواته أمام جيوش المرابطين فى الموضع المعروف بالبحيرة خارج مراكش[2]، ومرض ابن تومرت على إثر هذه الهزيمة، وعندما شعر بقرب نهايته جمع أصحابه وخطب فيهم، وأشاد بالراشدين وثبات دينهم، وأشار إلى ما انتاب العالم الإسلامى من الفتن بعدهم، وبين لهم كيف أن الله خصهم بحقيقة توحيده وهداهم بعد الضلال وجمعهم بعد الفرقة، وأخيراً حذرهم من الفرقة واختلاف الكلمة، ونصحهم بأن يكونوا يداً واحدة على عدوهم[3]، ثم توفى وسمى الموحدون هذه السنة التى توفى فيها المهدى باسم عام البحيرة [4]، ثمآلت خلافة المهدى إلى عبد المؤمن بن علي.

قضى عبد المؤمن زهاء سنة ونصف ينظم شئون الموحدين ويؤلف قلوبهم، ويحشد جموعهم، ويستنفرهم إلى الجهاد، فلما تم له ذلك بدأ يتفرغ إلى مهمة تحقيق هدف الدعوة الموحدية، تمهيداً لتأسيس دولة الموحدين، وبينما كان يسعى إلى اكتساب طاعة القبائل الجبلية وزيادة أتابعه واستنفارهم ضد المرابطين بحيث أمكنه فى أمد قصير أن يحول البرابر فى سائر أقطار المغرب على لمتونة [1]. وكان لا ينقطع عن

---

(١) أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق: كتاب أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال، باريس، ١٩٢٨، ص ٧٤ – ص ٧٨، ابن القطان: المصدر السابق، ص ٩١ – ص ٩٢.

(٢) راجع البيذق: المصدر السابق، ص ٧٩، المراكشى: المصدر السابق، ص ١٩٣.

(٣) المراكشى: المصدر السابق، ص ١٩٤ – ص ١٩٥.

(٤) أنظر : ابن القطان: المصدر السابق، ص ١٢٢، ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، جـ ٤، الطبعة، ١٩٤٨، ص١٤٤.

تعزيز قواته وتدريبهم على مقاتلة المرابطين، ووفقت هذه القوات الموحدية فى سنة ٥٣٣هـ وما يليها فى إيقاع الهزيمة بقوات تاشفين بن علي ومرتزقة النصارى برئاسة الروبرتير المرة بعد المرة، ثم التقى الجيشان مرة أخرى، المرابطى بقيادة تاشفين تعززه قوات المرتزقة النصارى والموحدى بقيادة عبد المؤمن فى موضع منداسن، لجأ فيه الموحدون إلى خطة حربية مبتكرة وهى خطة المربع الموحدى [٢]، الذى غدا فيما بعد عماد خطط الدفاع الموحدية في الميدان المكشوف، واستمر القتال بينهما أربعة أيام، أسفر عن انتصار حاسم أحرزه الموحدون على المرابطين واستولوا على محلاتهم، لكن عندما ارتد عبد المؤمن بغنائمه صوب الصخرتين من أحواز تلمسان، اعترضه الروبرتير فى قواته وهاجمه بشدة واسترد منه معظم الغنائم، وقتل من كومية، قبيلة عبد المؤمن، نحو أربعمائة رجل؛ ثم سار فى قواته وغنائمة إلى تلمسان وانضم هناك إلى قوات الأمير تاشفين.

وسرعان ما تطورت الأحداث بعد ذلك سريعاً، فلم يلبث الروبرتير أن لقى مصرعه ففت ذلك فى الوقت المرتزقة التى رحلت إثر مصرعه إلى طليطلة، حيث نزلوا فى كنف ألفونسو ريموندس «ألفونسو السابع» ملك قشتالة. وكان لهذا أسوأ الأثر فى نفوس المرابطين وفى الحال كتب تاشفين إلى عماله يستعجلهم موافاته بحشود جديدة، وما أن وصلت التعزيزات المرابطية من الأندلس حتى وقع الاشتباك فى معركة عنيفة دارت ظاهر الصخرتين شمال غربى تلمسان، فانهزمت قوى المرابطين، وأرسل قائدهم إلى عبد المؤمن يعلمه بتوحيده سراً ويعده بفتح بجاية وغيرها. أما تاشفين فقد انسحب إلى وهران وتحصن فى قلعتها البحرية التى كان قد ابتناها، ولكن الموحدين لم يتركوه يهنأ بالراحة فتبعوه إلى وهران وأضرموا النار حول الحصن، فخشى تاشفين الهلاك، وخرج من الحصن فوق فرسه آملا فى أن يصل إلى بعض قطع أسطوله لتحمله إلى الأندلس، واتجه إلى مرتفعات الجبل لكن فرسه تردت به تحت جنح الظلام فسقطت به فى هوة سحيقة وهلك تاشفين، وفى الصباح عثر الموحدون على جثته فصلبوها، واحتزوا رأسه، وبعث بها عبد المؤمن إلى تينملل فعلقت فى الشجرة التى بإزاء مسجد المهدى. وكان مصرع تاشفين فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٣٩هـ/٢٢ فبراير ١١٤٥م [٣].

وعلى إثر ذلك، اقتحم الشيخ أبو حفص بقواته وهران، وأثخن فى المرابطين حتى

---

(١) أنظر ابن خلدون: المصدر السابق، جـ ٦، ص ٤٧٣.

(٢) راجع ما جاء فى وصف خطة المربع الموحدى فى الحلل الموشية، ص ٩٨.

(٣) ابن عذارى (أبو العباس أحمد بن محمد): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، القسم الثالث، تحقيق الأستاذ أويثى ميراندا وآخرون، تطوان ١٩٦٠، ص ١٦، ١٧.

أفنى معظمهم، ولجأت جماعة منهم إلى الحصن، فحاصروهم وقطعوا عنهم الماء، حتى سلموا بعد ثلاثة أيام، وتم ذلك يوم عيد الفطر سنة ٥٣٩هـ[١].

ولم تلبث معاقل المرابطين أن سقطت الواحد إثر الآخر، وتمكن الموحدون من السيطرة على تلمسان ثم فاس في ذى القعدة سنة ٥٤٠هـ/أبريل ١١٤٦م[٢]. فأمر عبد المؤمن بهدم أسوارها فهدم معظمها، وبقيت فاس بلا أسوار مدة إلى أن قام بتشييدها من جديد، حفيدة الخليفة يعقوب المنصور ثم أتمها ولده الناصر، وذلك فى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م [٣].

ثم سار عبد المؤمن بعد ذلك إلى مكناسة واحتلها، ثم دخل سلا، وأثناء ذلك وفدت على عبد المؤمن رسل أهل سبته يحملون إليه بيعتهم، فتقبلها منهم، وندب لولاية سبته يوسف بن مخلوف التينمللى من مشيخة هنتاتة [٤].

وتابع عبد المؤمن زحفه نحو مراكش الحاضرة فى غرة المحرم سنة ٥٤١هـ/١٣ يونيه ١١٤٦م، واحتل بقواته جبل ايجليز الواقع غربها، وضرب فوقه قبته الحمراء، وبنى الموحدون حوله محلة أو مدينة كبيرة يتوسطها مسجد وصومعة عالية، تشرف على مراكش، وكان إقامة هذه المدينة دليلا على ما كان يتوقعه الموحدون من طول المقاومة والحصار. واستمر حصار الموحدين لمراكش أكثر من تسعة أشهر أحكموا خلالها الحصار حولها، وظلت مراكش صامدة بقيادة أميرها إبراهيم بن تاشفين إلى أن نفدت أقواتها ونضبت مواردها، وتساقط الآلاف من أهلها جوعاً، وفى ١٨ شوال تمكن الموحدون من تسلق الأسوار بالسلالم، واقتحموا المدينة ودخلوها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها، وبمقتل أميرها إسحاق بن إبراهيم بن تاشفين سقطت دولة المرابطين نهائياً فى المغرب[٥]. وهكذا أصبح عبد المؤمن بعد فتح مراكش سيداً على المغرب كله.

ثم تطلع عبد المؤمن بعد ذلك إلى السيطرة على قواعد المرابطين فى الأندلس وقد ساعده على تحقيق هذا الهدف سوء الأوضاع فى الأندلس فى هذه الفترة، فقد اجتاحت الأندلس فى هذه الفترة التى تمكن فيها عبد المؤمن من القضاء على قوة

---

(١) نفس المصدر والجزء، ص ١٧.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، جـ ٣، ص ٢٠.

(٣) ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص ١٣٣.

(٤) ابن عذارى: المصدر السابق، جـ٣، ص ٢١، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ ٦، ص ٤٧٩.

(٥) راجع البيذق: المصدر السابق، صفحات ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤ الحلل الموشية، ص ١٠٤، السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، جـ ٢، ص ٧٨٦، ص ٧٨٧.

المرابطين فى المغرب ثورات جامحة ضد المرابطين، وبدأ عهد جديد من دويلات الطوائف فيما تبقى من دولة الإسلام فى الأندلس، انتزى خلالها القادة والقضاة والرؤساء كل فى بلده، وتخلصوا من سلطان المرابطين على الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها هؤلاء فى الذب عن الإسلام فى الأندلس وما حققوه من انتصارات مذهلة فى أقليش وفى افراغه.

وكان من بين هؤلاء الثوار بالأندلس علي بن عيسى بن ميمون، الذى استقل بقادس ودخل فى طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم فى قادس سنة ٥٤٠هـ[1]، كذلك قام بمرتلة الثائر أحمد بن قسى الصوفى، فلما استولى أبو محمد سدراى على مرتلة جاز ابن قسى إلى عبد المؤمن بن علي بمراكش سنة ٥٤١هـ، ورغبه فى امتلاك الأندلس فسير عبد المؤمن بصحبته جيشاً بقيادة براز بن محمد المسوفى فى شعبان سنة ٥٤١هـ[2]، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد وثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجى[3]، فلما عبرت هذه الجيوش الثلاثة بحر الزقاق ونزلت بالأندلس، هاجمت أبا القمر بن عزون المنتزى بشريش ورنده، فدخل فى طاعة الموحدين[4]، ثم قصدوا لبله وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجى[5]، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها، وبعد ذلك افتتحوا شلب وباجة وبطليوس من غرب الأندلس [6]، فدخل أبو محمد سوراى بن وزير فى طاعتهم، ولم تلبث أشبيلية أن انضوت تحت لوائهم فى سنة ٥٤١هـ فاتخذوها حاضرة لهم بالأندلس[7]. ثم دخلت مالقة فى العام نفسه فى طاعتهم [8]، إلا أن شلب وقادس وبطليوس لم تلبث أن أعلنت استقلالها، فأرسل عبد المؤمن جيشاً بقيادة يوسف بن سليمان الذى نزل أشبيلية وتمكن من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس، وشنتمريه وقادس وشلب

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ ٦، ص ٤٨٥.

(٢) ابن الأبار: الحله السيراء، جـ٢، ص ١٩٩، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٥١، ص ٢٦٥، ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٤٨٥، ٤٨٦.

(٣) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء، ص ٤٨٦.

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق، جـ ٦، ص ٤٨٦.

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٧) ابن الأبار: المصدر السابق، جـ ٦، ص ٢٠٠، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦، ص ٤٨٦، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، المكتبة التجارية، ص ١٤، بينما يقول ابن أبى زرع أن فتح أشبيليه كان سنة ٥٤٠هـ. راجع (روض القرطاس، ص ١٢٣).

(٨) ابن أبى زرع المصدر السابق، ص ١٢٣.

ولبله[1]، ولم يمض عام على ذلك حتى دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين[2].

ولم يبدأ عام ٥٤٥هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثوراتهم على المرابطين واستقلوا بمدنهم، قد بايعوا الموحدين ودخلوا في طاعتهم.

وفي سنة ٥٥١هـ، تغلب الموحدون على غرناطة[3] وبذلك توطد نفوذهم في جنوب الأندلس.

وفي سنة ٥٥٥هـ أمر عبد المؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتحصينه فتم بناؤه على يدى الحاج يعيش المهندس، وعلى إثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس، فنزل بجبل الفتح، وأقام شهرين أشرف خلالها على أحوال الأندلس حيث وفد إليه فيها قوادها وأشياخها لتحيته، ومنها أمر بغزو غرب الأندلس، وسير الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي حفص من قرطبة ففتح حصن أطرفكش من أحواز بطليوس، واستولى الموحدون على بطليوس وباجه ويابرة وحصن القصر، ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراكش.

وهكذا بسط الموحدون سلطانهم على قواعد الأندلس، التي دانت لهم بالطاعة فيما عدا منطقة شرق الأندلس التي ظلت بمنأى عن سيطرة الموحدين بزعامة محمد بن سعد بن مردنيش حتى سنة ٥٦٧هـ. وهو ما سنعالجه تفصيلا في الفصلين الأول والثاني من الباب الأول

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، جـ ٦، ص ٤٨٧، ص ٤٨٨.

(٢) ابن خلدون: نفس المصدر، جـ٦، ص ٤٨٨، ص ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٣) ابن الأبار: الحله السيراء، جـ٢، ص ٢١٥، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٢٧، ابن عذارى: المصدر السابق، ق ٣، ص ٣٣.

الباب الأول

التاريخ السياســـى

الفصــل الأول
شرق الأندلس فى السنوات الأخيرة من عصر المرابطين

(١) ثورة أهل قرطبة على المرابطين فى عام ٥١٥هـ.

(٢) التوسع الأرغونى بعد سقوط سرقسطة عام ٥١٢هـ:

أ ـ حملة ألفونسو المحارب ونتائجها.

ب ـ موقعة قلييره وما تبعها من حملات أرغونية.

(٣) مرحلة الإفاقة المرابطية:

أ ـ دور ابن غانية فى انتصارات المرابطين فى افراغه.

ب ـ نتائج انتصار افراغه.

(٤) ثورة شرق الأندلس على المرابطين وبداية انهيار سلطانهم فيه:

أ ـ مقدمات الثورة.

ب ـ ثورة بلنسيه على المرابطين.

جـ ـ ثورة مرسيه.

(٥) تطور الأحداث فى شرق الأندلس بعد انهيار سلطان المرابطين:

أ ـ الوضع فى مرسيه.

ب ـ اضطراب الأحوال فى بلنسيه.

جـ ـ ولاية محمد بن سعد بن مردنيش على شرق الأندلس.

كان شرق الأندلس في عصر المرابطين، يشتمل بعد سقوط سرقسطة في الثالث من رمضان عام ٥١٢هـ (١٨ ديسمبر ١١١٨م)[١]، على ولايتي بلنسيه ومرسيه والجزائر الشرقية التي كانت تلحق به دائماً، وكان يتبع بلنسيه سائر الأراضي والقواعد الممتدة شمالا من شاطبة حتى الثغر الأعلى، ومن البحر غرباً حتى كونكه، ويتبع مرسيه سائر الأراضي والقواعد الواقعة على ضفتي نهر شقوره، وتمتد جنوباً حتى ولاية المريه، أما الجزائر الشرقية فكانت تشتمل على جزر ميورقه ومنورقة ويابسه.

وكان من الطبيعي أن تكون لأحداث المغرب من غلبة الموحدين عسكرياً على قوة المرابطين وانقراض الدولة المرابطية صداها السريع في شبه الجزيرة الأيبيرية، حيث كانت دولة المرابطين المحتضرة في المغرب تبسط سلطانها على سائر القواعد الأندلسية، وقد اتخذ هذا الصدى منذ البداية، صورة ثورة أندلسية عامة ضد سلطان المرابطين، اجتاحت الأندلس سريعاً من غربه إلى شرقه.

(١) ثورة أهل قرطبة على المرابطين

وأول مظاهر رد الفعل الأندلسي ضد دولة المرابطين، وإن لم يكن لذلك علاقة ما بحركة الموحدين، يتمثل في الثورة العاتية التي قام بها أهل قرطبة في سنة ٥١٥هـ/١١٢١م ضد السيطرة المرابطية، وتعتبر هذه الانتفاضة أول تعبير مادي للشعور القومي تجاه عسف الحكم المرابطي،أما عن أحداث هذه الثورة فقد أوردها المؤرخون العرب وإن كانت أسبابها ودوافعها متضاربة إلى حد ما في رواياتهم، فصاحب «الحلل الموشية» يلخصها في أن أمير المسلمين كان قد ولى على قرطبة الأمير أبا يحيى بن رواده، فحدث بينه وبين أهل قرطبة نفور أدى إلى ثورتهم عليه، ونهب العامة قصرالوالي، ودور المرابطين [٢].

---

(١) ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله)، الحلة السيراء، الجزء الثاني، نشر الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٢٥، بينما يضع المقرى تاريخ سقوطها يوم الأربعاء الرابع من رمضان، راجع (نفح الطيب، جـ٢، ص ٥٨٥)، انظر أيضاً؛

José Maria la carra, la conquista de Zaragoza por Alfonso I (18 diciembre, 1118), en Al-Andalus, XII (1974), Afif Turk; El reino de Zaragoza en el siglo XI de cristo (Vde la Hégira), Madrid, 1978, pp. 183, 190.

(٢) مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المنسوب خطأ للسان الدين بن الخطيب، الطبعة الأولى، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، ص ٦٣.

أما رواية ابن الأثير عن هذه الثورة فأكثر تفصيلا حيث يقول أنه لما كان يوم عيد الأضحى من عام ٥١٤هـ خرج الناس متفرجين فمد عبد من عبيد أبى بكر بن يحيى ابن رواده يده إلى امرأة وأمسكها، فاستغاثت فأغاثها الناس، فوقع بين العبيد وأهل قرطبة فتنة عظيمة، ونشب القتال بينهم حتى دخل الليل، ووصل الخبر إلى الوالى الأمير أبى بكر، واجتمع إليه الفقهاء والأعيان، واقترحوا عليه تهدئة للحال أن يقتل واحداً من مثيرى الفتنة، فأنكر عليهم ذلك، وفى اليوم التالى استعد للقتال وأظهر السلاح والعدد، فاجتمع لقتاله أهل قرطبة بزعامة الأعيان والفقهاء وهزموه، فتحصن بالقصر فحاصروه، وفر منهم بعد مشقة، فنهبوا القصر، وأحرقوا دورالمرابطين، ونهبوا أموالهم، وأخرجوهم من قرطبة على أقبح صورة [1].

وعندما بلغ أمير المسلمين خبر هذه الثورة وأدرك مدى خطورتها، تخوف من انتقال أصدائها إلى قواعد الأندلس الأخرى، فبادر بالقدوم إلى الأندلس لمعالجة الموقف فوصل فى حشود ضخمة إلى ظاهر قرطبة فى شهر ربيع الآخر عام ٥١٥هـ/ يوليو ١١٢١م، بغرض القضاء على الثورة بها، فوجد أن أهلها قد تأهبوا للدفاع عنها، وفى نفس الوقت استفتى أهل قرطبة فقهاءهم فأفتوا بأنه متى عرضت حقائق الموقف على أمير المسلمين علي بن يوسف، وتبين منها أن الأمر لم يكن عدواناً من أهل قرطبة، وإنما كان موقفهم دفاعاً عن الحرم والدماء والأموال، فإن أصر أمير المسلمين على موقفه وأصغى لنصح المفسدين وجب القتال فى هذه الحالة دفاعاً عن النفس والحرم[2].

وعندما قدم أمير المسلمين فى قواته بادر بحصار قرطبة، فقاتله أهلها قتال من يريد أن يحمى دمه وحريمه وماله، فلما لمس الأمير شدة قتالهم جنح للسلم، ودخل السفراء بينه وبينهم، وسعوا فى الصلح [3].

وأغلب الظن أنه لم يحدث قتال، والظاهر أن علي بن يوسف اكتفى بمخاطبتهم أولا بالتقريع والتهديد، ثم أقام أمام المدينة محاصراً لها فترة حتى تردد عليه أعيان قرطبة يسألونه الصفح، فوقع الاتفاق على أن يؤدوا إليه مالا عوضاً عما

---

(١) ابن الأثير (أبى الحسن علي بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى)، الكامل فى التاريخ، جـ١٠، القاهرة، ١٢٩٠هـ، ص١٩٧، انظر أيضاً : السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس، الجزء الأول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١، ص ١٤٣، ص ١٤٤.

(٢) الحلل الموشية، ص ٦٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ١٠، ص ١٩٧.

نهب من المرابطين [1]. ولم تطل إقامة الأمير علي بن يوسف بالأندلس، إذ وافته أنباء مزعجة من مراكش، عن قيام المهدى محمد بن تومرت ببلاد السوس الأقصى واستفحال أمره [2].

لا شك أن هذه الانتفاضة التى قام بها أهل قرطبة ضد الحكم المرابطى، كانت رد فعل لسياسة العنف والبطش التى جرى عليها المرابطون فى حكمهم العسكرى الغاشم والتزامهم بسياسة التقشف التى لم يعتد عليها أهل الأندلس ثم للتسلط الفكرى الذى فرضوه على الأفكار والعقائد.

(٢) التوسع الأرغونى بعد سقوط سرقسطة سنة ٥١٢هـ

أ ـ حملة ألفونسو المحارب على الأندلس ونتائجها:

تطلع ألفونسو الأول المحارب [3]، بعد أن انتزع سرقسطة من عماد الدولة عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود سنة ٥١٢هـ، وتوالت انتصاراته بعد ذلك فى الثغر الأعلى، إلى توسيع رقعة أراضيه ناحية شرق الأندلس مستهدفًا السيطرة على بلنسية لكثرة ما تنعم به من خيرات وثروات وليتخذوها معبرًا إلى الشرق تحقيقًا لحلمه فى المشاركة فى الحركة الصليبية.

وقد واتته الفرصة لتحقيق هذا الحلم ممثلة فى تحريض النصارى المعاهدين لكى يغزو الأندلس، وبعثوا إليه بزمام يشتمل على اثنى عشر ألفًا من أنجاد رجالهم على أهبة الاستعداد لنصرته، وأنه يوجد غيرهم جموع غفيرة تحت طلبه ونظره، وكتبوا له فى نفس الوقت عن مدينة غرناطة، قاعدة الحكم المرابطى فى الأندلس، وما تنعم به منخيرات وثروات، وما تتميز به أرضها من وفرة عيون وكثرة مياه، بالإضافة إلى ما تمتاز به من حسن الموقع، وروعة البناء وازدهار العمران، وكان لهذه الدعوة المقترنة

---

(١) الحلل الموشية، ص ٦٣، انظر أيضاً : السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، جـ١، ص١٤٤.
Codera (Francisco), Decadencia Y desaparicion de los Almoravides en Espana, Zaragoza, 1899, pp. 237-238.

(٢) الحلل الموشية، ص ٦٤، ص ٧٤.

(٣) عن ألفونسو المحارب Alfonso I El Batallador، انظر :

- Aguado Bleye (Pedro), Manuel Historia de Espana, Tomo I, Sexta edicion, Espasa Calpe, Marid, 1947, pp. 628-630;
- José Maria lacarra , Alfonso el Batallador, Guara editorial, Zaragoza, 1978, pp. 17-25.

بتقديم العون والأنجاد أبلغ الأثر فى نفس ألفونسو المحارب [١].

خرج الفونسو المحارب من مدينة سرقسطة فى سرية تامة على رأس قوة عدتها ٤ آلف فارس [٢]، وقيل خمسة آلاف انضم إليهم من الرجالة والرماة أعداد كبيرة بحيث وصل عدد عسكره نحو ١٥ ألف [٣]، وذلك فى أول شعبان سنة ٥١٩هـ/ سبتمبر ١١٢٥م مخالفاً بذلك ما كان متبعاً من تقاليد الصوائف معرضاً جيشه على هذا النحوّ لتقلب الطقس وما يتوقع أن يقابله من مصاعب فى فصل الشتاء التالى [٤].

وظلت خطة ألفونسو المحارب فى طى الكتمان إلى أن وصل قبيل بلنسية[٥]، فاجتاح أراضيها وانتسف زروعها وأحرق قراها، وعندما شن هجومه عليها تصدت له حاميتها بقيادة واليها أبى محمد بدر بن ورقاء (أواخر شهر رمضان)، وفى أثناء ذلك كانت جموع النصارى المعاهدين تفد للانضمام إلى جيشه حيثما وجد حتى اجتمعت لديه أعداد غفيرة منهم، وكانوا يدلونه على الطرق والمسالك، ويكشفون له عورات المسلمين فى المدن والحصون التى يمر بها، ثم زحف نحو جزيرة شقر (Alcira) فقاتلها أياماً، ثم رحل عنها إلى دانية (Denia) فى ٣١ أكتوبر، فخرب نواحيها، وقاتلها ليلة عيد الفطر من هذه السنة، ثم واصل زحفه مخترقاً شرقى الأندلس مرحلة مرحلة، منازلا سائر قواعده وحصونه، فاستولى على (Pena Ca-diella)[٦] وجاز بشاطبة دون أن يلقى أية مقاومة، ثم تابع تقدمه نحو مرسيه لينحرف تجاه بيره Vera فالمنصورة فبرشانة، وهناك ضرب مخيمه ثمانية أيام، ثم رحل دون أن يلقى أية مقاومة، متجهاً نحو بسطة (Baza) وأخفق فى افتتاحها رغم ضعف تحصيناتها، فغادرها إلى وادى آش ومكث يحاصرها مدة شهر دون أن يظفر منها

---

(١) ابن عذارى المراكشى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، القسم الخاص بالمرابطين، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧، ص ٦٩ ، وراجع أيضاً، الحلل الموشيه، ص ٦٦، ص ٦٧.

(٢) الحلل الموشيه، ص ٦٧.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ص ٦٩.

(4) Huici Miranda (A), Historia de Valencia y su region, tomo II, Valencia, 1969, p. 53.

(٥) ابن عذارى، المصدر السابق، ص ٦٩، انظر أيضاً:
Huici Miranda (A), Ali ben yusuf y sus emprsos en el Andalus, (en Tamuda VII, Tetuan), 1959, p. 97.

(٦) وهى قلعة هامة لعبت دوراً هاماً أيام «السيد» El Cid فى غلق الطرق المؤدية نحو الجنوب، ولكن المرابطين تمكنوا من استردادها بعد موته، راجع: Huici Miranda, Historia de Valencia, Tomo III, p. 53; José Maria Lacarra, op.cit., p. 85.

بطائل، ثم تركها فى أوائل شهر ذى القعدة من السنة المذكورة إلى قرية القصر (Alcazar) القريبة منها حيث احتفل بعيد الميلاد، وبلغت أخبار هذه الغزوة الأمير علي بن يوسف، الذى لم يتردد فى إصدار أمره بعبور قوات المرابطين إلى الأندلس للدفاع عن غرناطة، وكان يتولى شئون الأندلس آنذاك الأمير أبو الطاهر تميم، فلما وصلت عسكر المرابطين إلى غرناطة وانضمت إليه قوات مرسيه وبلنسيه وأشبيليه، وأحاطت جيوش المرابطين بغرناطة إحاطة السوار بالمعصم، حتى صارت كالدائرة، وصارت المدينة فى وسطها كالنقطة [١].

وفى أوائل شهر يناير ١١٢٦م (ذو الحجة سنة ٥٢٠هـ)، تحرك ألفونسو المحارب من وادى آش، ونزل بقرية دجمة (Diezma) غربى وادى آش فى منتصف المسافة بينهما وبين غرناطة فاشتد القلق بغرناطة وصلى الناس صلاة الخوف يوم عيد النحر، واستعدوا بالسلاح، ويصف ابن عذارى حال غرناطة فيقول : «وجاءت الطلائع منبئة بها فعميت.. وانقطعت السابلة والواردة وقلت المرافق، وتزاحم الناس في المدينة وسكنت المساجد والمصاطب والرحاب والخراب، وكثر الجزع والأرجاف والموجان بالنهار والليل... والأسوار معمورة بأهل البلدة، وليس فى الدور غير الصبية والنسوة[٢]. وفى ظهر اليوم التالى وصل النصارى إلى قرية النبيل (Nivar) على بعد خمسة كيلو مترات من شرق مدينة غرناطة، وضرب ألفونسو المحارب محلته «لبضع عشرة ليلة لم تسرح له سارحه ولا شنت غزوه ولا انفصل بعض جيشه عن بعض، وذلك لتوالى الأمطار وكثرة الجليد» [٣].

وهكذا لبث ألفونسو المحارب فى قواته بعض عشرة ليلة وهو غير قادر على الحركة بسبب الجليد والأمطار وقاسى الجيش الأرغونى أهوال الطقس البارد، وكان النصارى المعاهدون فى غرناطة قد تناجوا باستدعائه، فافتضح تدبيرهم وهم أميرها باعتقالهم، فأعياه ذلك وتسلل المعاهدون من كل صوب إلى محلته[٤]، وأخذوا يزودونه بالمؤن والأقوات، وعندما رأى استحالة الاستيلاء على غرناطة أقلع عنها بجيشه فى ٢٦ ذى الحجة عام ٥٢٠هـ (٢١ يناير ١١٢٦م)، وارتفع طمعه عنها، لما لمسه من وفرة الجيوش المدافعة عنها، وانحى باللائمة على النصارى المعاهدين وزعيمهم ابن القلاس لعدم وفائهم بما عاهدوا عليه، ومبالغتهم فى تصوير سهولة الاستيلاء على

---

(١) الحلل الموشية، ص ٦٨.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٧١.

(٣) الحلل الموشيه، ص ٦٨.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٧٠، الحلل الموشية، ص ٦٨.

المدينة، التى لم يجرؤ أحد على فتح أبوابها له، ومن جهة أخرى عزا المعاهدون فشل ألفونسو المحارب فى الاستيلاء على غرناطة لبطئه وتلومه، مما أتاح فسحة من الوقت أمام قوات المرابطين لتجميع قواتهم وإعدادها للدفاع عن غرناطة، تاركاً بذلك النصارى المعاهدين عرضة لانتقام المرابطين [1].

تراجع ألفونسو إلى مرسانة Maracena وبينش Pinos-Puente تجاه قلعة يحصب Alcala la Real ونهبت قواته جميع نواحى لكه Luque وبيانه Baena، واستجه Eci-ja، وقبره Cabra عدة أيام، كما أقدمت قواته على نهب كل ريف قرطبة خلال أسابيع ستة دون أن يشرع فى حصارها، ولما توالت حشود الجيش المرابطى بقيادة الأمير أبى الطاهر تميم والى غرناطة، توجه ألفونسو نحو أليسانة Lucena بهدف تمزيق هذه الحشود، وتم الاشتباك بين قواته وقوات المرابطين فى أرينسول فى ٩ مارس ١١٢٦م [2]. ونستخلص من روايتى صاحب البيان المغرب وصاحب الحلل الموشيه أن عسكر المرابطين شن هجومه بغتة على المعسكر المسيحى، وعند ذلك اندفع ألفونسو المحارب بجنده للقتال وأطبق عسكره على الجيش المرابطى وأوقع به الهزيمة، ففزع تميم وعزم على نقل معسكره فى المساء من الوهدة التى كان يعسكر فيها إلى ربوة مرتفعة، وقد ترتب على تلك الحركة وقوع اضطراب فى معسكر المسلمين استغله ألفونسو المحارب وبادر بالهجوم مقتحماً معسكر المسلمين من جديد واشتد القتال طوال اليوم إلى أن حل المساء وكانت هزيمة قاسية على المسلمين[3].

أسفرت هذه المعركة عن استرداد ألفونسو الأول ثقته بنفسه وبقواته، وأيقن بتفوق قوته، وعندئذ راودته فكرة غريبة أن يعبر من إقليم ريه (Reyo) الذى يضم مالقه (Malaga)، أرشدونه (Archidona)، والبشرات (Alpujarras) لكى يصل إلى ساحل البحر المتوسط، مجتازاً المنطقة الساحلية فى شلوبانية Salobrena إلى بلش مالقة Ve-lez - Malaga وقد نفذ هذه الخطة بنجاح وعند عودته انحدر إلى الشاطئ نحو ادى شلوبانيه العميق المتحصن المجاز، ويروى أنه خاطب بلغته أحد قواده عند رؤية هذا الوادى: «أى قبر هذا لو ألفينا من يرد علينا التراب» [4]، ثم سار غرباً نحو مدينة بلش

---

(١) ابن عذارى، نفس المصدر، ص ٧١، الحلل الموشيه، ص ٦٨، انظر أيضاً:

Dozy (R), Recherches, Tomo I, de la tercera edicion, p. 356.
(2) Huici Miranda, Historia de valencia, t. III, pp. 55-56; Jose Maria lacarra, op.cit., p. 90.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٧١-٧٢، الحلل الموشيه، ص٦٨.

(٤) الحلل الموشيه، ص ٦٩، ابن الخطيب (لسان الدين)، الإحاطة فى أخبار غرناطة، المجلد الأول، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١١٢.

مالقه، وأنشأ بها مركباً صغيراً يصيد له حوتاً أكل منه، وتتساءل الرواية الإسلامية: «هل حقق بهذا السلوك نذراً كان عليه فوفى به، أو حديث أراد أن يخلد عنه» [(١)]

وفى بداية الربيع، قرر أن يعبر جبل شلير من المنكب، ثم مثل من جديد أمام غرناطة، وانتشرت قواته فى المرج La Vege مدة ثلاثة أيام، واشتبكت مع قوات مكناسة Mequinez بقيادة أبى حفص بن تاشفين، وفى هذه المرة اقتنع ألفونسو المحارب باستحالة الاستيلاء على غرناطة سواء عن طريق القوة أو باستخدام عنصر المفاجأة، وقرر فى النهاية أن يقفل عائداً إلى بلاده عن طريق وادى آش، وقد تعرض أثناء عودته لكثير من المضايقات، فلم يتركه المسلمون يرحل بسلام، ونشبت بينه وبين المسلمين اشتباكات أصيب خلالها عدد كبير من جنده، واضطر إلى العدول عن مخططه فى العودة المباشرة إلى بلاده وآثر أن يشرق نحو مرسيه ويسلك الطريق منها إلى شاطبه فبلنسيه [(٢)]، ولحق بعسكره، أثناء عودته نحو عشرة آلاف من النصارى المعاهدين، الذين فروا من مواطنهم خشية الانتقام والهلكة، حدث كل ذلك وقوات المرابطين على أثرتلاحقه، والوباء يعصف بعسكره حتى وصل إلى بلاده مغلولا وقد حطمه الإعياء والوهن بعد أن أنفق فى غزوته خمسة عشر شهراً، ومع ذلك كان «يفخر بما ناله فى سفره من هزيمة المسلمين وفتكه فى بلادهم وكثرة ما أسر وغنم»[(٣)].

وتجمع الروايات العربية مع اعترافها فى ذات الوقت بالانتصارات التى أحرزها ألفونسو المحارب فى أرنسول واندفاعه في أراضى شرق الأندلس وجنوبه على الإخفاق الكبير الذى انتهت إليه حملته وتؤكد أنه عاد إلى وطنه فى عسكر قليل بعد أن فقد منهم من فقد فى الاشتباكات، ومن سقط فريسة لوباء الطاعون، فى حين تجمع المصادر المسيحية على نجاح هذه الحملة على أساس أنها كانت تستهدف حمل أكبر قدر من الغنائم والأسلاب من بلاد الأندلس، ويؤكد الأستاذ أويثى ميراندا أن عبقرية المحارب ونزعته العسكرية خلقت له متاعب اقتصادية كبيرة لا سيما فى صراعه ضد مملكة قشتالة، فقد اضطر أمام الحاجة إلى دفع رواتب جنده الأرغونيين والنبريين، إلى مد يده لانتهاب الكنائس والأديرة، فاستولى على كنوزها وباع الممتلكات المقدسة الموروثة ورهن بعضها، والوثوب على مخصصات الكنيسة بالرغم من تدينه وورعه [(٤)].

ونخلص إلى القول بأن الحصيلة النهائية التى جناها ألفونسو المحارب من وراء

---

(١) الحلل الموشيه، ص ٦٩، ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص ١١٢

(2) José Maria Lacarra, op.cit., p. 91

(٣) الحلل الموشيه، ص ٧٠

(4) Huici Miranda, op.cit.. t. III, p 59

هذه الحملة بالإضافة إلى ما حققه من غنائم، يسرت للمستعربين النصارى فى شرق الأندلس وجنوبه الهجرة إلى أراضى أرغون.

أما فيما يتعلق بنتائجها بالنسبة للمرابطين فقد أكدت أن النظم الدفاعية الإسلامية لم تكن آنذاك من القوة والكفاية إلى الحد الذى يمكنها من رد جحافل الغازين، وأن الخطط المرابطية منذ سقوط سرقسطة لم تكن كافية لإيقاف غارات الممالك المسيحية لاسيما بعد غزوة ألفونسو المحارب الموفقة التى استطاع أن يخترق فيها الأندلس من الثغر الأعلى حتى ساحل البحر المتوسط دون أن تستطيع قوة إسلامية مرابطية أو غيرها أن تقف فى سبيله.

وثمة نتيجة أخرى، وهى أن النصارى المعاهدين الذين كانوا يعيشون فى ذمة المسلمين يتمتعون برعاية الحكم الإسلامى وتسامحه لم يكونوا يشعرون نحو الدولة الإسلامية بأى ولاء بل كانوا على العكس من ذلك يمثلون خطراً داخلياً حقيقياً على الأندلس كما كانوا ينتهزون الفرص المواتية للنيل منها والتواطؤ مع أعدائها وتحريضهم على العدوان، وكان لزاماً على الحكومة المرابطية أن تتخذ نحوهم موقفاً صارماً جزاء خيانتهم للمسلمين وبذلهم العون للأرغونيين أثناء غزوتهم الطويلة وقد حمل ذلك أبا الوليد بن رشد قاضى قرطبة على أن يعبر إلى المغرب ليقابل الأمير على بن يوسف فى مراكش، ويشرح له أحوال الأندلس، وما منيت به من نكبات على أيدى المعاهدين الذين خرجوا على العهد ونقضوه وأفتى بتغريبهم ووجوب إجلائهم عن أوطانهم، وهو أخف ما يؤخذ به فى عقابهم، فأخذ أمير المسلمين بهذه الفتوى، وصدر أمره إلى جميع بلاد الأندلس بتغريب النصارى المعاهدين إلى العدوة المغربية، فنفيت منهم جموع غفيرة، وسيق الكثير منهم إلى مكناسة وسلا وغيرها من بلاد العدوة، وضم أمير المسلمين منهم عدداً إلى حرسه الخاص، وقد وقع هذا التغريب فى عام ٥٢١هـ (أواخر عام ١١٢٧م)، وكانت نكبة بالغة لم يصب المعاهدون مثلها منذ بعيد (١).

كما أسفرت مقابلة ابن رشد للأمير على بن يوسف أيضاً عن الاتفاق على تأمين الدولة المرابطية من الهجوم الموحدى الذى أخذ يزداد يوماً بعد يوم، والضرورة الملحة لبناء الأسوار وتعزيز تحصينات قواعد الأندلس التى تتعرض باستمرار للحملات المسيحية (٢).

---

(١) راجع: ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٧٢، ٧٣، الحلل الموشية، ص٦٦، ص ٧٠، ابن الخطيب، الإحاطة، المجلد الأول، ص ١١٣، يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (الطبعة الثانية)، ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١٤٧، ص ١٥٠، Simonet (Francisco Javier); Historia de los Mozarabes, Madrid, 1896, pp. 746-751.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٧٣.

ب ـ موقعة قلييرة Cullera وما تبعها من حملات أرغونية:

لما عاد ألفونسو المحارب من حملته الطويلة على الأندلس، أقام بعض الوقت ينظم قواته، ثم ما لبث أن استأنف نشاطه الحربى فى أراضى الثغر ضد المرابطين، وكان المرابطون ما يزالون يحتلون من الثغر الأعلى المنطقة الواقعة شرقى سرقسطة فيما بين نهرى سنكا وسجرى فرعى إيره، وأهم قواعدها لارده وافراغه ومكننسة الواقعة عند ملتقى ابره وسجرى وكذلك المنطقة الممتدة بعد ذلك على طول نهر ابره حتى مصبه عبر ثغر طرطوشه، وكان ألفونسو المحارب يستهدف الاستيلاء على هذه المنطقة حتى يتمكن من إيجاد منفذ له إلى البحر المتوسط عن طريق ثغر طرطوشة الهام.

وكان ألفونسو المحارب يتوق إلى انتزاع هذا الثغر، ولكنه كان مضطراً إلى أن يخوض قبل ذلك معارك عديدة مع المرابطين الذين يسيطرون على منطقتى لاردة وافراغه وما وراءها من الأراضى حتى مصب نهر ابره، لذلك أخذ يعد العدة لتنفيذ مشروعه منذ عودته من الأندلس، ولم تمض ثلاثة أعوام حتى خرج فى قواته من سرقسطة، وزحف شرقاً نحو نهر سنكا فى اتجاه إفراغه ولارده، وكانت هذه المنطقة قد غدت منذ سقوط سرقسطة مسرحاً للصراع المستمر بين المسلمين والنصارى، وكانت للمرابطين فيما يبدو حاميات قوية فى تلك القواعد، علاوة على قوات متحركة تنساب بسرعة من شرقى الأندلس من منطقة بلنسية، كلما هم النصارى بالعدوان.

ويظهر أن ألفونسو المحارب لم يكن يرغب فى الاصطدام مع المرابطين فى هذه المنطقة المكشوفة من الثغر الأعلى اصطداماً حاسماً، لعلمه بمدى فاعليتهم على مواجهته فى الأراضى المكشوفة، فأضمر فى نفسه الاستيلاء على الثغور المحيطة بكورة بلنسيه فما أن تم له الاستيلاء على لبيبا (Liria)، وبله مرشانته (Villa Marchante) حتى اتجه بقواته نحو أراضى بلنسيه [1]. وكان على بن يوسف قد بلغه عن طريق عامله على بلنسيه أن ألفونسو المحارب يتأهب لغزو أراضى المسلمين، فخشى أن تكون حركته تلك على غرار الحملة التى قادها إلى الأندلس، فأمر بحشد قوات من السودان تتكفل بنفقاتها مختلف المدن حسب طاقة كل مدينة، ثم وجهت هذه القوات إلى مرسيه وواليها بدر بن ورقاء تعزيزاً للجهود المرابطية فى شرق الأندلس بقيادة ابن مجوز، وكان ابن رذمير (ألفونسوا الأول) ـ حسب رواية ابن القطان [2] ـ يرابط بقواته فى

---

(1) Huici Mirand, op.cit, t. III, p. 65; José Maria Lacarra, op.cit., p. 100.

(٢) ابن القطان، نظم الجمان، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، الرباط، ص١١٠ – ١١٢.

القليعة أو قلييرة [1]، على مقربة من جزيرة شقر، وهناك نشبت معركة عنيفة بين المرابطين والأرغونيين فى عام ٥٢٣هـ (١١٢٩م)، منى فيها المسلمون بهزيمة نكراء، وفنى معظمهم قتلاوأسراً، واستولى العدو على الأسلاب والسلاح والدواب وبلغت خسارة المسلمين نحو اثنى عشر ألفاً، بين قتيل وأسير [2].

وإلى جانب رواية ابن القطان عن هذه الموقعة، لدينا عنها وثيقتان مرابطيتان، تسلطان عليها مزيداً من الأضواء، الوثيقة الأولى، رسالة وجهها أمير المسلمين على بن يوسف إلى الأمير أبى محمد بن أبى بكر من حضرة مراكش، ومؤرخه فى السابع من شهر شعبان سنة ٥٢٣هـ (٢٦ يوليو ١١٢٩م) رداً على كتابه الذى أرسله إلى أمير المسلمين ينبئه فيه بأخبار هذه الموقعة، والرسالة من إنشاء الكاتب الأندلسى أبى مروان بن أبى الخصال، وكان يتولى الكتابة فى ديوان الإنشاء المرابطى، وفيها ينحى أمير المسلمين باللوم العنيف على قائده أبى محمد بن أبى بكر، وينوه بتقصيره وخذلانه فى عبارات لاذعة، ثم يحثهم على التآلف والاتفاق والطاعة، كما يوجههم فيها إلى ما يجب اتباعه من قطع المدد عن العدو [3].

والوثيقة الثانية رسالة وجهها أمير المسلمين على بن يوسف أيضاً من حضرة مراكش إلى قادة الجيش المرابطى الذين هزموا فى موقعة القليعة أو قلييرة ومؤرخه فى الحادى عشر من شعبان عام ٥٫٢٣ هـ رداً على كتابهم الذى يصفون فيه المعركة، وقد ذكر فيها أنه لا مخرج عن القضاء وحكمه، ولا محيد عن القدر وحتمه، وأنه لم يأل جهداً فى العمل لإعلاء كلمة الإسلام، وبذل الأموال وحشد الرجال، وأنه لو استطاع أن يكون حاضراً بنفسه فى الأندلس لفعل، ثم يطمئنهم ويؤكد لهم أنه لاهم له إلا الذياد والدفاع عنهم والتوافر عليهم بأتم الاضطلاع [4].

---

(١) قلييرة، تقع على الضفة اليسرى من نهر شقر بالقرب من مصبه، على جبل منعزل ومنتصبة كحصن تسيطرا على البحر والسهل الذى تناوبت فيه زراعة الأرز وأشجار البرتقال ويؤكد الإدريسى أنها كانت حصناً يحيط به البحر فى قوله «قد أحدق به البحر وهو حصن منيع على موقع نهر شقر»، ويذكر الإدريسى أيضاً فى قلييرة كانت تفرغ أخشاب الصنوبر التى تقطع من غابات قلصة ثم تلقى فى الماء وتحمل منها إلى جزيرة شقر ثم إلى قلييرة، ومنها تحمل إلى دانية فتنشأ منها السفن الكبيرة والمراكب الصغيرة، ويحمل إلى بلنسية من الخشب ما كان عريضاً فيستخدم فى الأبنية والمنازل. راجع : الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٢، ص١٩٥.

(٢) ابن القطان، المصدر السابق، ص ١١١، انظر أيضاً :

Jozé Maria Lacarra, op.cit. , p. 101.

(٣) انظر : أربع وثائق جديدة، نشر الدكتور حسين مؤنس، فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد الحادى عشر، الجزء الثانى، ديسمبر ١٩٤٩، ص ١٤٠.

(٤) نفس المرجع، ص ١٤٢.

ويشير ابن القطان بعد حديثه عن موقعة القليعة إلى أن قوة من النصارى أغارت على غليرة (Galera) الواقعة جنوبي بلنسية واكتسحت ما وجدت [١]. ويبدو أن أهل بلنسية قد استغاثوا بالأمير على بن يوسف، ووجه قاضي بلنسية الخطيب أبو الحسن رسالة إليه في هذا الشأن، فرد عليه الأمير على بن يوسف برسالة مؤرخة في السابع من شعبان سنة ٥٢٣هـ، وفيها يشير إلى هزيمة جنده في القليعة إنما وقعت بسبب تخاذلهم وعدم اتباعهم لتوجيهاته، ثم يطمئن أهل بلنسية ويؤكد لهم أنه لن يتركهم للضياع ولن يأل جهداً في الذب عنهم، وأنه قد كتب إلى سائر ولاته بإرسال الأقوات والتعجيل بإنفاذها في أقرب وقت، وأنه وضعهم في باله في أعلى مكان، ويختتم رسالته بالدعاء لهم [٢].

وفي صيف العام التالي ١١٣٠م/٥٢٤هـ، خرج الفيكونت جاستون دى بيرنه (غشتون) (Gaston de Bearna) أحد كبار الإقطاعيين بمملكة أرغون والساعد الأيمن لألفونسو المحارب في فتح سرقسطة وبفضل ما قدمه من خدمات نصب حاكماً على سرقسطة مع دون استبن (Don Esteban) أسقف خاكا، فخرجا بقواتهما في حملةعلى أراضي بلنسيه معتمدين على النجاح الذى تحقق من قبل في قليبرة وغليره، وتوغلا في شرق الأندلس، ولكنهما انهزما وقتلا، ولا تعلق الحوليات الطليطلية الأولى على ذلك بأكثر من القول بأن العرب قتلوا الأسقف دون استبن والفيكونت جاستون في سنة ١١٣٠م [٣].

أما الرواية العربية ويسجلها ابن عذارى فتزودنا بتفصيلات مثيرة عن هذه الحادثة وملخصها أن محمد بن بدر والى بلنسية توفى في هذه السنة (٥٢٤هـ) وخلفه عليها ابنه ينتان، وفي جمادى الثاني من هذه السنة اجتاحت قوات الفيكونت والأسقف أراضيه، ولكنهما انهزما وسقطا صريعين، وتركت جثتاهما في ساحة المعركة، وحملت رأس غشتون (جاستون) إلى غرناطة لعرضهما على تاشفين بن على الحاكم العام للأندلس، فوضعها على سن رمح وطاف بها في الأسواق والشوارع بمصاحبة الطبول والدفف، وبعدئذ حنطها وأرسلها إلى المغرب، وعند استقبال أمير

---

(١) ابن القطان، المصدر السابق، ص ١١٢.

(٢) راجع نص الوثيقة في : محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الأول، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٥٤٣.

(3) Los Anales Toledanos primeros, reedicion Huici Miranda, p. 345; Vease, Huici Miranda, Historia de valencia, t. III, pp. 73-74, José Maria Lacarra, op.cit., p. 104.

المسلمين على بن يوسف هذه الأخبار عادت البسمة والفرحة لوجهه بعد الكوارث التى قاستها قواته، وعندئذ وصلت رسل ملك أرغون لتوقيع معاهدات وافتداء جثمان الفيكونت والأسقف، فاستقبلهم تاشفين بحفاوة وعادوا إلى ملكهم ألفونسو الأول فى موكب مصاحب لهم حتى وصلوا إلى بلدهم [١].

٣ ـ مرحلة الإفاقة

أ ـ دور ابن غانية فى انتصار المرابطين بافراغه:

كان أبو محمد يدر بن ورقا أو كما يسميه ابن عذارى محمد ابن يوسف يدر يتولى أمر مرسيه منذ عام ٥١٤هـ/١١٢٠م، ويبدو أنه كان يجمع بين ولايتها وولاية بلنسيه فى آن واحد، وكان من جملة مهام يدر توجيه الحملات على مملكتى أرغون وقطالونية، ولهذا فقد طلب من أمير المسلمين على بن يوسف أن يوجه إليه القائد الفذ يحيى بن غانية ليعاونه فى مهمته نظراً لما كان يتميز به ابن غانية من شهرة حربية فائقة فى غرب الأندلس [٢] إذ كان يهدف تحقيق نوع من التوازن فى القوى مع قوات ألفونسو المحارب الذى لم يكف منذ استيلائه على سرقسطة عن إنهاك قوى المرابطين فى كتندة حتى أمكنه أن يفتتح فى يسر عدداً من المدن الهامة مثل طرسونة Tarazona، Alagon، Epilal، Ricla، Magollon، وقلعة أيوب Calat Yud، و Bu-bierca و Ariza ومدينة سالم Medinaceli فى الغرب ودروقه Daroca ومونريال Mon-real فى الشرق، وقد حقق ألفونسو كل هذه الفتوحات خلال سبع سنوات منذ استلائه على سرقسطة أى فى سنة ١١٢٥م، هذا بالإضافة إلى غزوته الجريئة التى شق فيها الأندلس مجتازاً أراضى جزيرة شقر وبلنسيه ودانيه ومرسيه أثناء ذهابه وعند قفوله[٣].

ولقد كانت هذه الحوادث الخطيرة فى منطقة شرق الأندلس سبباً رئيسياً دفع يدر إلى طلب ندب يحيى بن غانية لمعاونته، فاستجاب أمير المسلمين إلى هذا الطلب

---

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٨١، ٨٢.

(٢) ابن الخطيب (لسان الدين)، الإحاطة فى أخبار غرناطة، المجلد الرابع، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٧، ص ٣٤٤.

(3) Gaspar Remiro (M), Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1965, pp. 152, 153.

ويذكر ابن عذارى أن ابن غانية وفد عندئذإلى شرق الأندلس والياً لمرسيه [١]. ولكن يبدو أنه قدم إليه بصفته قائداً للجيوش المرابطية، وأنه لم يحظ بولاية بلنسيه ومرسيه إلا بعد وفاة يدر فى عام ٥٢٤هـ/١١٢٩م [٢] بدليل أن ابن القطان يذكر أنه لما «مات يدر جمع على بن يوسف عمله إلى ابن غانية فسكن مدينة بلنسيه واجتمع عليه عسكرها» [٣].

وابن غانية هو الأمير أبو زكريا يحيى بن علي بن غانية الصحراوى، وقد سمى بنو غانية باسم أمهم غانية، وهي لمتونية من قرابة يوسف بن تاشفين، وربما كانت تسميتها بهذا الاسم دليلا على أصلها الإقليمى نسبة إلى بلاد غانة، وقد كان شائعاً فى هذا الوقت تلقيب الولد باسم الأم دون الأب، لا سيما عندما كانت الأم تمتاز بصفات وخلال عالية، وكان والد يحيى بن علي بن يوسف من زعماء قبيلة مسوفة أحد بطون صنهاجة، وربى يحيى وأخوه محمد، الذى تولى حكم الجزائر الشرقية فيما بعد، فى بلاط مراكش فى عهد يوسف بن تاشفين وولده علي [٤]، ثم عبر يحيى إلى الأندلس وهو فتى، وعاش فى كنف الأمير أبى عبد الله محمد بن الحاج اللمتونى والى قرطبة، الذى تزوج من أمه غانية هذه بعد وفاة أبيه وكفله فندبه لحكم مدينة استجة (Ecija) فكانت أول ولاية له [٥]. وبدأ نجمه يلمع فى أحداث الأندلس منذ أن انتدب فى خدمة يدر، وأصبح اسمه يتردد فى معظم الحملات التى وجهها المرابطون على أرغون وقطالونية، وفرضت الأوضاع القلقة فى هذه المنطقة لقربها من الممالك المسيحية فى الشمال وتعرضها لهجماتهم المتكررة، على واليها أن يتفرغ تفرغاً كاملا لشئون الحرب والقيادة، وهكذا كان يحيى بن غانية ينيب عنه فى حكم بلنسيه ومرسيه المنصور بن محمد بن الحاج أخاه لأمه [٦].

---

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٦٧.

(٢) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٢٠، ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٤، ص ٣٤٤، وفى رواية لابن عذارى يقول فيها أن الذى خلف يدر فى ولاية شرق الأندلس هو ينتان بن علي اللمتونى، راجع : البيان المغرب، القسم الخاص بالمرابطين، ٨١.

(٣) نظم الجمان، ص ٢٢٠، ص ٢٢١.

(4) Al Fred Bel, Les Benou Ghanya, Paris, 1903, pp. 1-5.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٤، ص ٣٤٤.

(٦) ابن الآبار (أبو عبد الله محمد عبد الله بن أبى بكر القضاعى)، المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى علي الصوفى، تحقيق الأستاذان فرانسيكو كوديرا وزيدان، مجريط، ١٨٨٥، ص١٩٤، ترجمة ١٧٣.

وكان ألفونسو يرمى بعد استيلائه على مدينة مكننسه الواقعة عند ملتقى نهر سجرى وابره فى يونيه ١١٣٣م / أواخر ٥٢٧هـ إلى السيطرة على مدينة افراغه، وتقع على ربوة عالية فى نهاية جرف شديد الانحدار تصعب مهاجمته فى الضفة اليمنى لنهر سنكا وعلى مسافة قريبة شمالى مكننسة، ولكن المرابطين إذ استشعروا من تحركات ألفونسو المحارب بأن المعركة الحاسمة بينهم وبين النصارى فى الثغر الأعلى باتت على وشك الوقوع، رأوا من باب التحوط والتحرز تحييد أمير برشلونة رامون برنجير الثالث Ramon Berenguer III الملقب بالعظيم El Grande ومهادنته تأميناً لظهورهم وحتى لا ينتهز الفرصة فيهاجم من جانبه، ويعبر ابن القطان عن ذلك بقوله : «فخافوا أن ينفتق عليهم فتق آخر من البرشلونى» (١)، فاتفقوا استجابة لمشورة علي بن يوسف وتوجيهه على أن يؤدوا له جزية سنيوة قدرها اثنا عشر ألف دينار، فغضب ألفونسو المحارب، وأقسم بايمان مغلظة «لأنزلن على تلك البلاد التى يؤدون عليها الجزيرة فأصيرها فى ملكى، وأقطع منفعتها عن الفاعل الصانع البرشلونى حتى يعلم أهل الأرض أنى قهرتهم فى كل وجه» (٢).

وصل ألفونسو المحارب بقواته إلى إفراغه، وأحكم حصاره حولها، فاستنجد حاكمها سعد بن مردنيش بالأمير تاشفين بن على الحاكم العام للأندلس ليرسل إليه نجدة فورية عاجلة، وقيل أن أهلها كتبوا إلى يحيى بن غانية يستنصرونه ويطلبون منه تزويدهم بالأقوات لنفاذ المؤن لديهم، ثم حذروهم من التقاعس عن إنجادهم وإلا خضعوا لابن رذمير وأعطوه المقادة (٣).

وكان طبيعياً أن يستجيب الأمير تاشفين لطلبهم فأرسل إليهم على الفور نجدة فعالة، فمن قرطبة أسرع واليها الزبير بن عمرو اللمتونى إلى الثغر الأعلى ومعه ألفا فارس ومؤن كثيرة، واشتركت قوات شرق الأندلس بقيادة واليها أبى زكريا يحيى بن غانية فى قوة من خمسمائة فارس، كما حشد عبد الله بن عياض والى لارده قوة من مائتى فارس (٤)، بينما كانت عدة الجيش الأرجونى اثنى عشر ألف فارس (٥).

---

(١) ابن القطان، المصدر السابق، ص ٩٩.

(٢) نفس المصدر ، ص ٢١٩-٢٢٠، ورواية ابن القطان هذه أكثر تفصيلا وخاصة أنها توضح العلاقات السياسية فى هذه الفترة بين أرغون وقطالونية والدوافع المباشرة لحصار افراغة.

(٣) ابن القطان، المصدر السابق، ص ٢٢١.

(٤) ابن الأثير، الكامل، جـ١١، ص ١٤.

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة.

وعندما اقترب ابن غانية من افراغه [١] بدأ ينظم عسكره تمهيداً للقتال، فقدم على قوات الطليعة ابن عياض، وعلى القلب قوات مرسيه، بينما ترك المؤخرة تحت قيادة الزبير بن عمرو [٢].

وفى صباح يوم ١٧ يوليو ١١٣٤م(رمضان سنة ٥٢٨هـ) وصل المدد والأنجاد إلى المحصورين وكان ألفونسو المحارب آنذاك قد استطال حصار افراغه ومل لطول المقام حولها فسرح جزءاً من قواته [٣]، ويروى ابن القطان تفاصيل طريفة عن حدث وقع أثناء هذا الحصار الأرغونى على افراغه مجمله أن أحد رهبان الفرنجة اقترح على ألفونسو أن يدعو هذا الراهب عليهم فينهدم حصنهم ويتمكن ألفونسو من اقتحام المدينة، ويبدو أن هذا الاقتراح لقى ترحيباً من الملك فأقره عليه، وأقبل الراهب على سور افراغه، فلما رآه أهل افراغه «قائماً على الربوة لم يشكوا فى خبره أنه هو، وكان عندهم منجنيق قوى فصوبوه إلى الربوة وغرضه الراهب ووضعوا فى كفته حجراً كبيراً... الراهب وهو فى دعائه على المسلمين يجد جده، فأصابه حجر المنجنيق على هذه الحالة، فذهب بنصفه وبقى نصفه فى موضعه [٤]».

وأياً ما كان الأمر فقد تقدمت قوات الطليعة بقيادة ابن عياض فاستهان بها ألفونسو وأرسل للقائها فرقة ضخمة من جيشه التحم معها ابن عياض وأبادها، وعندئذ أدرك ألفونسو خطورة الموقف، فأسرع بجميع قواته الموثوق فى عددها وشجاعتها نجدة لفرقته، إلا أنه وصل فى نفس الوقت قلب الجيش المرابطى بقيادة ابن غانية وعاق قوات ألفونسو واشتبك معها فى معركة ضارية، استطاع فيها ابن غانية أن يأسر عدداً كبيراً من عسكر ألفونسو، وفى الحال خرج المحصورون إلى خارج أسوار المدينة نساءً ورجالا كباراً وصغاراً، وأسرعوا إلى المعسكر الأرغونى، واشترك الرجال فى القتال،

---

(١) عن موقعة افراغة، انظر أيضاً:

ابن عذارى، البيان المغرب، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٩٢ وما بعدها، ابن الخطيب (لسان الدين)، أعمال الإعلام، الجزء الخاص بتاريخ أسبانيا، نشره الأستاذ ليفى بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ٢٥٩، السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٧٣٧؛

Codera, op.cit., p. 17; Gaspar, Remiro, op.cit., p. 154; José Maria Lacarra; op.cit., pp. 130-131.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١، ص ١٤، وانظر أيضاً:

Gaspar remiro, op.,cit., pp. 154-155.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١، ص ١٤، الحميرى، المصدر السابق، ص ٢٥.

(٤) ابن القطان، المصدر السابق، ص ٨١، ص ٨٢.

ونهب النساء كل ما عثروا عليه، ولما احتدمت المعركة بين ألفونسو المحارب وابن غانية، تقدمت قوات المؤخرة بقيادة الزبير لتضرب ضربتها وقت ذلك فى عضد ألفونسو وآثر السلامة لمن بقى من عسكره حياً وانسحب بمن نجا منهم إلى سرقسطة، ولكنه لم يلبث أن توفى مغموماً عندما وقف على كثرة قتلاه[1].

وهكذا انتهى يوم افراغه بهزيمة ساحقة منى بها ألفونسو واستولى المرابطون على محلاته وعتاده وسلاحه، وكان لهذا الانتصار الحاسم الذى حققه المرابطون فى افراغه صدى كبير فى سائر أنحاء الأندلس وفى أسبانيا النصرانية بوجه خاص، وعادت سمعة المرابطين العسكرية إلى سابق مكانتها، وذاع صيت ابن غانية قائد جيوش المرابطين ووالى بلنسية ومرسيه، فنظم الشاعر أبو جعفر بن وضاح المرسى، فى واقعة افراغه وفى مديح ابن غانية قصيدة طويلة منها:

شمرت برديك لما أسبل الواتى ∴ وشب منك الأعادى نار غيان
دلفت فى غاية الخطى نحوهم ∴ كالعين يهفو عليها وطف أجفان
عقرتهم بسيوفه الهند مصلتة ∴ كأنما شربوا منها بغدران[2]

ب ـ نتائج انتصار افراغه:

استغل ابن غانية النجاح الذى أحرزه فى افراغه (Fraga) والارتباك الذى أعقب وفاة الفونسو المحارب فى ٧ سبتمبر ١١٣٤م واستخلاف رميره الراهب وانتهاء المعاهدة المعقودة بينه وبين الراهب، فاتفق مع سعد بن مردنيش والى افراغه على حصار مدينة مكننسه Mequineza التى كانت قد استسلمت منذ ثلاث سنوات لألفونسو المحارب، فدفع لمحاصرتها بقوات من لاردة وطرطوشة والقلاع المجاورة فى صيف عام ٥٣٠هـ/١١٣٦م، وبدأ يحاصرها، ولما حاولت قافلة محملة بالمؤمن من سرقسطة إمداد المحاصرين، ولت الأدبار عند رؤية أصحابها لابن غانية، وتركوا القافلة غنيمة للمسلمين وعندئذ اشتد اليأس بالمحصورين فقرر والى المدينة التسليم وسمح له ابن غانية بالخروج من المدينة فى أهله، وفى الحال دخلها ابن غانية وأخضع كل قلاع المنطقة [3].

---

(١) راجع: ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١، ص ١٤، الحميرى، المصدر السابق، ص ٢٥.

(٢) فى: الحميرى، المصدر السابق، ص ٢٥.

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٩٥-٩٦، وانظر أيضاً:
Huici Miranda, op.cit. , t. III, p. 91.

اشتراك ابن غانية في محاولة فك الحصار عن أريليه:

كانت أريليه (Oreja-aurelia) من أمنع الحصون الإسلامية إذ كان عمرانها يمتد فوق المرتفعات الواقعة على الضفة اليسرى لنهر تاجه Tago، على بعد أحد عشر ميلا شرقي أرانخويس Aranjuez، وكان هذا الحصن مصدر قلق دائم للقشتاليين وقاعدة المسلمين في كل غاراتهم على قشتالة[1].

وكان قائد الحصن يشن هجماته السريعة على نحو يكاد يكون متواصلا على أراضي طليطلة بمعاونة قائد حامية قلعة رباح، وقد اتفق في إحدى غاراته أن فاجأ جوتبرث أرميلدث حاكم الفهمين، والأخوين دومنجو وديبجو الفارث حاكماً اشكونيه Escolona في كمين أعده لهم، وانتهى الأمر بقضائه عليهم، وتطلق عليه مدونة الفونسو السابع قاتل المسيحيين وفرسان ترانسييرا[2].

وتشير الرواية المسيحية إلى أن ألفونسو السابع قرر إزاء هذا الخطر الماثل أن يضع حداً لهذه الغارات المتكررة عن طريق سيطرته على حصن أريليه، فأعد لذلك قوة عسكرية أسند قيادتها إلى جوتييرو فرناندث Guterrio Fernandez حاكم طليطلة يتكون من قوات من ترانسييرا واستراما دوره وجليقية وليون، وقام بمحاصرة حصن أريليه في شهر أبريل ١١٣٩م، كما حضر الإمبراطور بنفسه للإشراف على احكام الحصار حول القلعة [3].

وقد واجه قائد حصن أريليه المرابطي الحصار بكل قوة وبسالة وصمد له زهاء خمسة شهور (من أبريل حتى سبتمبر)، وعندما رأى استحالة الصمود أكثر من ذلك نظر لنفاد المؤمن والأقوات وتفشي الجوع بين قواته، لم يتردد في طلب العون من المرابطين فهرعت إليه قوات من قرطبة بقيادة واليها، ومن أشبيلية، ومن شرق الأندلس بقيادة يحيى بن غانية واجتمعت هذه القوات تحت قيادة يحيى بن غانية لإنجاد الحصن وإمداده بالمؤمن وتضيف الرواية المسيحية أن عسكر المسلمين وتبلغ عدتهم ثلاثين ألف فارس سلكوا طريق طليطلة وأن ابن غانية وضع قوات كبيرة من شرق الأندلس في كمين نصبه بمقتضاه تتقدم قوات المرابطين في قرطبة وأشبيلية لمهاجمة طليطلة، فيبادر ألفونسو السابع لإنقاذها، وعندئذ تخرج قوات شرق الأندلس وتهاجم القوات القشتالية المحاصرة لحصن أريليه وتنجد حامية القلعة بالرجال وتمدها بالمؤمن

---

(1) Chronica Adefons, Imperatoris, de la edicion luis Sanchez belda, Madrid, 1950, No. 146, p. 133; Huici Miranda; Ibid, p. 92.
(2) Chronica Adefonsi Imperatoris, No. 152, p. 146; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 92.
(3) Huici Miranda, Ibid, p. 93.

والعتاد، وتذكر الرواية المسيحية أن المسيحيين علموا بأمر هذا الاتفاق، وأنهم أبلغوا الإمبراطور بالخطة ولكن الإمبراطور كان واثقاً فى قدرة طليطلة على الصمود لقوة حاميتها فرر البقاء على حصار أريليه [١]. وعندما وصل الجيش المرابطى إلى ظاهر أسوار طليطلة، حسب الخطة التى أعدها ابن غانية خرجت الملكة نرنجيلا إلى شرفة القصر العالى المطل على نهر تاجه وظهرت مع وصيفاتها أمام قادة المسلمين وقد ازدانت بأفخر الثياب والحلى، وبعثت إلى ابن غانية رسولها يؤنبه بلسانها لأنه قدم لمهاجمة بلد تدافع عنه امرأة، فى حين أن الامبراطور ينتظرهم بجيشه عند حصن أريليه، فدهش ابن غانية ومن برفقته من قادة المسلمين ولم يسعهم إلا أن ينحنوا قبالة الملكة المطلة عليهم تكريماً لها وتعظيماً، ثم استأنفوا سيرهم دون أن يقوموا بأية محاولة لمهاجمة هذه المدينة، وعلى هذا النحو من روح الفروسية صورت الروايات هذا اللقاء بين المسلمين والنصارى فى أراضى طليطلة [٢].

أما قائد حصن أريليه فقد اضطر إلى طلب مهلة ثلاثين يوماً وفقاً لتقاليد هذا العصر ـ لطلب نجدة أخرى قبل أن يستسلم لمحاصريه ـ وتفترض الرواية المسيحية أنه على الرغم من إخفاقه فى نصرة قوات الأندلس له، فقد بعث برسل إلى المغرب يطلب منهم العون والمدد، ولكنه اضطر فى النهاية إلى التسليم، وسمح القشتاليون لحامية الحصن أن تخرج بالأمان وأن تسير إلى قلعة رباح [٣].

أما الرواية الإسلامية الوحيدة التى تزودنا ببعض أخبار هذه الغزوة وأعنى بها رواية ابن القطان فتشير إلى أن السليطين (ألفونسو السابع) غز أريليه فى شهر رمضان سنة ٥٣٣هـ، فهرعت لنجدة المدينة قوات من شتى الولايات الأندلسية،ثم كفوا ورجعوا من الطريق، ونقصت المؤن وقطع الماء عن المدينة، واشتد بهم الحصار، فأسلموا الحصن للنصارى [٤].

وأيًا ما كان الأمر، فقد اعتبر القشتاليون الاستيلاء على هذا الحصن فتحاً مبيناً،

---

(1) Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 93.
(2) Chronica Adefonsi Imperatoris, No. 116, pp. 90-91.

وانظر أيضاً :

Ibars (Andres Piles), Valencia Arabe; tomo I, Valencia, 1901, p. 481.

محمد عبد الله عـ ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس، القسم الأول، القاهرة، ١٩٦٤، ص ١٥١.

(3) Chronica Adefonsi Imperatoris, No. 154, p. 150.

وانظر أيضاً:

Huici Miranda , op.cit., t. III, pp. 96-97

(٤) نظم الجمان، ص ٢٤٤-٢٤٥.

واحتفلوا بذلك فى طليطلة، واستقبل رجال الدين القيصر الظافر، وساروا فى موكبه إلى الكنيسة الكبرى حيث أقيم قداس شكر حافل، [1]، بينما يبد نجم ابن غانيه، المنتصر فى افراغه منذ ذلك الحين يخبو شيئاً فشيئاً وكأنها بداية النهاية لهذه الشخصية العظيمة.

٤ ـ ثورة شرق الأندلس على المرابطين وبداية انهيار سلطانهم فيه

أ ـ مقدمات الثورة:

كان للحوادث التى قامت بالمغرب من انتصار الدعوة الموحدية وانتشارها وانهيار سلطان المرابطين فى المغرب، صدى قوى فى الأندلس حيث كانت الدولة المرابطية ماتزال تبسط سلطانها على مختلف قواعده، وقد تمثل ذلك فى شكل ثورة عارمة ضد المرابطين شملت معظم أنحاء الأندلس، ومبررها فى الظاهر عجزهم عن حماية الأندلس من غزوات النصارى المخربة، وفى الواقع تفوق العصبية الأندلسية التى ضاقت ذرعاً بحكم المرابطين الجائر المتستر وراء فكرة الجهاد، وقد تمثل ذلك واضحاً فى أحداث قرطبة عام ٥١٥هـ التى سبق الإشارة إليها [2]، والتى تعتبر أول تعبير ملموس لهذا الشعور القومى الجارف ضد عسف الحكم المرابطى.

وأول أعراض هذه الثورة العامة على المرابطين ظهرت فى غرب الأندلس فى الوقت الذى أوشك فيه سلطان المرابطين فى المغرب على الانهيار، فثار عليهم أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسى فى منطقة شلب، وكان ابن قسى هذا مولداً، من أصل مسيحى، نشأ فى أحواز شلب، وعمل فى بداية أمره مشرفاً بشلب [3]، ثم اعتنق طرائق الصوفية، وتبحر فيها حتى أصبح من شيوخها، وألف فيها عدداً من الكتب، منها كتاب «خلع النعلين» [4]، وتزهد وادعى الولاية والهداية، وتسمى بالمهدى وبالإمام والتف حوله كثير من الصحب والأنصار، ينكبون على قراءة الكتب الصوفية والباطنية وغيرها، حتى ذاع أمرهم بالأخص فى منطقة شلب وميرتله ولبله

---

(١) أشباخ، المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٢) راجع: ص ٦٣ من هذا الكتاب.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، الجزء الخاص بالأندلس، ص ٢٤٩.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

وغيرها من أعمال غرب الأندلس، وسموا بطائفة المريدين [1]، ولذلك عرفت ثورة ابن قسى بثورة المريدين[2].

وقد نجح ابن قسى فى القضاء على سلطان المرابطين فى ميرتله فى ربيع الأول سنة ٥٣٩هـ[3]، وفى أعقاب ذلك قام أهل يابره برئاسة سيد راى بن وزير بخلع سلطان المرابطين فيها وحذا حذوهم أهل شلب برئاسة محمد بن عمر ابن المنذر، ولما علم المرابطون بباجه بما وقع طلبوا من أهلها الأمان، وغادروها إلى أشبيليه، فأسند ابن قسى حكم باجه وأحوازها إلى ابن وزير وحكم شلب وأحوازها إلى ابن المنذر [4].

وتوالت الأحداث بعد ذلك فى غرب الأندلس إلى أن فسد ما بين ابن قسى وابن وزير باستيلاء الأخير على ميرتله، فجاز ابن قسى إلى عبد المؤمن بمراكش فى عام ٥٤١هـ ورغبة فى امتلاك الأندلس، فسير عبد المؤمن معه جيشاً بقيادة براز بن محمد المسوفى لقتال المرابطين والثوار فى الأندلس [5].

ومن الجدير بالذكر أن هذه الثورة كانت أحد الأسباب فى إقدام المرابطين فى الأندلس على نقل ابن غانية من ولاية شرق الأندلس إلى ولاية قرطبة وأشبيليه [6]، ولهذا لم يتردد ابن غانية فى التصدى لابن قسى وأتباعه عندما زحفوا على أشبيليه، وتمكن من إيقاع الهزيمة بهم فى طريانة، ثم طاردهم حتى لبله، وأخذ فى منازلتها، وهنا وصلته أخبار عن قيام الثورة فى قرطبة فارتد فى الحال إلى أشبيليه وأقام بها استعداداً لمواجهة الأحداث المقبلة.

وهكذا لم تمض بضعة أشهر على قيام المريدين بحركتهم فى غرب الأندلس وسقوط قواعده فى أيدى الثوار، حتى قامت الثورة فى قرطبة بزعامة قاضيها أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن حمدين أثناء غياب ابن غانية عنها فى لقائه مع أحمد بن قسى، وتفصيل ذلك أن العامة ثاروا بالوالى المرابطى أبى عمر اللمتونى،

---

(١) ابن الآبار، الحلة السيراء، الجزء الثانى، ص ١٩٩.

(٢) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص ٢٤٨.

(٣) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، المجلد السادس، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٥٩، ص٤٨٥-٤٨٦.

(6) Gaspar Remiro, op.cit., p. 166.

وأعلنوا خلعه وخلع دعوة المرابطين ونادوا برياسة القاضى أبى جعفر بن حمدين الذى بويع بالإمارة فى المسجد الجامع فى الخامس من شهر رمضان عام ٥٣٩هـ، واستقر ابن حمدين بقصر الخلافة، وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين [١]، وقيل تسمى بالمنصور بالله [٢]. وقد شجع نجاح ثورة ابن حمدين على المرابطين وإخفاق ابن غانية فى لبله أهل بلنسيه على مجاراة المريدين فلم يترددوا فى إعلان ثورتهم على المرابطين فى ٥ رمضان عام ٥٣٩هـ (أول مارس ١١٤٥م)[٣].

ب ـ ثورة بلنسية على المرابطين:

كانت بلنسية بحكم موقعها الجغرافى والاستراتيجى أهم قواعد المرابطين فى شرق الأندلس، ولذلك أولوها عناية خاصة فعهدوا بولايتها لصفوة من القرابة والخاصة.

وكان على ولاية بلنسية فى الوقت الذى احتدمت فيه الثورة فى غربى الأندلس وفى قرطبة أبو محمد عبد الله بن محمد بن على أخى يحيى بن غانية، وقاضيها يومئذ مروان بن عبد الله بن مروان بن عبد العزيز، وكان قد ولاه تاشفين بن يوسف هذا المنصب فى ٢٤ ذى الحجة ٥٣٨هـ [٤].

فلما اضطرمت الثورة فى قرطبة، بعد نشوبها فى غرب الأندلس، ونادى ابن حمدين بخلع الدعوة للمرابطين فى ٥ رمضان ٥٣٩هـ، انتقل شررها إلى بلنسيه واضطرب أهلها، فاجتمع فى الحال واليها المرابطى عبد الله بن محمد بن غانية وقاضيها مروان بن عبد العزيز، رغم عدائهما، لمواجهة الموقف المتفجر واتفقا فى هذا الاجتماع على الائتلاف والتعاون لتهدئة الحال بالمدينة، ثم جمع القاضى أهل بلنسية فى مسجدها الجامع، فخطب فيه القاضى مروان بن عبد العزيز وذكرهم بجهاد اللمتونيين ضد النصارى، ونصرهم للأندلس، وتحريرهم بلنسية بعد موت السيد القمبياطور، وحثهم على التمسك بدعوة المرابطين ثم أعقبه ابن غانية الوالى فحدثهم

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، ص ٢٥٢-٢٥٣، ابن سعيد المغربى: المغرب فى حلي المغرب، جـ١، ص ٥٧.

(٢) الضبى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة)، بغية الملتمس فى رجال الأندلس، تحقيق كوديرا وزيدان، مجريط ١٨٨٤، ص ٣٢.

(٣) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢١٨.

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة.

بمثل ذلك، وذكر الناس بأيام عمه يحيى بن غانية، وما كان بينه وبينهم من مودة كما ذكرهم بأعماله الجليلة وبكفاءته العالية ودفاعه المشرف عن شرق الأندلس وهزيمته لألفونسو الأول المحارب فى افراغه (١).

وعلى إثر ذلك هدأت الأحوال نسبياً فى بلنسية ولكن كان هدوءاً مشوباً بالتوتر الذى يسبق الثورة لاسيما أن التفاهم الوقتى الذى تم بين والى المدينة المرابطى وقاضيها كان فى الحقيقة قناعاً زائفاً يخفى وراءه عداءاً حقيقياً يضمره أحدهما للأخر، وحدث أن نمى إلى عبد الله بن غانية من القول عن القاضى وأصحابه ما أزعجه فتوجس خيفة، فبعث بأهله وأمواله خفية إلى شاطبة ليلة الأربعاء ١٨ رمضان سنة ٥٣٩هـ، وبقى هو بالولجة حيث اشتبك أنصاره مع عسكر بلنسية واضطر فى النهاية إلى أن يلوذ بالفرار فى صحبه إلى شاطبة (٢).

ومن شاطبة أخذت سرياته اللمتونية تغير على جهات بلنسيه، وتكتسح كل ما تجده أمامها، فأسرع الجند والعرب ووجوه أهل البلد إلى القاضى مروان بن عبد العزيز وطلبوا منه أن يتولى أمرهم، فأبى وقال: «اختاروا من شيوخكم من تقدمونه» (٣)، فوقع الاختيار على بعض زعماء لمتونة ممن بقى منهم فى المدينة وظل الوضع على هذا النحو فترة من الوقت، ثم أراد هذا الوالى المرابطى الجديد أن يقبض على القاضى ابن عبد العزيز المسؤول الأول عن عزل عبد الله بن محمد بن غانية ولكنه لم يأخذ فى الاعتبار مساندة الشعب البلنسى وجنده للقاضى فأخفق فى مسعاه، ثم خاف أن يبطشوا به ففر إلى شاطبة مع أتباعه (٤).

وعلى إثر ذلك أجمع أهل الميدنة على اختيار القاضى ابن عبد العزيز للولاية، فاستخفى، فسعى إلى الانفراد به أبو عبد الله بن عياض قائد الثغر وعبد الله بن مردنيش، وقالا له: «هذا الأمر لابد منه، والرأى المبادرة» (٥)، فقبل الإمارة وتمت له البيعة فى ٣ شوال سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م فى حين ولى عبد الله بن عياض الثغر وما والاه (٦).

(١) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢١٨، وانظر أيضاً:
Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 103.

(٢) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢١٩.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢١٩، وانظر أيضاً:
Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 104.

(٥) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٦) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢١٩، وراجع أيضاً:
Gaspar Remiro, op.cit., p. 177; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 104.

ولما تكررت غارات المرابطين على أحواز مدينة بلنسيه، وكثر عبثهم فيها، حشد ابن عبد العزيز عسكر الثغر وتوجه إلى شاطبة فى ١٨ شوال، فهبط المرابطون من قصبة شاطبة إلى المدينة، وعاثوا فيها، فنهبوا ديارها وسبوا نساءها، والتقى جند بلنسية بقوات المرابطين، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها المرابطون، فانسحبوا وتحصنوا بقصبة شاطبة وحاصرتهم قوات بلنسيه، وفى هذه الأثناء قدم عسكر من مرسيه فى آخر شهر شوال بقيادة قاضيها أبى جعفر محمد بن عبد الله بن أبى جعفر لنجدة ابن عبد العزيز وانضم إليهما ابن عياض فى جند الثغر لنصرة أميره ابن عبد العزيز [١].

وأدرك عبد الله بن محمد بن غانية، أنه لا طاقة له بهذه القوى، ففر فى نفر من أنجاد قومه، ويبدو أن خبر هروبه قد بلغ جند بلنسيه، فاتبعوه ولكنهم لم يفوزوا بطائل إذ نجح فى الوصول إلى الساحل ومن هناك أبحر إلى المريه حيث التقى بمحمد بن ميمون قائد الأسطول، وكان ما يزال على ولائه للمرابطين فجهزه إلى مدينة ميورقة، حيث كان أبوه محمد بن غانية يتولى أمر الجزائر، فاستقر إلى جانبه [٢].

وبفـــرار عبد الله بن محمـــد بن غانية من قصبة شاطبة، تم لابن عبد العزيز السيطرة على مدينة شاطبة صلحا، فحصنها وعين لها قائداً، وانضمت إليه لقنت ودخلتا فى أعماله، ثم عاد إلى بلنسية حيث جددت له البيعة فى صفر سنة ٥٤٠هـ، وقفل ابن أبى جعفر عائداً بقواته إلى مرسيه[٣].

جـ ـ ثورة مرسيه:

تعتبر مدينة مرسيه القاعدة الثانية لشرق الأندلس بعد بلنسيه، ولهذا لم تلبث أن عصفت بها ريح الثورة بعد أن اشتعلت فى بلنسيه، فبايع أهلها عبد العزيز بن جعفر بن إبراهيم المعروف بأبى محمد بن الحاج اللورقى، فدعا لابن حمدين أياماً من شهرى رمضان وشوال عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، ثم لم يلبث أن تبرم بالإمارة ورغب فى التخلى عن منصبه بسبب ما تعرض له من المتاعب [٤].

وكان سيف الدولة بن هود فى ذلك الوقت يترقب الأحداث فى شرق الأندلس،

---

(١) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢٢٠.

(٢) نفس المصدر والصفحة، وانظر أيضاً : ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، ص ٢٥٦.

(٣) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٢٠.

(٤) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢٢٧ ؛ الضبى، المصدر السابق، ص ٣٣.

فلما علم بما وقع فى مرسيه، بعث إليها قائداً من قواده يدعى عبد الله بن فتوح الثغرى، فأخرج ابن الحاج منها فى النصف الثانى من شهر شوال، ودعا لابن هود، ولكن أهلها لم يلبثوا أن أخرجوه منها، وقدموا عليه الفقيه أبا جعفر محمد بن عبد الله بن أبى جعفر الخشنى فى آخر شوال من نفس العام، فاستمر قائماً بأمرهم حتى أوائل عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م وكان يبدى طوال هذه الفترة تبرمه بالإمارة ويقول : «إنها ليست تصلح لى ولست بأهل لها، ولكنى أريد أن أمسك الناس بعضهم عن بعض حتى يجيء من يكون أهلا لها» (١)

ويأتى ابن صاحب الصلاة برواية أخرى أورد فيها أن عبد الله الثغرى كان قائداً بمدينة كونكة، فلما سمع بقيام ابن حمدين بقرطبة، سار إليه وأقام عنده، واتفق أن وصلته أنباء من مرسيه بقيام ابن الحاج ثم تبرمه بالرياسة، فبعث ابن حمدين إليهم عبد الله الثغرى والياً على مرسيه، فقدم الفقيه أبا جعفر بن أبى جعفر قاضياً وذلك فى منتصف شوال سنة ٥٣٩هـ، فظهر من أبى جعفر حب الظهور والتعلق بالرياسة، وحشد الناس لقتال المرابطين فى أوريوله وغدر بهم عند نزولهم على الأمان فقتلهم، وضم أوريولة إلى عمله ثم داخل أهل مرسيه فى أن يقدموه للإمارة، وأن يقدم للقضاء أبا العباس بن الحلال ولقيادة الخيل عبد الله الثغرى، فوافقوه (٢).

ولما عقدت له البيعة نبذ طاعة ابن حمدين ودعا لنفسه، وتلقب بالأمير الناصر لدين الله، وقبض على عبد الله الثغرى وسجنه وصهريه ابنى مسلوقة، وعهد بقيادة الخيل لقائد يدعى زعنون، ثم سار إلى شاطبة لمعاونة ابن عبد العزيز فى حصارها، فثار عليه أهل مرسيه أثناء غيابه بها، وأطلقوا سراح الثغرى وصهريه، وعندما علم أبو جعفر بهذه الأنباء رجع على عجل إلى مرسيه وضبطها، وفر الثغرى إلى كونكه، ثم عاد أبى جعفر مرة ثانية إلى شاطبة لمعاونة ابن عبد العزيز، ولما فر عبد الله بن محمد بن غانية من شاطبه، كما سبق القول، واستولى ابن عبد العزيز عليها، عاد أبو جعفر إلى مرسيه فى صفر عام ٥٤٠هـ (٣).

وفى نفس هذه السنة لقى أبو جعفر مصرعه خارج مدينة غرناطة، عندما خرج لنجدة ابن أضحى الثائر على المرابطين عام ٥٤٠هـ (٤).

---

(١) نفس المصدر والجزء، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) فى : ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢٢٩.

(٣) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٤) نفس المصدر والجزء، ص ٢٣٠.

٥ ـ تطور الأحداث فى شرق الأندلس
بعد انهيار سلطان المرابطين

أ ـ الوضع فى مرسيه:

لما عادت فلول قوات مرسيه بعد مصرع أبى جعفر، أجمع أهلها على تقديم أبى عبد الرحمن بن طاهر، وتم ذلك فى أواخر شهر ربيع الأول عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م، فانتقل إلى القصر ودعا لابن هود، ثم لنفسه من بعده[١]، وأقام أخاه أبا بكر على الخيل.

وابن طاهر هذا هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد ابن عبد الرحمن بن طاهر القيسى، من أسرة عريقة كان لها على حد قول ابن حيان «فى قدم الرئاسة وكرم السياسة ذكر مأثور وأثر مذكور» [٢].

وكان ابن حمدين عندما اضطربت الأحوال فى مرسيه، قد وجه إليها قوة بقيادة ابن أخيه المعروف بابن العماد، فردت هذه القوة على أعقابها، ثم عاد ابن حمدين ووجه قوة أخرى بقيادة ابن عمه المعروف بالفلفلى وصحبه أبى محمد بن الحاج وابن سوار وغيرهما من أعيان مرسيه اللاجئين إلى قرطبة فكان مصير هذه القوة نفس مصير سابقتها وعومل أنصار ابن حمدين معاملة سيئة وطردهم الأهالى من المدينة [٣].

غير أن أهل مرسيه لم يلبثوا أن يرموا بابن طاهر ولما تمضى على رياسته خمسين يوماً [٤]، فقد اتصلوا بأبى محمد عبد الرحمن بن عياض قائد جند الثغر فى بلنسية يدعونه إلى القدوم إليهم ملوحين له بالإمارة، فلم يتردد هذا فى السير إلى مرسية ومر فى طريقه بأوريوله حيث سلمها له قائدها زعنون، ثم سار إلى مرسيه وبصحبته عدداً من أعيانها ممن برزوا للقائه، ثم دخل ابن عياض قصر الإمارة بمرسية لا يدفعه عنه أحد فى العاشر من جمادى الأولى عام ٥٤٠هـ معلناً ولاءه لسيف الدولة ابن هود، فلم يشعر ابن طاهر إلا وقد نزع من رياسته، فانتقل إلى القصر الصغير

---

(١) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢٣٠.

(٢) نفس المصدر والجزء، ص ٢٢٧.

(٣) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٣٠؛ والفلفلى هو أبو الحسن محمد بن حمدين بن علي ابن محمد بن عبد العزيز بن حمدين، وكان ابن حمدين قد ولاه أمر مرسيه بعد مقتل أميرها ابن أبى جعفر بغرناطة؛ راجع : ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٥٥.

(٤) ابن الآبار، نفس المصدر، جـ٢، ص ٢٥٥.

ثم خشى على نفسه فتركه وانتقل إلى داره وقد أبقى عليه ابن عياض لعلمه بضعفه[1].

وأقام ابن طاهر بمرسيه معتزلا الأحداث ولكنه كان يشهد فى صمت صراع محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرق الأندلس مع الموحدين إلى أن توفى ابن سعد فى عام ٥٦٧هـ، فدخل ابن طاهر فى طاعة الموحدين، وانتقل إلى مراكش وبها توفىَ عام ٥٧٤هـ[2].

ب ـ اضطراب الأحوال فى بلنسية :

لم يستطع ابن عبد العزيز أن يكتسب قلوب جنده بسبب عجز الجباية وقصوره عن الوفاء بأجور الجند، الأمر الذى أدى إلى تمردهم عليه فى ٢٥ من جمادى الأولى سنة ٥٤٠هـ بعد أن خاطبوا ابن عياض أمير مرسيه يتعجلونه الوصول إليهم، وحاصروه فى قصر الإمارة، فاضطر إلى الفرار من بلنسية بعدأن تدلى من سورها ليلا ولحق بالمريه، وهناك اجتمع بمحمد بن ميمون أمير البحر الذى تعرف عليه وقبض عليه وقيده، ودفعه إلى عدوه السابق عبد الله بن غانية، واتفق وجوده بها آنذاك، فاحتمله معه مقيداً إلى باله وعف عن دمه [3]، ولكنه سجنه فى مطبق كئيب فى جوف الأرض مدة عشرة أعوام، عانى خلالها ألواناً من العذاب [4]، إلى أن أطلق سراحه بإيعاز من الوزير أبى جعفر بن عطية فى سنة ٥٤٨هـ فانتقل إلى مراكش حيث انتظم فى بلاط الخليفة وفى مجلسه العلمى [5]. وظل ابن عبد العزيز يقيم بمراكش مهملا خامل الشأن حتى توفى عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م وقد ناهز الثالثة والسبعين من عمره.

وكان جند بلنسية قد قدموا لرئاستهم، بعد خروج ابن عبد العزيز، عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض لينوب عنه مؤقتاً إلى أن يقدم إليهم ابن

---

(١) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣٠-٢٣١، انظر أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., pp. 174-175.

(٢) ابن الآبار، نفس المصدر، جـ٢، ص ٢٣٣، وانظر أيضا:

Gaspar Remiro, Ibid, p. 175.

(٣) ابن الآبار نفس المصدر، جـ٢، ص ٢٢١ – ٢٢٢ ، وأنظر أيضا: ابن الخطيب، أعمال الأعلام القسم الأندلس، ص ٢٥٦.

(٤) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٢٥.

(٥) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٢٦، وانظر أيضاً : ابن عذارى، البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، القسم الثالث، تحقيق الأستاذ أمبروسى أويثى ميرآندا وآخرون، تطوان، ١٩٦٠، ص ٣٦.

عياض ليتلقى بيعتهم، فلما قدم ابن عياض فى آخر جمادى الأولى وتولى إمارتها باسم سيف الدولة بن هود أقام بها فترة ينظم أمورها، ويرم ثغورها ويحصنها ثم عاد إلى مرسيه بعد أن عهد إلى صهره عبد الله بن سعد ابن مردنيش بولايتها من قبله، وعبد الله هذا هو عم أبى عبد الله محمد بن سعد أمير شرق الأندلس فيما بعد، ويعرف بصاحب البسيط لأنه استشهد فيها مع سيف الدولة بن هود [١]، كما سنرى فيما بعد.

وهكذا أصبح ابن عياض يحكم بلنسية ومرسيه وأحوازهما باسم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك المعروف فى المصادر العربية بسيف الدولة بن هود، وفى المصادر الأسبانية Zafadola، آخر سلالة بنى هود أصحاب سرقسطة زمن الطوائف، وكان قد خلف والده فى حكم حصن روطة وما حولها من الحصون والأراضى، وتبع نهج والده فى محالفة النصارى والانضواء تحت حماية ألفونسو المحارب ملك أرغون ثم اتجه إلى حماية ألفونسو ريموندس ملك قشتالة، ثم اضطر إلى التنازل عن حصن روطة فى مقابل حصون وبلاد تدخل فى نطاق إقليمى طليطلة واسترامادورة، وتخلى له عنها ملك قشتالة، فانتقل إليها ووضع نفسه فى خدمته.[٢]

اعتقد سيف الدولة أن انتماءه إلى أسرة بنى هود التى حكمت سرقسطة ما يقرب من مائة عام، يؤهله لتحقيق حلمه فى امتلاك الأندلس، ومن ثم فقد لبث يترقب تطور الأحداث فى الأندلس، وواتته الفرصة عندما اعتقد فريق من أهل قرطبة، أنه خير ممثل للزعامة الأندلسية، ولذلك استدعوه ليتولى إمارة قرطبة، ولم يتردد هو فى الاستجابة السريعة ودخل قرطبة بممالأة فريق كبير من أهلها [٣]، فلاذ واليها ابن حمدين بالفرار، ولحق بحصن «فرنجولش» المنيع الواقع شمال غربى قرطبة ولكن أهل قرطبة لم يتركوه يهنأ بالإمارة فقد وثبوا عليه فى القصر وفتكوا بوزيره ابن الشماخ وعدة من أصحابه، فولى سيف الدولة ناجياً بنفسه وقصد مدينة جيان وانتزعها من القاضى ابن جزى ثم ضم إليه غرناطة ولكنه اضطر إلى تركها وعاد إلى جيان وهناك تلقى دعوة أهل مرسيه يستقدمونه للإمارة عليهم، فحل عليهم يوم الجمعة ١٨ رجب عام ٥٤٠هـ [٤].

(١) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٢٢، ص ٢٢٣.

(٢) نفس المصدر والجزء، ص ٢٤٨، ص ٢٥٠.

(٣) نفس المصدر والجزء، ص ٢٥١.

(٤) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٥١، انظر أيضاً :
Cronica del Emperador Don Alfonso VII, en Espana Sagrada, tomo XXI, p.330; Codera, op.cit., pp. 76-77.

وعندما أعلن ابن عياض حكمه لمرسيه وبلنسيه باسم سيف الدولة، كما سبقت الإشارة، بعث إليه ابن هود بولده أبى بكر، فخر ابن عياض للقائه واحتفى به، واصحبه معه إلى بلنسيه، ثم سار ابن هود بنفسه إلى مرسيه، ودخلها وأقام بقصرها فقدم عليه ابن عياض وأعلن طاعته، وامتثاله لأوامره، ونزل بالقصر الصغير، وفعهد إليه ابن هود بالأمور كلها، وأسبغ عليه لقب الرئيس، مكتفياً بلقب الإمارة ومظاهرها، كان ذلك فى ٢٠ رجب عام ٥٤٠هـ / أوائل عام ١١٤٦م [١]، وأطاعته جميع البلاد الواقعة على الشاطئ من لورقة إلى مصب نهر ابره، وازداد سيف الدولة ثقة بنفسه وقوته.[٢]

ولم تمض أيام على قدوم ابن هود إلى مرسيه حتى وافته الأخبار باعتداء القشتاليين على أحواز شاطبة، فبادر عبد الله بن سعد بن مردنيش بقوات بلنسيه لقتالهم، فأسرع ابن عياض وابن هود فى قواتهما لنجدته، والتقى الجيشان الإسلامى والقشتالى فى موضع يسمى «اللج» والبسيط على مقربة من جنجاله يوم الجمعة ٢٠ من شعبان عام ٥٤٠هـ، فدارت الدائرة على المسلمين، وقتل فى الموقعة عبد الله بن سعد بن مردنيش وسيف الدولة بن هود ونجا ابن عياض، وكانت وقيعة كبرى على المسلمين [٣] ومن الغريب فى هذا المجال أن التحالف الذى كان قائماً بين ألفونسو السابع وسيف الدولة تبدل فجأة إلى عداء سافر وهو أمر لم توضحه رواية ابن الآبار، ومن الصعب التحقق من الدوافع التى أدت إلى هذا التحول فى العلاقات المذكورة بسبب صمت المصادر العربية والأسبانية، فالمصادر الطليطلية تشير فى اقتضاب إلى أن سيف الدولة حارب مع المسيحيين فقتلوه فى شهر فبراير عام ١١٤٨م [٤]. وهذا التاريخ يوافق التاريخ الذى سجله ابن الآبار عن مصرع سيف الدولة فى ٢٠ شعبان عام ٥٤٠هـ [٥].

ويستفاد من مدونة ألفونسو السابع [٦]، أن سيف الدولة بن هود بعدما فشلت

---

(١) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٥١.
(٢) أشباخ، المرجع السابق، ص ٢١٦.
(٣) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٥١، ص ٢٥٢.
(٤) انظر:

Espana Sagrada, tomo XIII, p. 396.

(٥) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٥٢.

(6) Cronica del Emperador Don Alfonso VII, en Espana Sagrada, tomo, XXI,(p. 330; وانظر أيضاً:
Gaspar Remiro, op.cit., pp. 180-181; Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 112-113.
أشباخ، المرجع السابق، ص ٢١٦.

محاولته فى قرطبة بعث برسالة إلى ألفونسو السابع يعلمه فيها أن أراضى أبدة وبياسه وقلاعها وهما من أملاكه قد رفضت أداء الجزية المطلوبة، وفى الحال ندب ألفونسو السابع أربعاً من أشراف القشتاليين وهما القمامصة : مانريك (Manrique)، وارمنجود (Ermengod)، وبانثيو (Pancio)، ومارتين فرنانديث (Martin Fernandez) وأصدر إليهم أمره ليخضعوا هذه الأراضى والبلاد لطاعته وطاعة سيف الدولة تابعه، فاستغاث أصحاب هذه الأراضى بسيف الدولة وبذلوا له الطاعة فاستجاب لدعوتهم، وفى الحال توجه بجيش كبير وطلب إلى القمامصة النصارى أن يكفوا الأذى عن المسلمين وأن يردوا إليهم الأسلاب والأسرى وأن يتوقفوا عن أعمال التدمير والتخريب فى الأراضى الإسلامية فرفض القمامصة مطالب سيف الدولة، وأجابوا بأنهم يصدعون فى ذلك لأمر عاهلهم تحقيقاً لرغبة سيف الدولة نفسه، وطال الجدل بين الطرفين، فقرر سيف الدولة الدخول فى معركة معهم، وكانت شاطبة قد امتنعت عليهم، وسارت قوات بلنسية ومرسيه وسيف الدولة لقتالهم فى نفس الوقت، والتقى الفريقان الإسلامى والمسيحى فى سهل البسيط على مقربة من جنجالة، فهزم المسلمون شر هزيمة وقتل عبد الله بن سعد مردنيش قائد جند بلنسيه وأسر سيف الدولة، وألقى فى خيمة حيث قتله جند باردوس (Pardos)، دون معرفة لشخصه، وعلى أثر هذه الهزيمة النكراء تراجع ابن عياض فى فلول قواته إلى بلنسيه، وعندما علم ألفونسو السابع، وهو فى مدينة ليون، بمصرع حليفه القديم سيف الدولة أسف كل الأسف، وأعلن أنه برئ من دمه، وكما تذكر المدونة، فإن العالم المسيحى والإسلامى اقتنع أن ألفونسو السابع ليس متهماً بموت سيف الدولة بن هود.

وهكذا كانت نهاية سيف الدولة بن هود، تلك الشخصية المتقلبة بين الطاعة لألفونسو السابع ملك قشتالة والولاء لمسلمى شبه الجزيرة.

جـ ـ ولاية محمد بن سعد بن مردنيش على شرق الأندلس:

بمصرع سيف الدولة وعبد الله بن مردنيش، وأعلن ابن عياض الدعوة لنفسه فى كل من مرسيه وبلنسية، وكان قد ترك فى مرسية محمد بن سعد ابن مردنيش ينوب عنه فيها، وبعث عبد الله الثغرى سفيراً من قبله إلى ألفونسو ريموندس ليعقد معه السلم ويتحالف معه ضد أمير برشلونه، فعاد من سفارته هذه، وزعم أن الامبراطور القشتالى منحه إمارة مرسيه [(١)].

(١) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣١، وانظر أيضاً:
Codera, op.cit, pp. 109-110.

ويفهم من مدونة الفونسو السابع أن سيف الدولة بن هود كان تابعاً لألفونسو السابع وأنه كان يحكم مرسيه باسمه، فلما لقى سيف الدولة مصرعه فى البسيط أعطى الإمبراطور مرسيه إقطاعاً لخلفه عبد الله بن فرج الثغرى (١).

عاد عبد الله الثغرى من سفارته واستعان على دخول مرسيه بطائفه من الأتباع والأعوان فاضطر محمد بن سعد بن مردنيش نائب ابن عياض بمرسيه إلى الفرار عنها ولحق بثغر لقنت فى أوائل شهر ذى الحجة عام ٥٤٠هـ/ مايو ١١٤٦م (٢)، ثم إن عبد الله الثغرى لم يلبث أن ضرب لنفسه عملة تحمل تاريخ ولايته لمرسية وسمى نفسه فيها الرئيس عبد الله بن فرج سنتى ٥٤٠-٥٤١هـ (٣)، وظل يتولى أمر مرسيه إلى أن زحف إليه ابن عياض فى قواته، وقتله فى معركة نشبت بينهما فى السابع من رجب عام ٥٤١هـ/ ديسمبر ١١٤٦م (٤). وفى تفاصيل مصرع عبد الله الثغرى يقول الضبى فى مقدمة كتابه، أنه لما نجح ابن عياض فى دخول مرسيه، نشب قتال بينه وبين قوات عبد الله الثغرى فى شوارع المدينة حتى هزم الأخير، وركن إلى الفرار، وخرج من «باب الفارقة»، فألقى عليه من فوق السور حجر أصاب رأس جواده، فوثب الجواد جامحاً براكبه نحو مجرى النهر، وهناك قتله أحد الحراس المرابطين فى هذا المكان (٥).

وهكذا استعاد ابن عياض إمارته على مرسيه وإطاعته جميع البلاد الممتدة من بلنسيه شمالا حتى أحواز قرطاجنة جنوباً، واستمر فى إمارته على تلك المنطقة حاكماً مستقلا لها مدى عام وتسعة أشهر وعشرين يوماً (٦)، إلى أن أصيب بسهم أرداه قتيلا يوم الجمعة الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول عام ٥٤٢هـ، وحمل إلى بلنسية فدفن بها (٧)، وفى رواية أخرى يقول الضبى أنه قتل خلال معركة نشبت بينه وبين بنى جميل على مقربة من بلش، وحمل جثمانه إلى بلنسية ودفن بها (٨).

---

(1) Cronica del Emperador Alfonso VII, en Espana Sagrada tomo XXI, p.332.

(٢) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣٢.

(3) Antonio Vives y Escudero, Monedas de las dinastias Arabigo-Espanol, Madrid, 1898, pp. 322-323.

(٤) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣٢.

(٥) بغية الملتمس، ص ٣٣.

(٦) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣٢، انظر أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., p. 183.

(٧) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٣٢، انظر أيضاً: ابن سعيد المغربى، المغرب، جـ١، ص٢٥٠.

(٨) بغية الملتمس، ص ٣٣، وانظر أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., p. 183.

وكان ابن عياض هذا قائداً عظيماً، وفارساً بارعاً، وكان يجمع بين القوة العسكرية وبين الورع والتقوى، «وكان النصارى يعدونه وحده بمائة فارس، إذا رأوا رايته قالوا : «هذا ابن عياض: هذه مائة فارس» [١].

وفى رواية للمراكشى يقول فيها أن عندما حضرت ابن عياض الوفاة اجتمع عليه الجند وأعيان البلاد وسألوه عمن يخلفه فى الإمارة، وما يشير عليهم به، وكان له ولد فأشاروا به عليه فأبى أن يوصى لولده لأنه كان يشرب الخمر ويغفل الصلاة، وأشار إلى محمد بن سعد بن مردنيش لوافر نجدته وشجاعته [٢].

وفى رواية أخرى للضبى يقول فيها أن أهل بلنسية عند موت ابن عياض قدموا عليهم أبا عبد الله محمد بن سعد نائب ابن عياض بها [٣].

وأياً ما كان الأمر، فإن محمد بن سعد بن مردنيش خلف ابن عياض فى حكم بلنسية عقب موته، وكان ابن عياض قد استدعاه من لقنت عقب مصرع عبد الله الثغرى وأسند إليه ولاية بلنسية نيابة عنه، أما مرسية فقد قدم أهلها عليهم أبا الحسن على بن عبيد نائب ابن عياض عليها، إلى أن تخلى هو فى أواخر جمادى الأولى من السنة المذكورة عن إمارتها لأبى عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية [٤].

وهكذا انضوت بلنسيه ومرسيه تحت لواء محمد بن سعد بن مردنيش، الذى خلف ابن عياض فى إمارة منطقة شرق الأندلس كلها فى جمادى الأولى سنة ٥٤٢هـ/ أكتوبر ١١٤٧م، وبقيام ابن مردنيش فى إمارة شرق الأندلس تبدأ صفحة جديدة من الصراع بينه وبين الموحدين، وهو صراع ضار عنيف استغرق ما يقرب من خمس وعشرين عاماً ولم يخمد إلا بموته.

---

(١) المراكشى، المعكب، ص ٢٠٩، انظر أيضاً:
Codera, op.cit., p. 302; Gaspar Remiro, Ibid, p. 179.

(٢) المعجب، ص ٢٠٩-٢١٠.

(٣) بغية الملتمس، ص ٣٣-٣٤.

(٤) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣٢.

الفصـــل الثانى

موقف الموحدين من ابن مردنيش

(١) انتزاء محمد بن سعد بن مردنيش بشرق الأندلس.

أ ـ التعريف بابن مردنيش.

ب ـ علاقات ابن مردنيش بالممالك النصرانية.

جـ ـ موقف ابن مردنيش من نصارى أسبانيا بعد سقوط بعض قواعد الثغر الأعلى.

(٢) موقف الموحدين من سيطرة ابن مردنيش على بلنسية ومرسيه.

أ ـ اشتغال الموحدين بتثبيت دعائم دولتهم بالمغرب عن مواجهة ابن مردنيش.

ب ـ سيطرة ابن مردنيش على الموقف فى شرق الأندلس وسياسته التوسعية.

جـ ـ الصراع بين الموحدين وابن مردنيش.

د ـ هزيمة ابن مردنيش فى فحص الجلاب.

هـ ـ توحيد ابن همشك.

و ـ نهاية ابن مردنيش.

(١) انتزاء محمد بن سعد بن مردنيش
بشرق الأندلس

أ ـ التعريف بابن مردنيش:

هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامى بن مردنيش أصله من الثغر الأعلى، ولد فى قلعة بنشكله Peniscola [1]، وهى من أمنع قلاع طرطوشة.

وقد اختلفت الآراء حول أصل ابن مردنيش، فالبعض يرى أنه من أصل عربى، ينتمى إلى قبيلة جذام، والبعض الآخر ينسبه إلى قبيلة تجيب [2]. ومما لا شك فيه أن اسم جده الثالث وهو مردنيش ليس اسماً عربياً، مما يقطع بأن نسبته الجذامية ليست صحيحة [3].

ونستدل من اسم أسرته على أنه أسبانى الأصل، ابن مرتين أو مرتينيوس أو ابن مرتينس Martinez، وقد يكون جده مردنيش هذا دخل ولاء بعض الجذاميين وانتسب إليهم، وهو افتراض مقبول لأن دار بطون جذام بن عدى بن الحارث بن مرة بالأندلس كانت «شذونة والجزيرة وتدمير وأشبيليه» [4].

وربما كان أصله من ابن مرتين (Martin) مرتينش أو مردنيش، أما أن تكون

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٤٩٢، ورد فى ترجمة أبى يوسف يعقوب المنصور، وراجع ترجمته فى:
- الضبى: بغية الملتمس، ص ٣٣، ص ٣٤.
- المراكشى: المعجب، ص ٢١٠، ابن الأبار: الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢٣٢، ص ٢٣٣،
- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٥٩ ومابعدها، وله أيضاً: الاحاطة، جـ٢، ص ١٢١ ومابعدها.
- المقرى: نفح الطيب، جـ٥، ص ١٠٤،

Dozy (R): Recherches sur l'histoire et la litteratura de l'Espagne, t. 1, 3ed. ed., Amesterdam 1965, pp. 384-388; Gaspar Remiro, op.cit., pp. 185-225; Lacarra (J.M): El rey Lobo de Murcia y el Senorio de Albarracin, dans Estudios dedicados a Menedez pidal, Madrid, 1952, p. 516 599; Huici Miranda, op.cit, t. III, p. 132; Bosch-Vila (J): Ibn Mardanish, en Encyclopedie de l'Islam, nouvelle edition, 2ed, tomo III, Leiden - Paris, 1968, p. 889.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ١٢١.

(3) Dozy: Recherches, t. I, pp. 363-366; Codera, op.cit., pp. 112-113.

(٤) ابن حزم (أبى محمد علي بن سعيد)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال، دار المعارف بمصر، ١٩٤٨، ص ٣٩٦.

صحة الاسم Martinez لتتمشى مع النطق العربى فأمر غير مقبول، لأن هذا الاسم لا يمكن نطقه مع نبر المقطع قبل الأخير، ويرجح الأستاذ كوديرا أن أصل الاسم هو Martinus أو Mardonius، وهذا الاسم الأخير من أسماء البيزنطيين الذين كانت لهم جالية كبيرة فى قرطاجنة الحلفاء بكورة تدمير (١). وقد يكون اسمه الأسبانى Martinez ثم حرف إلى مردينش وخففت إلى مردنيش بتقديم النون على الياء، وأياً ما كان الأمر فالثابت أنه من أصل أسبانى مسيحى وأن أبا جده اعتنق الإسلام وأن أسرته كانت مثل سائر الأسرات الأخرى ترنو إلى الانتساب إلى شرف النسب العربى (٢).

ومع ذلك فإن ابن مردنيش لم يتنكر لأصله الأسبانى، بل على الضد من ذلك آثر زى النصارى من الملابس والسلاح واللجم والسروج، كما أعجبه أن يتحدث بلغتهم (٣)، فضلا عن أن الغالبية العظمى من جنوده كانت من القشتاليين والنفاريين والقطلانيين، وقد خصص لهم ثكنات لسكناهم وأقام لهم الأحياء والحانات، مما أثار عليه سخط المسلمين، وعلى عكس ذلك تعلق المسيحيون به لكرمه إلى حد أنه كافأ أحد فرسانه المسيحيين ويدعى بدور رويث دى أساجرا Pedro Ruiz de Asagra بأن أقطعه سهلة بن رزين Santa Maria de Albaracin مع إقليمها، وفيها أسس هذا الفارس أسقفية (٤).

وإلى جانب هذه الميول كان ابن مردنيش يتميز بالفطنة والذكاء، كما كان يجمع بين العنف واللين فكان يغفر بنبل ويعاقب بقسوة، وبالإضافة إلى ذلك كان يتمتع بقوة غير عادية، ويتميز بشجاعة نادرة فكان فارساً نجداً يدفع بنفسه فى المعارك معرضاً للأخطار حياته، وينوه المقرى بشجاعته بقوله : «كان من أبطال عصره، وكان يدفع فى المواكب ويشقها يميناً وشمالا، منشداً :

كما ظهر بوافر شهامته وجوده، وكان له «يومان فى الأسبوع»، يوم الاثنين والخميس، يشرب مع ندمائه، ويجود على قواده وخاصته وأجناده، ويذبح الأبقار فى المواسم، ويفرق لحومها على الأجناد، ويتخلل ذلك لهو كثير، حتى ملك القلوب من

أكر على الكتيبة لا أبالى ∴ احتفى كان فيها أم سواها (٥)

---

(1) Codera, op.cit., p. 113.
(2) Dozy, op.cit., t. I, p. 365.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٦١، وراجع أيضاً:
Dozy, Ibid, t. I, p. 365; Codera, op.cit., pp. 113-114.
(4) Dozy, op.cit., t. I, p. 366.

(٥) نفح الطيب، جـ٥، ص ١٠٤.

الجند، وعاملوه بغاية النصح، وربما وهب المال فى مجالس أنسه» [١].

وكما كان عظيماً فى ميدان البطولة كريماً على ندمائه وأجناده، كان له باع كبير فى ميدان الفسق والفجور، فقد ذكر أنه «اتخذ جملة من الجوارى، فصار يراقد منهن جملة تحت لحاف واحد، وانهمك فى حب القيان والزمر والرقص» [٢].

ب ـ علاقات ابن مردنيش بالممالك النصرانية:

كانت سياسته مع الممالك المسيحية ودية تقوم على التحالف، وكان يلوذ بحماية ملكى أرغون وقشتالة وقومس برشلونة مقابل إتاوة يفرضونها عليه، وهذان الأخيران وحدهما كانا يتقاضيان منه ٥٠٠ ألف مثقال [٣].

ولم تقف هذه السياسة على مصانعة الممالك النصرانية فى أسبانيا ومصادقة ملوكها بل تجاوزت أسبانيا المسيحية إلى الممالك المسيحية المجاورة، فمنذ السنة التالية لبداية إمارته، وقع فى ١٥ رمضان سنة ٥٤٣ هـ/٢٧ يناير ١١٤٩م اتفاقاً لمدة عشر سنوات مع جمهورية بيشه (Pisa)، ثم عقد معاهدة أخرى على جانب كبير من الأهمية مع جمهورية جنوة يدفع بمقتضاها إتاوة قدرها ١٠ آلاف مرابطى لهذه الجمهورية خلال عامين، كما يتعهد بأن يبنى للرعايا الجنويين الذين يقطنون فى بلنسيه ودانيه فندقاً يزاولون فيه تجارتهم، وأن يمنحهم حماماً مجانياً فى كل أسبوع، ويتعهد الجنويين فى مقابل ذلك بألا يحدثوا أضراراً لأحد من رعايا الملك لوبو El Rey Lobo (محمد بن سعد ابن مردنيش) فى طرطوشة والمريه [٤].

وفضلا عما تقدم كان ابن مردنيش يرتبط مع جميع الممالك المسيحية الأخرى بعلاقات من الود والصداقة، فكان يرسل الهدايا النفيسة التى تضمن قطعاً من الذهب وأثواباً من الحرير وعدداً من الخيول والجمال إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا، وكان يتلقى هداياهم بدوره [٥].

ولشهرته هذه وعلاقاته الطيبة، وصلاته الحميمة بالمسيحيين، أشاد به مؤرخو النصارى فوصفه ثوريتا Zurita بأنه، أحد أعاظم أمراء أسبانيا الإسلامية [٦]، ويؤكد

---

(١) ابن الخطيب، الإحاطة ، جـ٢، ص ١٢٢-١٢٣.

(٢) نفس المصدر والجزء، ص ١٢٣.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ١٢٤.

(4) Codera, op.cit., pp. 122-128.
Huici Miranda, op.cit, III, pp. 132-133.

(5) Dozy, op.cit., t. I. p. 367; Codera, op.cit., p. 115.

(6) Zurita, Anales de la corona de Aragon, Libro II, Valencia, 1967, p. 88; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 132.

الأسقف خيمنيث دى رادا فى مدونته أن محمد بن سعد، المسمى بالملك لوبو Rey Lobo O Lopo، كان ذا بصيرة حراً قوياً سليم العافية[1]. كما أن الباب الكسندر الرابع، بابا روما، سماه بعد مضى قرن على وفاته، وهذا استثناء نادر: «الملك لوبو ذو الذكرى المجيدة» El Rey Lopo de Gloriosa Memoria [2].

واسم لوبو هو الاسم الذى عرف به فى المدونات المسيحية [3]، أطلق عليه لما أثر من إقدامه وشجاعته [4].

وبالرغم من إشادة الروايات المسيحية بابن مردنيش لعلاقاته الطيبة التى ارتبط بها مع الممالك المسيحية، إلا أن دوزى ويتابعه كوديرا، يرى أن ابن مردنيش لم يكن أكثر من تابع، إلى حد أن مؤرخاً انجلو ـ نورمانديا معاصراً لم يتجاوز الحقيقة عندما عبر بقوله أن «ملك قشتالة هو الذى كان يملك على مرسيه وبلنسيه» [5].

وقد شاءت الأقدار أن يكون نائب ابن مردنيش وأعنى به ابن همشك، شخصية تشبهه كثيراً فى صفاته وميوله، إذ كان ابن همشك هذا سيفه المسلط على من عصاه، وعضداً له فى تمكين سلطانه وتدعيم ملكه.

وابن همشك المذكور هو إبراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك، من أصل مسيحى كذلك، فجده مفرج أو همشك نصرانى نزح إلى سرقسطة، وأسلم على يد أحد ملوك بنى هود، وكان مقطوع إحدى الأذنين، فكان النصارى إذا رأوه عرفوه وقالوا: هامشك، ويفسرها ابن الخطيب بقوله: إن هذه العبارة فى لغتهم معناها «ها هو مقطوع الأذن» [6]، وأصل العبارة بالقشتالية He aqui el mocho pequeno ومعناها مقطوع الأذن [7]، ويرى الأستاذ سافدرا فى تفسيره لكنية ابن همشك أنها تنطق ابن همسك، نسبة إلى أن أصله من بلدة همسك Amusco (وهى بلدة من أعمال محافظة بالنسيا (Palencia) [8].

وأياً ما كان الأمر، فإن ابن همشك تحول بعد سقوط سرقسطة إلى مملكة قشتالة ليخدم مرتزقاً فى جيشها فترة من الوقت، ثم نزح بعد ذلك إلى الأندلس، واتصل

(1) Ximenez de Rada, Opera, en Textos Medievales, o 22, Valencia, 1968, p. 283; Huici Miranda, Ibid, t. III, p. 132.
(2) Dozy, op.cit., t. I, p. 367; Codera, op.cit., p. 115.
(3) Dozy,op.cit., t. I, p. 366; Codera, op.cit., p. 115.
(4) Ibars, op.cit., t. I, p. 516.
(5) Dozy, op.cit., t. I, p. 366.

(٦) الإحاطة، جـ١، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(7) Gaspar Remiro, op.cit., p. 186.
(8) en, Gaspar Remiro, Ibid., p. 187.

بخدمة المرابطين بعد أن أظهر أسفه وندمه لاشتراكه مع النصارى، ولما ندب الأمير تاشفين بن على الوالى يحيى بن غانية لولاية قرطبة فى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م، التحق ابن همشك بخدمته، ثم بعثه ابن غانية ـ وكان يغرب الأندلس ـ رسولا من قبله إلى قرطبة عندما انتزى بها ابن حمدين سنة ٥٣٩هـ، لما لمسه فيه من كفاية وتجربة مستهدفاً من ذلك أن يوفق فى عقد الصلح بينه وبين ابن حمدين، ولكن الأحداث تطورت بشكل سريع، واتسع نطاق الثورة ليعم كل الأندلس، وعند ذلك وجه ابن همشك نظره إلى شرق الأندلس، حيث التحق بخدمة ابن عياض الذى تغلب آنذاك على بلنسيه، ولم تمض فترة طويلة حتى سنحت لابن همشك الفرصة لاحتلال حصن شقوبش، ثم تغلب على مدينة شقورة وتملكها فقوى أمره، ولما آلت بلنسية ومرسيه إلى محمد بن سعد بن مردنيش بعد موت ابن عياض اتصل به ولم يزهد ابن مردنيش فى اصنطاعه ليفيد من تجاربه السابقة مع القشتاليين وتمكنه من لغتهم فى توثيق صلاته بهم فعقد ابن مردنيش معه صهراً على ابنته فتوثقت العلاقة بينهما (١).

وكان ابن همشك قائداً شجاعاً، مقداماً، شديد الحزم، سديد الرأى، ملماً بشئون الحرب، وفيه أنشد بعض الشعراء هذه الأبيات، التى كانت تعجبه فيتغنى بها:

يتلقى الندا بوجه حيى ∴ وصدور القنا بوجه وقاح
هكذا هكذا تكون المعالى ∴ طرق الجد غير طرق المزاح (٢)

كما كان فظاً غليظاً، جباراً قاسياً، شديد النكال، عظيم الجرأة والعبث بالناس إلى حد أنه أقدم على حرق بعض أعدائه أحياءاً، بل وقذف بعضاً منهم من أعلى الجبال والأبراج، وتفنن فى تعذيب ضحاياه من ذلك أنه كان يضم فروع الشجر بعضها إلى بعض، ويربط الرجل عارياً بينهما، ثم يترك الأغصان حرة ليذهب كل غصن إلى موضعه (٣). وقد شاعت عنه هذه القسوة المبالغة حتى عد عند أتقياء المسلمين كافراً مصيره جهنم، فيروى أن أحد الصالحين رآه فى النوم بعد موته، وسأله ما فعله الله به فأنشد:

---

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص ٢٩٧-٢٩٨، وراجع له أيضاً : أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، ص ٢٦٣، وانظر أيضاً :

Gaspar Remiro, op.cit., p. 187.

(٢) ابن الخطيب ، الإحاطة، جـ١، ص ٢٩٩.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص ٢٩٨-٢٩٩

من سره العيث فى الدنيا بخلقه من ∴ يصور الخلق فى الأرحام كيف يشا
فليصبر اليوم صبرى تحت بطشته ∴ مغللا يمتطى جمر الغضا فرشا[(١)]

وتعبر هذه الأبيات بصدق عما كان يضمره المسلمون لابن همشك من كراهية لغلظته وقسوته حتى أنهم تصوروه فى أحلامهم.

جـ ـ موقف ابن مردنيش من نصارى أسبانيا بعد سقوط بعض قواعد الثغر الأعلى:

عقب تولى ابن مردنيش حكم بلنسية ومرسيه وقع حادثان خطيران، الأول، سقوط ثغر المريه فى أيدى القشتاليين، والثانى سقوط طرطوشة ولاردة وافراغه فى أيدى القطلانيين والأرغونيين والجنويين.

ففى السنوات الأولى من إمارة ابن مردنيش، انتهز ألفونسو السابع ملك قشتالة فرصة الاضطراب العام الذى اجتاح الأندلس عقب انهيار سلطان المرابطين وتمكن فى جمادى الأولى سنة ٥٤٢هـ/١٧ أكتوبر ١١٤٥م من انتزاع ثغر المرية الحصين الذى كان قاعدة بحرية لغزاة البحر المسلمين الذين كانوا يغيرون على سواحل أسبانيا المسيحية المطلة على البحر المتوسط وساحل فرنسا وإيطاليا الجنوبية، وأحياناً تمتد غاراتهم إلى السواحل البيزنطية [(٢)].

وكانت المرية قد حذت حذو مالقه وأشبيلية وغيرهما من مدن الأندلس ودخلت فى فلك دولة الموحدين [(٣)]، ثم قدم أهلها عليهم أبا يحيى بن الرميمى[(٤)]، الذى ضبطها إلى أن استولى عليها ألفونسو السابع ريموند الملقب عند مؤرخى العرب بالسليطين ملك قشتالة [(٥)]، ويرجع الأستاذ أويثى ميراندا أن المرية شهدت خلال حكمه قيام إمارة مستقلة لمدة عامين انتهت باستيلاء النصارى عليها [(٦)].

(١) نفس المصدر والجزء، ص ٢٩٩.

(٢) أشباخ، المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، الطبعة الأولى، ١٩٦٩، بيروت، ص ٩٣.

(٤) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢١٠، وراجع أيضاً: ابن سعيد المغربى، المصدر السابق، جـ٢، ص ١٩٨-١٩٩، المقرى، المصدر السابق، جـ٦، ص ٢٠٦.

(٥) مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة الموحدية، إصدار ليفى بروفنسال، الرسالة السادسة عشر، رباط الفتح، ١٩٤١، ص ٧٥، وراجع أيضاً:
المقرى، المصدر السابق، جـ٦، ص ٢٠٧.

(6) Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 120.

وكان ثغر طرطوشة كذلك كثغر المريه مثوى لمجاهدى البحر والمغامرين، يشنون منه غاراتهم على الممالك المسيحية، الأمر الذى دعا البابا يوجين الثالث إلى المناداة بفتح هذه المدينة، واجتمعت قوات النصارى من الأرغونيين والقطلانيين والبيزيين والجنويين وفرسان المعبد بقيادة راموند برنجير كونت برشلونة لهذا الغرض، وحاصرت قواتهم طرطوشة براً وبحراً لمدة أربعين يوماً، وعلى الرغم من المقاومة الباسلة التى بذلها المسلمون وتصديهم لهذا الحصار بضراوة على أمل أن ترد إليهم إمدادات من بلنسية أو غيرها، فقد اضطروا بسبب يأسهم من وصول الإمدادات والميرة إلى تسليم المدينة صلحاً فى ١٦ شعبان سنة ٥٤٣هـ/ آخر سنة ١١٤٨م، بشرط أن يحتفظوا بأملاكهم ومساجدهم، ولكن النصارى اقطعوا المدينة بعد استيلائهم عليها للجنويين ولجيرمو دى مونتبلر Guillermo de Montpeller ، وجيرموراmون دى مونكاد Guillermo Ramon de Moncada لدورهم الفعال فى حصار المدينة والاستيلاء عليها [١].

ثم هاجمت القوات النصرانية مجتمعة بقيادة الكونت رامون برنجير حصن لاردة بعد فترة قليلة، غير أن حامية الحصن لم تستطع الصمود طويلا إزاء الهجوم المسيحى المشترك، فلم تلبث المدينة أن سقطت فى أيدى المهاجمين فى عام ٥٤٤هـ/٢٤ أكتوبر ١١٤٩م، وفى نفس اليوم تملك النصارى حصنى افراغه ومكننسة [٢].

وكانت هذه القواعد التى استولى عليها النصارى تابعة للثغر الأعلى سرقسطة، ولهذا فإنها أصبحت بعد سقوط سرقسطة تابعة على نحو اسمى لولاية بلنسيه، وهنا يتبادر إلى الذهن السبب الذى من أجله لم يتحرك ابن مردنيش لإنجاد هذه المدن والاحتفاظ بها.

والظاهر أن ابن مردنيش ارتضى ولو مؤقتاً ما تحت سيطرته من قواعد شرق الأندلس، ولم يحاول التدخل عسكرياً ضد القوات المتحالفة النصرانية، التى كان يرتبط معها برباط من الصداقة وثيق، فلم يشأ أن يتعرض لها حتى لا تنهار صلاته الودية التى يرتبط بها معهم سيما وأنه كان فى مواجهة خطر يتمثل فى قوة الموحدين، وهؤلاء

---

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١، ص ٥٦، وانظر أيضاً:

Codera, op.cit., p. 124.

(٢) ابن الأثير، نفس المصدر والجزء، ص ٥٢، وراجع أيضاً:

ابن أبى زرع، الأنيس المطرب، روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر تورنبرغ، أبسالا، سنة ١٨٤٢، ص ١٧٦،

Codera, Ibid, p. 126

لم يقدموا لفترة على التدخل عسكرياً ضده لمشاغلهم الكبيرة فى بسط سيطرتهم على كل المغرب وتأكيد نفوذهم على قواعد الأندلس التابعة لهم، وكان ابن مردنيش واقعياً، فكان على يقين من أن المواجهة بينه وبين الموحدين أصبحت وشيكة، وأن اليوم الذى سيلاقيهم فيه بات وشيكاً، وهذا فى اعتقادى ما جعله يرتضى هذا الموقف المتخاذل موقف المتفرج للأحداث، وإن كان فى نفس الوقت يعتبر نفسه حامياً للرعايا المسلمين فى تلك القواعد المنزوعة، فعندما عقد معاهدة الصداقة مع الجنويين اشترط عليهم أن يتعهدوا بألا يوقعوا أضراراً برعاياه فى طرطوشة والمريه، لاسيما أن جنوة كانت من بين الممالك المسيحية التى اشتركت فى افتتاح المرية وطرطوشة وحظيت فى المدينة الأخيرة بثلث إقطاعها.

٢ ـ موقف الموحدين من سيطرة ابن مردنيش على مرسيه وبلنسيه

أ ـ اشتغال الموحدين بتثبيت دعائم دولتهم بالمغرب عن مواجهة ابن مردنيش:

شغلت الدولة الموحدية منذ قيامها بتوطيد سلطانها فى المغرب، واستكمال فتوحاتها فى أفريقية، فضلا عن انصرافها لإخماد الثورات العديدة التى نشبت ضدها فى المغرب، مما جعلها تغض الطرف إلى حين عن مواجهة ثورة ابن مردنيش وانتزائه فى بلنسية ومرسيه وامتداد سلطانه تقريباً على كل شرق الأندلس وجنوبه.

وفيما يلى أهم الثورات التى تصدى الموحدون لإخمادها :

١ ـ ثورة الماسى:

مثيرها عمر بن الخياط الذى يلقبونه ببويكندى، أصله من سلا [١]، فلما انتشرت الدعوة الموحدية، واستولى الموحدون على سلا، ادعى الهداية وتلقب بالهادى، واستقر برباط ماسة [٢] فى شوال عام ٥٤١هـ، ولهذا عرف بالماسى. وقد لقيت

---

(١) البيذق، أخبار المهدى بن تومرت، ص ١٠٦ ، والظاهر أن هذا الثائر اتخذ حين ثورته اسم محمد بن عبد الله بن هود، وقد حذا فى ذلك حذو المهدى بن تومرت، الذى تسمى أيضاً باسم محمد بن عبد الله، وتلقب ابن هود هذا بلقب المهدى، انظر : ابن عذارى، البيان المغرب، ق٣، ص ٢٦، ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ٤٧٩-٤٨٠، ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ١٢٣-١٢٤، الحلل الموشية، ص ١١٠.

(٢) عن رباط ماسه، انظر : البكرى، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص ١٦١، الإدريسى، وصف أفريقية الشمالية والصحراوية (مشتق من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق)، نشر هنرى بيريس، الجزائر، ١٩٥٧، ص ٤٩.

دعوته فيها نجاحاً كبيراً فانتشرت بين القبائل، وسرعان ما استولى على بلاد تامسنا، وبلاد المصامدة، وانضمت إليه عدة من القبائل، ولم يبق تحت سلطان عبد المؤمن بن على وطاعته فى وسط المغرب وجنوبه سوى مدينتا فاس ومراكش، ولم يقف عبد المؤمن أمام هذا الخطر الماثل مكتوف اليدين فقد قرر التحرك السريع وسير حملة عهد بقيادتها لابن بكيت ويحيى المسوفى المعروف بانجمار، غير أن هذه الحملة لم تلق سوى الهزيمة، الأمر الذى دعاه إلى معاودة الكرة فسير هذه المرة حملة قوية مجهزة بأعداد كثيفة من المقاتلة بقيادة الشيخ أبى حفص عمر الهنتانى، الذى تقدم بقواته صوب تامسنا بوادى ماسة، حيث التقى بقوات الماسى وأوقع بها الهزيمة، وفى هذه الموقعة لقى الماسى مصرعه فى ذى الحجة عام ٥٤٢هـ/٧ مايو ١١٤٨م، وبمصرعه لفظت ثورته أنفاسها وانقطعت جموعه [١].

٢ ـ ثورة قبيلتى برغواطة ودكاله :

يتمثل الخطر الثانى الذى تهدد دولة الموحدين عند بدء قيامها فى ثورة قبليتى برغواطة ودكاله، وقد ظلت هاتان القبيلتان على الرغم من النهاية المفجعة التى انتهت إليها ثورة الماسى، وعلى الرغم من الحملات المتكررة التى وجهها الموحدون إليها متمردتين على طاعة الموحدين، مستندتين فى ذلك على بعض القبائل المجاورة التى انحازت إليها، بالإضافة إلى انضوائهما إلى يحيى بن أبى بكر بن على الصحراوى المعروف بابن الصحراوية، الذى كان قد شق عصا الطاعة على الموحدين وثار عليهم فى سبتة، ثم انضم إلى بنى غانية، فكتبت إليه برغواطة تستنصره على قتال عبد المؤمن، فسار فى صحبة إليهم فبايعوه واجتمعوا تحت رايته[٢]. فخرج إليهم عبد المؤمن بن على فى قواته، وجرت بينهم حروب عظيمة، انتهت بهزيمة برغواطة، وإخماد ثورتها، وتم ذلك فى عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م [٣].

(١) عن ثورة الماسى، راجع : البيذق ، المصدر السابق، ص ١٠٦، ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الثالث، ص ٢٦، ابن خلدون، جـ٦، ص ٤٧٩، ص ١١٠، وعن تاريخ مصرع الماسى، يجعله ابن عذارى فى ١٦ ذى الحجة ٥٤١هـ، وابن خلدون فى ذى الحجة ٥٤١، وابن أبى زرع فى ذى الحجة ٥٤٢هـ، راجع : البيان المغرب، ق ٣، ص ٢٦، العبر، جـ٦، ص ٤٨٠، روض القرطاس، ص ١٢٤، وإن كنا نرجح تاريخ مصرعه فى ذى الحجة ٥٤٢هـ لقدوم وفد أشبيلية بقيادة القاضى أبى بكر بن العربى، أثناء حوادث ثورة بويكندى واستقبال عبد المؤمن للوفد بمراكش فى عيد الأضحى ٥٤٢هـ، انظر: العبر، جـ٦، ص ٤٨٦-٤٨٧، الزركشى، ص٦.

(٢) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٢٤، ابن خلدون ، المصدر السابق، ق ٦، ص ٥٢٣.

(٣) البيذق، المصدر السابق، ص ١٠٩، ابن أبى زرع، نفس المصدر، ص ١٢٤، الحلل الموشية، ص ١١١.

٣ ـ ثورة ابن تمركيد :

لم يكد الموحدون يخمدون ثورة برغواطة ودكالة حتى قام بتامسنا ثائر جديد يعرف بان تمركيد بايعته برغواطة وقبائل كثيرة أخرى من البربر، واستمرت ثورته فترة طويلة بحيث كانت تشكل خطراً يتهدد وحدة الدولة الموحدية، الأمر الذى دفع الموحدين إلى الاشتباك مع الثوار فى معارك متوالية انتهت بهزيمة الثوار ومصرع ابن تمركيد وعدد كبير من أتباعه، وقد احتز الجند رأسه وحملوه إلى مراكش فى عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م [١].

ومن بين المشاكل التى شغلت دولة الموحدين فى بدء قيامها بالإضافة إلى الثورات السابقة رغبة عبد المؤمن بن على توحيد المغرب الإسلامى فى إمبراطورية واحدة، وهذا يعنى الاصطدام عاجلا أو آجلا ببنى زيرى وبنى حماد وهى مهمة صعبة لابد من القيام بها قبل الإقدام على التدخل فى شئون الأندلس، وعلى يهذا النحو تقدمت قوات الموحدين بقيادة الخليفة نفسه نحو المغرب الأوسط فى سنة ٥٤٦هـ، بعد أن استخلف على مراكش أبا حفص بن يحيى ومبالغة منه فى إخفاء وجهته خرج بقواته إلى سلا حيث أقام شهرين ثم تحرك إلى سبتة متظاهراً الجواز إلى الأندلس برسم الجهاد، وفى سبتة استدعى طلبة أشبيلية وقرطبة وفقهاء الأندلس وقوادها فأوصاهم بما أراد وودعهم، ثم غادرها إلى مراكش ومنها سلك طريقاً أخرى غير مطروقة إلى فاس فتلمسان عبر مكناسة ثم خرج من تلمسان متجهاً إلى بجاية، وعند مروره بالجزائر فر عاملها القائم ابن يحيى إلى بجاية، وأخبر أباه يحيى بن عبد العزيز بالله الصنهاجى سليل بنى حماد بمقدم الجيش الموحدى، فأمن عبد المؤمن أهلها ثم زحف بكل حشوده نحو بجاية فلما وصلها بقواته أحكم حولها الحصار واتصل به وزيرها وقائدها أبو عبد الله بن ميمون المعروف بابن حمدون سراً، وفتح له أبواب المدينة فدخلها الموحدون فى شهر ذى القعدة سنة ٥٤٧هـ/ يناير ١١٥٣م [٢].

وبينما كان عبد المؤمن فى غزاته لأفريقية، انتهز أبو موسى عيسى وأبو محمد عبد العزيز أخوا المهدى بن تومرت فرصة غيابه عن المغرب الأقصى، وشقا عصا الطاعة على عبد المؤمن مستندين فى ثورتهما على قبيلتيهما هرغة، بدأت الثورة فى فاس فى

---

(١) راجع تفاصيل ثورته فى البيذق، المصدر السابق، ص ١٠٩، والذى يسميه بومزكيدا، ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٢) البيذق، المصدر السابق، ص ١١٣-١١٤، ابن أبى زرع، نفس المصدر، ص ١٢٥-١٢٦، المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٠٤-٢٠٦، الحلل الموشية، ص ١١٢-١١٣.

سنة ٥٤٨هـ ولكن عبد المؤمن تمكن من إخمادها على الفور، وأمر بقتل الثوار ولكنه أبقى على حياة أخوى المهدى ودفعهما إلى فاس حيث أسكنهما، وأمر الجيانى واليها أن يحرسهم وأمر لهم فيها بأرزاق كانت تعطى لهما [١]. ولكن الأخوين هربا مع أنصارهما من فاس إلى هرغة، ومنها سارا فى أتباعهما إلى مراكش، وهناك تمكنا من إضرام الفتنة والشغب بالمدينة، وقتل الثوار واليها عمر بن تفراجين، وعندما وصلت أنباء هذه الفتنة إلى مسامع عبد المؤمن، أمر وزيره أبا جعفر بن عطية بالسير فى الحال لإخمادها، وقد تمكن ابن عطية بالفعل من القضاء على الفتنة والقبض على الثوار فقتلوا جميعاً وكان عددهم ثلاث مائة وتم ذلك فى سنة ٥٤٨هـ، كذلك أمر عبد المؤمن بإعدام مثيرى الفتنة، فقتلا وصلبا[٢]، ويؤيد هذه الرواية ما جاء فى رسالة الخليفة الرسمية عن الحادث عن مصرع المخالفين، وفتك العامة بهم وصلبهم خارج المدينة[٣].

ب ـ سيطرة ابن مردنيش على الموقف فى شرق الأندلس وسياسته التوسعية:

وهكذا اتفق قيام الثورات المغربية على الخلافة الموحدية بعد قيامها فى نفس الوقت الذى انتزى فيه ابن مردنيش فى شرق الأندلس حيث تمكن من تثبيت دعائم سيطرته على بلنسية ومرسيه وأحوازهما، كما دخل أهل الحصون والقلاع فى طاعته فعظم أمره [٤]. وقد كان ابن مردنيش حريصاً منذ بداية حكمه على تثبيت سلطانه على شرق الأندلس والحفاظ على حدوده كاملة لا ينتقص من أطرافها معتد خارجى أو داخلى، حتى لقد بلغه خلال سيره إلى بلنسية ليتولى أمورها أن قوات ألفونسو السابع ملك قشتالة هاجمت حصن «حلال» فلم يتردد فى أن يكر إلى « ويسترده من أيديهم، ثم عاد إلى بلنسية حيث تلقى البيعة [٥].

وعندما توطد سلطانه ببلنسية ومرسيه نصب أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد نائباً عنه فيها، كما عين ابن همشك على مرسيه نائباً عنه فيها كذلك، وبهذا أحكم ابن مردنيش سيطرته على شرق الأندلس.

بيد أن ابن مردنيش واجهته فى السنوات الأولى من حكمه ثورتان هددتا إلى حد ما استقلاله : هما ثورة ابن هلال وثورة ابن شلبان.

---

(١) البيذق، المصدر السابق، ص ١١٦.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الثالث، ص ٣٨.

(٣) مجموع رسائل موحدية، الرسالة الحادية عشر، ص ٤٦ وما بعدها.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، ص ٢٦٠.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ٨٥، وراجع أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., p. 195.

١ ـ ثورة ابن هلال:

هو يوسف بن هلال، صهر الأمير محمد بن سعد بن مردنيش، وكان قائداً شجاعاً، حازماً، وهو الذى طارد مروان بن عبد العزيز الوالى السابق لبلنسيه عقب فراره منها وحاول القبض عليه ولكنه أخفق فى تحقيق ذلك[١]. وقد أبدى ابن هلال فى قيادته كفاية كبيرة قربت ابن مردنيش إليه، بحيث أقدم على مصاهرته، ودفعته إلى أن يعهد إليه بحكم حصن مطرنيش أو مطريشه ومواضع كثيرة، فلما فسدت طاعته قبض عليه ونكبه، واستولى على ما كان بيده ثم أخلى سبيله، فأعمل يوسف بن هلال الحيلة ولحق بمورتله Moratalla [٢]، وثار بها، وأرسل يستنصر برامون برنجير الرابع أمير برشلونة، وتعهد له بأن يصير ما يملكه إليه، فأمده بقوات من النصارى اشتركت معه فى الإغارة على مدينة بلنسية، وفى هذه الأثناء نجح يوسف فى الاستيلاء على بنشكلة، وأوقع بابن مردنيش وهزمه. عندئذ قرر ابن مردنيش مواجهة خصمه بقوة كبيرة لتأديبه وبادر بالسير فى قواته إلى مورتلة وصادف ذلك خروج يوسف فى قواته للاستيلاء على شنطيبطور [٣] San Pedro del Pinatar ففاجأته قوات ابن مردنيش وقبضت عليه وسيق إلى ابن مردنيش الذى أسرع به إلى مورتلة وطالبه بإخلائها وإلا نزعت عينه فرفض ذلك، فأمر ابن مردنيش، فأخرجت عينه اليمنى بعود، ثم اقترب من مورتلة وطلب من أهلها إخلاء الحصن، ودعا زوجة يوسف وهددها بانتزاع عينه اليسرى إذا لم تبادر بإخلاء الحصن فلم يجبه أحد، فأخرجت للحين عينه الأخرى، وسيق إلى شاطبه حيث أقام معتقلا إلى أن مات عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م [٤].

٢ ـ ثورة ابن شلبان ببلنسية :

لم تمض سنوات على إخماد حركة ابن هلال حتى قامت الثورة فى بلنسية ضد ابن مردنيش بتحريض من عبد الملك بن شلبان، الذى انتهز خروج ابن مردنيش

---

(١) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢٢٢.

(٢) مورتلة تقابل Moratalla حصن فى محافظة مرسيه، راجع :
Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 137.

(٣) شنطيبطور أو شنفيره Sanfiro لعله يقابل الموضع المعروف اليوم باسم San Pedro del Pinatar انظر:
Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 239.

وعن حصن شنفيره، راجع: الحميرى، الروض المعطار، ص ١١٦ من النص العربى، ص١٤٢ من الترجمة الفرنسية.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٦٠، ٢٦٢-٢٦٣، وراجع أيضاً:
Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 137-138.

فى قواته جنوباً فى حملته على بسطة ووادى آش لينتزى بمدينة بلنسية، ولقد سيقت إلينا أخبار هذه الثورة بطريقة غير مباشرة ضمن إشارات وردت فى ترجمات ابن الآبار، واستمرت هذه الثورة قائمة، ما يقرب من سنتين ٥٤٦-٥٤٧هـ/ ١١٥١-١١٥٢م[١].

وما كاد ابن مردنيش يبلغه خبر انتزاء عبد الله بن شلبان ببلنسيه حتى عهد إلى نائبه وقائده ابن همشك بالخروج فى قواته لمحاصرة بلنسيه وإخماد ثورة ابن شلبان فيها، ولكى يعزز قواته استنجد بحليفيه رامون برنجير الرابع أمير برشلونه وملك أرغون وطلب منهما أن يمداه بعون عسكرى، وقد لبا حليفاه طلبه وزوداه بقوة نصرانية أسهمت فى إحكام الحصار حول بلنسية، ولكنها لاقت صعوبة فى اقتحام أسوارها المنيعة غير أن ابن مردنيش تمكن فى النهاية من استرجاع بلنسية والقضاء على الثورة بها، ومن ثم أذاق أهلها أشد العذاب[٢].

وهناك رواية مسيحية لثوريتا Zurita [٣] تشير إلى أن أهل بلنسية فى هذه الفترة كانوا يناضلون إلى جانب الموحدين، دون أى ذكر للثورة التى قام بها ابن شلبان ومعنى ذلك أن أهل بلنسية قد وحدوا. وهذا أمر لم يكن فى الإمكان تصديقه لولا أن صادف تأييداً فى الخطاب الرسمى الذى وجهه أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي إلى ابن مردنيش فى ١٦ جمادى الآخرة عام ٥٤٨هـ، وهو يلومه على معاملته السيئة لأهل بلنسية، فيقول له : «فقد كان منكم فى أمر أهل بلنسية حين

(١) انتزى ابن شلبان بمدينة بلنسيه بعد مصرع أبى الحجاج يوسف بن حامد الصانع الحقيقى للثورة على الأمير محمد بن سعد بن مردنيش، وتفصيل ذلك وفقاً لما رواه ابن الآبار فى المعجم بمناسبة ترجمته لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الفرج الخزرجى الذى كان يلى قضاء بلنسيه منذ رجب سنة ٥٤٦هـ، أن هذا القاضى ترك ولاية القضاء على بلنسية فى أول شوال من نفس السنة واستعفى من هذا المنصب بسبب انتزاء أبى الحجاج يوسف ابن حامد فيها على الأمير محمد ابن سعد إذ ذاك رافضاً تلك الثورة ومؤثراً العودة إلى مرسيه، ووفقاً لهذه الترجمة يشير ابن الآبار إلى أن محمد بن سعد قدم لحصارها فى السابع من شوال من نفس السنة بعد أن لجأ عبد الله بن شلبان أحد أصحاب ابن حامد إليها عقب مقتل هذا الأخير فتولى ضبطها. راجع:

ابن الآبار، المعجم، ص ١٧٨، ترجمة ١٥٩.

(٢) ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، ترجمة رقم ٦٧٠، ص ٧٥٠، راجع أيضاً :

Codera, op.cit, p. 128; Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 138-139.

(3) Zurita, Andales de la Corona de Aragon, apud, Huici Miranda, op.cit., pp. 138-139.

إعلانهم بكلمة التوحيد وتعلقهم بهذا الأمر السعيد، ما كان... وليس لذلك وأمثاله عاقبة تحمد»[(١)].

وهكذا تمكن ابن مردنيش من إخماد الثورات فى بلنسية ومورتلة وثبت دعائم حكمه على كل شرق الأندلس، ثم وجه اهتمامه نحو تطبيق سياسة توسعية ترمى إلى ضم مزيد من مناطق الأندلس إلى سلطانه، ولما كانت المرية تحت سيطرة ألفونسو السابع ملك قشتالة، فقد اتجه نحو بسطة ووادى آش. وكانت وادى آش منذ أن ثار بها أحمد بن محمد بن ملحان الطائى، واستولى على قصبتها ودعا فيها لنفسه، وتلقب بالمتأيد بالله، ثم تطلع إلى تحصيل المال والذخائر بكافة الطرق، واقتنى الضياع الواسعة، وتولى فلاحتها وحرثها، حتى غدا من أغنى أهل زمانه، ولم يلبث أن تغلب على بعض القواعد القريبة مثل بسطة وضمها إلى إمارته، واتخذ لنفسه بلاطاً اصطنع فيه كل مظاهر الأبهة والفخامة شأن ملوك الطوائف وحاط نفسه بعدة من مشاهير رجال العلم والأدب فى ذلك العصر، من أمثال أبى بكر بن طفيل الطبيب الفيلسوف[(٢)]، وامتد عهده أعواماً طويلة، إلى أن تطلعت همة ابن مردنيش إلى ضم وادى آش إلى حوزته، فلما زحف ابن مردنيش إليها فى قواته بالإضافة إلى ما انضم إليها من القشتاليين وتبين لابن ملحان عجزه عن مواجهتها، لم يستطع الاحتفاظ بوادى آش فخرج عنها، واستولى عليها ابن مردنيش، كما استولى على بسطة وغيرها وذلك فى سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م، أما ابن ملحان فبادر بإعلان طاعته للموحدين وجاز البحر إلى المغرب ودخل فى خدمتهم، فعهد إليه فى الحاضرة مراكش بالاشتغال ببعض الأعمال الهندسية كإقامة البحيرة وإجراء مائها[(٣)]، ثم صودرت أمواله إثر

---

(١) مجموع رسائل موحدية، الرسالة العاشرة، ص ٣٥ وما بعدها.

(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد طفيل القيسى ولد قبل سنة ٥٠٦هـ/١١١٠م، أصله من وادى آش، وكان من العلماء المتقنين، متحققاً بجميع أجزاء الفلسفة، ومن تصانيفه فيها رسالة «حى بن يقظان» ، و«رسالة فى النفس»، كما كان على دراية واسعة بعلم الطب حتى أصبح طبيباً للخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف المنصور، ونال عنده حظوة عظيمة، توفى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥-١١٨٦م، راجع فى ترجمته: المراكشى، المعجب، ص ٢٣٩ وما بعدها، آنخل جونثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٣٤٨.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٦٤ ، وانظر له أيضاً: الإحاطة، جـ٢ ، ص٨٩، وراجع أيضاً: ابن الأثير، الكامل، جـ١١ ، ص ٦٣ ،
Codera, op.cit, pp. 131-132; Gaspar Remiro, op.cit., p. 202; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 139.

منازعة بينه وبين أبى محمد بن سليمان أمير الأسطول فى سبتة، ارتد على إثرها إلى إعلان ولائه لابن مردنيش ولألفونسو السابع ولم يتردد فى اللحاق بعسكرهما [(١)]، ويبدو أن الموحدين أقدموا إزاء هذا التصرف على مصادرة أمواله، وتوفى فى بؤس وضعه [(٢)].

جـ ـ الصراع بين الموحدين وابن مردنيش:

لما فرغ أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي من فتح بجاية أواخر عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م وقضى على سائر الثورات التى احتدمت بالمغرب خرج إلى تينمال، وزار قبر المهدى، وكانت قد وصلته أخبار ثورة بلنسية وسقوط مدينتى بسطة ووادى آش فى يد ابن مردنيش، وامتداد سلطانه إلى الجهات المجاورة لجيان وكانت يومئذ إحدى قواعد الموحدين فى الأندلس، فبعث عبد المؤمن برسالة رسمية إلى ابن مردنيش فى ١٦ جمادى الآخرة عام ٥٤٨هـ، كما سبقت الإشارة، يدعوه فيها إلى الدخول فى دعوة الموحدين والانضواء فى طاعتهم، ويلفت نظره إلى أنه لم يغز أحد من زعماء الأندلس ببغيته إلا من دخل فى هذه الدعوة، وأن من خرج عليها منهم كان جزاؤه سوء المنقلب ثم يدعوه إلى المبادرة إلى الاعتبار، ويلومه بما كان منه فى حق أهل بلنسية، «حينما أظهروا كلمة التوحيد»، وكذلك أهل لورقة «حينما ظهر إخلاصهم» [(٣)] للموحدين.

كان ذلك فيما يظهر أول احتكاك على المستوى الرسمى يتم بين الموحدين وبين محمد بن سعد بن مردنيش، ويبدو أنه لم يكترث لما ورد فى هذه الرسالة، فليس لدينا من الروايات التاريخية ما يشير إلى أنه تكلف عناء الرد عليها، وسواء كتب رده على عبد المؤمن أو لم يكتب فقد أصبح ابن مردنيش من ألد خصوم الموحدين وأصلبهم عدداً، وأرسخهم عزماً فى مقاومة دعوتهم فى الأندلس.

ولكن عبد المؤمن كان يستهدف قبل كل شيء، منذ أن تمكن الموحدون من السيطرة على غرناطة فى سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م تحرير مدينة المرية من سيطرة القشتاليين، «لكونها ناظمة بين الجهات الشرقية والغربية، ورابطة بين البلاد البرية والبحرية» [(٤)].

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ق٣، ص ٣٣.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٦٤.

(٣) مجموع رسائل موحدية، الرسالة العاشرة، ص ٣٦-٣٧.

(٤) مجموع رسائل موحدية، الرسالة السادسة عشرة، ص ٧٣-٧٤، وراجع أيضاً: ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١، ص ٢٠٨.

ولتحقيق هذا الهدف أعد عدته للتحرك، فلما تم له تجهيز الجيوش وإعداد المؤن والميرة والسلاح، أصدر أوامره للسيد أبى سعيد عثمان والى غرناطة آنذاك، بمحاصرة المرية بحراً وبراً، فتقدم السيد أبو سعيد عثمان إلى المرية للجهاد فى صحبة أخيه أبى حفص [1]، وقد ورد فى رسالة وجهها عبد المؤمن بن على (من إنشاء كاتبه أبى عقيل عطية بن عطية) إلى الطلبة وأشياخ الموحدين ببجانه، أنه رأى «أمر المرية ـ حرسها الله ـ من أهم الأمور وآكدها فى هذا الغرض المبرور، والأمل الميسور، لكونها ناظمة بين الجهات الشرقية والغربية ورابطة بين البلاد البرية والبحرية» [2].

وهكذا ركز الموحدون قواتهم البرية والبحرية لاسترداد المرية، ولم تفلح جهود ألفونسو السابع وحليفه ابن مردنيش فى مواجهة الحصار الموحدى المحكم حول المدينة، وتمكن الموحدون فى النهاية من السيطرة على الموقف ونزل نصارى القصبة عنها بالأمان [3] سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م.

وعندما وصل أمير المؤمنين إلى المرحلة الأولى فى اتجاه رباط الفتح وافاه البشير بانسحاب ألفونسو السابع وحليفه ابن مردنيش، ولكن قوات الموحدين لم تدع ألفونسو السابع يرحل بسلام بل لحقت فى أثره وانقضت على مؤخرة قواته عند بياسة، بينما فتح أهل المدينة أبوابها للموحدين واستسلمت لهم الحامية القشتالية، فاستولوا عليها، وتابع الموحدون مطاردتهم لألفونسو السابع عند أبده، وتمكنوا من الاستيلاء عليها وكل القلاع المجاورة، وإلى ذلك يشير عبد المؤمن فى إحدى رسائله فيذكر أنهما «قطران عظيما المنافع، متسعا المسارح والمزارع» [4] وفى هذه الرسالة يشير أيضاً إلى أن بياسة كانت القاعدة التى يوجه منها القشتاليون حملاتهم ضد الأندلس، فيقول: «وقد كانوا اتخذوها أصلا يسندون إليه، ويعتمدون عليه، فشحنوها بالآلات المعدة، والأقوات الممدة، تحصيناً لأم مثواهم، وتمكيناً لأم عدواهم، وكانت بين بلادهم وبين

---

(١) المقرى، المصدر السابق، جـ٦، ص ٢٠٧، وانظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المريه الإسلامية، ص ٩٦.

(٢) مجموع رسائل موحدية، الرسالة السادسة عشرة، ص ٧٣-٧٤.

(٣) عن تفاصيل استرداد الموحدين للمريه، راجع : مجموع رسائل موحدية، الرسالة السادسة عشرة، ص ٧٢-٧٦، ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٣٣، ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص٦٤،
Torres Balbas, Almeria Islamica, Al-Andalus, XVIII, p. 411;
السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص ٩٦ وما بعدها.

(٤) مجموع رسائل موحدية، الرسالة السادسة عشرة، ص ٧٨-٧٩.

بلاد الأندلس ـ وفقهم الله ـ فى العهد المتقادم مسيرة أيام للشديد المدبدب ـ والسريع المقرب، فى مهامه طامسة الصوى، متصلة المنازل المستويلة المحتوى، وكانوا إذا راموا الخروج طالت عليهم الشقة، وكثرة المشقة، فلا يصلون إلا بعد التقليع والتحذير، واتصال البرد بينهم والتنوير، فيرجعون عن الخيبة والعناء، كارين منذ ذلك السبسب والدهماء، إلى أن تمكن لهم أخذ بياسة... فأحلوا العباد وأخلوا الباد، وأخافوا الأغوار والأنجاد» [1].

أما ألفونسو السابع فقد مات وهو فى طريقه إلى قشتاله فى Fresneda بالقرب من موارادال Muradal فى ٢١ أغسطس ١١٥٧م [2].

ثم انتهز ابن مردنيش فرصة تحرك الخليفة عبد المؤمن من مراكش فى أوائل شوال ٥٥٣هـ/١١٥٨م، متجهاً نحو رباط الفتح ثم تحركها منها فى العاشر من شهر صفر عام ٥٥٤هـ/ نحو المهدية لتخليصها من السيطرة النورمندية [3]، ليضرب ضربته فى الأندلس ويزيد من رقعة أملاكه على حساب المناطق التابعة للموحدين، فخرج من مرسيه فى عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م على رأس قواته وما انضاف إليها من قوات حلفائه النصارى، متوجهاً إلى مدينة جيان، وعندما أحاطت قواته بها لم تلق أى مقاومة واضطر واليها من قبل الموحدين وهو محمد بن على الكومى [4] أن يسلم المدينة لابن مردنيش، وانضوى تحت لوائه [5].

وما أن تمت له السيطرة على جيان حتى زحف نحو قرطبة ظناً منه أن أهلها سيقدمون له فروض الطاعة، وأنه يجد فيها ما وجده فى جيان [6]، فلما وصل إليها بحشوده أحكم الحصار عليها وتطويقها، وخرب ربوعها، وأتلف زروعها، وكان والى قرطبة آنذاك أبو زيد عبد الرحمن بن تجيت [2]، فاستماتت فى الدفاع عنها واشتبك

(١) نفس المصدر ، الرسالة السادسة عشرة، ص ٧٩-٨٠.

(2) Codera, op.cit., p. 137; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 106.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٣٨.

(٤) تجمع المصادر العربية على أن محمد بن علي الكومى، كان والياً على مدينة جيان، ولكنها لم تشر لتاريخ توليه هذا المنصب، راجع: ابن عذارى، البيان المغرب، ق٣، ص ٤٠، ابن خلدون ، المصدر السابق، جـ٦ ، ص ٤٩٥ ، السلاوى، الاستقصا، جـ٢، ص ١٢٦.

(٥) ابن صاحب الصلاة (عبد الله)، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، السفر الثانى، دار الأندلس، الطبعة الزولى، ١٩٦٤، ص ١١٥-١١٦، ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص٤٠، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى،ص٢٦١.

(٦) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ١١٦.

(٢) ورد اسمه فى المصادر العربية هكذا: ابن بكيت وبعضها ابن يخيت وابن بكيت، عينه عبد المؤمن والياً على قرطبة سنة ٥٥٠هـ، راجع: ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣ ، ص ١١ ، ابن خلدون ، المصدر السابق، جـ٦ ، ص ٤٩٢ ، السلاوى، المصدر السابق، جـ٢ ، ص ١١٠ ، ص ١٢٦ .

مع ابن مردنيش فى معركة عنيفة ارتد على إثرها إلى المدينة وتحصن داخل أسوارها، فأقام ابن مردنيش على حصارها، إلى أن اجتمع القاضى أخيل بن إدريس مع أبى زيد عبد الرحمن بن تجيت ودبرا حيلة من حيل الحرب، فكتب رسالة على لسان سيدراى بن وزير تظاهرا أنها موجهة منه أى من ابن وزير بأشبيلية إلى ابن مردنيش أرسلاها مع رسول متنكر فى زى أهل الشرف [1]، يستحثه فيها بأن يبادر بالتحرك سريعاً من قرطبة نحو أشبيلية لدخولها بحجة أنها بغير دفاع وأنه ضامن له دخولها، ولم تكد الرسالة تقع فى يد ابن مردنيش حتى انطلت عليه الخدعة وبادر فى الحال بالإقلاع والسير إلى أشبيلية، وكان قد سبقه إليها أحد عيون الموحدين، فأخطر القائمين عليها بما حدث، ولكن هؤلاء صدقوا ما نسب إلى ابن وزير، فقبضوا عليه واعتقلوا، ووصل ابن مردنيش فى قواته إلى أشبيليه ونزل بظاهرها بالموضع المعروف بالفونت Alfunt ونازلها ببعض قواته حتى وصل إلى باب قرمونة، وأقام محاصراً أشبيلية ثلاثة أيام، وفى أثناء حصاره للمدينة، شاع الاضطراب داخلها، وحل بها وبأهلها كرب شديد، فبادر واليها السيد أبو يعقوب بضبط المدينة بشدة وحزم بمعاونة طائفة من جند الأندلس بقيادة أبى العلاء بن عزون صاحب شريش، وأبى بكر الغافقى فضلا عن الأشياخ والطلبة والحفاظ الموحدين، الذين داوموا ثقاف أبواب المدينة ليل نهار، وحرسوا الأسوار، وقبضوا على ما ارتابوا فيهم، فسجن من سجن واتهم من اتهم [2].

ولما رأى ابن مردنيش مناعة المدينة، وصلابة دفاعها، أدرك أنه قد خدع، وأن المدينة ليست سهلة المنال، فغادرها وارتد عائداً إلى قواعده بشرق الأندلس دون أن يظفر بطائل وكان ذلك فى سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م [3].

ولم يمض على ذلك شهور عدة حتى عاود ابن مردنيش هجومه على الموحدين بقرطبة، فوجه إليها فى أوائل سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م جيشاً بقيادة صهره إبراهيم بن همشك، فسار إلى قرطبة ونازلها واجتاح أراضيها ودمر زروعها، وفى ذلك يقول ابن

---

(١) الشرف Aljarafe ، يقع فى الشمال الغربى من أشبيلية على بعد ثلاثة أميال منها ويشتهر بزيته الشهير، ويسمى كذلك لأنه مشرف على ناحية أشبيلية، راجع: الإدريسى ، المصدر السابق، ص١٧٣، ص ١٧٨ ، الحميرى، المصدر السابق، ص ١٠١-١٠٢.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١١٦، ١٢٠.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٤٠.

الخطيب: «حتى لجأ محاول الفلاحة إلى حرث منزله بداخل الحضرة» [1]، ونازلها وقتاً ثم أقلع عنها، وأكمن خيله ورجاله على مقربة منها بقرية «أطابه» [2]، وهي قفرة فلما خرج والي المدينة أبو زيد عبد الرحمن بن تجيت في قوة من فرسانه لاستطلاع الحال خرج عليه ابن همشك في قواته من كمينه، وأثخن فيهم، وقاتل أبي زيد عبد الرحمن حتى لقي مصرعه على مقربة من قرطبة في الموضع المعروف بـ «الدارات» [3]

ولم يكتف ابن همشك بما حققه في غزوته لقرطبة، بل عمد إلى مهاجمة قرمونة فسار إليها في قواته واستولى عليها بمعاونة عبد الله بن شراحيل في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ/ مارس سنة ١١٦٠م وامتنع الموحدون داخل قصبتها، ولما وصلت هذه الأنباء إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن والي أشبيلية وكان عازماً على السفر لملاقاة والده الخليفة، بعد عودته من فتح المهدية، قرر ارجاء السفر [4].

وكان الخليفة عبد المؤمن قد تلقى الأخبار المزعجة عن الأندلس عقب عودته من غزوته المظفرة لأفريقية، وكتب إليه ابنه السيد أبي يعقوب والي أشبيلية رسالة عاجلة يستمده ضمنها أبيات شعرية لأبي العباس بن سيد المالقي منها:

إليكم أمير المؤمنين توجهت ∴ بنا الرغبات الجم بجمتها جهد
لعل عيانا منكم لعبيدكم ∴ وقرباً لكم منهم يدال به البعد
فقد عضهم باب من الكفر منغص ∴ ودانوا لكم دهراً وأنيابه درد
بكم يعصم الله العلى جميعهم ∴ بكم تعظم الآمال بل يكثر الرفد [5]

وفي الحال وصل جواب أمير المؤمنين من ظاهر قسطنطينة بتاريخ ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ يعرف فيه بعودته إلى الحاضرة وعزمه على الجواز إلى الأندلس لدراسة

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٦١.

(٢) أطابه، قرية قريبة من قرطبة، وقد اكتفى أويثي ميراندا بنقل اللفظ هكذا Ataba.

(٣) الدّارات: موضع قريب من قرطبة، ونقله أويثي ميراندا هكذا Al-Darat، وراجع أخبار هذه الغارة في ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٢٧؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٤٤-٤٥.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٦١.

(٥) في : ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٤٢.

الموقف المتدهور فى قرطبة وأشبيلية وغرناطة، ولمزيد من الدراسة والتشاور مع ذى الخبرة عن الخطة المناسبة لدرء هذه الأخطار، وفى النهاية معاينة أعمال الإنشاءات فى جبل طارق [١].

ثم إن السيد أبا يعقوب يوسف أعد قبل مغادرته أشبيلية لزيارة والده الخليفة حملة أسند قيادتها إلى الشيخ أبى محمد عبد الله بن أبى حفص وجعل برفقته أبا العلاء بن عزون فى قوة من عسكر الأندلسيين، فسار بقواته حتى حل بقلعة جابر [٢]. ومن هناك أخذ يوجه غاراته ليلا ونهاراً، وكان ابن همشك لما طال حصاره لقصبة قرمونة قد ترك بالمدينة بعض قواته وعاد إلى جيان. وفى هذه الأثناء تقدمت قوات الموحدين من قلعة جابر ونزلت على مقربة من قرمونة فى الموضع المعروف بحصن ابن سلام [٣]، وأخذت من هناك تحاصر المدينة وترهق أهلها بغاراتها المتواصلة، إلى أن قيض الله أن يتفقوا سراً مع رجل من أهلها يدعى شراحيل ـ غير عبد الله بن شراحبيل، الذى كان قد سهل على ابن همشك مهمة دخول المدينة ـ داخل الموحدين سراً أثناء الليل فى محلتهم بحصن ابن سلام وعرض عليهم أن يسهل لهم مهمة اقتحام المدينة مقابل الأمان لنفسه ورعيته ومكافأته. فوافق الموحدون على ما اشترطه عليهم فأدخلهم المدينة من البرج المعروف بـ «قرن المعزة» فاقتحم الموحدون مدينة قرمونة فى العاشر من المحرم سنة ٥٥٧هـ/٢٦ يناير ١١٦١م، فقبضوا على الخائن عبد الله بن شراحبيل الذى كان قد مكن ابن همشك من السيطرة على المدينة، وأرسل مكبلا فى أصفاده إلى أشبيليه فى نفر من أتباعه حيث صلب فى الرملة تحت قصر ابن عباد [٤].

وهكذا عادت قرمونة إلى سلطان الموحذين بعد أن خرجت من هذا السلطان

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٤٧، ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٤٣، وراجع أيضاً:

Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 149.

(٢) قلعة جابر أو قلعة وادى إيره Alcala de Guadaira تقع جنوبى قرمونة، على مقربة منها ومن أشبيلية، راجع: ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١٧١؛ ابن سعيد المغربى، المصدر السابق، جـ١، ص ٢٩١؛ السيد عبد العزيز سالم، دائرة معارف الشعب، رقم ٦٤، ١٩٥٩، ص ١٦٠.

(٣) يبدو أنه كان على مقربة من قرمونة.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٨٢، ١٨٤، ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص٤٩.

زهاء عامين وذلك منذ أن استولى عليها ابن همشك فى ١٥ ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ/٢٢ مارس سنة ١١٦٠م [١].

وعمد ابن همشك وهو بجيان إلى الانتقام من الموحدين الذين تمكنوا من انتزاع قرمونة من أيدى قواته، فاضطرمت الفتنة فى قلبه، وقرر مهاجمة غرناطة [٢]، كرد فعل لاستردادهم قرمونة، واستطاع ابن همشك أن يتفاهم سراً مع جماعة من يهود غرناطة، الذين أسلموا رغم إرادتهم نتيجة لضغوط الموحدين عليهم، ومع حليفهم المعروف بان دهرى، على أن يمكنوه من دخول المدينة فى ليلة معينة، وكان السيد أبو سعيد والى غرناطة قد غادرها إلى مراكش فى زيارة الخليفة فاستغل ابن همشك هذه الفرصة وزحف إليها فى نفس هذه السنة ٥٥٧هـ فى قواته، واتفق أن مدينة غرناطة كانت فى إحدى الليالى دون دفاع كاف، فى حين كانت قصبتها مشحونة بالرجال والعتاد والأقوات، فكسر اليهود بإيعاز ابن دهرى باب الربض بغرناطة وتناوبوا الصياح بالأصحاب، فاقتحم ابن همشك بقواته المدينة، وفر أنصار الموحدين إلى القصبة وامتنعوا فيها، فكتب ابن همشك رسالة إلى ابن مردنيش بمرسيه يبلغه فيها بتفاصيل غزوه لغرناطه ويطمعه فى إمكانية استنزال قصبتها إذا ما قدم ابن مردنيش على رأس قوة لاقتحام القصبة [٣]. ولم يتردد ابن مردنيش فى إنجاد قائده ونائبه فبعث بقواته وخاطب النصارى لمساعدته فوصلوا إليه وخرجت قواتهم بقيادة ألبار رودريجيس الأصلع Alvar Rodiguez el Calvo، حفيد البارهانيث Alvar Ha-nez ووصلت القوات المشتركة إلى غرناطة [٤]. وكان ابن همشك عندما دخل المدينة نزل بالقلعة الحمراء القائمة فوق تلك السبيكة فى مواجهة القصبة، وشرع فى منازلتها، وضربها بالمجانيق ليرغم المحصورين على التسليم [٥]، ولكن هؤلاء واصلوا صمودهم بالقصبة، وكانت لديهم مؤن وافرة تعينهم على الصمود، ومع ذلك فقد كتبوا إلى الخليفة فى طلب النجدة كما أرسلوا إلى أشبيلية يستمدون واليها، وكان الخليفة عبد المؤمن قد تحرك على عادته من مراكش إلى سلا، لتنظيم شئون الجهاد إذ كان قد عقد العزم على الجواز إلى الأندلس لمواجهة الموقف المتدهور، فبلغته أخبار حوادث غرناطة فى الطريق إلى سلا، فلما وصل إليها بادر بإرسال ولده السيد أبى

(١) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٨٧، وانظر أيضاً: ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٥٠.

(٣) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٨٧-١٨٨، ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٥٠.

(4) Huici Miranda (Ambrioso): Historia Politica del Imperio Almohade, t.I, Tetwan, 1956, p. 200.

(5) Dozy, Recherches, t. I, p. 372.

سعيد فى قوة من عسكر الموحدين إلى الأندلس، فعبر أبو سعيد البحر إلى مالقة، وبعث منها يستدعى الشيخ أبا محمد بن عبد الله بن أبى حفص القائم على ولاية أشبيلية ليوافيه عند غرناطة، وكان ظن السيد أبى سعيد أنه سيواجه ابن همشك فى قواته ولم يخطر بباله أن هناك مزيداً من القوات الإسلامية المسيحية المشتركة التى وجهها ابن مردنيش لمعاونة ابن همشك بقيادة ألفار رودريجيس حفيد البارهاينيث وعدتها ألفان من الفرسان والرجالة، واجتمعت القوات الموحدية فى فحص غرناطة [1]، وتقدمت حتى بلغت الموضع المعروفة بمرج الرقاد [2] على بعد نحو أربعة أميال من غرناطة، وعندئذ خرج إليهم إبراهيم ابن همشك فى قواته وقوات مرسيه المشتركة، ودارت بين الفريقين معركة حامية أسفرت منذ بدء اللقاء عن تفوق قوات ابن همشك وحلفائه النصارى، فاختل نظام جيش الموحدين أمام كثرة جموع ابن همشك، وكثر القتل فيهم، وغرق منهم فى سواقى المرج عدد كبير، وانتهت الموقعة بهزيمة نكراء منى بها الموحدون وكان من بين القتلى الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبى حفص والى أشبيلية نيابة عن أبى يعقوب يوسف وعدة من أشياخ الموحدين وكبار قواد الأندلسيين، وفر السيد أبو سعيد فى نفر من صحبه إلى مالقة، وكانت وقيعة كبيرة على الموحدين، وارتد ابن همشك فى قواته الظافرة إلى القلعة الحمراء، ومعه جملة من أسرى الموحدين يقتلهم ويعبث فيهم على مرأى من إخوانهم المحصورين، الذين واصلوا صمودهم بالقلعة [3].

---

(١) فحص غرناطة La vega de Granada، وهو السهل الأخضر الذى تشرف عليه غرناطة، راجع: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ١١٥، .Dozy, op.cit., t.I, p. 375

(٢) كان هذا الاسم يطلق على موضع بظاهر غرناطة على بعد كيلو مترات من قرية الطرف Alarfe فى سفح Merrojal أو جبل البيرة Sierra de Elvira على مقربة من نهر شنيل Genil وهى الآن Majonocal، راجع : البيذق، المصدر السابق، ص ١٢٦، ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢٣٠، ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص ٣٠٩، تعليق رقم ٥، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٦١.

(٣) راجع أخبار هذه الحوادث فى : ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٩٠-١٩٣، ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٥٠-٥١، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٦١،
Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 130-131.

ويلاحظ أنه ليس فى روايتى ابن صاحب الصلاة وابن عذارى ما يدل على أن ابن مردنيش قد اشترك فى هذه الموقعة، وإن كان ابن الخطيب يقول أن ابن مردنيش قد مثل بنفسه فى الموقعة، وكانت محلته قائمة فوق الربوة العالية المتصلة بربض البيازين، والتى عرفت فيما بعد بكدية ابن مردنيش ، راجع: الإحاطة، جـ٢، ص ٨٩، القصبة الحمراء التى ما تزال قائمة إلى اليوم من إنشاء بنى الأحمر سلاطين غرناطة، ولكن القصبة المشار إليها، فالمقصود بها قصبة بنى حبوس بن ماكسن الزيريين وكانت تتكون من ثلاثة أبراج أو بما يسمى اليوم Torres Bermejos التى يربط فيما بينها سور، راجع : ,Dozy
Recherches, t. II, p. 385

وكان عبد المؤمن إذ بلغته أنباء هذه الهزيمة ما يزال برباط الفتح يحشد الجيوش التى أمر أن توافيه هناك، فجهز جيشاً منتخباً من أنجاد الفرسان والعسكر من أعيان كل قبيلة بلغت عدته زهاء عشرين ألفاً، فضلا عن جمهرة من أشياخ الموحدين [١]، بقيادة ابنه السيد أبى يعقوب يوسف اسميا والشيخ أبى يعقوب بن سليمان زعيم الموحدين وخالصة أمير المؤمنين فعلياً، لتجربته بالحروب ودهيته فى الخطوب [٢].

خرج هذا الجيش الموحدى من رباط الفتح بسلا، وجاز البحر إلى الجزيرة الخضراء ثم زحف إلى مالقة حيث انضم إليه السيد أبو سعيد بقواته، وزود الجيش بالعلوفات والمؤن الكافية ثم تقدمت حشود الموحدين فى اتجاه غرناطة [٣].

وكان ابن مردنيش عندما وقف على أخبار هذه الحشود الموحدية الكثيفة قد قدم بحشوده، ومعه فرقة من النصارى لإنجاد صهره ابن همشك، ونزل فوق الجبل المتصل بقصبة غرناطة على الضفة الأخرى لنهر حدره Darra، بينما عسكر ابن همشك بقواته المشتركة بقيادة ألبار رودريجيث وابن القمط أرجال Comte d'urgal فى عدد يفوق ثمانية آلاف فارس فوق تل السبيكة بالقصبة الحمراء، وكان نهر حدره يفصل بين محلة ابن همشك ومحلة صهره ابن مردنيش [٤].

وفى هذه الأثناء كانت حشود الموحدين تواصل زحفها حتى وصلت إلى الموضع المعروف بوادى دلر Dilar القريب من قرية الهمدان Alhendin [٥]. فأقاموا عليها ثم ارتحلوا إلى وادى شنيل Genil[٦] بالقرب من غرناطة متظاهرين بعدم الرغبة فى الاقتراب من جيوش ابن مردنيش، ولم ينقطع الجيش الموحدى عن سيره البطيء طبقاً للخطة التى وضعها الشيخ أبو يعقوب يوسف بن سليمان[٧].

وفى يوم الخميس السابع والعشرين من رجب سنة ٥٥٧هـ الموافق ١١٦١م جمع الشيخ أبو يعقوب أشياخ الموحدين وأشياخ الجند من مختلف القبائل وحثهم

---

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١، ص ١١٥.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٣) نفس المصدر، ص ١٩٥-١٩٦.

(٤) ابن صاحب الصلاة، ص ١٩٦.

(٥) تقع جنوب غرناطة بالقرب من دلر، وقد استعارت هذا الاسم من القبيلة العربية المشهورة همدان، راجع: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص ١١٨؛ Dozy, op.cit., p. 345.

(٦) يحيط هذا النهر بغرناطة من الجهة القبلية وهو رافد لنهر الوادى الكبير، راجع: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص ١٢٤.

(٧) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٩٧؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص٥٢؛ Huici Miranda, Historia Political, t. I, pp. 202-203.

على التفانى فى القتال وذكرهم بأن الجنة مثوى المجاهدين، ثم ركب الموحدون مساء هذا اليوم خيولهم، وصعدوا الجبل الذى يطل على نهر شنيل مجاوراً للسبيكة والقصبة الحمراء حتى وصلوا إلى قمته، يتقدمهم المشاه وطلائع المصامدة، ثم تقدموا حتى وصلوا عند الفجر بالقرب من محلات ابن همشك وحلفائه النصارى، وعندئذ انقض الموحدون على أعدائهم بغتة كالبواشق، قبل أن يتنبهوا إلى المفاجأة ويتأهبوا للقتال فكانت وقعة السبيكة أقرب ما تكون إلى المذبحة انتهت بهلاك أعداد هائلة من قوات ابن همشك وحلفائه النصارى، واستولى الرعب على من نجا منهم، فظنوا أن الأرض من جبل السبيكة إلى محلة ابن مردنيش متصلة فهلكوا فى نهر حدره، ولم يأت الصباح حتى كان الموحدون قد مزقوا أعدائهم شر ممزق وسقط بين القتلى من قوات ابن همشك البار رودريجيس وزميله ولد الكونت أرجل وعدد من القادة الأندلسيين منهم ابن عبيد صهر ابن مردنيش، وعجز ابن مردنيش - وكان مرابطاً بقواته آنذاك على الضفة الأخرى من نهر حدره - عن إنجاد صهره ابن همشك، فلبث يرقب تمزيق قواته ويندب شيعته، حتى سحق الموحدون قوات ابن همشك وأبادوها وتم لهم النصر الحاسم فى هذا اليوم الذى عرف بالسبيكة، ودخل الموحدون غرناطة ظافرين فى الثامن والعشرين من رجب سنة ٥٥٧هـ/ ١٣ يوليه ١١٦٢م، فى حين خرجت حاميتهم المحصورة فى القصبة وأثخنوا فى فلول خصومهم ومن حالفهم من النصارى قتلا، أما ابن مردنيش فقد انسحب مغلولا فى قواته بينما اتجه ابن همشك فيمن معه من فلول قواته المنهزمة صوب جيان. وقوات الموحدين فى أثره[1].

وكان من أثر هذا النصر المبين الذى أحرزته قوات الموحدين أن بادرت سائر نواحى غرناطة إلى إعلان الطاعة والتوحيد، وبينما عكف السيد أبو يعقوب يوسف والشيخ القائد يوسف بن سليمان على النظر فى شئون غرناطة وإصلاح قصبتها وسد عوراتها، تابعت قوات الموحدين مطاردة ابن همشك حتى قاعدته جيان إلا أنه لم يتوقف بها، بل ندب للدفاع عنها وزيره أبا جعفر الوقشى [2]، الذى امتنع فيها

---

(١) عن أخبار هذه الموقعة ، راجع: ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١، ص ١١٥؛ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٩٥، ١٩٩؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٥٢-٥٣؛ ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٢٧؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ١٢٧، ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٤٩٥-٤٩٦، المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ٤١٧؛

Dozy, op.cit., t. I, pp. 374-599; Codera, op.cit., p. 141; Gaspar Remiro, op.cit., pp. 216-599; Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 151-599.

(٢) أبو جعفر الوقشى أحد الكفاة الأمجاد، الدهاة، من قرية وقش Huecas بنواحى طلبيرة Talavera de la Reina فى مديرية طليطلة ونسبهم فى كنانة، قام بضبط أعمال إبراهيم ابن همشك، راجع: ابن الآبار، الحلة السيراء ، جـ٢، ص ٢٥٧.

فحاصرها الموحدون حيناً دون جدوى فاكتفوا بالعبث فيما حولها من الأراضى وإتلاف زروعها، وتدمير قراها حتى أصبحت خراباً، ثم غادروها عائدين إلى قواعدهم[1].

وكان من الطبيعى أن يبعث السيد أبو يعقوب يوسف والقائد ابن سليمان أنباء الانتصار الحاسم إلى الخليفة عبد المؤمن، فصدرت أوامره بتعزيز الدفاع عن غرناطة وسد عوراتها وشحنها بالمؤمن والعتاد، ونقل مركز الحكم الموحدى بالأندلس مؤقتاً من أشبيلية إلى قرطبة، التى أصبحت مقر الإدارة الموحدية إلى حين باعتبارها «موسطة الأندلس» وقاعدة الجيوش الموحدية [2]، وأقرب إلى مركز الأحداث فى هذه الفترة المضطربة من تاريخ الأندلس.

وكانت قرطبة آنذاك تعانى اضمحلالا هائلا فى العمران إذ هجرها أهلها وتبقى بها عدد قليل للغاية، ويشير ابن صاحب الصلاة إلى ذلك بقوله : «فكان عدد أهل قرطبة اثنين وثمانين رجلا لجلائهم من الفتنة عن البلاد»[3]، ذلك لأن الفتنة طحنتهم فعانوا طويلا من الجوع، بسبب الغارات التى كان يشنها ابن همشك على المدينة، وذاق أهلها من أهوالها، «ما لم يذقه أحد من أوائلهم فى الفتنة الحمودية، بإلحاح ابن همشك وقساوته القصية العجيبة»[4].

اعتزم عبد المؤمن على إعداد حملة بحيرة برية كبيرة لاستئناف الجهاد بالأندلس فى الربيع القادم، فأمر بإنشاء أسطول متعدد الوحدات عدته مائتا سفينة، أعد منها مائة وعشرين بميناء المعمورة الواقعة عند مصب وادى سبو[5]، والباقى فى المغرب والأندلس [6].

لكن القدر لم يمهل عبد المؤمن طويلا لإنجاز مشروعه الكبير تمهيداً لمواصلة الجهاد ضد قوى النصرانية فى أسبانيا، والقضاء على ثورة ابن مردنيش فى شرق

---

(١) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٥٩ ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ٢٥٧.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٠١-٢٠٣.

(٣) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٠٥، ويؤكد هذا الرقم تقريباً ابن الآبار، راجع: الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢٥٩.

(٤) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٢٠٥.

(٥) «المعمورة» هى المدينة التى تحمل اليوم اسم المهدية على الضفة اليسرى لمصب وادى سبو وعلى بعد نحو ثلاثين كيلو متراً شمالى سلا، راجع: ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢١٤، هـ٢، عبد الهادى التازى، مهدية المولى إسماعيل، مجلة المغرب، مايو ١٩٦٣، ص ٧-٩.

(٦) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢١٣-٢١٤.

الأندلس، فقد عاجلته المنية ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨هـ/١٥ مايو ١١٦٣م [١].

وخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف الذى بويع بالخلافة تنفيذاً لوصية والده عبد المؤمن بن على بسلا فى العاشر من جمادى الآخر سنة ٥٥٨هـ، ثم صدر الأمر إلى الجيوش - التى سبق أن حشدها الخليفة الراحل بغرض استئناف الجهاد بالأندلس - بالانصراف إلى بلادها [٢]، وقد هيأ ذلك الفرصة لابن مردنيش لاستئناف غاراته على قرطبة ونواحيها.

د - هزيمة ابن مردنيش فى فحص الجلاب:

واجهت الخليفة الجديد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فى بداية عهده بعض المشاكل لخروج بعض إخوته عليه إلى أن تمت له البيعة العامة فى ٨ ربيع الأول سنة ٥٦٠هـ بعد سنتين من وفاة والده [٣]، بالإضافة إلى نشوب ثورة محلية فى منطقة عمارة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م شغلته طويلا [٤].

وكان ابن مردنيش قد انتهز هذه الفرصة لمهاجمة قرطبة بشدة والعبث فى نواحيها، وإتلاف زروعها، فلما بلغ ذلك أبى يعقوب يوسف [٥]، أمر بتجهيز حملة إلى الأندلس قوامها أربعة آلاف فارس معظمهم من العرب عهد بقيادتها إلى الشيخين أبى سعيد بن الحسين وأبى عبيد الله بن يوسف، وقد جازت هذه الحملة البحر إلى الأندلس، وتوزعت منها فرقة عدتها نحو خمسمائة فارس إلى مدينة بطليوس لتعزيز

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٢٢، ص ٢٣١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٤٠٤.

(٢) البيذق، أخبار المهدى بن تومرت، ص ٨٣؛ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٣٢.

(٣) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٤) محرك هذه الثورة من يزرع الغمارى الصنهاجى من صنهاجة مفتاح، الذى تغلب على ملك المنطقة والتف حوله جمع كبير من قبائل غمارة وصنهاجة وأوربة ، فقوى بجمعه، وضرب السكة باسمه، ثم سار إلى مقربة من فاس وعاث فى ضواحيها وخرب وقتل الكثير من أهلها، فقاتله الموحدون بقيادة الشيخ يوسف بن سليمان وبددوا قواته، ثم دان لهم بالطاعة، فسمح له بالجواز إلى الأندلس فنزل بقرطبة وقيل أنه قتل وحملت رأسه إلى مراكش، راجع: البيذق، المصدر السابق، ص ١٢٤، ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٥) ابن خلدون ، المصدر السابق، جـ٦، ص ٤٩٧.

حاميتها، بينما سارت بقية الحملة بقيادة الشيخين أبي سعيد وأبي عبد الله إلى مدينة أشبيلية ومنها صوب قرطبة لتعزيز جبهتها الدفاعية وحماية نواحيها من غارات قوات ابن مردنيش (١).

وصلت الحملة الموحدية إلى قرطبة، ثم خرجت إلى أحوازها، حيث اشتبكت صدفة بقوات ابن مردنيش في حصن لك El Castillo de Luque، فنشبت بين الفريقين معركة حامية في شعبان سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م (٢) استمرت طوال اليوم. انتهت دون حسم، فلم يستطع فيها أى من الطرفين أن يحقق نصراً على الآخر (٣)، رغم بلاء القوات الموحدية وثباتها، وقد كتب القائدان أبو سعيد وأبو عبد الله إلى الخليفة الموحدى أبي يعقوب يعرفانه بما لقياه من هول ومشقة ويستمدانه (٤). واستجاب الخليفة لطلبهما فأمر بتجهيز جيش من الموحدين يضم نخبة من أمهر الفرسان من عرب رياح وأثبج وزغبة، وعندما اكتملت قواته، جاز السيد أبو حفص بها من مراكش في ١٠ رمضان سنة ٥٦٠هـ وبصحبته أخوه السيد أبو سعيد عثمان والى قرطبة إلى الأندلس، ثم اتجه إلى أشبيلية(٥) حيث عقد مع زعماء الموحدين مجلس حرب تدارسوا فيه الخطط لمواجهة ابن مردنيش، وقرروا المبادرة بالهجوم عليه في أراضيه (٦). وهكذا زحفت جيوش الموحدين في أول شهر ذى القعدة سنة ٥٦٠هـ/٨ سبتمبر ١١٦٥م نحو الشمال الشرقي، وبدأت بمنازلة حصن أندوجر Andujar التابع لابن مردنيش، وكان هذا الحصن المركز الرئيسى لبث الغارات على قرطبة، والقاعدة الهامة للإمدادات بالنسبة لابن مردنيش، وقد أمكن للموحدين الاستيلاء عليه عنوة، ومن هناك بدأوا يشنون الغارات على أحواز أندوجر فاستولوا على مغانم كثيرة، وبادر أهل الحصون المجاورة لأندوجر إلى إعلان الطاعة للموحدين (٧).

---

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٣، ص ٦٣.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٧٠، ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٦٣، وراجع أيضاً: Huici Miranda, Historia del Imperio Almohade, t. I, p. 225.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٣، ص ٦٣.

(٤) نفس المصدر والقسم والصفحة.

(٥) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٦) نفس المصدر، ص ٢٧١؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٦٣.

(٧) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٧١؛ ابن عذارى، نفس المصدر ، ق ٣، ص٦٣-٦٤؛ وراجع أيضاً: Huici Miranda, op.cit., t. I, p. 226.

ثم واصلت الحملة مسيرها إلى الشرق من أندوجر، ولم تصادف فى طريقها أى مقاومة حتى وصلت ظاهر بياسة، فأثخنت فى نواحيها بالغارات، واضطر أهل هذه النواحى إلى التحصن بقلاعهم، ثم رابط الموحدون أياماً بالقرب من بياسة فى الموضع المسمى وادى القشتالى (Rio Castalla) فى انتظار وصول تعزيزات موحدية من حامية غرناطة، وانتهز السيد أبو حفص هذه الفرصة وجهز فرقة من صفوة خيالة الموحدين والعرب أغار بها على «غليرة»[1]، وقرباقه Carvavoa[2]، وبسطة Baza[3]، وجبال شقورة Los montes de Segura[4]، وتمكن من الاستيلاء على الكثير من المؤن واستاق عدداً كبيراً من الماشية، واستأنفت الحملة زحفها بعد أن انضمت إليها قوات غرناطة، وأغار الموحدون على قليه Cullar [5] واستولوا عليها دون قتال، كما استولوا على القلاع المجاورة وشنوا على بلش Velez-Rubio أهم معاقل ابن مردنيش فى تلك المنطقة هجوماً عنيفاً أرغم والى المدينة من قبل ابن مردنيش إلى التسليم للموحدين والدخول فى طاعتهم [6].

ثم واصلت الحملة تقدمها صوب مرسية ولورقة، وعندما تبين لابن مردنيش حقيقة نوايا الموحدين التى تستهدف مهاجمته فى عقر داره أى منطقة نفوذه الرئيسى بشرق الأندلس، خشى أن تسقط لورقة فى أيديهم، وعندئذ بادر بحشد قوات كثيفة من شرق الأندلس ضم إليها عدداً كبيراً من مقاتلة النصارى، وتقدم بهذه القوات من

---

(١) غليرة Galera: تقع شمال مدينة بسطة جنوب قرباقة غربى بلش Velez انظر:
Huici Miranda, Historia, t. I, pp. 226-228.

(٢) قرباقة Carvaca: تقع شمال لورقة وجنوب شقورة، يقول الحميرى أن بها عيناً تولد الحصى وعين أخرى تفتته، انظر: الروض المعطار، ص ١٥٠.

(٣) بسطة Basa: مدينة تقع فى الشمال الشرقى من غرناطة بالقرب من مدينة وادى آش حسنة الموضع بينها وبين جيان ثلاث مراحل، انظر: الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٤-٤٥؛ محمد الفاسى، الأعلام الجغرافية الأندلسية، ص ٢٤.

(٤) شقورة Segura: تقع شمال لورقة، ومنها أبو بكر بن مجبر شاعر دولة بنى عبد المؤمن، انظر: ابن الخطيب أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ١٤٥؛
Huici Miranda, op.cit., t. I, pp. 226-228.

(٥) قلية Gullar: يقع فى الشمال الشرقى من غدينة بسطة، انظر: المراكشى، المعجب، ص ٣٧؛
Huici Miranda, op.cit., t. I, pp. 226-228.

(٦) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص٢٧٧-٢٧٩، وانظر أيضاً: ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢٠٦؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٤٩٧.

مرسية لاعتراض طريق الموحدين وإيقاف تقدمهم إلى مرسيه، واضطر هؤلاء عندما تعذر عليهم اختراق الطريق الجبلى الوعر المؤدى إلى مرسيه إلى التحول إلى غربى لورقة، ومنها انحدروا إلى السهل المسمى بالفندون Al Llano de Al Fundin[١]، فظن ابن مردنيش أن وجهتهم الرئيسية الساحل نحو قرطاجنة، ولكنه لم يلبث أن ارتد فى قواته سريعاً نحو مرسيه متخذاً الطريق الجبلى وذلك عندما أدرك أن القوات الموحدية أخذت فى الاتجاه شمالا صوب فحص مرسيه [٢]. وكانت قوى الموحدين قد وصلت ظهر يوم الجمعة ٧ ذى الحجة من السنة المؤرخة (١٥ أكتوبر) إلى فحص مرسيه، على مسافة تبعد نحو عشرة أميال من مدينة مرسيه ونزلوا بموضع هناك يعرف بـ «فحص الجلاب»، فى الوقت الذى تصدى لهم ابن مردنيش بقواته البالغ عددها ثمانية آلاف فارس [٣]. وتأهب الجانبان للقتال، فبدأ الموحدون ينظمون قواتهم الرئيسية من قبائل هرغة وتينمل وهنتاتة وجدميوه وجنفيسه وباقى قبائل الموحدين بينما نظم العرب من بنى هلال ورياح وجشم وزغب قواتهم، وتعاهد الجميع على الصدق والثبات والصبر والاستشهاد فى سبيل الله[٤].

أما ابن مردنيش فقد نظم قواته بدوره وآثر أن يبادر بالهجوم بعسكره النصارى على أجناد العرب ثم تحول إلى مهاجمة الموحدين، فهاجم مرتين متواليتين ونشبت بين الجيشين معركة كبيرة، أبلى فيها الموحدون والعرب أشد البلاء، واستمرت المعركة محتدمة حتى الزوال رجحت فيها كفة الموحدين، فانقضوا على جيش ابن مردنيش وفتكوا به، وقتلوا منه عدداً كبيراً معظمه من النصارى [٥]، وانسحب ابن مردنيش فى فلول قواته إلى تل قريب لاذ به حتى دخل الليل فتستر فى ظلامه وفر مسرعاً إلى مرسيه، وامتنع بداخلها [٦].

وفى صباح اليوم التالى الثامن من شهر ذى الحجة (١٦ أكتوبر)، بادرت قوات الموحدين بالزحف صوب مرسيه، ونزلت بساحتها، واحتلت المقر الريفى الذى ينزل به

---

(١) سهل خصب طوله خمس وعشرون ميلا، يقع بين لورقة وقرطاجنة، راجع : الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨١، ص ٢٠٧، Huici Miranda, op.cit., t. I, p. 226.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٧٩.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٨٠.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٥) نفس المصدر، ص ٢٨٠؛ وابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٦٤؛ وانظر أيضاً:
Villenuevo, en su via je leteroio, tomo IX, p. 239; Codera, op.cit., p. 100.

(٦) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٧٤، ٢٨٠-٢٨١.

ابن مردنيش ويعرف بحصن الفرج، وكان قائماً على ربوة صغيرة في الشمال الغربي من المدينة [1]. وهناك أمضى الموحدون عيد الأضحى، ثم استأنفت سرياتهم الإغارة على أحواز مرسيه، تتلف زروعها، ومنها بساتين ابن مردنيش اليانعة، مدى أيام حتى امتلأت أيديهم بالأقوات والأسلاب، ووصلت طلائعهم إلى مدينتى أوريولة والش، ومن هناك كتب السيدان أبو حفص وأبو سعيد إلى الخليفة يبشرانه بالنصر، وبدأت رسالتهما بقصيدة مطلعها [2]:

لقد بلغت جيادكم مداها ∴ ونالت ما أرادت من عداها
وها هى فاسئلوا الإصباح عنها ∴ بحمد الله قد حمدت سراها

وعلى إثر انتصار الموحدين فى موقعة فحص الجلاب، قام السيدان أبو حفص وأبو سعيد بوضع حاميات موحدية فى المواضع المفتوحة، ثم انصرفا بقوات الموحدين من ظاهر مرسيه عائدين إلى الأندلس.

ومن الجدير بالذكر أن الحملة الموحدية حققت أهدافها بتأديب ابن مردنيش ومهاجمته في شرق الأندلس (منطقة نفوذه الرئيسية)، فضلا عن استيلائها على بعض حصونه الهامة مثل حصن أندوجر الذى كان يشكل مصدر الخطر الدائم على سلامة قرطبة.

كذلك قضت الحملة على هيبة ابن مردنيش فى هذه المنطقة، وكشفت عن ضيق أهل شرق الأندلس من ابن مردنيش وعدم ولائهم له إلى حد إقدامهم فى أول فرصة تواتيهم على الاستسلام للموحدين والدخول فى طاعتهم. ونضيف إلى ما سبق أن حملة الموحدين سببت انقساماً واضحاً وتفتتاً لا مجال لإنكاره فى جبهة ابن مردنيش، فالعلاقات بينه وبين ابن همشك أصابها الفتور بدليل أننا لم نعثر فى رواية ابن صاحب الصلاة وكذلك فى خطاب الفتح الذى أورده أى إشارة إلى اشتراك ابن همشك الساعد الأيمن لابن مردنيش فى هذه المعارك أو تصديه للقوات الموحدية عندما أغارت على بياسة رغم أن قاعدته جيان تقع فى جنوبها.

وأيا كان الأمر، فإن هذه الحملة قد أقنعت الموحدين بضرورة القضاء نهائياً على نفوذ ابن مردنيش فى شرق الأندلس، وعقد العزم على ضم هذا الإقليم إلى بقية

---

(1) Torres Balbas, Al-Andalus, Vol. II, Faso 2, p. 371.

(٢) راجع : كتاب الفتح المؤرخ فى ذى الحجة عام ٥٦٠هـ، فى : ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، من ص ٢٧٦-٢٨٣، وهو مصدرنا فى كتابة هذه الأحداث.

الأندلس توحيداً لأراضيها، ولاعتبارات أخرى منها أهمية هذا الإقليم استراتيجيا لتحكمه في المناطق القطلانية المجاورة وكثرة سواحله ومراسيه البحرية وخصوبة تربته وعظم ثرواته الاقتصادية.

هـ ـ توحيد ابن همشك :

لم تلبث الأمور في شرق الأندلس بعد جلاء قوات الموحدين عنها أن عادت إلى حالتها الأولى، واستأنف ابن مردنيش من جديد شن غاراته هذه المرة على غرناطة دون قرطبة مستخدماً في ذلك قوة من النصارى المتحالفين معه كانت تحتل حصن «لبسه» Labas الواقع ما بين غرناطة ووادى آش، وقد واصلت هذه القوة الإغارة على أحواز غرناطة والعبث فيها وبث الرعب في أنحائها، إلى أن وصلت في بعض غاراتها حتى أسوار غرناطة، فحشد واليها الشيخ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم قواته في ذى الحجة عام ٥٦٢هـ/١١٦٦م، واتجه صوب حصن لبسه وهاجمه بشدة واقتحمه عنوة، وفتك بحاميته النصرانية، وعاد ظافراً إلى غرناطة [١].

وفي جمادى الآخرة ٥٦٣هـ/١١٦٧م، توجهت قوة من النصارى المرتزقة التابعة لابن مردنيش من قاعدتها في وادى آش الواقعة على وادى شنيل غربي غرناطة واندفعت جنوباً حتى وصلت إلى أحواز رندة، وخربت المنطقة، وانتهبت أموالها واستاقت ماشيتها، فبادر السيد أبو عبد الله بتجهيز قوة موحدية من حامية غرناطة التقت معهم عند عودتهم على مقربة من وادى آش، وعندئذ لجأ النصارى إلى جبل قريب امتنعوا به، فحملت القوة الموحدية عليهم بعنف ومزقت صفوفهم، وألقت بهم من حافات الجبل، ففنى معظمهم قتلا وأسراً، واستولى الموحدون على الغنائم والأسلاب، واصطحبوا معهم ثلاثاً وخمسين أسيراً من النصارى ضربت أعناقهم في غرناطة عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م [٢].

وفي العام التالى (في شهر ربيع الآخر)، سير أبو يعقوب جيشاً من الموحدين وغيرهم تحت إمرة الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى إلى أشبيليه ليكون مقدمة لحركة الجهاد العامة، التي اعتزم الموحدون القيام بها في الأندلس، وقد اشتركت هذه القوة

---

(١) راجع : ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٩٧، ٣٢٣.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٥٦-٣٥٧.

فى تخليص بطليوس من الاحتلال البرتغالى[1]، ثم سار الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى فى جيشه إلى قرطبة لمعاونة واليها السيد أبى إسحاق إبراهيم على تقوية جبهتها الدفاعية أمام تهديدات ابن مردنيش من جهة الشرق والقشتاليين من الشمال، وكان الخليفة قد أصدر تعليماته للشيخ أبى حفص بأن يطبق سياسة دفاعية عن قرطبة ولا يبدأ بالهجوم على أملاك ابن مردنيش، نستنتجه من نص الرسالة التى وجهها خليفة الموحدين إلى محمد بن سعد بن مردنيش بتاريخ غرة رمضان عام ٥٦٤هـ، ومما جاء فيها : «وقد كان الشيخ الأجل أبو حفص أعزه الله ـ تحرك فى هذه السنة بعساكر الموحدين ـ أعانهم الله إلى الجزيرة الأندلسية ـ حماها الله ـ بنية الجهاد والغزو، فخاطبنا بما رأيناه من هذه المخاطبة إليكم أن يتنكب ذلك الجانب، ولأن لا يعرض بقصده وأن يتخلى عنه إلى سواه ريثما يصل كتابكم ويستعلم ما عندكم من أجل الدعاء والتلفت إليه فيكون بدار الجواب على حكم ذلك» [2]. كما أوضح الخليفة فى رسالة إلى ابن مردنيش[3] المكاسب الروحية والمادية التى سوف يجنيها إذا خضع للموحدين، وكرر إليه الدعوة، التى كان قد وجهها إليه أبوه الراحل عبد المؤمن بن علي منذ اثنى عشر سنة .

ولكن ابن مردنيش لم يعبأ بنداء الخليفة إليه ولم يستجب لرجائه بالدخول فى طاعة الموحدين بينما استجاب نائبه ابن همشك إلى هذه الدعوة وبادر بالكتابة إلى الشيخ أبى حفص بقرطبة بجوابه الذى ضمنه رغبته فى أن يقبل الخليفة توبته كما سجل قبوله للدخول فى حكم التوحيد، وعرض عليه أن يمكن الموحدين من بلاده،

---

(١) استولى ابن الرنك Alfonso Enriquez صاحب قلمرية Coimbra على مدينة بطليوس فى عام ٥٦٤هـ وحاصرت قواته من تحصن من الموحدين بقصبة بطليوس مع حافظهم عمر بن تيمصلت، وكان ذلك هو الدافع الرئيسى من وراء هذه الحملة بقيادة الشيخ أبى حفص عمر ابن يحيى ، ولكن هذه الحملة لم تشتبك مع البرتغاليين فى أى موقعة إذ تمكن البيبوج بن إذفونش صاحب الصبطاط (يقصد به فرناندو الثانى ملك ليون المسمى El- babso ويعرف بالسليطين صاحب Ciudad Rodrigo الذى كان مصالحاً للموحدين من استرجاع بطليوس للموحدين بعد أن فتح فى سور قصبة بطليوس نقبة مكنت الحامية الموحدية المحصورة من الخروج والمشاركة فى القتال، واضطر أنريكى إلى الفرار مهزوماً ولكنه سقط أسيراً أثناء فراره، راجع: ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٨١؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٧٩-٨٠.

(٢) مجموع رسائل موحدية ، الرسالة الخامسة والعشرون، ص ١٤٩.

(٣) نفس المصدر، الرسالة الخامسة والعشرون، ص ١٤٦ وما بعدها.

وقد رحل ابن همشك بالفعل إلى قرطبة في رمضان عام ٥٦٤هـ/يونيه ١١٦٩م فاستقبله واليها السيد أبي إسحاق إبراهيم والشيخ أبي حفص وأكابر الوحدين استقبالا وديًا حافلاً ورحبوا به، وأعلن ابن همشك أنه قد «عاهد الله تعالى بالتزام الآمر العزيز المطاع، والدخول فى حكم التوحيد» (١)، وما أن تم إعلان ابن همشك دخوله فى طاعة الموحدين حتى كتب إلى الخليفة أبي يعقوب يعلنه بتوبته ويبلغه دخوله فى الطاعة، ثم يسأله العفو، وحسن المثاب، فجاء رد الخليفة بالقبول، وأمر بتقريبه وإكرامه، وترتب على ذلك أن اتصلت البلاد التى فى حوزة ابن همشك جيان وبياسة وأبده ببلاد الموحدين فى أواسط الأندلس (٢).

ويعلل ابن الخطيب الشقاق القائم بين ابن مردنيش وصهره ابن همشك، وهو شقاق أدى إلى أن يبادر ابن همشك بخذله والانضمام إلى الموحدين، بإقدام ابن مردنيش على طلاق زوجته صبيحة بنت إبراهيم بن همشك، بعد أن بالغ ابن مردنيش فى إهانتها وإيلامها، فغادرته إلى كنف أبيها، وأسلمت إليه ولدها، ويحكى أنها عندما سئلت عن ولدها وإمكان بعدها عنه قالت : «جرو كلب، جرو سوء من كلب سوء لا حاجة لى به» (٣)، فصارت كلمتها مثلا عند نساء الأندلس.

ولا نشك فى أن يكون هذا التعليل مبرراً مباشراً للخلاف الحاد الذى نشب بينابن همشك وابن مردنيش وقد لاحظنا أن بوادر هذا الخلاف قد وضحت قبل ذلك بفترة عندما آثر ابن همشك ألا يشترك مع قوات صهره ابن مردنيش فى الدفاع عن بياسة رغم وجوده فى جيان على مقربة منها، هذا الفتور فى العلاقات بين الصديقين المتصاهرين قد يكون مرجعه سوء معاملة ابن مردنيش لزوجته صبيحة بنت إبراهيم بن همشك أو طلاقه لها وهو وحده مبرر كاف يفسر الخلاف القائم بينهما وهو خلاف انتهى بطلاق سياسى بين الرجلين سبقه طلاق شرعى، ولعل مبادرة ابن همشك بالدخول فى طاعة الموحدين يمكن تفسيرها بخوفه على نفسه من ابن مردنيش وقد سبق له أن عاين إقدامه على قتل وزيريه ابنى الجذع وبنائها فى الحائط وقتله لابن صاحب الصلاة الغرناطى (٤). وكان ذلك مبرراً قوياً يفسر انضواءه إلى جانب

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٨٩.

(١) نفس المصدر، ص ٣٨٩–٣٩٠.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص ٣٠٢.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٨٨؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ق٣، ص ٨٢؛ وابن صاحب الصلاة الغرناطى هو أبو عبد الله الذى كان فى جملة العلماء المبرزين، والذى كان فى جملة شيوخ ابن الآبار، راجع: ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، ص ٥١٣، رقم ١٤٤٥؛ ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٣٨٨، هـ٣.

الموحدين، والواقع أن توحيد ابن همشك وخضوعه السياسي للموحدين جاء ضربة قاسية لابن مردنيش فعندما علم بذلك «سقط في يده، وتحقق أن ساعده قد كسر مع عضده» [١]، ولم يغفر ابن مردنيش لنائبه السابق ابن همشك فعلته تلك ودفعته شهوته إلى الانتقام منه ومعاقبته على خيانته إلى أن يوجه قواته لمهاجمة قاعدته جيان هجوماً متواصلا، فقد ألحت قواته عليه بالغارات مدة عام، قاسى فيها ابن همشك الأهوال، واستصرخ بالموحدين لإنجاده [٢]، لكنهم لم يروا التدخل في هذه المعركة، إذ كانوا يعدون خطة أخرى لمقاتلة ابن مردنيش في عقر داره [٣].

و ـ نهاية ابن مردنيش:

استمرت غارات قوات ابن مردنيش على أراضي ابن همشك طوال عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م على وجه التقريب، وفي هذه السنة استدعى الخليفة أخويه السيد أبا إبراهيم إسماعيل والي أشبيلية والسيد أبا إسحاق إبراهيم والي قرطبة والشيخ الحافظ أبا عبد الله بن أبي إبراهيم والي غرناطة إلى حضرته مراكش، فغادروا الأندلس في أوائل جمادى الأولى من سنة ٥٦٤هـ/فبراير ١١٦٩م [٤]، والظاهر أنه استهدف من استدعائهم إشراكهم في التجهيز للحملة الكبرى التي كان يزمع تسييرها لمقاتلة ابن مردنيش وهي حملة تأجلت بسبب مرض الخليفة منذ بداية هذه السنة حتى نهايتة[٥].

ولما طال مرض الخليفة وازداد إلحاح ابن مردنيش بغاراته المكثفة على أراضي ابن همشك منذ أعلن توحيده، وتوالت صرخات ابن همشك واستنصاره بالخليفة استلزم الأمر النظر إلى توجيه قوة عاجلة إلى الأندلس لنجدة ابن همشك ووضع حد لاعتداءات ابن مردنيش المتكررة دون الانتظار لاستكمال الأهبة والإعداد للحملة الكبرى التي قرر الخليفة القيام بها، يضاف إلى ذلك أن قدوم ابن همشك بنفسه إلى الحاضرة مراكش عام ٥٦٥هـ مؤكداً طاعته ملتمساً إغاثته [٦]، عجل بتسيير هذه القوة الموحدية.

---

(١) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٣٩٤؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٨٢.

(٢) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر والصفحة.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٨٣.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٩٤-٣٩٥.

(٥) نفس المصدر، ص ٣٩٨.

(٦) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٨٢.

وفى أوائل شهر ذى القعدة عام ٥٦٥هـ/ يوليو ١١٧٠م خرج السيد أبو حفص وبصحبته السيد عثمان أبو سعيد فى عسكره وعدة من الأشياخ والحفاظ الموحدين من مراكش كما اشترك معه من زعماء الأندلس أبو محمد سيدارى بن وزير، وأخوه أبو الحسن علي بن وزير وعدة من القادة الأندلسيين النازلين بمراكش للاستفادة من خبرتهم ودرايتهم بشئون الحرب فى الأندلس، ومعرفتهم لثغورها، فوصل فى عسكره إلى أشبيلية فى أوائل عام ٥٦٦هـ/سبتمبر ١١٧٠م وهناك وافاه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى وبصحبته إبراهيم بن همشك، وعقد معهما مجلساً تباحثوا فيه الموقف فى شبه الجزيرة، وقر رأيهم على توجيه عسكر إلى غرب الأندلس جهة بطليوس [1].

أما حملتهم الموجهة إلى شرق الأندلس ضد ابن مردنيش فلم تنفذ إلا فى أواخر عام ٥٦٦هـ/مارس ١١٧١م عقب اجتماع ثان تقرر فيه محاربة ابن مردنيش والقضاء على سلطانه فى شرق الأندلس.

وكانت أحوال محمد بن سعد بن مردنيش الداخلية آنذاك قد ساءت وأخذ نجمه فى الأفول كما بدأ سلطانه الشامخ الذى أقامه فى شرق الأندلس منذ عام ٥٤٢هـ يتهاوى شيئاً فشيئاً، ويرجع ذلك لعاملين: أولهما، مصادقة ابن مردنيش للممالك المسيحية، وكان هذا أمراً طبيعياً أملته الظروف المحيطة به، لتمكين سلطانه ودعم سيطرته على شرق الأندلس فى مواجهة الموحدين، ولم تتردد أسبانيا المسيحية فى بذل العون له والتحالف معه ضد الموحدين عدوهم المشترك، واستغل ابن مردنيش هذا التحالف السياسى فى اجتذاب قوات النصارى وحشدها فى صفوفه، وكانت تربطه منذ قيامه بالحكم علاقات طيبة مع سائر الممالك المسيحية، كما سبق أن أسلفنا القول، غير أن هذه العلاقات الودية لم تلبث أن شابتها خلافات نشبت بينه وبين ريموند برنجير الرابع ملك قطلونية وأرغون منذ عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م، انتهت بهما إلى القطيعة، ونستدل على ذلك من نص تاريخي يؤكد أن ريموند برنجير الرابع أصدر مرسوماً يمنح بمقتضاه الفرسان الاسبتارية عشر أراضى المسلمين التى يوفقوا فى الاستيلاء عليها، كما توجد وثيقة أخرى بتاريخ ٥٥٣هـ/١١٥٨م تنص على أن الصلح والذى كان قائماً بين ابن مردنيش وريموند برنجير الرابع لم يعد سارى المفعول، كما أن البابا أدريانو الرابع Adriano IV أصدر مرسوماً بابوياً موجهاً إلى أسقفى طركونة Tarragona وأربونة Narbona يهدد فيها بالحرمان كل من يتجاسر على

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٩٩-٤٠٠.

إزعاج ريموند برنجير فى هذه الظروف، وقد استمرت القطيعة بينهما عامين، فقد أعلن ابن مردنيش فى عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م حسبما ورد فى وثيقة ثوريتا Zurita التزامه بدفع جزية سنوية ثابتة إلى ريموند برنجير وتنازله له عن أراضى جديدة (١).

غير أن الأمور لم تلبث أن تطورت إثر وفاة ريموند برنجير الرابع وساءت العلاقات بين ابن مردنيش وخلفه ألفونسو الثانى ملك أرغون، إلى حد أن الأخير بعث بقوات قطلونية للاشتراك مع الموحدين فى حربهم ضد ابن مردنيش فى معركة فحص الجلاب، مات فيها أحد القادة القطلان يدعى Guillen Despugonlo وعدد كبير من الفرسان النصارى(٢) .

وكان ابن مردنيش يعتمد فى موقفه العدائى من أرغون على تأييد قشتالة التى لم تكن على وفاق مع أرغون، ولم تلبث البابوية أن تدخلت بين المملكتين المسيحيتين للتوفيق بينهما تعزيزاً للجبهة المسيحية ضد الإسلام ودعماً لحركة الاسترداد، وبمقتضى تدخل البابوية تم الاجتماع بين الملكين الأرغونى والقشتالي فى طرسونة Tarazona أوائل ٥٦٦هـ/سبتمبر ١١٧٠م، وفى هذا الاجتماع شكا ألفونسو الثانى العفيف El Casto صاحب أرغون من امتناع ابن مردنيش عن دفع الإتاوة التى التزم بها منذ عام ١١٦٢م، فضلا عن تحالفه مع ألفونسو الثامن صاحب قشتالة فى عدائهما لمملكته، فتعهد ألفونسو الثامن ملك قشتالة بأن يلزم ابن مردنيش بالوفاء بما كان قد التزم به من إتاوات لأرغون وفى مقابل ذلك تعهد ألفونسو الثانى ملك أرغون بعدم التعرض لأراضى ابن مردنيش، وعدم تقديم أى عون للموحدين فى حربهم ضد ابن مردنيش (٣).

وكان ابن مردنيش يرتبط بعلاقات ودية وثيقة مع مملكة قشتالة، وكان هذا واضحاً كل الوضوح فى اجتماع ملكى أرغون وقشتالة فى طرسونة، ووفقاً لهذه العلاقات الودية كان ابن مردنيش يحتفظ فى بلنسية بحاميه كبيرة من القشتاليين اكتظت بهم المدينة، وكانوا يتصرفون فيها بما يحلو لهم، حتى ضاق أهل بلنسية ذرعاً بتصرفاتهم، وهجرها الكثير منهم إلى الضياع والقرى المجاورة كرهاً مما زاد فى سخطهم على ابن مردنيش الذى مكن النصارى من دورهم وأموالهم ومرافقهم، وشردهم ودفع بهم إلى الهجرة من بلدهم(٤) . وقد حركهم ذلك على السخط عليه والتماس الآمال

(1) Miguel Gual Camarena, Precendentes de la reconquista valenciana; Valencia, 1953, pp. 185-186.
(2) Ibars, op.cit., p. 542.
(3) Ibars; Ibid, p. 542.

(٤) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢٣٦

فى الخلاص من عهده البغيض أنفة من سياسته غير الإسلامية واعتماده على أعداء الإسلام.

أما العامل الثانى فى اضمحلال قوة ابن مردنيش، فيتمثل فى خروج قادته وكبار رجال دولته عليه، وكان انشقاق ابن همشك أعظم قادته وساعده الأيمن وصاحب الفضل الأعظم فى معظم انتصاراته، عليه وانضمامه إلى الموحدين وتنازلهم عن كل أملاكه ضربة قاصمة لابن مردنيش هزت من هيبته وسلطانه وجرأت عليه أتباعه وأشياعه فخرج عليه أيضاً صهره يوسف بن هلال، كما خرج عليه كذلك وزيراه ابنى الجذع فانتقم منهما بأن بنى عليهما فى حائط.

وعلى هذا النحو من الاضطراب الداخلى والانقسام بدت دولة ابن مردنيش تتصدع وتتهاوى فى الوقت الذى وضع الموحدون خطتهم للقضاء على سلطانه ومهاجمته فى عقر داره، الأمر الذى ساعد الموحدين على القضاء عليه فى يسر، ففى أول رجب عام ٥٦٦هـ/ مارس ١١٧١م خرج السيد أبو حفص وأخوه السيد أبو سعيد والشيخ أبو حفص فى عسكر الموحدين من أشبيلية، ومعهم إبراهيم بن همشك لمحاربة ابن مردنيش فأقاموا أياماً بقرطبة زحفوا بعدها نحو مرسيه، فكانت أول مدينة نازلوها من قواعد ابن مردنيش مدينة قيجاطة Quesa-da[١]، فافتتحوها بعد مقاومة قصيرة ووقع قائدها الشرقى فى أسرهم، فضربت رقبته برأى ابن همشك ثم أقلعوا عنها إلى مرسيه وهم يشون غاراتهم على بسائط ابن مردنيش، حتى وصلوا إلى فحص مرسيه، فنازلوه واستولوا على حصن الفرج Aznalfarche فى ظاهره وكان متنزهاً لابن مردنيش، فاستباحوا الرياض والبساتين، وما اتصل بها من البسائط والقرى فى تلك المنطقة، وابن همشك يقود الموحدين ويدلهم على العورات موطن الضعف فى استحكامات عدوه[٢].

ويسجل ربيع وصيف عام ٥٦٦هـ/١١٧١م انهيار سلطان ابن مردنيش[٣]، الذى استنجد بحلفائه النصارى، فلم يلب منهم دعوته سوى أربعمائة فارس بعث بهم إلى لورقة مع قائده الوفى أبى عثمان بن عيسى لتأمين الدفاع عن قصبتها فضبطها

---

(١) قيجاطة أو قيشاطة، وتقع فى الشمال الشرقى لمدينة جيان شرقى قرباقة، راجع: (الحميرى، المصدر السابق، ص ١٦٥ من النص العربى، و ص ١٩٨ من الترجمة الفرنسية).

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٠٣.

(٣) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٠٣-٤٠٤؛ وراجع أيضاً: ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٨٦-٨٧.

وحصنها، ولكن الأمر طال عليه، وشاع بين الناس ما يعانيه ابن مردنيش من اضطراب أحواله، وأن نهايته قد دنت، عندئذ ثار أهل لورقة ودعوا للموحدين، وهاجموا النصارى وعسكر ابن مردنيش الذين لاذوا بالقصبة يتحصنون بداخلها، فخاطب أهل لورقة السيد أبا حفص بمحلته بظاهر مرسيه يعلنونه بتوحيدهم، ويستغيثون به لنصرتهم، فسار السيد أبو حفص في بعض قواته إلى لورقة، ودخلها بينما تحصن القاضى أبو عثمان بن عيسى مع عسكر النصارى وأجناد ابن مردنيش داخل القصبة، وحدث أن خرجت سرية موحدية للغزو فى النواحي المجاورة، فوقع فى يدها ولد القاضى أبى عثمان فحملوه إلى السيد أبى حفص الذى عمد بواسطته إلى ممارسة سياسة الضغط على أبيه القائد، فأمر بأن يحمل إلى موضع قريب من القصبة عساه يراعيه ويحمله ذلك على تسليمها، فرفض القائد واستمر ممتنعاً، فواصل الموحدون حصارهم للقصبة حتى نفذت المؤن والمياه عن المحصورين وعندئذ ألح الجند النصارى على أبي عثمان فى التسليم، وتوسط ابن همشك لأبى عثمان فى النزول من القصبة مع جنده بالأمان، وهكذا سلمت القصبة وانصرف القائد أبو عثمان مع أصحابه وابنه إلى مرسيه، وانصرف الجند النصارى إلى بلادهم[1]. وتم بذلك انضواء لورقة معقل مرسيه الأمامى فى فلك دولة الموحدين، وبعث إلى الخليفة بأخبار هذا الفتح، فورد جوابه بالشكر والامتنان وإعادة حصار مرسيه، فانصرف السيد أبو حفص بقواته فى طريقه إلى مرسيه[2].

وفى أثناء ذلك أعلن أهل الج «الش» Elche دخولهم فى دعوة التوحيد، وتبعهم فى ذلك أهل الحصون المجاورة، ثم جهز السيد أبو حفص حملة من الموحدين عهد بقيادتها إلى الشيخ الحافظ أبي عبد الله بن أبي إبراهيم، وجهتها مدينة بسطة Baza فافتتحها ودخلت فى طاعة الموحدين [3].

كما أعلن أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش[4]، المعروف بابن صاحب البسيط، وكان ابن عم محمد بن سعد بن مردنيش وصهره على

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٠٣-٤٠٤؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٨٦-٨٧.

(٢) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٤٠٥.

(٣) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٠٥، حصن الج يقع غربى مرسيه، راجع: الحميرى، المصدر السابق، ص ٣٠.

(٤) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢٦٨.

أخته، أعلن فى المريه طاعته للموحدين، وتعاون مع محمد بن هلال أحد قادة ابن مردنيش الخارجين عليه، وقبضوا على ابن مقدام والى ابن مردنيش على المريه فأعدم، وبعثا إلى السيد أبى حفص يبلغانه دخولهما فى طاعة الموحدين ويسألانه العون والإنجاد فوجه إليهما بقوة موحدية، وعندما وصلت هذه الأنباء إلى ابن مردنيش أعماه الغضب فأمر بقتل أخته زوج محمد ابن عمه وبقتل بنيه منها، ويشير ابن صاحب الصلاة المؤرخ المعاصر لهذه الحادثة قائلا: «فأخذهم ابن الراعى الموكل بالعذاب منه بالناس وحملهم إلى البحيرة المتصلة بالبحر بقرب بلنسية وأدخلهم فى قارب مع نفسه، فلما توسط بهم البحيرة المذكورة غرقهم فى البحر فى أبشع حال، وأشنع مقال»[1].

وعندما رأى أبو بكر أحمد بن سفيان المخزومى سيد جزيرة شقر Alcira ما آل إليه أمر ابن مردنيش من انشقاق ابن همشك عليه وتوحيده، ثم خروج ابن عمه عليه بالمريه، وما كان من طرده لأهل بلنسيه، وشحنها بالنصارى واحتلالهم ديارها قام مع أهل الجزيرة ودعا للموحدين وانضم إلى جيرانه، وهاجم النصارى وطردهم من بلده فأمر ابن مردنيش أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد والى بلنسيه بقتال ابن سفيان، فبعث أبو الحجاج يوسف قوة من الفرسان، حاصرت جزيرة شقر وضيقت عليها من منتصف شوال عام ٥٦٦هـ حتى منتصف ذى الحجة من نفس السنة، كل ذلك وابن سفيان يقاوم وابن مردنيش يواصل تسيير قواته لتشديد الحصار، فخاطب أهل الجزيرة أبا أيوب بن هلال معاون ابن صاحب البسيط فى ثورة المريه ضد ابن مردنيش، فوجه إليهم السيد أبو حفص قوة من عسكر الموحدين بقيادة أبى أيوب الذى استطاع أن يقتحم الجزيرة وأن يضبطها ويحميها أشهراً حتى مرض ابن مردنيش ولحق بمرسيه، فتنفس مخنق الجزيرة [2].

وكان ابن مردنيش أثناء قيام الموحدين بمحاصرته يخرج بقواته من آن لآخر ويشتبك معهم فى معارك طاحنة، بينما كان أخوه أبو الحجاج يوسف ابن سعد يتولى الدفاع عن بلنسية وأحوازها، وقد تباينت روايات المؤرخين فى موقف يوسف من أخيه فى هذه الظروف الصعبة، ففى رواية لابن الخطيب أنه خرج على أخيه، وفر عنه إلى الموحدين ودخل فى طاعتهم قبل وفاة أخيه بنحو عام [3]، وفى رواية أخرى لابن

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٠٧، والمقصود بالبحيرة هنا ، المكان المعروف باسم La Albufera بمرسيه، راجع: نفس المصدر والصفحة، هـ٥.

(٢) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٦٤، وراجع أيضاً:
Huici Miranda, Historia de Valencia, t. III, pp. 167-168.

(٣) أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٧١.

خلدون أنه لما رأى تجهم الحوادث دعا فى بلنسيه لبنى العباس، وكاتب الخليفة المستجد بالله فكتب له بالعهد والولاية ثم بايع للموحدين سنة ٥٦٦هـ(١). وأما رواية المؤرخ المعاصر ابن صاحب الصلاة فتشير إلى أنه مال إلى التوحيد قبل موت أخيه، «وتحقق من أخيه الانحراف، والميل إلى الموحدين والانعطاف، فزادت كيده ألمًا، واتصلت نفسه سقمًا» (٢)، وفي موضع آخر يقول ابن صاحب الصلاة : «ثم إن أبا الحجاج أخاه... أظهر الإنابة والمبادرة إلى التوحيد، وتحقق محمد (ابن مردنيش) بذلك فزادت علته بالذهول، وتوقف أخوه عن عيادته ومخاطبته، فاشتدت علته، وحضرت منيته» (٣).

وبينما كانت قوات الموحدين تحاصر مرسيه، كان ألفونسو الثانى ملك أرغون يجتمع بأعضاء حكومته فى سرقسطة فى جمادى الآخرة ٥٦٧هـ/فبراير ١١٧٢م ـ أى قبل وفاة ابن مردنيش بنحو شهر فقط ـ ويقرر فى هذا الاجتماع شن حرب على بلنسية مستغلا فى ذلك مرض ابن مردنيش واختلال أموره، فأعد جيشًا قويًا وجه به إليها، فخرب نواحيها ودمر ضواحيها وبساتينها (٤)، واستولى على عدة مواقع وحصون متاخمة لحدود قطلونية (٥)، وعزز حملته البرية بحملة بحرية، فقام أبو الحجاج يوسف والى بلنسية بمدافعة القوات البرية كما تولى ابن قاسم، قائد أسطول ابن مردنيش، بمدافعة القوات البحرية القطلانية، فانتصر عليها وهزمها وأحرق عددًا كبيرًا منها (٦). لكن هذه المقاومة الفعالة لم تسفر عن فك الحصار المحكم حول بلنسية بدليل أن أبا الحجاج اضطر إلى التعهد بدفع جزية مضاعفة مقدمًا، وأن يتحمل نفقات هذه الحملة، فضلا عن تعهده بتقديم العون للأرغونيين فى حملاتهم المقبلة ضد مرسيه (٧).

---

(١) ابن خلدون ، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٥٧.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٠٦.

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٧١.

(4) Miguel Gual Camarena, op.cit., p,. 196.

(٥) هذه المواقع والحصون التى أوردها ثوريتا فى الحوليات الأرغونية هى:

Val de Tormo - Macaleon Zaclla - Favera - Monney - Beceite, Val de Robres - La Frenseda, Gaspe - Renarroja, en Ibars: op.cit., p. 553.

(6) Ibaras, op.cit., p. 553.

(7) Miguel Gual Camarena, op.cit., p. 196.

أثرت هذه الأحداث المتتالية على ابن مردنيش من انشقاق معظم قادته ووزرائه وقرابته عليه، واستيلاء الموحدين على معظم حصونه وقواعده، والحاحهم بالحصار على مرسيه، وانتهاز الأرغونيين لهذه الفرصة وإقدامهم على محاصرة بلنسيه والاستيلاء على بعض حصونها المجاورة لمملكتهم، فضلا عن عبور الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف إلى الأندلس فى حشود كثيفة من الموحدين والعرب ونزوله بأشبيليه فى شوال سنة ٥٦٦هـ، وأيقن ابن مردنيش آنذاك بقرب نهايته ولكنه مع ذلك لم يهن ولم يتنازل عن كبريائه فيعلن خضوعه للموحدين، إلا أن انهيار سلطانه وتمكن الموحدين من بلاده وخروج معظم أخصائه وولاته عليه عجلت بنهايته فلم يلبث أن توفى فى العاشر من رجب سنة ٥٦٧هـ/٦ مارس ١١٧٢م [١].

وتختلف الروايات فى تعليل وفاته، ففى رواية أنه لما اشتد على أهله وكبراء دولته وأساء إليهم، نصحته والدته وأغلظت له القول، فنهرها فخشيت بطشه، لما تعلمه من وحشية طباعه فدبرت قتله بالسم[٢]، فى حين تشير رواية ابن الآبار إلى أن ابن مردنيش مرض خلال محاصرته لجزيرة شقر وغادرها عليلا إلى مرسيه [٣] حيث لقى حتفه.

وأيّا ما كان الأمر فقد تكتم أقاربه خبر وفاته إلى أن حضر أخوه أبو الحجاج يوسف من بلنسيه وتشاور مع أكابر أبناء أخيه، واتفق رأي الجميع على أن يعلنوا طاعتهم لأمير المؤمنين أبى يعقوب، وأن يسلموا له البلاد [٤].

والمعروف أن أبا الحجاج يوسف أخ ابن مردنيش، كان قد سبق أن أعلن توحيده قبيل وفاة أخيه، أو على الأقل مال إلى جانب الموحدين [٥].

ويذكر المراكشى فى موضع آخر، أن ابن مردنيش حينما شعر بدنو أجله جمع أولاده، وكان له من الذكور ثمانية، هم هلال أبو القمر وهو أكبرهم، وإليه أوصى، وغانم والزبير، وعزيز، ونصير، وبدر، وأرقم، وعسكر، وقال لهم إنى أرى أمر هؤلاء القوم من الموحدين فى صعود، وقد كثر أتباعهم، ودخلت معظم البلاد فى طاعتهم، «وإنى

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٧١.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٤٩٣.

(٣) الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢٦٨.

(٤) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٤٩.

(٥) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٧١.

أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم، فسلموا إليهم الأمر اختياراً منكم، تحظوا بذلك عندهم، قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم، وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التى دخلوها عنوة» [1].

وهكذا بادر أبو القمر هلال بن مردنيش بإعلان طاعته للموحدين بل خرج بنفسه في صحبة قواده وأشياخه إلى أشبيلية ليؤكد توحيده فى حضرة الخليفة أبى يعقوب [2]. وكان الخليفة قد أرسل أخاه السيد أبا حفص إلى مرسيه ليتقبل طاعة هلال وليتسلم المدينة، فسار إليها فى قوات من الموحدين فبادر أهلها بالخروج إليه، ودخل المدينة وآنس أهلها ووعظهم وحثهم على طاعة الخليفة[3]. وعلى إثر ذلك سار أبو القمر هلال إلى أشبيلية فى شهر رمضان سنة ٥٦٧هـ، وبرفقته أخوته وكبار قواده وأعيان دولته، فاستقبله أخوا الخليفة أبو زكريا يحيى صاحب بجاية وأبو إبراهيم إسماعيل وكبار أشياخ الموحدين وحشد من عسكر الموحدين على بعد أميال خارج المدينة، ثم اصطحبوه إلى القصبة العتيقة حيث استقبلهم الخليفة أحسن استقبال، وقدم هلال وصحبه بيعتهم للخليفة بحضور السادة الأخوة وأشياخ الموحدين ثم أنزل هلال بقصر محمد بن عباد، وأنزل أصحابه فى الدور المتصلة به، وقد شملهم الخليفة بوافر كرمه وعظيم عطفه [4].

وهكذا دخلت قواعد شرق الأندلس تحت سيطرة الموحدين.

---

(١) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٧٢.

(٣) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٧٢-٤٧٣.

الفصـــل الثالث

موقف الموحـــــدين من بنى غــانية في الجـــزائر الشــــرقية

(١) بنو غانية أصحاب الجزر الشرقية

أ ـ ولاية محمد بن علي بن غانية على الجزر الشرقية.

ب ـ عهد أبى إبراهيم إسحاق بن محمد بن غانية.

(٢) الصــراع بين بنى غــانيــة وبين الموحــدين فى المغــرب وجــزر البليــار (المرحلة الأولى) حتى سنة ٥٨٤هـ

أ ـ عهد علي بن إسحاق.

ب ـ الوضع فى الجزر الشرقية أثناء الحرب المغربية.

جـ ـ إمارة محمد بن إسحاق على ميورقة.

(٣) الصــراع بين بنى غــانيــة وبين الموحــدين فى المغــرب وجــزر البليــار (المرحلة الثانية) حتى سنة ٥٩٩هـ.

أ ـ علي بن إسحاق وصراعه ضد الموحدين فى أفريقية.

ب ـ سقوط الجزرر الشرقية فى أيدى الموحدين.

جـ ـ نتائج سقوط ميورقة فى أيدى الموحدين.

(١) بنو غانية

أصحاب الجـــزر الشرقية

أ ـ ولاية محمد بن علي بن غانية على الجزر الشرقية:

ينتسب بو غانية إلى قبيلة مسوفة البربرية، وكانوا يرتبطون مع بنى تاشفين برابطة القرابة، ويرتفع نسبهم إلى علي بن غانية المسوفى المعروف بابن الصحراوية، وكان الأمير علي بن يوسف قد أقام ابن تاشفين على ولاية الأندلس بعد وفاة أخيه تميم بن يوسف فى سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م وعهد إليه بولايتها ما عدا الجزر الشرقية التى أسند ولايتها إلى محمد بن علي بن غانية(١).

وهكذا كان محمد بن علي بن غانية أول من تولى من بنى غانية حكم الجزر الشرقية بتفويض من الأمير علي، بينما ظل أخوه الأصغر يحيى بن علي يتولى إقليم غرب الأندلس (٢). وفى عهد تاشفين بن علي أصبح يحيى ابن علي المسوفى الوالى الفعلى على الأندلس.

وقد استأثر محمد بن علي بن غانية بولاية الجزر الشرقية واستقل بحكمها فى عهد الموحدين، فبعد وفاة محمد بن علي خلفه ابنه أبو إبراهيم إسحاق الذى فتح بابه لمن وفد إليه من بقايا عناصر المرابطين فى الأندلس، وخلفه ابنه الذى وجد له فى أفريقية حلفاء طبيعيين جمعته بهم الظروف السياسية والعداء المشترك للموحدين، وأعنى بهم عرب هلال فسليم من جهة والمماليك الغز وعلى رأسهم قراقوش مملوك تقى الدين ابن أخى صلاح الدين من جهة ثانية. وقد دعا علي بن إسحاق للخليفة العباسى أبى العباس أحمد الناصر فى الخطبة، وكان انضمام مماليك مصر إلى بنى غانية أعداء الموحدين سبباً فى غضب أبى يوسف يعقوب الموحدى على صلاح الدين سلطان مصر وكان ذلك فيما يبدو سبباً من أسباب رفضه إنجاد صلاح الدين فى جهاده ضد قوى الصليبيين (٣).

وعن الظروف التى تولى فيها محمد بن غانية حكم الجزر الشرقية، يشير ابن

---

(١) السلاوى، الاستقصا، جـ٢، ص ٦١.

(٢) ابن خلدون، العبر، جـ٤، ص ٣٥٦؛ وانظر أيضاً:

Codera, op.cit., p. 171.

(٣) سعد زغلول عبد الحميد، العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، المجلدان ٦، ٧، ١٩٥٨، ص ٨٤-١٠٠؛ وانظر أيضاً : السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٨٠٣.

خلدون أن أمير المسلمين على بن يوسف كان قد ولى على ميورقة من قبله وانور بن أبى بكر اللمتونى فتعسف بأهل الجزيرة وأرغمهم على بناء مدينة أخرى بعيدة عن البحر، فامتنعوا عليه، وعندئذ أوقع بهم فقتل زعيم هذه الحركة، فثاروا عليه وتمكنوا من اعتقاله وصفدوه وكتبوا إلى الأمير علي بن يوسف فأعفاهم منه وولى عليهم محمد بن على بن غانية، فلما وصل إليهم فى سنة ٥٢٠هـ، أقر أهلها على ما فعلوه بواليها السابق وانور، وصفده، وبعث به إلى مراكش لينظر هناك فى أمره [١].

وفى رواية لصاحب المعجب عن تولية محمد بن علي بن غانية يذكر أنه، لما مات يحيى بن غانية اضطرب أمر أخيه محمد غانية وأخذ يجول فى بلاد الأندلس والفتنة تتزايد، ودعوة الموحدين تنتشر، فلما اشتد خوف محمد هذا أتى مدينة دانية فعبر منها إلى جزيرة ميورقة فى أهله وخاصته، فملكها وتملك الجزيرتين المجاورتين لها وهما منورقة ويابسة، وقيل أن علي بن يوسف نفاه إليها [٢]، بمعنى أن ابن عبد الواحد المراكشى يرجع ولاية محمد بن غانية لجزر البليار بعد وفاة أخيه يحيى، وأعتقد أن هذه الرواية غير صحيحة، فالمعروف أن يحيى بن غانية توفى فى ١٤ شعبان سنة ٥٤٣هـ [٣]، ومعنى ذلك أن أخاه محمد بن غانية رحل عن الأندلس إلى الجزر الشرقية وتملكها بعد هذا التاريخ وهذا يتعارض مع ما أورده ابن الآبار الذى يزودنا ببعض التفاصيل عن أحداث تالية تسلط الضوء على الحقيقة التاريخية التى نبحث عنها، فابن الآبار يؤكد أن عبد الله بن محمد بن غانية الذى كان تاشفين ابن علي بن يوسف قد أسند إليه ولاية بلنسية فى ٢٤ ذى الحجة سنة ٥٣٨هـ، خرج عنها فى أعقاب الثورة التى اشتعلت بها وفر عنها فى ١٨ رمضان سنة ٥٣٩هـ، خشية من قاضيها مروان بن عبد الملك بن عبد العزيز إلى شاطبة Jativa، ولم يلبث أن لحق بالمريه Almeria بعد أن ضيق عليه فى شاطبة ومن هناك ركب البحر إلى أبيه محمد بن غانية صاحب ميورقة التى كان قد تملكها واستقر بها، ويضيف ابن الآبار أنه

---

(١) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٥٦، جـ٦، ص ٣٩١؛ وانظر أيضاً:
Campaner y Fuertes, Bosquejo historico de la dominacion islamita en las islas Baleares, Palma, 1888, pp. 136-137.

(٢) المراكشى، المعجب، ص ١٦٨ ، وراجع أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، مقال بدائرة معارف الشعب، ١٩٥٩، ص ٨٤.

(٣) الضبى، بغية الملتمس ، ص ٣٢؛ ابن الخطيب، الإحاطة فى أخبار غرناطة، الجزء الرابع، القاهرة، ١٩٧٨ ، ص ٣٤٧؛ ابن عبد الملك (أبو عبد الله محمد) ، الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة، السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت، ص٢١٩.

عندما قام الجند على مروان بن عبد العزيز فى ٢٦ جمادى الأولى سنة ٥٤٠هـ (وقيل فى ٢٥ جمادى الأولى منها) خرج متنكراً حتى وصل إلى المرية واجتمع بالقائد محمد بن ميمون الذى قبض عليه وقيده وفاءً لبنى غانية وأقام عنده إلى أن دفعه إلى عبد الله بن محمد بن غانية، الذى ورد على المرية فى بعض سفن ميورقة، فعف عن دمه واحتمله معه مقيداً [١] إلى جزيرة ميورقة مقره.

ونخرج مما سبق أن محمد بن غانية كان يتولى حكم الجزائر الشرقية قبل وفاة أخيه يحيى بمدة طويلة، وهو ما يؤيده ابن خلدون والسلاوى اللذان يؤكدان أنه تولى حكم الجزائر الشرقية فى عام ٥٢٠هـ على النحو الذى أشرنا إليه فى بداية حديثنا عن بنى غانية.

ولقد استلزمت الأوضاع المضطربة فى الجزر الشرقية على إثر الفتنة التى كانت مشتعلة بها فى عهد واليها السابق وانور نوعاً من الضبط لإقرار الأمور فيها ولهذا بذل محمد بن على بن غانية جهوداً مضنية لإقرار الأوضاع فى هذه الجزر وإعادة السكينة والأمن فى ربوعها، وقد نجح فى ذلك نجاحاً تجاوز كل تقدير فنعمت هذه الجزر فى عهده بالهدوء فى الوقت الذى اضطربت فيه أحوال المرابطين فى المغرب وقامت عليهم الثورات فى أنحاء الأندلس وأوشك ملكهم على الانهيار.

ومن الغريب أن بنى غانية فى الجزر الشرقية منذ أن تولاها محمد بن غانية ظلوا على ولائهم لدولة المرابطين المنهارة على الرغم من الظروف المضطربة التى مرت بهذه الدولة، وقيام الثورات عليها فى سائر قواعد الأندلس، وواصل محمد بن غانية ولايته لهذه الجزر باسم دولة المرابطين مع الدعوة فى الخطبة لأمير المسلمين ولبنى العباس [٢]، بل كان يستقبل فى جزائره من لاذ به من فلول المرابطين ويشملهم بحمايته ورعايته، إلا أنه لم يلبث أن استقل بحكم هذه الجزائر الشرقية عندما سقطت دولة المرابطين فى المغرب والأندلس، وقامت دولة الموحدين، مرسياً قواعد دولة بنى غانية فى جزر البليار التى كانت استمراراً لدولة المرابطين، وقدر لهذه الدولة أن تلعب دوراً هاماً فى صراعها مع الموحدين، وظل محمد بن غانية منتزياً بالجزر الشرقية زهاء ثلاثين عاماً سادها الهدوء والأمن وساعد على ذلك قيام ابن مردنيش بشرق الأندلس طوال خمس وعشرين عاماً، إذ كانت دولة ابن مردنيش بمثابة دولة حاجزة بين بنى

---

(١) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٢١٨-٢٢٢؛ وراجع أيضاً:

ابن سعيد المغربى، المغرب، جـ٢، ص ٣٠٠-٣٠١؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص٣٥٦-٣٥٧.

(٢) المراكشى ، المصدر السابق، ص ٢٦٨؛ وراجع أيضاً:

Alfred Bel, Les Banou Chania, Paris, 1903, p. 19.

غانية فى الجزر الشرقية وبين الموحدين الذين شغلهم أمره مدة طويلة، فصرفوا نظرهم مؤقتاً عن بقايا فلول المرابطين المتمركزين فى الجزائر الشرقية بزعامة أسرة بنى غانية، الأمر الذى دعا محمد بن غانية إلى الاهتمام بتأمين علاقته مع جمهوريتى جنوة وبيزة بعد أن اطمأن إلى وضعه ووضع دولته، فعقد مع جنوة اتفاقية تجارية فى عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م، كما عقد اتفاقية مماثلة مع بيزه فى العام التالى سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م [1].

ب ـ عهد أبى إبراهيم إسحاق بن محمد بن غانية :

كان لمحمد بن غانية من الولد أربعة هم : عبد الله أكبرهم وإسحاق والزبير وطلحة، ولما كان حريصاً على استمرار عقبه فى حكم هذه الجزر فقد اختار لولاية عهده ولده الأكبر عبد الله ـ الوالى السابق لبلنسية ـ، وهنا تختلف الرواية، فالمراكشى يذكر أن محمد بن غانية «عهد فى حياته إلى أكبر ولده عبد الله، فنفس ذلك عليه أخوه إسحاق، ودخل عليه فى جماعة من الجند وعبيد له فقتله ـ قيل فى حياة أبيه، وقيل بعد وفاته، وتوفى عبد الله المذكور» [٢].

أما ابن خلدون فيذكر أن إسحاق استخلف أباه محمداً وأنه قتله غيرة من أخيه عبد الله لمكان أبيه منه، فقتلهما معاً [٣].

وأيًا ما كان الأمر، فإن إسحاق بن محمد بن غانية تولى حكم الجزائر الشرقية، وضبطها بحزم، وحسنت أحواله بها، واستمر يجرى على سنن أبيه فى الترحيب بمن كان يفد عليه من عناصر المرابطين فى الأندلس فكان يحسن إليهم ويجزل لهم العطاء[٤]. وقد اهتم إسحاق بن محمد بن غانية فى السنوات الأولى من حكمه بالتشييد والتشجير، فنمت موارد الجزائر فى عهده نمواً كبيراً واستفحلت قوتها البحرية، وأضحت أساطيلها عاملا يحسب حسابه فى ميزان القوى البحرية فى غرب البحر المتوسط، ولعل ما يؤيد ذلك ما ورد فى الخطاب الذى أرسله الفارس برنجير الطركونى من أشراف برشلونة (وكان قد لجأ إلى ميورقة فراراً من اضطهاد أميره) إلى ألفونسو الثانى ملك أرغون فى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، أوضح فيه حالة ميورقة الإسلامية فى تلك الفترة من القوة والازدهار ووفرة الموارد [٥].

(1) Codera, op.cit., p. 173.

(٢) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٦٨.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٣٩١.

(٤) المراكشى ، المصدر السابق، ص ٢٦٩ ؛ وانظر : السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص٨٠٢.

(5) Campaner y Fuertes, op.cit., p. 144.

ولم يقصر إسحاق بن غانية همه على الشئون الداخلية لدولته وإنما تجاوز ذلك إلى العالم الخارجي، فكثيراً ما كانت أساطيله تغير على سواحل قطلونية وجنوبي فرنسا، وهاجمت سفنهم في البحر، وفي ذلك يقول صاحب «المعجب» في سيرة إسحاق بن غانية :« كان له في كل سنة سفرتان إلى بلاد الروم، يغنم ويسبي وينكي في العدو أشد نكاية، إلى أن امتلأت أيدي أصحابه أموالا، فقوي بذلك أمره» (١).

وتذكر المصادر المسيحية حملتان وجههما إسحاق بن محمد بن غانية في السنوات الأخيرة من حكمه، الأولى كانت في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م، على ثغر طولون الواقع على الساحل الجنوبي لغالة واستولى عليه، وأسر الفيكونت هوجو جود فريد Ugo Cau Fred فيكونت مارسيليا وحفيده وعدة آخرين من أكابر النصارى، مظهراً في هذه الحملة جسارة وجرأة في قيادتها، والحملة الثانية وجهها إلى سواحل قطلونية، كما هاجم الأسطول الميورقي في نفس العام ولاية جرندة Gerona وفاجأ كنيسة سانت ماريه دى أوبي Santa Maria de Ulle وقتل من بها واستاق الباقين أسرى إلى ميورقة (٢).

وكان من أثر تزايد القوة البحرية للجزائر الشرقية في غرب البحر المتوسط وتوالي غزواتها على شواطئ الدول المسيحية القريبة، أن سعت جمهوريات جنوة وبيزة والبندقية إلى موادعته ومهادنته فعمدت إلى تجديد معاهدات الصلح والصداقة معه، وعلى هذا النحو انعقدت بين الطرفين معاهدة صلح وصداقة تعهد فيها كل طرف ألا يحدث أضراراً بالطرف الآخر واستمر هذا الوضع إلى أن توفي إسحاق في أوائل سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م (٣)

ظل إسحاق بن محمد بن غانية في مأمن من الموحدين طالما كانت دولة ابن مردنيش قائمة في شرق الأندلس، غير أن موت ابن مردنيش وضع نهاية لهذا العهد الآمن وأصبح الموحدون بعد أن مكنوا سلطانهم على إقليم شرق الأندلس وتملكوا ثغوره المطلة على البحر المتوسط على مقربة من الجزائر الشرقية (البليار)، كما أصبح في إمكانهم تهديد أمن بني غانية، وتوجيه ضربتهم التالية إليهم، وعند ذلك رأى إسحاق بن غانية أن يعمل على مصانعة الموحدين ومهادنتهم فكان يوجه إليهم الهدايا والأموال درءاً لخطرهم، وفي ذلك يقول صاحب «المعجب» «وكان يراسل الموحدين ويهاديهم ويهادنهم ويختصهم من كل ما يسبي ويغنم بنفيسه وجيده،

(١) المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٦٩.

(2) Campaner y Fuertes, op.cit., p. 144; Codera, op.cit., p. 178.

(3) Campaner Fuertes, Ibid, p. 145.

يشغلهم بذلك عنه مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم إليها»[1].

ويستفاد من هذا النص أيضاً، أن الموحدين فى البداية كانوا يستصغرون شأن الجزائر الشرقية، ولا يحفلون بأمرها، فلما سيطروا على شرق الأندلس وثغوره، أدركوا أهمية موقع هذه الجزر، كما تبين لهم ذلك بشكل واضح من خلال سياسة إسحاق السلمية معهم وتتمثل فى مصانعتهم ومهادنتهم عن طريق الهدايا وبذل الأموال بالإضافة إلى الأسرى النصارى الذين كان يبعث إليهم وعند ذلك بدأت كتب الموحدين ترد على إسحاق بطلب الدخول فى طاعتهم، ويشير ابن عبد الواحد المراكشى إلى ذلك بقوله «فلما كان فى شهور سنة ٥٧٨هـ والوا إليه الكتب يدعونه إلى الدخول فى طاعتهم والدعاء لهم على المنابر، ويتوعدونه على ترك ذلك» [2]. واستلزم الأمر أن يعرض إسحاق الأمر على كبار أصحابه، فاختلفت آرائهم، فالبعض أشار بالقبول والبعض الآخر بالرفض، وعندئذ رأى إسحاق بن غانية أن يرجئ رده على الخليفة [3] إلى حين.

ولم تطل إمارة إسحاق على الجزائر الشرقية إذ استشهد فى إحدى غزواته البحرية على السواحل النصرانية، وقيل أنه طعن فى حلقه، وحمل حياً إلى ميورقة وبها مات فى قصره، وكانت وفاته سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م [4]، وقيل فى سنة ٥٨٠هـ [5].

وخلف إسحاق بن غانية من الأولاد ثلاث عشرة هم : محمد وعلي ويحيى وعبد الله والغازى وسير والمنصور وجبارة وتاشفين وطلحة وعمر ويوسف والحسين، وكان قد عهد فى حياته بولاية العهد إلى ابنه الأكبر محمد، فلما توفى إسحاق خلفه محمد فى الإمارة على الجزائر[6].

---

(١) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٦٩.

(٢) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٦٩.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) نفس المصدر والصفحة، انظر أيضاً:

Alfred Bel, op.cit., pp. 24-25.

(٥) ابن الآبار، التكملة، جـ٢، ترجمة ١٤٠٤، ص ٤٩٠، (ورد فى ترجمة عبد الله بن محمد بن وقاص اللمطى من أهل ميورقة أنه استشهد فى الحادثة بقصر ميورقة عند وفاة أميرها إسحاق بن محمد سنة ٥٨٠هـ)، راجع:

المصدر السابق والجزء والصفحة، ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٣٩١؛

Codera, op.cit., p. 167.

(٦) ابن خلدون ، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٥٦؛ جـ٦، ص ٥٠٧، فى حين يؤكد المراكشى أن الذى خلف إسحاق هو ابنه علي، راجع: المعجب، ص ٢٠٧.

٢ ـ الصراع بين بنى غانية والموحدين في المغرب وجزر البليار

أ ـ عهد علي بن إسحاق بن محمد بن غانية:

واجهت محمد بن إسحاق فى بداية عهده، مشكلة الاعتراف بالخلافة الموحدية وبذل الولاء والطاعة لخليفة الموحدين والخطبة له، فقد سبق أن رأينا والده قد أرجأ البت فى الرد على رسالة الموحدين التى سيروها إليه فى سنة ٥٧٨هـ لما رآوه من اختلاف أكابر أصحابه بشأنها بين مستجيب ورافض فلما توفى إسحاق هذا أرسل الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مبعوثاً إلى ميورقة فى بعض السفن الموحدية، التى أقلعت به من سبتة، ليعرض الطاعة بنفسه على أميرها، وليخبر مدى استعداد بنى غانية للاستجابة لدعوته، وليقدم الأعذار والإنذار، وكان هذا المبعوث الموحدى أبا الحسن علي بن الفارس المسيحى الربرتير El Reverter أو روبرتو القطلونى[١]، فلما وصل مبعوث الخليفة إلى جزيرة ميورقة، استقبله واليها استقبالا ودياً حافلا، وأبدى استجابته فى الدخول فى طاعة الموحدين [٢]، برغم علمه بمعارضة أخوته وأكابر أصحابه، ولعل استجابته هذه جاءت رد فعل مباشر لما بلغه من أخبار الحملة التى يعدها الخليفة أبو يعقوب فى شهر صفر سنة ٥٨٠هـ لمحاربة النصارى فى غرب الأندلس [٣]، فلم يكن هناك بد من الخضوع للموحدين اتقاء غزوهم لهم، فما كان من إخوته إلا أن ثاروا ضده وقبضوا عليه واعتقلوه وقدموا

---

(١) الربرتير، كان قائداً مسيحياً أندلسياً من كبار قواد أمير برشلونة وأرغن Aragon، ثم وقع فى أسر علي بن ميمون قائد البحر المرابطى، فوجهه إلى مراكش حيث اعتنق الإسلام ولزم خدمة الأمير علي بن يوسف الذى ولاه قيادة الجيش المسيحى المرتزق الذى كان فى خدمة المرابطين واشترك معهم فى إخماد ثورة الموحدين، وقد أبلى الربرتير فى قتال الموحدين بلاءً حسناً حتى قتل فى إحدى المعارك التى خاضها ضد الموحدين فى سنة ٥٣٩هـ، أما ابنه فقد اعتنق فيما بعد دعوة الموحدين وصار من أكابر رجال دولتهم، وإليه يرجع الفضل فى انتزاع جزيرة ميورقة من أيدى بنى غانية كما سنرى بعد؛ راجع : البيذق ، المصدر السابق، ص ٨٦-٨٨، ٩٥-٩٦؛ ابن القطان، نظم الجمان، ص ٩٦، هـ١ ؛ حسين مؤنس، نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، ص ١٠٢؛

Dozy, Recherches, t. II, pp. 437-442.

(٢) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٥٠٧ .

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٣٢-١٣٣ .

أخاهم علي على إمارة الجزائر، وفى نفس الوقت اتسم موقفهم من أبى الحسن على بن الربرتير مبعوث الخليفة الموحدى بنوع من الدبلوماسية فقد اعتمدوا معه فى ذلك سياسة المراوغة، وتعمدوا المطاولة فى مجادلته فى الأمر الذى وفد من أجله، مع التحفظ عليه ومنعه من مغادرة الجزيرة، كما أقدموا على اعتقال البحريين فى أجفان الموحدين وأحلوا محلهم بحريين من ميورقة[1].

ثم انتظروا الموقف الذى يمكن أن تتخذه دولة الموحدين منهم إلى أن جاءت الأخبار باستشهاد الخليفة أبى يعقوب فى أعقاب غزوة شنترين فى ١٨ ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ [2]، فاستغل بنو غانية فرصة ما أحدثه استشهاد أبى يعقوب من اضطراب وانشغال الخليفة الجديد بتولى أعباء الحكم وألقوا القبض على أبى الحسن علي بن الربرتير وأودعوه السجن، وأعلن علي بن إسحاق بن غانية رفضه للدعوة الموحدية [3]، ولم يكتف بذلك بل تطلع إلى مواجهة الموحدين فى عقر دارهم، فلم ينتظر ليفاجئه المنصور بحملة بحرية على ميورقة، وإنما آثر أن يبدأ هو بالتحرك فقام بتوجيه أول ضرباته للموحدين فى أفريقية لتصبح أسرة بنى غانية منذ هذا التاريخ شوكة حادة فى جنب الدولة الموحدية.

وتفصيل ذلك أن علي بن غانية رأى أن يبدأ هو بالهجوم على دولة الموحدين فى أضعف أجنحتها وهو المغرب الأدنى والأوسط وذلك بعد أن وجد فى هذا الجناح الشرقى لدولة الموحدين حلفاء مشتركون معه فى عدائهم للموحدين وأعنى بهم عرب بنى هلال وسليم والغز المماليك الذين أشرنا إليهم فيما سبق، ويبدو أنه اتفق معهم على غزو بجاية بحراً، فقد حشد لهذا الغرض أسطولا ضخماً عدته اثنان وثلاثون جفنا [4]، وقيل عشرون [5]، تحمل نحو مائتى فارس وأربعة آلاف راجل [6]، وتولى قيادتها رشيد الرومى [7]، وقد قصد علي بن غانية وأخوه يحيي بهذا الأسطول مدينة بجاية بعد أن ترك على حكم ميورقة أخاه طلحة، وقيل عمه أبا الزبير [8]. ووصل

---

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١٤٦.

(٢) نفس المصدر والقسم، ص ١٣٨.

(٣) نفس المصدر والقسم، ص ١٤٦؛ وراجع أيضاً: ابن خلدون، المصدر السابق ، جـ٦، ص ٣٩٢؛ Campaner y Fuertes, op.cit., p. 146' Alfred Bel, op.cit., p. 29.

(٤) ابن خلدون ، المصدر السابق، جـ٦، ص ٣٩٢.

(٥) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١، ص ٢٠٦.

(٦) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١، ص ٢٠٦.

(٧) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١٤٧.

(٨) ذكر ابن خلدون فى موضعين، أن علياً استخلف أخاه طلحة على حكم ميورقة، (راجع: العبر، جـ٦، ص ٥٠٧. ص ٥١٥)، بينما ذكر فى موضع آخر أنه استخلف عمه أبا الزبير على حكم ميورقة، راجع نفس المصدر، جـ٦، ص ٣٩٢

الأسطول الميورقي على مقربة من ثغر بجاية، على حين غرة منها، والأحوال في البلد هادئة، فدفع قائده رشيد الرومي برجاله في زورق إلى أسفل الأسوار للاستخبار والتحرى، وكان السيد أبو الربيع والى بجاية قد خرج منها فى طريقه إلى الحضرة، فى الوقت الذى مر فيه السيد أبو موسى مع أصحابه على بجاية فى طريقه إلى تلمسان، ونظراً للهدوء الذى كان يسود البلد، لم يك ثمة استعدادات دفاعية مناسبة يعتمد عليها، فلما وقف الميورقيون على أوضاع البلد، تقدمت سفنهم المهاجمة من المدينة، واحتشد عدد كبير من عسكرهم قبالة أسوارها، بعد أن استدلوا على عورات بعض أسوارها بواسطة بعض السوقة والفساد، وتقدموا لاقتحام البلد، فتصدت لهم جمهرة من أهل البلد لمقاومتهم دون أن يرزقوا قائداً يلم شملهم، ودون استعدادات مسبقة، فصوب الميورقيون نحوهم قسيهم وسهامهم، فشتتوا جمعهم وفرقوهم، فتقدم الفرسان والمشاه واقتحموا المدينة من خلال ما تثلم من سورها، فاستولوا عليها، وقبضوا على السيد أبى موسى، وذويه وأهله وعلى سائر الموحدين[1]. وتم سقوط بجاية فى أيدى الميورقيين تبعاً لرواية بعض المؤرخين فى ١٩ صفر سنة ٥٨١هـ [2]، وقيل فى شعبان سنة ٥٨٠هـ وفقاً لرواية أخرى [3]، وهو التاريخ الأرجح.

أقام علي بن غانية أسبوعاً فى بجاية ينظر فى شؤونها، وصلى بها الجمعة فخطب ودعا فى الخطبة لبنى العباس وللخليفة العباسى أحمد الناصر، ويقول صاحب المعجب، «كان خطيبه الفقيه الإمام المحدث المتقن أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدى الأشبيلي، مؤلف كتاب الأحكام وغيره من التآليف ـ فأحنق ذلك عليه أبا يوسف يعقوب أمير المؤمنين، ورام سفك دمه، فعصمه الله منه وتوفاه حتف أنفه وفوق فراشه» [4].

ثم خرج على بن إسحاق من بجاية بعد أن وطد سلطانه فيها وترك عليها أخاه يحيى ورشيد الرومي، ومضى من فوره ليلحق بالسيد أبى الربيع، فالتقى معه بموضع يعرف بيا ميلول، وكان معه جمع من الأعراب الموالين للموحدين فانخذلوا عنه

---

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١٤٧-١٤٨.

(٢) نفس المصدر والقسم، ص ١٤٨؛ وانظر أيضاً: ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٢٩٢؛ الزركشى، تاريخ الدولتين، ص ١٠.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١، ص ٢٠٦؛ المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٧٠؛ ابن خلكان، المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٢٩، وراجع أيضاً:
Alfred Bel, op.cit., p. 42.

(٤) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٧١-٢٧٢.

وانضموا إلى ابن غانية، فانهزم السيد أبو الربيع، واستشهد بعض رجاله، واستولى على بن غانية على محلته وما كان فيها من أمواله وعياله، وفر السيد أبو الربيع إلى جزائر بنى مرغنة، ولما عاين ضعف تحصيناتها، خرج إلى تلمسان فنزل بها على واليها السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وأخذا في ترميم أسوارها، واتخذا أهبتهما للدفاع عنها[1]. ثم تابع على بن إسحاق زحفه صوب الجزائر فدخلها، وولى عليها يحيى ابن أخيه طلحة، ثم سار إلى مليانه فاستولى عليها وقدم عليها بدر بن عائشة[2]، ثم زحف إلى قلعة بنى حماد وهاجمها واستولى عليها [3]، وعلى ما يجاورها من قلاع، وقفل بعد ذلك عائداً إلى بجاية، وهناك أقبل الناس لمبايعته والدخول في طاعته والتف حوله الغوغاء، فاستخرج من مخازن بجاية من المال والثياب والعدد ووزعها على السوقة والعامة والأعراب وما انضم إليهم، ثم سار في قواته إلى قسنطينة، ولكنها كانت قد أخذت عدتها واستعدت لمنازلته، واستبسل أهلها في قتال قواته وتمكنوا من قتل جملة من رجاله إلا أنهم اضطروا في النهاية إلى التحصن داخل أسوارها، فحاصرها ابن غانية على أمل أن تسقط في يده [4].

وعلم الخليفة يعقوب المنصور بخبر ابن غانية واستيلائه على بجاية وغيرها من بلاد أفريقية والمغرب الأوسط، وكان قد عاد من الأندلس فأسف أشد الأسف وشرع من فوره في تجهيز جيش قوى زوده بالعدة والآلات، وعهد بقيادته إلى ابن عمه السيد أبي زيد بن السيد أبي حفص، كما عقد في نفس الوقت لمحمد بن أبي إسحاق بن جامع على الأساطيل بقيادة كل من قائدى البحر أبي محمد بن عطوش الكومى وأبي العباس أحمد الصقلى، تقدمت القوات البرية والبحرية متجهة صوب بجاية، فوصل الجيش الموحدى إلى مدينة فاس حيث توقف فترة لاشتداد الأمطار وتوحل الطريق مما تعذر معه تقدم الجيش، ولما توقف المطر، استأنف مسيره إلى تلمسان وكان واليها الموحدى السيد أبو الحسن علي بن السيد أبي حفص قد عمل على تحصين أسوارها وشحنها بالجند بمعاونة السيد أبي الربيع والى بجاية السابق الذى كان قد توقف بها منتهزاً الفرصة لاستنقاذ أهله وذويه من قبضة ابن غاية [5].

---

(1) ابن عذارى، المصدر السابق، ق3، ص ١٤٨، ابن خلدون ، المصدر السابق، جـ٦، ص ٣٩٢.

(2) ابن عذارى، نفس المصدر والقسم، ص ١٤٨، وابن خلدون، نفس المصدر، جـ٦، ص ٧٠٥.

(3) ابن خلدون، نفس المصدر، جـ٦، ص ٥٠٧.

(4) مجموع رسائل موحدية، الرسالة التاسعة والعشرون، ص ١٧٢-١٧٣؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق3، ص ١٤٨.

(5) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٤٩.

تابع السيد أبو زيد زحفه إلى الشرق نحو مليانة، وكان الخليفة الموحدى أبو يوسف المنصور قد وجه كتبه إلى سكان المناطق التى خضعت لسلطان ابن غانية يعدهم بالعفو عنهم والصفح والإحسان عمن تعاون مع العدو، وعهد إلى جواسيسه بدسها إلى البلاد فى الليل والاجتماع ببعض من يوثق فى إخلاصه وولائه من أهلها فلما اطمئن أهالى هذه النواحى إلى جانب الخليفة الموحدى، وثبوا على من كان فى بلدهم من الميورقيين وقبضوا عليهم، وكانت أساطيل الموحدين قد سبقت القوة البرية إلى جزائر بنى مزغنة وتمكن قائدها أحمد الصقلى من الاستيلاء عليها وأسر أميرها يحيى بن طلحة بن غانية وأتباعه الميورقيين، ثم استولى الأسطول على مليانة، وكان يدر بن عائشة واليها قد فر عنها فاقتفى أهلها أثره وقبضوا عليه وعلى أتباعه بعد معركة عنيفة سيق بعدها مع أصحابه مكبلا بالقيود، وكان السيد أبو زيد قائد جيش الموحدين قد وصل إلى وادى شلف فبلغه أن علي بن غانية ينوى نقل السيد أبى موسى ورفاقه من زعماء الموحدين إلى ميورقة فأصدر أمره على الفور بالزحف سريعاً إلى بجاية، وفى نفس الوقت تحرك الأسطول نحو ثغر بجاية، وتقدم القائد أبو العباس الصقلى فى سفينة مع بعض أهالى بجاية، ودسوا الكتب إلى أهالى الثغر تحمل خبر وصول جيش الموحدين، فثار أهالى البلد وفتحوا أبوابها ونزل الجند من الأسطول وعلى رأسهم قائد الأسطول أبو محمد بن جامع إلى المدينة وفتكوا بالميورقيين وأنصارهم، وفر يحيى بن غانية وأخوه عبد الملك فى عدد قليل من أتباعه، ولحقا بأخيهما إسحاق الذى كان يحاصر قسنطينه فرفع الحصار عنها ومضى إلى الصحراء، أما الموحدون فقد أسروا رشيد الرومى قائد الأسطول الميورقى، واستولوا على أسطوله كما تمكنوا من إطلاق سراح السيد أبى عيسى ورفاقه الموحدين، وهكذا تم للموحدين استرداد بجاية فى اليوم التاسع عشر من شهر صفر سنة ٥٨١هـ/٢٢ مايو ١١٨٥م، بعد أن لبثت فى قبضة بنى غانية نحو سبعة أشهر [١].

ولكن معارك بنى غانية مع الموحدين فى المغربين الأوسط والأدنى لم تنته بعد، فقد تحالف علي بن غانية مع قبائل بنى هلال واستمال قراقوش الغزى المظفرى وبفضل هذا الحلف أمكنه السيطرة على بلاد الجريد. وعندما خرج المنصور الموحدى بحشوده للقضاء على هذا الحلف فى سنة ٥٨٢هـ منى بهزيمة نكراء ولقى عدد من مشاهير قادة الموحدين مصرعهم وفر عسكر الموحدين إلى قفصة فأثخن فيهم بنو غانية والمماليك قتلا، ولكن المنصور لم يلبث أن جمع شعث قواته وأعاد الكرة، فانتصر

---

(١) مجموع رسائل موحدية، الرسالة التاسعة والعشرون، ص ١٧٦-١٧٧؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١٤٩-١٥٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٥٠٧-٥٠٨؛
Alfred Bel, op.cit., pp. 50-53.

على ابن غانية وقراقوش واسترجع قابس وتوزر وقفصة [١]. ثم عاد إلى المغرب. أما ابن غانية فقد نزل في بلاد الجريد حيث اصطدم مع أهل نفزاوة سنة ٥٨٤هـ فهلك في إحدى معاركه معهم وخلفه أخوه يحيى بن إسحاق.

ب ـ الوضع في الجزر الشرقية أثناء الحرب المغربية:

ترتب على خروج القسم الأعظم من القوى البرية والبحرية الميورقية بقيادة علي ابن إسحاق بن غانية إلى غزو أفريقية أن خلا الجو في ميورقة لأبي الحسن علي ابن الربرتير الذي استغل هذه الفرصة استغلالاً مثمراً ليضرب ضربته في غفلة من علي بن إسحاق، فقد ظل منذ اعتقاله يترقب الأحداث عن كثب بهدف اغتنام اللحظة المواتية للفرار من معتقله، وكان جل من بقي في الجزيرة من عسكر بني غانية من النصارى المرتزقة يتطلعون إلى مغادرتها إلى أوطانهم، فاستطاع أبو الحسن علي بن الربرتير مدة اعتقاله أن يستميلهم ويستميل محمد بن إسحاق بن غانية الوالي المعزول إلى جانبه فرغبهم ومناهم بالوعود وقطع على نفسه عهداً أنهم متى مكنوه من مراده، فإنه يعمل على تسريحهم في أهلهم وأولادهم إلى أوطانهم [٢]، كذلك تمكن محمد بن إسحاق من اجتذاب بعض أعيان المدينة [٣] إلى جانبه، وهكذا استطاع ابن الربرتير أن يدبر أمره مع عسكر النصارى المرتزقة من جهة ومع محمد بن إسحاق الوالي المعزول من جهة ثانية،وتم إعداد خطة محكمة لتنفيذ مخططهما فقد انتهز مرتزقة النصارى فرصة خروج معظم أهل ميورقة لأداء شعائر الصلاة يوم جمعة وأخرجوا أبا الحسن علي بن الربرتير من سجنه، ووثبوا على مخازن السلاح، واستولوا على شحناتها، ثم أغلقوا أبواب القصبة وتعلقوا بأسوارها، وهاجموا حاميتها وأبادوها، ثم تحصن ابن الربرتير ومرتزقة النصارى بالقصبة، فحاصرهم بها أهل ميورقة، وضربوا عليها بالمجانيق والآلات و السهام، فعمد ابن الربرتير إلى اصطناع الحيلة فأتى من داخل القصبة بأهل علي بن غانية، ومنهم أمه وأبناؤه ودفعهم فوق السور، ليرغم المحاصرين على الكف عن ضرب القصبة، فكفوا عن القتال ولكنهم واصلوا حصارهم للقصبة أياماً، ثم اضطروا بعد ذلك إلى التفاوض مع ابن الربرتير [٤].

وعلى إثر ذلك استدعى ابن الربريتر شريكه في الخطة محمد بن إسحاق واتفق على إعادة تنصيبه والياً على الجزر الشرقية، فنزل ابن الربرتير له عن القصبة والسلطة

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٨٠٥.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٥٥.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٥١٥.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٥٦؛ وراجع أيضاً:

Alfred Bel, op.cit., pp. 66-68' Campaner y Fuertes, op.cit., pp. 148s 99.

وعندئذ أعلن محمد بن إسحاق طاعته للموحدين وبر ابن الربرتير بوعده للنصارى المرتزقة فسرحهم فى أموالهم وأهلهم إلى بلادهم، ثم خرج فى صحبة محمد بن إسحاق بن غانية وقصد إلى مراكش ليقدم طاعته للخليفة الموحدى [١]، وفى رواية أخرى أقام بميورقة ولكنه أرسل اعترافه ببذل الطاعة والولاء للخليفة الموحدى مع ابن الربرتير [٢].

وهكذا دخلت جزيرة ميورقة وفقاً لهذا الاعتراف فى ملك دولة الموحدين، وخطب فيها باسم المنصور خليفة الموحدين فى أوائل عام ٥٨١هـ/١١٨٥م.

وعندما ورد قرار الأمير محمد بن إسحاق بن غانية ببذل الطاعة للموحدين على الخليفة يعقوب المنصور لم يتردد هذا الخليفة فى إرسال أسطول موحدى بقيادة أبى العلاء بن جامع لتملك الجزيرة، غير أن محمد ابن إسحاق بن غانية رغم إقراره بالتبعية لدولة الموحدين أبى الاستجابة لهم، واستنجد بكونت برشلونه الذى زوده بعسكر قطلانى تدعيماً لقوته، وبفضل هذا العون فشل ابن جامع فى الاستيلاء على جزيرة ميورقة [٣]، ويغلب على الظن أن الأمير محمد بن إسحاق بن غانية - رغم كل ذلك - قد أبقى على تبعيته الاسمية للموحدين.

على أن نفوذ الموحدين على جزيرة ميورقة لم يدم طويلا، إذ سرعان ما علم بنو غانية بأخبار الانقلاب فى ميورقة، فاضطر عبد الله بن غانية إلى القفول عائداً إلى الجزيرة على الفور عن طريق صقلية، وأغلب الظن أن أميرها وليام الثانى (١١٦٦-١١٨٩م) قد أمده ببعض سفنه ليسهل عليه العودة إلى جزره واسترداد ملكه، واستطاع عبد الله بن غانية بمساعدة مواليه وجنده وعلى رأسهم علج يدعى نجاح أن يحتل الجزيرة ويطرد منها أخاه محمد [٤]، الذى فر إلى الأندلس حيث ولاه الموحدون مدينة دانية [٥].

حاول الخليفة المنصور استرجاع السيادة الموحدية على الجزيرة فوجه إليها

---

(١) ابن عذارى، نفس المصدر والقسم، ص ١٥٦

(٢) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٥١٦.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٥١٦؛ وانظر أيضاً:

Codera, op.cit., p. 183.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١٥٧؛ المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٧٦؛

Alfred Bel, op.cit., p. 71;

وفى رواية لابن خلدون يقول أن أهل ميورقة ثاروا على محمد بن إسحاق خوفاً من عادية الخليفة المنصور وطردوه من جديد وبايعوا أخاه تاشفين، راجع : العبر ، جـ٦٥، ص ٥١٦

(٥) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٧٦

أسطولا بقيادة أمير البحر أبي علي بن جامع، غير أن زمام الموقف كان قد أفلت من يده، لا سيما بعد أن تدخل أسطول بدور الثانى Pedro II ملك أرغون لصالح الميورقيين [١].

وعندما استعصى على الموحدين الاستيلاء على جزيرة ميورقة، وجهوا أنظارهم إلى جزيرة يابسة، فهاجمها أسطول موحدى بقيادة أمير البحر أبى العباس الصقلى واستولى عليها، وكان يتولى قيادة يابسة آنذاك ابن نجاح، وكان مذبذب الولاء بين بنى غانية والموحدين فلم يلبث أن نكث طاعتهم، ودخل على أهل يابسة بالخديعة ـ فقبض عليه وتم سقوط يابسة فى أيدى الموحدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م [٢].

والظاهر أن الموحدين استولوا فى نفس الوقت على جزيرة ميورقة، وإن كانت المصادر العربية لم تنص على ذلك، ولكننا نستدل عليه من سكوت المصادر عن ذكر ميورقة بالإضافة إلى أن ميورقة كانت ترتبط فى المصير دائماً بجزيرة يابسة، ونضيف إلى ما سبق أن أسطول عبد الله بن غانية تمكن فى سنة ٥٩٦هـ من استرجاع منورقة الأمر الذى يؤكد أنها كانت فى حوزة الموحدين.

جـ ـ إمارة عبد الله بن إسحاق بن غانية على ميورقة:

منذ أن استعاد عبد الله بن إسحاق بن غانية ملك جزيرة ميورقة حتى شرع فى ضبط أمورها، والاهتمام بتحصينها وسد عوراتها، وقد استلزم ذلك تطبيق نوع من الحكم المطلق، كما انتهج عبد الله بن إسحاق نهج أبيه فى مسالمة الممالك النصرانية المجاورة لاسيما جنوة والبندقية، فأقام معها صلات ودية من الصداقة والتبادل التجارى، ففى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م عقد معاهدة صداقة مع جنوة مدتها عشر سنوات، ويرى الأستاذ كوديرا أن هذه المعاهدة لم تكن على الأرجح أكثر من تأكيد للاتفاقية السابقة المبرمة بين جنوة وبين إسحاق بن غانية قبل موته بقليل [٣].

ولما انقضت السنوات العشر، عقد الأمير عبد الله بن إسحاق معاهدة صلح وتجارة مع جنوة مدتها عشرين عاماً، وقد مثل جنوة فى هذه المعاهدة سفيرها نيقولا كانويزى [٤]. ومن الجدير بالذكر أن الظروف السياسية فى هذا الوقت والعداء القائم

(1) Huici Miranda, Historia del Imperio Almohade, t. II, p. 390;

وراجع أيضاً: أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ١٩٦٨، ص ٣٦١.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٦٩؛ وراجع أيضاً:

Codera, op.cit., pp. 184-185.

(3) Codera, op.cit, p. 185.

(4) Alfred Bel, op.cit, pp. 118-119.

بين عبد الله بن إسحاق وبين الموحدين هى التى فرضت عليه أن يرتبط فى معاملاته التجارية مع الممالك المسيحية لاستحالة التعامل التجارى مع الموحدين الذين ثبتوا أقدامهم آنذاك فى سائر أنحاء الأندلس والمغرب ولذلك كان لزاماً على عبد الله بن إسحاق أن يحسن علاقاته مع الممالك المسيحية ويرتبط معهم باتفاقات تجارية تقوم على تبادل الانتاج الزراعى والصناعى فكانوا يمدونه بالسفن والسلاح والذخائر مقابل الحبوب ومنتجات الجزيرة الأخرى، وقد رحب النصارى بعقد هذه الصلات الودية مع ميورقة، إذ ضمنوا بذلك توقف غارات الميورقيين على سواحلهم، ومع ذلك فقد كانت علاقات الميورقيين ببعض الممالك المسيحية كبلاد غالة مثلا فى غاية السوء ولهذا فقد واصلوا شن غاراتهم عليها، وقد ترتب على هذه السياسة الحكيمة التى اتبعها الأمير عبد الله بن إسحاق أن ازدهرت جزيرة ميورقة وانتجعها عدد كبير من النصارى وراجت تجارتها ونعمت بالرخاء وكان لهذا الرخاء والازدهار أعظم الأثر فى متابعة بنى غانية غزوهم لأفريقية إذ كانت ميورقة تزودهم بكل ما يحتاجونه من سلاح ومؤن وسفن، وعلى هذا النحو كانت جزيرة ميورقة بالنسبة لبنى غانية المصدر الحقيقى لقوتهم [1]، وسر مطاولتهم لدولة الموحدين.

٣ ـ الصراع بين بنى غانية وبين الموحدين فى المغرب وجزر البليار

(المرحلة الثانية حتى سنة ٥٩٩هـ)

أـ علي بن إسحاق وصراعه ضد الموحدين فى أفريقية:

سبق أن تحدثنا عن الانتصار الساحق الذى أحرزه علي بن إسحاق على قوات المنصور الموحدى فى وقعة وطاء عمره [2] بشط الجريد فى بداية سنة ٥٨٢هـ وهو انتصار أثار ثائرة المنصور وأثر فى نفسه وحمله على معاودة الكرة فلم يلبث أن أعاد تنظيم قواته ثم اشتبك مع قوات ابن غانية بالقرب من الحمه (جنوبى قابس) وفى هذه المرة تمكن من الإيقاع بعلي بن غانية فى ٩ شعبان سنة ٥٨٣هـ/١٥ أكتوبر ١١٨٧م [3].

(1) Alfred Bel, Ibid, pp. 118-119.

(٢) الحميرى، المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١١، ص ٢١٢؛ ابن عذارى، ق٣، ص ١٦٢-١٦٣؛ التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد)، رحلة التجانى، تقديم الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، ص ١٨٧ وما بعدها، تونس ١٩٥٨، ص ١٦٢، مجموع رسائل موحدية، الرسالة الثلاثون؛ Alfred Bel, op.cit., pp. 81-82

بعد هذا النصر الذى حققه الموحدون على قوات ابن غانية، اتجه الخليفة بقواته مباشرة إلى قابس، القاعدة الرئيسية لقراقوش، فاستولى عليها فى اليوم التالى على الأمان، وقبض فيها على أهل قراقوش وذويه وصحبه ثم تابع سيره إلى بلاد الجريد واستولى على قواعدها وأهمها توزر عاصمة بلاد الجريد.

وفى هذه الأثناء ، تلقى الخليفة المنصور وهو تحت أسوار قفصه، خطاباً من قراقوش، يعرب فيه عن خضوعه ورغبته فى الدخول فى طاعة الموحدين وأنه فى حالة إذا ما قبلت توبته على استعداد لأن يأتى إلى الموحدين تائباً، كذلك تلقى المنصور فى اليوم التالى خطاباً مماثلا موجهاً من أبى زيان زعيم الغز يعبر فيه عن انضوائه تحت لواء الموحدين، وأنه قد أظهر دعوة التوحيد بطرابلس ونواحيها [1]. ثم هدأت الأحوال فى أفريقية لاسيما بعد مصرع علي بن غانية[2] فى إحدى معاركه مع قبيلة نفزاوة فى أرض الجريد سنة ٥٨٤هـ وخلفه أخوه يحيى.

لم يكن يحيى بن إسحاق بن غانية أقل حماسة وغيرة من سلفه، إذ كان يستهدف شأن أخيه عليّ إحياء الدولة المرابطية عن طريق الإطاحة بسلطان الموحدين فى أفريقية، وعلى هذا الأساس بدأ يعيد تنظيم صفوفه، وبعد أن تمكن من تحقيق ذلك عاود مغامراته فى بلاد الجريد فانتزع المهدية، واستطاع أن يبسط سلطانه على سائر أفريقية : طرابلس وقابس وصفاقس والمهدية والقيروان وسائر بلاد الجريد، ولم يبق فى حوزة الموحدين من أفريقية سوى تونس.

وفى هذه الأثناء كان المنصور فى حاضرته يتابع تطور الحوادث فى أفريقية وامتداد سلطان ابن غانية على أغلب قواعد أفريقية، فحاول إيقاف تقدمه بتوجيه حملات متوالية ضده ولكن يبدو أن هذه الحملات لم يكن لها تأثير فعال فى إيقاف زحفه المتواصل، عند ذلك تطلع الموحدون إلى تنفيذ مشروعهم لغزو ميورقة، قاعدة ملك بنى غانية ومصدر المتاعب التى يواجهها الموحدون فى أفريقية باعتبارها قاعدة الإمدادات إلى يحيى بن غانية وسيطرتهم على هذه الجزيرة من شأنها أن تضع حداً للعمليات الحربية فى أفريقية، فمتى سقطت ميورقة فى أيديهم، أمكنهم أن يتفرغوا لمطاردة يحيى بن غانية والقضاء على سلطانهم فى أفريقية بعد أن يفقد ملاذه الأخير فى ميورقة [3].

---

(١) مجموع رسائل موحدية، الرسالة الحادية والثلاثون ، ص ١٩٨ .

(٢) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٧٣ ؛ رحلة التجانى، ص ١٦٢ .

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢١٦ .

ب ـ سقوط الجزر الشرقية فى أيدى الموحدين:

ولكن وفاة المنصور في سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م أحبطت آمال الموحدين فى القضاء على بنى غانية، وقد انتهز عبد الله بن إسحاق بن غانية هذه الظروف المستجدة وعمل على استعادة سيطرته على جزيرتى يابسة ومنورقة جناحى ميورقة كبرى الجزائر، ففى بداية عام ٥٩٦هـ /١٢٠٠م تحرك بأسطوله من جزيرة ميورقة إلى جزيرة يابسة وحاصرها من جميع نواحيها ولكنه ووجه بمقاومة ضارية من أهل الجزيرة بالإضافة إلى أن الأسطول الموحدى الذى كان مرابطاً بالقرب من الجزيرة بقيادة أمير البحر ابن ميمون بادر بالتحرك لنجدة أهلها، واشتبك هذا الأسطول مع أسطول ابن غانية فى معركة بحرية عنيفة انتهت بانتصار الموحدين، وظفر ابن ميمون منه بطريدتين أضرمهما ناراً، ورجع عبد الله بن غانية خائباً [1].

وإذا كان عبد الله بن غانية قد منى بالفشل فى استرداد جزيرة يابسة، فقد حالفه الحظ هذه المرة فى استرجاع جزيرة منورقة إذ هاجمها بأسطوله فى فصل الأنواء والأمطار وألح بالحصار عليها مدة، حتى نفدت أقوات ومؤن أهلها المحاصرين واضطروا إلى التسليم، عندئذ دخل ابن غانية الجزيرة وتملكها وحصنها وعهد بولايتها لأحد قواده ويدعى الزبير بن نجاح [2]. ولكن الموحدين تمكنوا من استردادها بعد فترةقصيرة، عندما هدأت الأنواء وخفت العواصف البحرية وحسن الهواء، ويذكر ابن عذارى [3] أن السيد أبو العلا أسرى إلى منورقة فى أسطول سبتة، والظاهر أن هذه الغزوة تمت في نفس سنة ٥٩٧هـ التى افتتحها فيها عبد الله ابن غانية، فاجأ أبو العلا جزيرة منورقة بهجومه فصبح أهلها «وبطش بهم الأسطول قبل التئام أحوالهم وترتيب قتالهم»[4] واقتحم عسكره المدينة عنوة ووقع ابن نجاح فى قبضتهم فسيق مع أتباعه الميورقيين إلى الحضرة مراكش فهلك بها.

وعلى إثر ذلك تبين للخليفة الموحدى الناصر لدين الله أن ترك جزيرة ميورقة فى

---

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢١٦.

(٢) نفس المصدر والقسم والصفحة.

(٣) نفس المصدر والقسم والصفحة.

(٤) نفس المصدر والقسم والصفحة، وقد ذكر الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى غزوة منورقة فى الترتيب بعد استيلاء الموحدين على ميورقة فى سنة ٥٩٩هـ، راجع : دراسات : ص ٣٦٨، ولكننا نستدل على عكس ذلك من النص الوارد فى ابن عذارى الذى يفهم منه أن فتح منورقة تم بعد أن ظفر بها عبد الله بن إسحاق بن غانية بوقت قصير؛ كما نستدل من سياق رواية الحميرى أن حملة الموحدين البحرية على ميورقة كانت موجهة مباشرة إلى ميورقة فقط ولا تتضمن أى إشارة إلى جزيرة منورقة (المصدر السابق، ص ١٨٩)، ثم إن الوضع المنطقى يحتم على الموحدين استنزال يابسة ومنورقة قبل التفرغ لميورقة الجزيرة الكبرى، وقاعدة ملك بنى غانية.

أيدى بنى غانية من شأنه أن يطيل أمد الصراع، وأنه من المحتم تملكها والاستيلاء عليها لوضع حد للمتاعب التى يلقاها الموحدون فيها وفى أرض أفريقية، وعلى هذا النحو اعتزم تنفيذ المشروع القديم الذى سبقه فى التفكير فيه أبوه المنصور وأعنى به القضاء على الأفعى من رأسها أى بالقضاء على بنى غانية فى ميورقة ومصدر المتاعب التى يواجهها الموحدون فى أفريقية، فأعد لذلك الغرض حملة بحرية ضخمة جهزها فى ثغر دانية وعهد بقيادتها إلى عمه أبى العلاء إدريس بن يوسف عبد المؤمن، كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبى سعيد عثمان بن أبى حفص، وكان قوام هذه الحملة من المقاتلة ألفين ومائتين من الفرسان، وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر ألفاً من الرجالة، حاشا غزاة السفن، وكانت عدة سفن الأسطول ثلاثمائة جفن منها سبعون غراباً، وثلاثون طريدة، وخمسون مركباً كباراً، وسائرها قوارب منوعة، شحنها بأعداد لا تحصى من العدد والسلاح والمجانيق والسلالم والمساحي والفؤوس والمعاول والرقائق والحبال بالإضافة إلى الدروع والرماح والبيضات والأتراس والدرق والقسي وصناديق النشاب وجملة وافرة من الطعام [1]. وتحرك الأسطول من ثغر دانية فى اتجاه جزيرة يابسة، حيث أديت صلاة الجمعة ثم أقلع عنها غدوة السبت ٢٤ من ذى الحجة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م، نحو جزيرة ميورقة، التى وصلتها وحدات الأسطول الموحدى فى ربيع الأول سنة ٦٠٠هـ/ديسمبر ١٢٠٣م [2]، وتمت عملية إنزال المقاتلة والعدد والسلاح، وبدأ الموحدون زحفهم إلى مدينة بلمة حاضرة ميورقة، ودار الأسطول بالمرسى مع السيد أبى العلاء إدريس، فخرج إليه عبد الله بن غانية فى قواته، والتحم الفريقان فى معركة حامية صمد فيها عبد الله بن غانية وأبدى ضروباً رائعة من الشجاعة والاستبسال ولكن جموعه لم تلبث أن انهزمت أمام حشود الموحدين، وتعرضت هذه الجموع لمذبحة وحشية قتل فيها عبد الله بن إسحاق واحتز رأسه رجل غزى، ودخلت قوات الموحدين المدينة، ولم يسلم من الميورقيين سوى من تحصن فى القصبة، ولكن القائد أبا العلاء قائد الأسطول والشيخ أبا سعيد قائد الجيش نهيا عساكر الموحدين عن أعمال النهب والسلب وأمر بضرب عنق رجل أقدم على ذلك، وتجاوز الأمر، وطيف برأسه، وصدر أمان عام نودى به فى الأزقة والقصبة، فخرج الناس من مكامنهم، وكتبا إلى الخليفة الناصر بالفتح.

هذه هى تفاصيل الفتح الموحدى لميورقة استخرجناها من مضمون الرسالة

---

(١) المراكشى، المصدر السابق، ص ٣١٤-٣١٥؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨٩.

(٢) مجموع رسائل موحدية، الرسالة السادسة والثلاثون، ص ٢٤٥ وما بعدها؛ الحميرى، نفس المصدر، ص ١٨٩.

الرسمية الصادرة عن الخليفة الناصر بقلم كاتبه أبى عبد الله بن عياش، ومن رواية الحميرى [١]. ويورد كلا من ابن أبى زرع وابن أبى دينار رواية أخرى تختلف عنها تضمنت ما يشير إلى أن الحملة الموحدية لفتح ميورقة كانت بقيادة الخليفة الناصر نفسه، وأنه خرج من مدينة فاس، فوصل إلى جزائر بنى مزغنة، ومن هناك جهز الأساطيل والعساكر ففتحها وانتزعها من أيدى المرابطين وقتل صاحبها عبد الله بن إسحاق [٢]، فى حين يؤكد ابن عذارى أن الناصر كان بحضرة مراكش فى الوقت الذى أقلعت فيه الحملة الموحدية إلى الجزر الشرقية [٣]. أما ابن خلدون فقد نص صراحة على قائدى الحملة كما وردا فى رسالة الفتح الرسمية ورواية الحميرى وهما السيد أبو العلاء إدريس قائد الأسطول والشيخ أبو سعيد بن أبى حفص قائد الجيش [٤]، بينما اكتفى ابن خلكان بالإشارة إلى أن الناصر جهز أسطولا وجهه ضد أبى محمد عبد الله والى ميورقة فنزل بساحتها [٥]، ونميل إلى الأخذ بالرواية الرسمية التى تدعمها رواية الحميرى وابن خلدون ونستبعد روايتى ابن أبى زرع وابن أبى دينار اللتين لا تتفقا مع سياق ما ورد فى الوثيقة الرسمية.

وبعد أن دانت جزيرة ميورقة، كبرى الجزائر الشرقية، وجناحاها منورقة ويابسة بالتبعية للخلافة الموحدية، ندب السيد أبو العلاء لولايتها عبد الله بن طاع الله الكومى بصفة مؤقتة إلى أن يولى عليها أحد قرابته، كما أسند قضاءها إلى الفقيه المحدث أبا محمد عبد الله بن سليمان الأنصارى المعروف بابن حوط الله [٦]، الذى نقل إلى قضاء مرسيه، ومنها إلى قضاء قرطبة سنة ٦٠٧هـ [٧].

ثم ولى الناصر على ميورقة عمه السيد أبا زيد فى حين نقل ابن طاع الله لقيادة الأسطول [٨]، ثم تولاها بعد ذلك السيد أبو عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن الذى نقل عام ٦٠٧هـ إلى ولاية بلنسية بعد أن حل محله أبو يحيى بن أبى الحسن بن أبى عمران [٩].

---

(١) مجموع رسائل موحدية، الرسالة السادسة والثلاثون، ص ٢٤١ وما بعدها؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨٩.

(٢) روض القرطاس، ص ١٥٣؛ المؤنس فى أخبار أفريقية والمغرب، ص ١١٥؛ وانظر أيضاً:
Alfred Bel, op.cit., p. 167.

(٣) البيان المغرب، ق ٣، ص ٢١٨.

(٤) العبر، جـ٦، ص ٥١٦.

(٥) وفيات الأعيان، جـ٦، ورد فى ترجمة أبى يوسف يعقوب، رقم ٨٠٠، ص ١٨.

(٦) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٧) البيان المغرب، ق٣، ص ٢٣٣.

(٨) السلاوى، المصدر السابق، جـ٢، ص ١٩٥.

(٩) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٢٣؛ السلاوى، المصدر السابق، جـ٢، ص ١٩٥.

جـ ـ نتائج سقوط ميورقة فى أيدى الموحدين:

١ ـ بالنسبة للممالك المسيحية:

لعل ما جاء فى الرسالة الموحدية السادسة والثلاثين والخاصة بفتح الموحدين لميورقة ما يعبر أصدق تعبير عن صدى هذا الحادث الهام فى الممالك المسيحية، لا سيما مملكة أرغون وكونتية برشلونة، تقول الرسالة : «ولأخذ ميورقة على صاحب أرغون وبرشلونة، أشد من رشق النبل وأهول من وقع السيف، وأوحش من القطع بحلول الممات» (١).

هذا القول يصدق فى الحقيقة على الموقف العام بالنسبة لمملكتى أرغون وقطلونية لأن سياسة بنى غانية، أصحاب الجزائر الشرقية فيما سبق، كانت تقوم على المسالمة والمودة نحو الممالك المسيحية المجاورة وعلى الأخص مملكة أرغون وجمهوريتى جنوة وبيزة، وكان يجمع بين الطرفين هدف رئيسى مشترك وهو عدائهما للموحدين ثم أن استمرار بقاء الجزائر الشرقية فى أيدى بنى غانية كان يمثل صمام أمن بالنسبة لهاتين المملكتين باعتبارها حاجزاً طبيعياً بينهما وبين دولة الموحدين أما وقد غدت الجزائر تحت سيطرة الموحدين فإن الموحدين أصبحوا يواجهون مباشرة مملكة أراجون وكونتية برشلونة، بالإضافة إلى أن أسطولها أصبح مصدر إزعاج وقلق دائم مهدد لهما، هذه الظروف الطارئة هى التى أوحت إلى الممالك المسيحية من جديد فكرة الاستيلاء على الجزائر الشرقية على النحو الذى سنفصله فيما بعد.

٢ ـ بالنسبة لبنى غانية فى المغرب:

لاشك أن فتح الموحدين لميورقة، كبرى الجزائر الشرقية، جاء ضربة شديدة لبنى غانية، قضت تماماً على سلطانهم فى الجزائر الشرقية، فبمصرع آخر ولاتهم عليها الأمير عبد الله بن إسحاق بن غانية وبالقبض على أولاده وأهله، انتهى كل أثر لهذه الأسرة بالجزائر الشرقية.

ومع ذلك فقد استمر بنو غانية تحت قيادة يحيى بن إسحاق وإخوته يناوءون دولة الموحدين ويضايقونها بسيطرتهم على المغرب الأدنى، إلى حد أنهم سيطروا على مدينة تونس سنة ٥٩٩هـ وقبض أميرهم على السيد أبى زيد بن أبى حفص، كما استبدوا فى أفريقية وطرابلس وأطاعتهم بونة وبنزرت وبسكره وشقبنارية والأربس والقيروان وتبسه وسفاقس وقابس والمهدية (٢). واضطر الخليفة الناصر إلى التفرغ

---

(١) مجموع رسائل موحدية، ص ٢٤٧.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٨١٦-٨١٧.

لمقابلتهم ومنازلتهم ودارت بين قواته وبينهم معارك ضارية فى تاجرا انتهت بهزيمة ابن غانية والميارقة، واسترجع الموحدون المهدية وتونس ولم يسكت ابن غانية على هذه الهزيمة فعاود القتال تعززه قوات من الأغزاز وعرب الدواوده وغيرهم ولكنه انهزم من جديد ولجأ إلى إقليم طرابلس، وظل ابن غانية شوكة فى حلق الخليفة الناصر على الرغم من جنوح أخيه سير بن إسحاق إلى حزب الموحدين وتبرئه من إخوته [1]. ولم تخمد حركة بنى غانية إلا بعد وفاة يحيى بن غانية شريداً فى بلاد الزاب سنة ٦٣١هـ [2].

ولاشك فى أن بنى غانية كان بإمكانهم المطاولة لو لم تسقط قاعدتهم ميورقة فى أيدى الموحدين. فسقوط هذه الجزيرة كان عاملا هاماً فى انهيار قواهم فى المغرب.

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٣٣.

(٢) ابن خلدون، جـ٦، ص ٤٠٥، ص ٤٠٧؛ السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٨١٨.

الفصل الرابع

شرق الأندلس فى عصر الموحدين

(١) قادة شرق الأندلس يشاركون الموحدين فى حركة الجهاد

أ - حملة وبذة فى ذى القعدة سنة ٥٦٧هـ.

ب - اشتراك السيد أبى عبد الله بن أبى يعقوب يوسف والى مرسيه فى غزوة شنترين فى ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ

(٢) أسرة بنى مردنيش فى خدمة الخلافة الموحدية.

أ - أبناء محمد بن سعد بن مردنيش فى بلاط الموحدين.

ب - جهود غانم بن محمد بن سعد بن مردنيش فى خدمة الدولة الموحدية.

جـ - أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش والى بلنسية.

(٣) شرق الأندلس فى ظل دولة الموحدين:

أ - مرسيه فى عصر الخليفتين يوسف ويعقوب المنصور.

ب - مرسيه قاعدة دولة العادل.

جـ - الأوضاع فى بلنسية فى عهد الموحدين.

(١) قادة شرق الأندلس
يشاركون الموحدين فى حركة الجهاد

أ ـ حملة وبذة فى ذى القعدة سنة ٥٦٧هـ:

بادر أبو القمر هلال بن محمد بن سعد بن مردنيش عقب وفاة أبيه إلى إعلان طاعته للخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف، وتعبيراً عن ذلك تنازل للموحدين عن مدينة مرسيه قاعدة شرق الأندلس وجميع أراضى هذا الإقليم وتشتمل على مدن بنشكله وأبذه ومريبطر وأنيشه وبلنسيه وشاطبة ودانية ولقنت وشقر ولورقة وبمعنى آخر الأراضى الواقعة ما بين طرطوشة عند مصب ابره فى الشمال وقرطاجنة الحلفاء جنوباً. وعلى إثر ذلك وجه الخليفة أخاه السيد أبا حفص إلى مرسيه ليتقبل طاعة هلال بن مردنيش ويتسلم منه مرسيه. وقد أشرنا فيما سبق إلى أن هلال سار بنفسه برفقة كبار رجال شرق الأندلس وقادته وأعيانه للقاء الخليفة بأشبيليه فى مستهل رمضان سنة ٥٦٧هـ وتقديم فروض الطاعة له بنفسه، فتلقاهم الخليفة أحسن لقاء وأنزلهم منزلا حسناً. وفى اليوم التالى من نزولهم بأشبيلية فى قصر ابن عباد احتفل شيوخ الموحدين بقدوم هلال وأعيان دولته لبذل الطاعة للخليفة ، وفى أثناء هذا الاحتفال عبر له هؤلاء عن رغبتهم فى أن يغزو جيش الموحدين المناطق المسيحية المجاورة لإقليم شرق الأندلس وحددوا له بالذات مدينة وبذة Huete [١] لضعف تحصيناتها. فاستجاب الخليفة لطلبهم ووعد بتحقيقه متى انتهى شهر الصوم [٢].

وفى هذه الغزوة تمكن الموحدون من الاستيلاء على حصن بلج الحصين Vilche [٣]، الواقع على مقربة من بياسة بفضل جهود إبراهيم بن همشك ، كما استولوا على حصن الكرس Alcaraz [٤]. وكان ابن مردنيش قد تنازل عنه للنصارى

---

(١) قاعدة إقليم قونكة، وتقع على بعد نحو ٥٠كم غربى قونكة على وادى وبذة بالقرب من بلدة أقليش التى تقع إلى الجنوب الغربى منها، راجع: الحميرى المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٧٣.

(٣) كان من أمنع الحصون الأندلسية وأكثرها حصانة، وقد تم تسليمه إلى الخليفة أبى يعقوب يوسف فى ٣٠ شوال ٥٦٧هـ/يوليو ١١٧٢م، فركب الخليفة ودخل الحصن وأعجب بما عاينه من المنعة ورتب للدفاع عنه حامية موحدية وعهد به إلى ابن همشك، راجع : ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٤) حصن الكرس تقابل Alcaraz مركز فى Albacete، راجع:

Miguel Asin Palacio, Contribicion a la toponimia arabe de Espana, 2ed, Madrid, 1944, p. 52;

وظل حصن الكرس فى حوزة الموحدين حتى استولى عليه ألفونسو الثامن سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م، راجع :

La Cornica Latina de los reyes de castilla, Primera edicion de cabanes, pp. 53-54; Huici Miranda, Valencia Musulmana, t. III, p. 172.

كما فعل بحصن بلج وتسلموه بالأمان، فعهد به الخليفة إلى ابن همشك كذلك[١].

وعندما وصل الموحدون إلى وبذة في ١٤ ذى القعدة (٧ يوليو اشتبكوا مع حاميتها في معركة عنيفة تحصن النصارى على أثرها داخل مدينتهم فاستولى الموحدون على الأرباض والبساتين وأحكموا الحصار عليها [٢]. وعلى الرغم من استمرار الحصار وما كان يتخلله من هجمات عنيفة كان يشنها عسكر الموحدين فقد أخفق هؤلاء في اقتحامها بسبب حصانة أسوارها بالإضافة إلى الخندق [٣] الذى حفره القشتاليون وراء أبواب المدينة تعويقاً لعملية الاقتحام، وتفانى القشتاليون في القتال هذا إلى جانب إسهام الطبيعة في إحباط عملية الهجوم [٤]، ونفاد الميرة والأقوات من المعسكر الموحدى وتراخى المقاتلين العرب والبربر في القتال[٥]. ثم بلغ الخليفة أن قوات قشتالية في طريقها إلى الوصول لإنجاد الحامية القشتالية المحصورة، فقرر رفع الحصار (يوم ٢٩ ذى القعدة) وحرق آلات الحصار والانسحاب من الموقع تجاه مرسيه مروراً بقونكة[٦] وبرج القبذاق [٧] Alcaudete، وحصن بنيول [٨] Bunol وشاطبة[٩] وأريولة [١٠] وحصن منتقوط [١١] Monteagude.

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٩٠، وانظر أيضاً:
Huici Miranda, Historia del Imperio Almohade, t. II, p. 455.

(٢) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٤٩٣-٤٩٤.

(٣) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٤٩٤.

(٤) هبت رياح صيفية عاتية في صباح ٢٠ من ذى القعدة أربكت معسكر الموحدين، كما هبت في الثاني والعشرين من نفس الشهر عاصفة أخرى أشد عنفاً من الأولى صحبتها أمطار غزيرة أحدثت أضراراً جسيمة في المعسكر الموحدى، وفي يوم ٢٣ من ذى القعدة عاودت الرياح العاصفة هبوبها للمرة الثالثة الأمر الذى أدى إلى إخفاق الموحدين في الهجوم، راجع: ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٤٩٨-٤٩٩.

(٥) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٥٠١.

(٦) نفسه، ص ٥٠٣.

(٧) نفسه، ص ٥٠٦، والقبذاق تقابل Alcaudete في محافظة جيان، انظر : الإدريسى، ص ٢٠٤، والترجمة ص ٢٥٢.

(٨) نفسه، ص ٥١٠، وما تعليها، وحصن البنيول تقابل Albunol مركز في محافظة بلنسية، راجع : Asin Palacio, op.cit., p. 50.

(٩) نفسه، ص ٥١٢.

(١٠) نفسه، ص ٥١٣.

(١١) نفسه، ص ٥١٤.

ب ـ اشتراك السيد أبي عبد الله بن أبي يعقوب يوسف والي مرسيه في غزوة شنترين في ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ:

اضطربت أحوال الأندلس بعد عودة أبي يعقوب يوسف عبد المؤمن إلى مراكش في أعقاب غزوة وبذة، فقد نقض القشتاليون والبرتغاليون الهدنة التي كان قد عقدها معهم في ذي الحجة سنة ٥٦٨هـ يوليو ١١٧٣م قبل عودته إلى حضرة مراكش، وأقدم ألفونسو الثامن ملك قشتالة والقمط نونيو دي لارا حاكم طليطلة على غزو أراضي المسلمين في الأندلس ومحاصرة قونكة في سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م طوال تسعة أشهر اضطرت بعدها المدينة إلى التسليم في ٢١ سبتمبر ١١٧٧م [(١)]. كما أغار فرناندو الثاني ملك ليون الملقب بالبيوج على وادي أشبيلية ووصل في غزوته إلى أحواز أركش وشريش، كما سار ألفونسو أنريكث ملك البرتغال في قواته سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م نحو باجه فانتسف مزارعها وكاد يتغلب عليها، ثم تركها إلى أشبيلية واقتحم ربضها القبلي طريانة، وأثخن فيها وحرق السفن الموحدية المرابطة في وادي أشبيلية ثم عاد إلى باجة بعد أن خرج منها أهلها إلى مرتلة في المحرم سنة ٥٧٤هـ/يوليو ١١٧٨م فألفاها خالية [(٢)].

هذه الاعتداءات حركت الخليفة أبا يعقوب على تجريد حملة يقودها بنفسه إلى غرب الأندلس لوضع حد لهذه الأعمال العدوانية، وكتب إلى أبنائه الأربعة ولاة قواعد الأندلس الأربعة: أشبيلية وقرطبة وغرناطة ومرسيه يأمرهم بالتأهب للمشاركة في الجهاد[(٣)]. وهكذا شارك إقليم شرق الأندلس في غزوة شنترين ـ التي استشهد فيها الخليفة ـ بقوة من مرسيه يقودها السيد أبو عبد الله بن الخليفة، وقد اشترك في هذه الغزوة هلال بن مردنيش وأخوه غانم وكانا في صحبة الخليفة ذاته. وتم التقاء قوات الموحدين مجتمعة في بطليوس، وعلى الرغم من قيام الموحدين بحصار شنترين والتضييق على أهلها وحاميتها والاشتباك مع قوات البرتغاليين في معارك عنيفة فقد حدثت بعض الوقائع التي دعت الخليفة يقرر رفع الحصار عنها والرحيل عنها، منها هزيمة أهل مرسية عندما أغاروا على بسائط النصارى، فخرجوا عليهم وأوقعوا بالمسلمين هزيمة قاسية[(٤)]، ومنها قدوم فرناندو الثاني ملك ليون في قواته لنصرة النصارى

---

(1) Castro, Cronica del rey de Castilla Don Alfonso; Octavo, I.C.; Ibars, op.cit., t. I, p. 565; Huici Miranda, Valencia Musulmana, t. III, p. 193.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١٢٩.

(٤) نفس المصدر والقسم، ص ١٣٥.

المحصورين بشنترين[1]، ومنها إساءة السيد أبى إسحاق ابن الخليفة أبى يعقوب يوسف فهم أمر أبيه الصادر إليه بالسير إلى أشبيلية بدلا من أشبونة، ومتابعة الناس له بالرحيل فى الوقت الذى لبث فيه الخليفة فى معسكره دون علم بما وقع [2] بحيث لم يبق معه سوى الساقة بقيادة يعقوب ابن الخليفة الأمر الذى شجع نصارى شنترين على الخروج منها لمهاجمة عسكر الخليفة ، وتمكنهم من إصابته بجراح خطيرة تسببت فى وفاته بعد اجتياز العسكر لوادى التاجه وذلك فى ١٨ ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م [3]، وقيل فى رجب سنة ٥٨٠هـ [4]، والظاهر أن هلال بن مردنيش لقى حتفه هو وأخوه غانم فى هذه الموقعة ويؤكد ذلك أننا لم نعد نسمع أى أخبار عنهما بالإضافة إلى أن ابن عذارى يؤكد استشهاد بعض بنى مردنيش فى هذه الحملة [5].

٢ ـ أسرة بنى مردنيش
فى خدمة الخلافة الموحدية

أ ـ أبناء محمد بن سعد بن مردنيش فى بلاط خليفة الموحدين:

بموت محمد بن سعد بن مردنيش وخضوع أبنائه وأخيه أبى الحجاج يوسف ظلت قاعدتا شرق الأندلس بلنسيه ومرسيه مجرد ولايتين تابعتين للخلافة الموحدية يحكمهما ولاة معينون من قبلها، ولم يعد لهذه المنطقة ما كان لها أيام محمد بن مردنيش، فقد دخلت هذه الأسرة بعد وفاة عائلها فى طاعة الموحدين، وأصبح عمداؤها لا يفترقون عن صحبة الخليفة فى أشبيلية، ولم يضن الخليفة عليهم بالنفقة بل كان يغدق عليهم بالمال ويشملهم برعايته وعطفه، وعين منهم غانم بن مردنيش لرياسة جماعة من عسكر الأندلس من أصحاب أبيه ومن أهل الثغور والأجناد بأشبلية وأنظارها لتكون منهم قوة تضطلع بالغزو وحماية الأقطار من العدو، ونظم هلال وكبار أخوته فى جملة أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة، يحضرون مجلسه العالى، ويشتركون

---

(1) Huici Miranda, op.cit., p. 196.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٤٠.

(٣) نفس المصدر والقسم، ص ١٣٧-١٣٨.

(٤) ابن خلكان، المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٩٤، المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٦١، وقيل فى ٢ ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ؛ ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٤٠-١٤١، وقيل فى ٢٨ ربيع الآخر من نفس السنة؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٦٩.

(٥) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١٣٧؛ وانظر أيضاً:
Huici Miranda, Valencia Musulmana, t. III, p. 186.

في مباشرة الأمور ، وإبداء الرأى ، تشريفاً لهم وتقريباً لمكانتهم منه، وكان غانم ابن مردنيش يخرج بقواته على الموحدين إلى غزو أراضى قشتالة، فظهرت كفايته وتجلت شجاعته [١].

ولقد كانت الحفاوة التى استقبل بها الخليفة أبناء ابن مردنيش شيئاً يفوق ما كان يتوقع منه حيالهم، فلقد كان معهم سخياً جواداً، أهدى هلال بن مردنيش اثنى عشر ألف دينار في يوم واحد [٢]، ويأتى صاحب المعجب برواية معبرة عن ذلك جاء فيها «أخبرنى بعض ولد هلال هذا ، أنه سمع أباه يقول: رأيت فى المنام فى بعض الليالى كأن أمير المؤمنين أبا يعقوب ناولنى مفتاحاً فلما أصبحت إذا رسوله يستحثنى ، فركبت وأتيت القصر، فدخلت عليه وسلمت فاستدنانى حتى مست ثيابى ثيابه ثم أخرج إلى من تحت برنسه مفتاحاً على النحو الذى رأيت فى المنام، وقال : خذ إليك هذا المفتاح ، فتسببت أن أسأل عن شأن المفتاح، فقال لى ابتداء: يا أبا القمر ، إن عامل مرسيه أرسل إلينا فى جملة ما أرسل صندوقاً وجده - زعم - فى بعض خزائنكم، لا يدرى ما فيه ، وهذا مفتاحه، ونحن لا ندرى ما فيه ، فقلت : هلا أمير المؤمنين أن يفتح بين يديه ، فقال: لو أردنا أن يفتح بين أيدينا لم نسلم إليك المفتاح! وأمر فحمل الصندوق إلىّ ففتحته، فإذا به حلى وذخائر من ذخائر أبى ما يساوى أكثر من أربعين ألف دينار»[٣].

وفي يوم السبت الخامس لربيع الأول عام ٥٧٠هـ/٥ أكتوبر ١١٧٤م، عقد الخليفة أبو يعقوب زواجه بالزرقاء المردنيشية[٤] ابنة محمد بن سعد بن مردنيش المسماة بزائدة في احتفال تسوده الأبهة والفخامة، وكان صداقها خمسين ديناراً، ولكن الخليفة وجه إليها ألف دينار من الذهب العين تأنيساً، ولما وصلت إليه بأشبيلية مع أهلها وخدمتها، وهب لكل واحدة منهن هدية كبيرة، ووهب الزوجة كل ما كان أهداه إليه أخوتها عند فتح مرسيه من الكسى والحلى والخدم بل زادها من عنده بعطايا جزيلة، وحظيت فيه الحسناء المردنيشية ذات العينين الزرقاويين بحب الخليفة وإعجابه، حتى أصبح حب الخليفة لها مضرب الأمثال [٥].

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٥١٦.

(٢) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٥٣-٢٥٤.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٥٤.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، ص ٢٧١.

(٥) راجع: ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١٠٨؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٧١؛ ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٣٩؛
Ibars, op.cit., t. I, p. 552.

كذلك أقر الخليفة أبا الحجاج يوسف بن مردنيش واليًا على بلنسية وأنظارها وعهد إلى ابن أخيه غانم سنة ٥٧٥هـ بقيادة أسطول سبتة [١] وقرب هلالا إليه واتخذه مشيراً مفضلا بمجلسه العالى.

وعندما وقع غانم بن مردنيش وأخوه أبو العلاء أسيرين مع جملة من أكابر الموحدين فى منتصف شهر محرم ٥٧٦هـ/١١ يونيه ١١٨٠م فى أيدى البرتغاليين عندما أقدم على مهاجمة سواحل البرتغال بأسطوله، كتب غانم من أسره إلى خليفة الموحدين يشكو سوء حالته، فعهد الخليفة على الفور إلى أبى القمر هلال بن مردنيش بالنظر فى فداء أخيه، فجمع المال اللازم وبعث به إلى أشبيلية، فحمل إلى النصارى ، وأطلق سراح غانم وأصحابه من الأسر [٢]. ويذكر ابن عذارى أن أسطول الموحدين بقيادة عبد الله بن جامع وأبى العباس الصقلى هاجم أسطول أشبونة فى الموضع الذى أسر فيه غانم بن مردنيش وأوقع المسلمون بالأعدآء هزيمة نكراء، واستاقوا منهم عدداً كبيراً من الأسرى، أعطى منهم البعض فى فداء غانم بن مردنيش [٣].

ب ـ جهود غانم بن محمد بن سعد بن مردنيش فى خدمة الدولة الموحدية:

هو أحد أبناء محمد بن سعد بن مردنيش، عهد إليه الخليفة أبو يعقوب يوسف بقيادة فرقة من جند الأندلس ومن أهل الثغور والأجناد، فقاد بعض الحملات على جهات طليطلة وطلبيرة Talavera وأنظارها، تجلت فيها مواهبه العسكرية كقائد عظيم من كبار قادة الموحدين، وأبدى من ضروب البسالة والإقدام ما رفعه فى عين الموحدين، إذن تمكن خلال هذه الحملات من بث الرعب فى قلوب سكان أسبانيا المسيحية لاسيما أثناء حملته التى قادها إلى أبله Avila[٤].

ثم عهد إليه الخليفة فى سنة ٥٧٥هـ بقيادة أسطول سبتة، والظاهر أن ماضيه فى هذا المجال كان حافلا بالأمجاد إلى حد أن يسند إليه الخليفة هذا المنصب الكبير، وقدر له أن يقود هذا الأسطول فى مهمة خطيرة أسندها إليه الخليفة من أهدافها وضع حد لاعتداءات البرتغاليين المتكررة على وادى أشبيلية ومدينة باجة، فسار الأسطول تجاه أشبونة Lisboa وهاجم ثغرها، واستولى على جفنين كانا راسيين به وقفل عائداً إلى قاعدته بسبتة [٥]. وجاء رد الفعل البرتغالى بهجوم شنه أسطول

---

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١١٣.

(٢) نفس المصدر والقسم، ص ١٦٦ .

(٣) نفس المصدر والقسم، ص ١١٧-١١٨.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٥١٦-٥١٧.

(٥) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١١٣.

البرتغاليين على السواحل الجنوبية لإقليم الغرب وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على جزيرة شلطيش Saltes[(١)]، ووقع فى أسرهم عدد كبير من أهلها [(٢)]، وفى السنة التالية ٥٧٦هـ/١١٨٠م، أمر الخليفة أبو يعقوب يوسف ـ أثناء عودته إلى المغرب ـ أمير البحر غانم بن مردنيش بأن يواصل غاراته البحرية على سواحل البرتغال وعلى هذا النحو أقلع غانم وأخوه أبو العلاء بالأسطول من قاعدة سبتة فى شهر مايو من تلك السنة ورسيا به فى ميناء مدينة برطقال المسماة حالياً سان مارتين دو بورتو San Martin do porto وتقع شمالى أشبونة، ثم توغلا فى قواتها داخل بلاد البرتغال بهدف الاستيلاء على بورتو دى موس Porto de Mos الواقعة على مقربة من الساحل، غير أن أميرها فواس روبينو Fuas Roupinho استطاع بمساعدة أهالى مدينتى شنترين Santaren وألكنينا Alcanena [(٣)] أن يفاجئ الغزاة المسلمين بكمين أعده لهم فى جبال منديجا Mandiga عند منابع نهر Porto de Mos[(٤)]، ففوجئ المسلمون بالعدو فى هذا المكان الوعر ومزقت صفوفهم ، واستشهد منهم عدد كبير بينما وقع غانم ابن مردنيش وأخوه أبو العلاء وجملة من أكابر الموحدين فى أسرهم، كما استولى البرتغاليون على تسع قطع من مراكب المسلمين بمن عليهم من الملاحين، وساروا بها إلى أشبونة [(٥)].

وكتب أمير البحر غانم بن مردنيش من موضع اعتقاله إلى الخليفة يوسف يشكو له سوء حاله، فأمر الخليفة ـ كما سبق الإشارة ـ أبا القمر بن مردنيش لينظر فى فداء أخويه غانم وأبى العلاء، فتم ذلك.

وتشير المصادر البرتغالية إلى أن هذا النصر الذى حققه البرتغاليون قد شجع قائدهم فواس روبينو على الخروج بأسطول ضخم بهدف الإغارة على سواحل الأندلس الغربية وبالذات على مدينة سبتة [(٦)] قاعدة أسطول الموحدين فى المغرب. أما المصادر

(١) جزيرة شلطيش، جزيرة ساحلية صغيرة أمام مدينة ولبة Huelva جنوب غربى الأندلس، ويذكر الحميرى، أنه كان، يوجد بها دار صناعة الحديد الذى يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفائه، وهى صنعة المراسى التى ترسو بها السفن، راجع: الروض المعطار، ص ١١٠.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١١٣.

(٣) تقع فى شمال بورتودى موس.

(4) Cronica dos sete primeros reis de portugal, t. I, p. 125; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 187.

(٥) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١١٦؛ وانظر أيضاً: محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس، القسم الثانى، القاهرة، ١٩٦٤، ص ١٠٠؛ Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 187.

(6) Huici Miranda, Historia del Imperio Almohade, t. I, pp. 279-281.
وانظر أيضاً : أحمد مختار العبادى (بالاشتراك مع السيد عبد العزيز سالم) فى تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، بيروت، ١٩٦٩، ص ٢٦٧.

العربية فتشير إلى غضب الخليفة من هذه الاعتداءات، وصدور أوامره إلى عبد الله بن جامع قائد الأسطول بسبتة للأخذ بالثأر، فخرج بأسطول من سبتة في سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م، كما خرج معه القائد أبو العباس الصقلى من أشبيلية بأسطولها أيضاً ، واجتمع الأسطولان عند ثغر قادس فى أربعين قطعة قصدت جهة شلب Silves، والتقى الأسطول الموحدى بالأسطول البرتغالى فى نفس المكان (١) والزمان(٢) الذى أسر فيه غانم بن مردنيش فى منتصف المحرم من العام المنصرم، وحقق المسلمون على أعدائهم نصراً عزيزاً، وقتلوا أعداداً كبيرة من مقاتلة البرتغال من بينهم القائد روبينو وأسروا منهم نحو الألف وثمانمائة ، واستولوا على نحو عشرين قطعة من قطائع العدو مع أسلابهم وأسلحتهم وعادوا إلى قواعدهم منتصرين (٣). ولقد اعترفت المصادر البرتغالية بهذه الهزيمة التى حلت بأسطولها، كما أشارت إلى مصرع أمير البحر البرتغالى فواس روبينو فى هذه المعركة (٤).

وقدر لغانم بن مردنيش بعد أن تحرر من أسره أن يلازم الخليفة أبا يعقوب يوسف وكان من بين من صحبوه فى حملة شنترين شوال سنة ٥٧٩هـ/فبراير ١١٨٤م، وقد أشرنا إلى استشهاده المحتمل فى هذه الغزوة.

جـ ـ أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش والى بلنسية:

كان أبو الحجاج يوسف بن مردنيش أخو محمد بن سعد بن مردنيش قد قام بتقديم فروض الطاعة والولاء للموحدين ولهذا أقره الخليفة أبو يعقوب يوسف على ولاية بلنسية (٥) بحكم خبراته السابقة ولعلاقاته الودية مع الممالك المسيحية المجاورة لاسيما أرغون وقطالونية اللتين أصبحتا بعد وفاة محمد ابن سعد بن مردنيش وانضواء

---

(١) عند رأس أسبكل جنوبى أشبونة.

(٢) وقع الاشتباك بين الأسطولين فى الخامس عشر من شهر المحرم سنة ٥٧٧هـ/أواخر مايو ١١٨١م أى بعد مضى عام كامل على موقعة بورتودى موس.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١١٧-١١٨؛ وانظر أيضاً : العبادى، تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، ص ٢٦٨.

(4) Cornicas dos sete primeros reis de portugal, t. I, p. 125 s 99; Huici Miranda, op.cit., t. I, p. 280.;

انظر أيضاً : العبادى، تاريخ البحرية فى المغرب والأندلس، ص ٢٦٨.

(٥) وكان قد بلغ أبا الحجاج يوسف نبأ إخفاق الخليفة فى حملته على وبذة، كما بلغه ما تعرض له عسكر الموحدين من ضيق بسبب نفاذ الأقوات، فأرسل إليه من بلنسية كمية كبيرة من الدقيق والشعير والفواكه عندما وصل الخليفة إلى حصن بنيول، انظر : ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٥١٢.

ملكه لدولة الموحدين تهددان كل إقليم شرق الأندلس نفسها ونستدل مما ورد فى مدونة ثوريتا أن ألفونسو الثانى ملك أرغون أغار على مدينة بلنسية فى نفس الشهر الذى توفى فيه ابن مردنيش وانتسف بساتينها، ووجد أبو الحجاج يوسف بن مردنيش نفسه مرغما على مفاوضته بعد أن عجز عن مدافعته فالتزم من جانبه بأن يقدم إليه جزية مضاعفة بالإضافة إلى تحمله نفقات هذه الحملة والتزامه مستقبلا بتقديم المساعدة للأرغونيين ضد الموحدين فى مرسيه [١] مع تعهده الإبقاء على كنيسة San Vicente Martin القديس فسنت مارتين فى بلنسية بعشورها وباكوراتها، وعلى حقوقها فى مزاولة الشعائر المسيحية، الأمر الذى يشير إلى أن هذه الكنيسة لم يكن يسمح لها بمزاولة الشعائر الدينية وفقاً لسياسة الموحدين فى منع إقامة كنائس جديدة للمسيحيين [٢]. ويضيف ثوريتا فى روايته إلى الإشارة إلى قيام ألفونسو الثانى ملك أرغون بالإغارة على مدينة شاطبة ومحاصرتها ثم اضطراره إلى رفع الحصار عنها والعودة إلى مملكته، عندما استغل سانشو القوى ملك نبره Sancho El Fuerte de Navarra انشغال ألفونسو الثانى بغزو أراضى المسلمين ونقض المعاهدات المعقودة بينه وبين ملك أرغون ، فأغار سانشو على الثغور الأرغونية مرغماً بذلك ألفونسو على رفع الحصار عن شاطبة وإن كان الأخير لم يرفع الحصار إلا بعد أن تعهد واليها بدفع الجزية التى كانت مفروضة عليها فى أيام ابن مردنيش [٣].

وظل أبو الحجاج يتقلد ولاية بلنسية وجهاتها حتى توفى سنة ٥٨٢هـ[٤].

---

(1) Zurita, Anales, Lib, Cap. XXXII; Camarena (Migual gual), Precedentes de la reconquista valenciaana, p. 196; Ibars, op.cit, t. I, p. 561; Huici Miranda, Valencia Musulmana, t. III, p. 192.

(2) Ibars, op.cit, t. I, p. 560.

(3) Zurita, op.cit, Lib, Cap, XXXII, Camarena, op.cit, p. 196; Carreres (Carlos Sarthou), El Castillo de Jativa y sus historicos Prisioneros, 3ed, Valencia, 1951, p. 43.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، ص ٢٧١.

٣ ـ شرق الأندلس

فى ظل دولة الموحدين

أ ـ مرسيه فى عصر الخليفتين يوسف ويعقوب المنصور:

بعد أن تخلى أبو القمر هلال بن محمد بن مردنيش عن مرسيه قاعدة شرق الأندلس وجميع أراضى هذا الإقليم[١] للموحدين وجه الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى مرسيه أخاه السيد أبا حفص[٢] ، وهكذا دخلت مرسيه فى فلك دولة الموحدين، وبدخولها فى دائرة نفوذ الموحدين استوثقت طاعتهم بشرق الأندلس وشملته دعوتهم[٣]. ثم توالت على مرسيه بعد دخولها فى طاعة الموحدين ولاة يتولونها بتقليد من خليفة الموحدين أبى يعقوب يوسف، بعد أن آثر هلال بن مردنيش صحبة الخليفة فى أعقاب وبذه. ومن المعروف أن أبا يعقوب يوسف اتخذ طريق عودته من وبذه إلى مرسيه فى الأراضى البلنسية عبر عقبة الأباليس وقنطرة أغربالة ومرج القبذاق وحصن ركانه وحصن بنيول فشاطبة فحصن بليانة ثم حصن عصف وحصن آلش وأوريوله وحصن منتقوط. وعندما وصل إلى مرسيه فى ٢٤ من ذى الحجة سنة ٥٦٨هـ ونزل بقصرها الكبير، وكان قد أمر هلال بن محمد بن مردنيش أن يرتب الديار فى مرسيه لنزول الموحدين ويهيىء لهم مقاماً حسناً ، ففعل هلال ما أمره به، وأهدى الخليفة بمناسبة حلوله بمرسيه من الهدايا الكثير من بينها ما كان لدى أبيه من الجوارى الكعاب والسرارى ذوات الحسن والشباب فقبل الخليفة هداياه وأنعم عليه بالعطايا الجزيلة [٤].

وكان من الطبيعى أن تكتظ مرسيه بمن وفد إليها من قوات الموحدين ، فقلت بها الأقوات وعزت المؤن، وطالب كثير من عسكر الموحدين بالعودة إلى أوطانهم، فأذن لهم الخليفة ورحل كثير منهم [٥]، وأخذ الخليفة ينظم بنفسه أمور مرسيه وينظر فى تثقيف معاقلها وتوجيه الولاة منها إلى حصونها وأعمالها، ثم اجتمع بهلال بن مردنيش وأخوته وعمهم أبى الحجاج يوسف وشملهم جميعاً بعطفه ورعايته وأقر أبا

---

(١) بما فى ذلك بنشكلة وأندة ومربيطر وأنيشة وبلنسية وشاطبة ودانية ولقنت وشقر ولورقة.

(٢) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص ٢٧١.

(٣) عبد العزيز سالم، مدينة مرسيه، موطن الشيخ الزاهد أبو العباس المرسى مستخرج من مطبوعات جمعية الآثار الإسكندرية، ١٩٦٩، ص ١٦.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٥١٣-٥١٤.

(٥) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٥١٤.

الحجاج على ولاية بلنسية وأنظارها وكتب له بذلك لما عرفه من ولائه وطاعته، كما أبقى القائد أبا عثمان بن عيسى على حصن جنجاله وما إليه من الثغر، كما أبقى لعدد من قادة شرق الأندلس على بما بأيديهم . وأقام الخليفة فى مرسيه أكثر من شهرين ثم غادرها مع جميع أبناء محمد بن مردنيش وأسرهم فى أول شهر ربيع الأول سنة ٥٦٨هـ إلى أشبيلية ، وهناك حباهم بعطفه ورعايته واشترى لهم دوراً بأشبيلية لسكناهم [١].

وهكذا آثر هلال بن مردنيش ملازمة الخليفة وصحبته على الإمارة ، فاضطر الخليفة إلى إسناد ولاية مرسيه وأعمالها بصفة وقتية إلى أخيه السيد أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن. وقد ظل أبو يوسف هذا قائماً بولايتها، إلى أن استقدمه الخليفة إلى حضرته مراكش فى جملة من أعيانها فى رجب سنة ٥٧٩هـ والظاهر أنه كان غاضباً عليه بسبب سوء تصرفه فى ولاية مرسيه، وقد تكون الأوضاع السياسية المضطربة آنذاك فى إقليم شرق الأندلس، بسبب تكرار غارات الممالك النصرانية على بلنسية ومرسيه وعلى موسطة الأندلس وراء عدم رضائه عنه، ويعبر ابن عذارى عن عدم رضا الخليفة عن أخيه بقوله : «فوصل إلى الحضرة مراكش فى شهر رجب سنة ٥٧٩هـ، فلم يؤمر بالدخول على أخيه أمير المؤمنين لما وصله عنه، ثم أمر بعد ذلك بالدخول مع السادات والموحدين» [٢]، ويبدو أن سخط الخليفة لم يقتصر فقط على أخيه، وإنما شمل معظم ولاته على الأندلس، بدليل أنه عزل هؤلاء الولاة وقلد ولاة آخرين من أبنائه على أهم قواعد الأندلس، ففى يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان من نفس السنة ولى بنيه الأربعة على قواعد بلاد الأندلس، فصرف أبا إسحاق إلى أشبيلية واليها عليها، وولى أبا يحيى قرطبة تحقيقاً لرغبة القاضى أبى الوليد ابن رشد، وقلد السيد أبا زيد على ولاية غرناطة، والسيد أبا عبد الله محمد على ولاية مرسيه وأمر بسفرهم إلى مقار أعمالهم [٣]. وقد شارك أبو عبد الله والى مرسيه فى حملة شنترين التى لقى فيها الخليفة أبوه حتفه، وكان فى جملة من بايع أخاه أبا يوسف يعقوب المنصور بحصن طرش.

وفى عهد أبى يوسف يعقوب أسندت ولاية مرسيه إلى أخيه السيد أبى حفص عمر الملقب بالرشيد بدلا من أبى عبد الله محمد الذى تولى الوزارة لأخيه الخليفة

---

(١) نفس المصدر، ص ٥١٥ – ٥١٦.
(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١٢٩.
(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١٢٩.

المنصور، وكانت ولاية أبي حفص عمر بن أبي يعقوب يوسف على مرسيه شؤما إذا كان ظلوماً جائراً في أحكامه، اعتدى على تجار مرسيه فصادر أموالهم واستنزف ما كان في بيت المال، وقبض على ابن رجاء مشرف مرسيه وألزمه بإحضار تقييدات أبواب الجباية ، فلما عجز عن تلبية مطلبه أمر بقتله ، فأرهب ذلك ابن سليمان صاحب العمل بمرسيه ، ففر إلى بلنسية كما فر إليها أيضاً الكاتب حكم بن محمد، فتحايل الرشيد على استدعاء هذا الأخير بالخديعة ولين القول ثم غدر به وقتله [1]. وهكذا أرهق الرشيد أهل مرسيه بصنوف البطش والبغى والإرهاب.

وقد انتهز الرشيد فرصة تغلب علي بن غانية على المنصور في وقعة وطاء عمره سنة ٥٨٢هـ وبادر بالاتصال بألفونسو الثامن ملك قشتالة وارتبط معه بحلف سرى ظناً منه أن أخاه المنصور لن تقوم لهِ قائمة بعد هزيمته المذكورة، فلما عاود المنصور الكرة على ابن غانية وانتصر عليه انتصاره الحاسم في وقعة الحمة ثاب الرشيد إلى رشده وأدرك ما تورط فيه من الخطأ ووصله أمر أخيه الخليفة باستدعائه إلى مراكش فسار إليها وهولا يشك في أنه سيغفر له فعلته، ولكنه ما كاد يصل إلى مراكش ويقابل الخليفة سنة ٥٨٤هـ حتى تبين له ما ينتظره من سوء المصير، فقد أمر الخليفة، بالقبض عليه وتشاور في أمره مع أشياخ الموحدين فأفتو بوجوب قتله جزاء خيانته. وتم تنفيذ الحكم فيه [2]، وبزوال عهده البغيض تنفس أهل مرسيه الصعداء . ثم جاء انتصار الموحدين في الأرك في شعبان ٥٩١هـ/١٨ يوليو ١١٩٤م [3] فاتحة عهد يسوده السلام وذلك بعد أن انعقدت بين الموحدين والقشتاليين اتفاقيات سلام لمدة عشر سنوات، نعمت مرسيه وشرق الأندلس بوجه عام بهدوء لم تشهده من قبل.

ب ـ مرسيه قاعدة دولة الخليفة العادل:

لم يزودنا مؤرخو العرب بنصوص عن ولاة مرسيه بعد الرشيد، ولكن الدلائل تشير إلى أنه كان يتولى مرسيه منذ ذلك العهد ولاة من بنى عبد المؤمن كان آخرهم أبو محمد عبد الله بن المنصور الذى عقد له الخليفة المستنصر الموحدى لأول خلافته على بلنسية وشاطبة، ثم ولاه في سنة ٦١٩هـ/١٢٢١م على مرسية ودانيه

---

(١) نفس المصدر والقسم، ص ١٧١-١٧٢؛ وانظر أيضاً :
محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثانى، ص ١٦٧ .

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٧٢-١٧٣؛ المراكشى، المصدر السابق، ص ١٥٦؛ ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٤٣؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٥١٠؛ محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثانى، ص ١٦٧؛
Gaspar Remiro, op.cit., pp. 246-247.

(٣) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٨٣؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٠٤؛
Huici Miranda, op.cit., p. 203.

وأحوازها [١]، فى الوقت الذى اشتدت فيه حملات القشتاليين على شرق الأندلس ثم توفى المستنصر بالله فى ذى الحجة سنة ٦٢٠هـ دون عقب ، فخلفه أبو محمد عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن ، وكان أبو محمد عبد الله والى مرسيه قد استوزر أبا زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان بعد أن تم الإفراج عنه من حصن جنجاله [٢]. وكان ابن يوجان من كبار أشياخ الموحدين وأكثرهم خبرة فى أمور السياسة ودهاء [٣]، فشرع ابن يوجان بما أوتى من قدرة على التأثير والاقناع بدفع أبا محمد عبد الله إلى نقض بيعته للخليفة الجديد عبد الواحد، متعللا بأن تنصيب عبد الواحد على الخلافة قد أخرج الإمامة عن عقب المنصور، وأنه هو أى أبو محمد عبد الله هو ولد المنصور وأخو الناصر وعم المستنصر وصاحب الحزم والعقل الراجح والكرم وحسن السياسة وإصابة الرأى وهو بذلك أحق بالخلافة من عبد الواحد، ومازال به يحرضه على الدعوة لنفسه، فى ظل أخويه الثلاث على ولايات قرطبة وغرناطة ومالقة [٤]، حتى اقتنع أبو محمد عبد الله بذلك كل الاقتناع فاستدعى أشياخ الموحدين والفقهاء والأعيان بمرسيه وأحوازها ودعاهم إلى مبايعته، فلبوا دعوته وتلقب على الفور بالعادل فى ١٣ صفر سنة ٦٢١هـ، فبايعه أخوته الثلاثة أبو العلاء صاحب قرطبة وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحب مالقة، كما بايعه السيد أبو محمد عبد الله المعروف بالبياسى صاحب جيان [٥]. وعلى هذا النحو أصبح لدولة الموحدين خليفتان أحدهما فى مراكش والثانى فى مرسيه. واستطاع العادل أن يحصل على تأييد سائر قواعد الأندلس عدا بلنسية وشاطبة ودانية التى امتنع عن بيعته فيها واليها أبو زيد بن عبد الله بن يوسف بن عبد المؤمن [٦]. ثم خرج العادل من مرسيه إلى أشبيليه حاضرة دولة الموحدين فى الأندلس وبصحبته وزيره ابن يوجان [٧]، ويذكر ابن عذارى أنه تلقى فيها بيعة أهل مراكش وبلاد المغرب [٨]، فى حين يؤكد ابن أبى زرع أنه كتب إلى أشياخ الموحدين بمراكش يدعوهم لبيعته وخلع عبد الواحد ووعدهم بالأموال الطائلة والمراتب السنية ، فلبوا دعوته، وأرغموا عبد الواحد

---

(١) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٦١ ؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٤٧.
(٢) الحميرى، المصدر السابق، ص ٦٧.
(٣) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٦١ .
(٤) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٦١ ؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ٦٧.
(٥) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦ ، ص ٥٢٥.
(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٧) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٤٨ وما يليها.
(٨) نفس المصدر والقسم والصفحة.

على خلع نفسه أمام القاضى والفقهاء والأشياخ ومبايعة العادل فى ٢١ شعبان سنة ٦٢١هـ[١]. وكان العادل قبل رحيله إلى أشبيلية قد أقام على ولاية مرسيه السيد أبا العباس ابن أبى موسى بن عبد المؤمن ، ثم بدأت متاعب العادل تتوالى عليه منذ أن انتقل إلى أشبيليه، فقد خلع صاحب جيان بيعته له عندما رأى رفض أخيه السيد أبى زيد والى بلنسية ودانية وشاطبة بيعة العادل وانتزائه ببلنسية بهذه القواعد، ولم يكتف صاحب جيان بذلك بل دعا لنفسه وتلقب بالظافر، وأطاعته بياسة وقرطبة وجيان وقيجاطة فسير إليه العادل من أشبيلية جيشاً بقيادة أخيه السيد أبو العلاء إدريس بن المنصور ، حاصره فى بياسة، واضطر أبو محمد عبد الله إلى أن يعقد معه الصلح على أن يعاود مبايعته، فلما رحل عنه أبو العلاء فى جيشه عاد إلى نكث بيعته [٢]. وفى رواية أخرى لابن خلدون أن أبا العلاء فشل فى مهمته، وعاد أدراجه إلى أشبيلية ، فسير العادل جيشاً آخر لمحاربته بقيادة أبى سعيد ولكن البياسى امتنع على أبى سعيد كذلك [٣]، أما رواية صاحب الروض المعطار فأكثر تفصيلا، فيذكر أن العادل عندما رأى تغير أبى محمد عبد الله البياسى عليه ونكثه ببيعته صير إليه جيشاً بقيادة أبى العلاء ، حاصره ببياسة زمن الشتاء، وقد بلغ البرد ذروته، مع هطول الأمطار ، فخشى أبو العلاء أن يفيض نهر الوادى الكبير ويتعذر عليه العبور عند العودة ، فضلا عن خوفه من قدوم القشتاليين حلفاء البياسى، عندئذ ارتضى دعوة البياسى إليه بالصلح على أن يدفع له بولده الأصغر ليكون رهينة لديه، فارتضى أبو العلاء ذلك وعاد أدراجه فى قواته إلى أشبيلية ، فلما وصلها قوبل بالاستهجان «وبقى عندهم كالخامل المتخوف» [٤].

وأمام فشل حملة أبى العلاء من تحقيق أهدافها فى القضاء على عصيان أبى محمد عبد الله البياسى، أعد العادل جيشاً آخر قدم عليه عثمان بن أبى حفص، فسار هذا الجيش إلى بياسة ونزل على بعد خمسة أميال منها جنوبى المدينة ، فخرجت لقتاله قوة فرسان البياسى عدتها مائة فارس بالإضافة إلى قوة من حلفائه القشتاليين فانهزم الجيش الموحدى، وبادر بالانسحاب على الفور إلى أشبيلية، وبقى البياسى ببلده، ودخل القشتاليون قصبة بياسة وتحصنوا فيها[٥]، وعلى إثر ذلك امتد سلطان البياسى علاوة على جيان وبياسه، على قاعدتى قرطبة ومالقة [٦].

---

(١) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٦٣ وما يليها .
(٢) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ١٦٤ .
(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦ ، ص ٥٢٧ .
(٤) الحميرى، الروض المعطار، (مقال بياسة)، ص ٥٧ .
(٥) الحميرى، المصدر السابق، ص ٥٧ .
(٦) نفس المصدر، ص ٥٨.

ومما لا شك فيه أن مركز العادل قد تحرج بعد أن فشلت قواته في إخضاع البياسي، كما انتهز النصارى هذا الموقف وأقدموا على غزو إقليم الشرف غربي أشبيلية في جمادى الأولى سنة ٦٢٢هـ/مايو ١١٢٤م، وتفصيل ذلك أن مارتين سانشيز - وهو ابن غير شرعي لملك البرتغال سانشو الثاني ، دخل في خدمة ملك ليون - خرج في قوة من النصارى وهاجم منطقة الشرف من أشبيلية وألفى العادل وأخوه أبو العلاء ووزيره ابن بوجان، أنفسهم عاجزين عن مقاومة النصارى، وأمام تخاذل العادل وتقاعسه، اجتمع أهل أشبيلية في المسجد الجامع، وصاحوا بالعادل يحملونه على الخروج بالتصدى لهؤلاء الغزاة ، وعندئذ استنفر العادل الناس، وحشد منهم جموعاً كبيرة خرج معظمهم بدون سلاح ، واجتمع من الفرسان ما يقل عن المائة ، وسارت هذه الحشود من الباعة وأهل الأسواق غير المجهزة عسكرياً في غير نظام إلى حيث نزل النصارى على مقربة من طلياطة Tejada وكأنهم خارجين إلى نزهتهم في البساتين والجنات ، وكان النصارى قد تأهبوا في قوة كبيرة كاملة العدة والسلاح لتلقيهم، فأراد العامة أن يدفعوا قوة الفرسان الهزيلة للقاء العدو ، فامتنع قائدها عبد الله بن أبي بكر بن يزيد، وحاول إقناع العامة بعبث هذه المحاولة ، وضرورة الالتزام بسياسة الدفاع فتطاولوا عليه وسبوه، فانسحب في فرسانه، وفي الحال انقض النصارى على حشود المسلمين، ففتكوا بهم وأفنوا الكثير منهم قتلا وأسراً، وفر الكثير منهم (١). ويقدر عدد القتلى في هذه المعركة بالآلاف بل يبالغ بعضهم فيقدرهم بنحو عشرين ألفاً ، والبعض الآخر نحو عشرة آلاف بين قتيل وأسير (٢).

وبعد شهر من كارثة فحص طلياطة ، قام القشتاليون في رجب سنة ٦٢٢هـ بغزوة مماثلة على شرق الأندلس وألحقوا بالمسلمين في عفص شرقي مرسيه هزيمة نكراء لا تقل في أثرها عن هزيمة طلياطة ، وذلك أن حكام قونكة وويذه Huete وألاركون ومويا Moya ، حشدوا قواتهم ، وأغاروا على أراضي مرسيه ، فخرجت لردهم قوات من مرسيه بقيادة أبي على بن أشرقي، فأوقعوا بالمسلمين وهزموهم هزيمة نكراء ذهب فيها من أهل مرسيه بين قتيل وأسير نحو أربعة آلاف رجل (٣). وذكر الحميري نقلا عن صاحب الملتمس أن كائنة عفص هي أخت كائنة طلياطة المتقدمة ، كانت هذه في غرب الأندلس وتلك في شرقها ، وفي وقعة عفص يقول أحد شعراء مرسيه مقارناً بين موقعتي عفص وطلياطة:

(١) الحميرى، المصدر السابق، ص ١٢٨-١٢٩.
(٢) نفس المصدر، ص ١٢٩ ؛ وانظر أيضاً:

Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 223.
(3) Huici Miranda, Ibid, p. 223.

موقعة عفص وطلياطة ∴ تكامل إقبال أيا منا
فبالغرب تلك وبالشرق ذى ∴ آتاخا على شم أعلامنا (١)

خلال هذه الأحداث كانت بيعات الموحدين بالحاضرة مراكش والمغرب قد وصلت إلى العادل بأشبيلية، وكان الخليفة عبد الواحد قد خلع ولقى مصرعه، وخلا عرش الخلافة الموحدية، وعندئذ رأى العادل أن الظروف أصبحت مهيئة لجوازه إلى الحاضرة مراكش، لاسيما بعد أن بلغته أنباء انتصار البياسى على قواته فخاف أن يفوقه مقصوده من الخلافة، وعندئذ ندب أخاه أبا العلاء إدريس للنظر فى شئون الأندلس، وغادر أشبيلية إلى المغرب فى شهر ذى القعدة سنة ٦٢٢هـ/ أكتوبر ١٢٢٤م (٢).

وعند وصول العادل إلى الحاضرة مراكش، وتقلده لأمور الخلافة، استوزر أبا زيد بن أبى محمد بن الشيخ أبى حفص، وأقر عماله على المغرب والأندلس (٣). وكان البياسى فى هذا الوقت قد امتد سلطانه علاوة على جيان وبياسة على قاعدتى قرطبة ومالقة ، وكاد يستولى على أشبيلية (٤)، فقد دفعه الطمع إلى غزوها فى ٢٥ صفر سنة ٦٢٣هـ/٢٥ نوفمبر ١٢٢٦م (٥) ولكن أبا العلاء كان قد تأهب للقائه فخرج إليه فى قوات الموحدين وأهل المدينة ، ونشبت بين الجيشين معركة عنيفة كان النصر فيها حليفاً لأبى العلاء، وهزم البياسى ومزقت جموعه، وانسحب فى فلوله صوب قرطبة ، وعلى أثر هزيمة البياسى خرجت طلياطة وحصن القصر وبقية الحصون والبلاد الممتدة شرقى أشبيلية عن طاعته ، وعادت إلى طاعة الخليفة العادل(٦)، وانتهى الأمر بالبياسى أن قام أهل قرطبة فقتلوه وبعثوا برأسه إلى أشبيلية ، فبعث بها أبو العلاء إلى الحاضرة مراكش، وعندئذ ورد أمر الخليفة العادل فى بداية سنة ٦٢٤هـ بإسناد قرطبة بالإضافة إلى أشبيلية إلى أخيه أبى العلاء (٧). ولكن أبا العلاء إدريس لم

---

(١) الحميرى، المدر السابق، ص ١٣٦.
(٢) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٦٣-١٦٤؛ ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ٥٢٧؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ١٢٩.
(٣) ابن خلدون، نفس المصدر، جـ٦، ص ٥٢٨.
(٤) الحميرى، المصدر السابق، ص ٥٨.
(٥) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٥٠؛ وراجع أيضاً:
Gonzalez (J), Las conquistas de Fernando III en Andalucia, Madrid, 1940, pp. 46-47.
(٦) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٥١-٢٥٢.
(٧) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٥٢.

يلبث أن دعا إلى نفسه بالخلافة فى ٢ شوال سنة ٦٢٤هـ وتلقب بالمأمون وبويع له فى معظم قواعد الأندلس كما بايعه السيد أبو زيد صاحب بلنسيه وشرق الأندلس [(١)].

جـ - الأوضاع فى بلنسيه فى عهد الموحدين :

كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أثناء إقامته بمرسيه فى أعقاب حملته الفاشلة على وبذه قد أقر أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش على ولايته ببنلسيه وأنظارها، وكتب له بذلك ، ولهذا فقد استمر يوسف بن سعد ابن مردنيش يتولى ثغر بلنسية إلى أن توفى فى سنة ٥٨٢هـ على النحو الذى ذكرناه فيما سبق، وخلفه على ولاية بلنسية من قبل خليفة الموحدين السيد أبو عبدالله محمد حفيد الخليفة عبد المؤمن بن علي ، ثم تولاها بعده ولده السيد أبو زيد ، وكان بيت يوسف بن مردنيش مازال يعد من البيوتات الكبرى فى بلنسية ، فقد ترك يوسف بن مردنيش عدداً من الأبناء أسند إليهم الموحدون مناصب هامة قيادية وإدارية فى سائر قواعد شرق الأندلس أبرزهم الرئيس أبو الحملات مدافع الذى قدر لأحد أبنائه وهو الرئيس أبو جميل زيان وزير السيد أبى زيد والى بلنسية ومدبر أمره أن ينادى أهل بلنسية بزعامته فى صفر ٦٢٦هـ/١٢٢٩م ويبايعون له بالإمارة.

ومن أبرز أبناء يوسف بن مردنيش كذلك أبو سلطان عزيز الذى كتب له أن يتولى جزيرة شقر .

ولقد تعرضت بلنسية فى ظل واليها السيد أبى عبد الله محمد وابنه السيد أبى زيد لهجمات أرغونية متكررة فقد تم توقيع معاهدة سلام ومهادنة بين خليفة الموحدين وملك قشتالة فى أعقاب انتصار الموحدين فى الأرك مدتها عشر سنوات [(٢)] كما وقعت اتفاقية مماثلة للسلام بين أراغون ونبره فى مالين فى ٤ يونيه ١٢٠٩م/٦٠٦هـ وبمقتضاها تم تصفية خلافاتهما ، كما أقرض سانشو السابع ملك نبره بدور الثانى ملك أرغون عشرين ألف ماركوسى بضمان بعض الحصون الأرغونية هى : Esco, Villa de Pina, Pitilla, Gollur وسلمت تلك الحصون للدوق خيمينو دى لارادا Jimeno de la Rada رهناً لسداد القرض حتى ٢٥ ديسمبر من العام المؤرخ ، واشترط سانشو السابع ملك نبره أنه فى حالة عدم رد القرض تصبح هذه الحصون من نصيبه حتى يتم سداده بعد ذلك ، وبتوقيع هذه الاتفاقية اطمأن ملك أرغون على سلامة حدوده مع نبره ، فأخذ يتفرغ لمهاجمة شرق الأندلس وتوسعة

---

(١) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص٢٥٨.

(٢) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٨٣؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٠٤.

أملاكه على حساب أراضى المسلمين ، ففى نهاية شهر مارس ١٢١٠م حشد قواته فى منثون Manzon وصحبه فى هذه الحملة عدد من القواد [١]. ثم قام بشن غاراته على ثغور بلنسية فى المنطقة الواقعة بين قونكة وسهلة بنى رزين واستولى على ثلاثة حصون هامة بها وهى : Sertella, Castielfabit, Ademuz [٢].

ثم استأنف زحفه بهدف الإغارة على ثغر بلنسية ، مما أوقع الذعر والهلع بسكان المدينة ، بيد أنه فى إحدى غاراته التى اقترب فيها إلى مشارف مدينة بلنسية اضطر إلى الالتحام مع حاميتها التى تصدت له بثبات ، وكاد ملك أرغون يقع أسيراً فى أيدى المسلمين بعد أن سقط عن جواده ، فلحق به أحد فرسان النصارى ممن يعملون فى خدمة الموحدين الذين أسندوا إليه مهمة الدفاع عن هذه المنطقة ويدعى دون دييجو لوبث دى آرو Don Diego Lopez de Haro الملقب بالطيب سيد بسكانية Vizcaya ، وعلى الرغم من ذلك فقد أسعف الملك الأرغونى بجواد آخر، متناسياً الإهانات التى كان وجهها إليه أمراء المسيحيين من قبل، وبذلك أنقذ الملك من الأسر، ولاشك أن هذا الموقف من جانب دون دييجو قد أغضب حامية بلنسية المسلمة، التى ارتابت فى أمره، فأرسل إلى الحاضرة مراكش ومثل أمام الخليفة الناصر، الذى تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المنصور فى ٢٣ ربيع الأول ٥٩٥هـ، ودافع دييجو عن موقفه فهدأ غضب المسلمين ، وكان لتصرف دون دييجو حيال ملك أرغون قد دفع ألفونسو الثامن ملك قشتالة إلى الاعتراف بحقوقه الشرعية، فسمح له بالعودة إليها [٣].

ورداً على غارات الأرغونيين على ثغور بلنسية ، قام الأسطول الموحدى بمهاجمة سواحل قطلونية، ويروى صاحب «البيان المغرب» أن فى سنة ٦٠٧هـ سار

---

(١) منهم دون رامون دى كاستيا توبلو أسقف سرقسطة، ودون جارثيا من وشقة، ودون جارثيا من طرسونة، ودون خيمينو كورنيل، ودون جارثيا روميو، ودون أرتال ألاجون، ودون بلاسكو روميو وغيرهم، راجع:

Ibars, op.cit., t. I, p. 585.

(٢) الديموس تقابل Ademuz مركز فى بلنسية، راجع:

Miguel Asin Palacio, op.cit., p. 43;

قلعة حبيب تقابل Castielfabit مركز فى بلنسية، راجع:

Miguel Asin Placio, Ibid, p. 101.

وقد رسمها ابن الآبار قشتيل الحبيب وجعلها من أعمال شنتمريه الشرق، انظر التكملة، ص٤٦٨؛

Ibars, op.cit, t. I, pp. 584-585.

(3) Marina (P.), Historia General de Espana, II, Madrid, 1948, p. 24.

السيد أبو العلاء إدريس بن يوسف قائد أسطول البرين فى جميع وحدات الأسطول الموحدى إلى مياه برشلونة فى صيف سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، وأغار على سواحل قطلونية واستطاع أن يحرز انتصاراً ساحقاً على أسطول ملك أراغون وينزل به خسائر فادحة ويستولى على كثير من الأموال والغنائم، «فكانت أحسن حركة للمسلمين وأوحش فجيعة وأعم وقيعة جرت على الغزاة البحريين وأوقع حسرة كانت بقلوب الكافرين» [١].

ومن جهة أخر عمد ألفونسو الثامن ملك قشتالة عندما اقترب انتهاء أجل الهدنة المعقودة بين قشتالة وبين الموحدين إلى الخروج مع ولده دون فرناندو فى قوات من مجريط ووادى الحجارة روشقة وقونكة وإقليش للإغارة على بلنسية، وقد أغار على بلنسية وبث الرعب على نواحى شقر، وهاجم الجهة الشرقية حتى وصل إلى شاطئ البحر المتوسط، وكان ذلك فى شهر مايو سنة ١٢١١م/٦٠٨هـ [٢].

وفى سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م وقعت اتفاقية سلم وموادعة بين الموحدين ومملكة قشتالة فى عهد أبى يعقوب يوسف الثانى الملقب بالمستنصر الموحدى مدتها خمس سنوات [٣]، ولكن بانتهاء مدة الاتفاقية بدأت قشتالة حملاتها المنظمة من جديد على شرق الأندلس ، فاقتحم القشتاليون فى ٦١٦هـ/ سبتمبر ١٢١٩م القلاع الواقعة إلى شمال بلنسية، كما أغاروا على ركانه وأحكموا عليها الحصار وقذفوها بالمجانيق وهدموا أسوارها الأمامية وعدداً من أبراجها، ولكن أهلها صمدوا فى ثبات واستبسلوا فى القتال وأرغموا القشتاليين على الانسحاب بعد أن كبدوهم خسائر فادحة [٤].

وواصل القشتاليون غزواتهم لأراضى بلنسية وأحوازها كل عام إلى أن تجددت المهادنة والمصالحة بين ولاة الأندلس من السادة الموحدين وبين النصارى فى سنة ٦١٨هـ [٥].

---

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٣٤.

(2) Ibars, op.cit., t. I, pp. 587-588.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٤٤.

(4) Anales toledanos Primeros, reedicion ; Huici Miranda, t. I, p. 353.

(٥) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٤٦.

الفصل الخامس
تفكك شرق الأندلس في آخر عصر الموحدين وسقوط قواعدها

(١) الأوضاع السياسية في الأندلس في السنوات الأخيرة من دولة الموحدين
أ - ضعف الخلافة الموحدية وأثره في قيام الثورات في الأندلس.
ب - انتزاء ابن هود في مرسيه.
جـ - امتداد سيطرة ابن هود على قواعد الأندلس الوسطى والجنوبية.
د - صدى ثورة ابن هود على الأوضاع في بلنسية.
هـ - موقف ابن هود من حركة أبي جميل زيان ببلنسية.

(٢) فشل ابن هود في مواجهة المد القشتالي والأرغوني.
أ - ظهور محمد بن يوسف بن نصر منافساً لابن هود.
ب - سقوط جزيرة ميورقة.
جـ - سقوط جزيرة يابسة.
د - نهاية ابن هود.

(٣) سقوط قواعد شرق الأندلس.
أ - موقعة أنيشة وسقوط بلنسية في يد جاقمة.
ب - سقوط مرسيه في أيدي القشتاليين.
جـ - سقوط منورقة.

(١) الأوضاع السياسية فى الأندلس
فى السنوات الأخيرة من عصر دولة الموحدين

أ ـ ضعف الخلافة الموحدية وأثره فى قيام الثورات فى الأندلس:

كانت حركة بنى غانية [(١)] أصحاب الجزر الشرقية فى المغرب الأدنى بالتحالف مع المماليك التقوية والعرب الهلالية طوال عهود يوسف ويعقوب المنصور والناصر عاملا هامًا فى إضعاف دولة الموحدين واستنفاد قواها، كذلك دفع الموحدون من قوتهم لاستنزال بنى مردنيش فى شرق الأندلس ثمنًا باهظًا، وقد ساعد هذان العاملان بالإضافة إلى الجهاد ضد مملكتى البرتغال الفتية وقشتالة على التعجيل بانهيار دولة الموحدين إلى أن كانت الهزيمة النكراء التى نكبت بها دولة الموحدين فى العقاب فى صفر سنة ٦٠٩هـ/ يوليو ١٢١٢م وهى الواقعة المشؤومة التى لم تقم للمسلمين فى الأندلس بعدها قائمة تحمد ولم تستقل الأندلس العثرة [(٢)]، فكانت بداية لانهيار دولة الموحدين التى امتدت على الرغم من ذلك حتى مصرع أبى دبوس فى سنة ٦٦٨هـ.

وشهد المغرب والأندلس منذ وفاة الناصر فى شعبان سنة ٦١٠هـ فترة مشحونة بالاضطرابات العنيفة تولى خلالها الخلافة الموحدية خلفاء ضعاف كثر الخارجون عليهم فى أنحاء البلاد، وأخذ رؤساء الأندلس بعد أن التاث أمر الموحدين ينتزون بنواحى الأندلس[(٣)] على النحو الذى أعقب انهيار الخلافة الأموية بقرطبة.

ثم كانت ثورة العادل فى مرسيه وخروجه على الخليفة أبى محمد عبد الواحد ودعوته بالخلافة لنفسه ثم تلقبه بالعادل سابقة خطيرة فى تاريخ دولة الموحدين أفسحت المجال لحركات مماثلة كحركة أبى العلاء إدريس الملقب بالمأمون فى أشبيلية خروجًا على أخيه العادل ـ الذى قتل فى سنة ٦٢٤هـ/ ١١٢٧م ـ فى نفس الوقت الذى بويع فيه أبو زكريا المعتصم بخلافة الموحدين فى المغرب، وحركة أبى محمد عبد الله البياسى صاحب جيان أحد أحفاد يوسف بن عبد المؤمن فى بياسة ودعوته لنفسه وتلقبه بالظافر وتمكنه من بسط سلطانه على بياسة وقرطبة وجيان وأبده وقيجاطة [(٤)]، وكان لهذه الحركات الثورية الهدامة أعظم الأثر فى تصدع أركان دولة

---

(١) ظل بنو غانية يناوؤن سلطان الموحدين فى أفريقية وطرابلس إلى أن توفى يحيى بن إسحاق بن غانية فى بلاد الزاب سنة ٦٣١هـ على مقربة من مليانة؛ راجع التفاصيل فى : المغرب الكبير ، جـ٢، ص ٨١٨.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٧٠.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٨٣٠.

(٤) محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس، القسم الثانى، عصر الموحدين، ص ٣٥٤.

الموحدين وهو تصدع يسبق مرحلة الانهيار بالإضافة إلى اهتزاز نفوذ ولاة الموحدين فى الأندلس، مما ترتب عليه احتدام الحركات السياسية المناهضة للموحدين والتى تستهدف قبل كل شيء تحرير الأندلس من سيطرة الموحدين والاعتماد على المقومات الذاتية للأندلس فى مواجهة العواطف والأنواء السياسية المترتبة على عدوان الممالك المسيحية فى شبه الجزيرة على ما تبقى من دولة الإسلام فى الأندلس.

ومع أن هذه الحركات السياسية التى انبعثت فى الأندلس فى الأيام الأخيرة لدولة الموحدين اتسمت بالطابع الشخصى [١]، إلا أنها كانت فى جوهرها حركات قومية شعبية كانت تعتمل فى نفوس أهل الأندلس وقدر لها أن تظهر عندما لمست من تقاعس سادات الموحدين عن الدفاع عن الأندلس ودرء الخطر المسيحى عنه فى أعقاب هزيمة العقاب بالإضافة إلى جنوحهم إلى شراء موادعة الممالك المسيحية فى أسبانيا بمعاهدات تنازلوا لهم فيها عن كثير من الثغور والقلاع الإسلامية، إما تجنباً لمزيد من الهزائم[٢] أو تحقيقاً لأطماعهم الشخصية التى تستهدف الاستئثار بالسلطان.

ب ـ انتزاء ابن هود فى مرسيه:

حمل لواء الثورة فى شرق الأندلس رجل من سلالة بنى هود ملوك سرقسطة أيام الطوائف[٣]، هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم ابن أحمد بن سليمان المستعين بن محمد بن هود الذى يعدونه من أصناف الجند بمرسيه[٤] ويعرف فى المصادر الأسبانية بثافادولا Zafadola أى سيف الدولة.

وترجع شهرة ابن هود العسكرية إلى ما بعد وقيعة العقاب عندما تمكن بفضل قدراته العسكرية ودهائه من الاستيلاء على حصن مانع يتحكم فى الطرق المؤدية إلى الأندلس بأقل جهد ويروى صاحب الروض المعطار [٥]، قصة ظفره بهذا الحصن

---

(١) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٣٨٩.

(٢) انتهز القشتاليون والأرغونيون فرصة قيام الحرب الأهلية بين المسلمين فى الأندلس واستولوا على بعض قواعد الأندلس الهامة ، فكان القشتاليون قد سيطروا على القسم الأعلى من الأندلس حتى أندوجر منذ بداية الفتنة حتى سنة ٦٣٣هـ بينما أتم الليونيون فتح إقليم استرامادورة، فلما اتحدت مملكتا قشتالة وليون تحت تاج واحد فى ظل الملك فرناندو الثالث الملقب بالقديس تجددت قواها وتمكنت من السيطرة على بياسة وأبدة سنة ٦٣٣هـ وعلى قرطبة سنة ٦٣٦هـ؛ راجع : السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٨٣١.

(٣) ابن خلدون، العبر، جـ٤، ص ٣٦١-٣٦٢؛ وراجع أيضاً: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٥٦.

(٥) الحميرى، الروض المعطار، ص ١١٦ من النص العربى، ص ١٤٢ من الترجمة الفرنسية، وحصن شنفيرة، يقع على أربع مراحل شرق مرسيه؛ راجع: نفس المصدر والصفحة، ويرجح الأستاذ أويثى ميراندا أن حصن شنفيره هو المكان المعروف San Pedro del Pintar ، راجع:
Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 239.

المعروف باسم حصن شنفيره Sanfira المشهور بالمنعة في سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، بمعاونة خمسمائة من أجناد مرسيه، فيذكرو أن أبا سعيد بن الشيخ أبي حفص الهنتاتي، كان في جولة تفتيشية على حصون الأندلس، أثناء الهدنة التي عقدت بين الموحدين والقشتاليين، «فنظر إلى حصن شنفيره وهو بارز إلى السماء مع وثاقة بنائة فأعجبه، وقال: «كيف أخذ الروم هذا الحصن من المسلمين؟، فقيل: غدروا به في زمان الصلح، فقال: أما في أجناد المسلمين من يجازيهم بفعلهم ؟ فسمعه ابن هود فأسرها في نفسه، إلى أن تمت له الحيلة فطلع في سلم من حبال فذبح السامر الذي يحرس بالليل، ولم يزل يطلع رجاله واحداً واحداً إلى أن حصلوا بجملتهم في الحصن، وفرّ الروم الذين خلصوا من القتل إلى برج مانع، فقال ابن هود: إن أصبح هؤلاء في هذا البرج جاءهم المدد من كل مكان ! فالرأى أن تعلق النيران في بابه ! فلما رأوا الدخان، وأبصروا اشتعال النار طلبوا الصلح أن يخرجوا بأنفسهم، فكان ذلك واستولى المسلمون على الحصن » [١]. كان ذلك الحادث هو السبب فيما أصابه محمد بن يوسف بن هود من شهرة في شرق الأندلس رفعته إلى عداد أعظم الفرسان وأشجعهم.

ويأتي ابن عذاري برواية أخرى [٢] تتضمن أن أحد المنجمين تنبأ له بالسلطنة، ومجمل هذه الرواية أن منجماً تنبأ لمحمد بن يوسف بن هود بأنه سيكون سلطاناً على الأندلس، ونصحه بالتوجه إلى المقدم الغشتي وأعوانه [٣]، فلما وصل إليه وقص عليه ما تنبأ له المنجم به سر الفتي بذلك سرورً عظيماً، واشترك معه في الإغارة على بعض أراضي النصارى، فاكتسحوا ما فيها من البقر والأسرى، فكثر بذلك جمعته «من القطاع وذعار الشعارى والضياع» [٤]، وزادت قوته، ونهض في أعوانه إلى موضع يعرف بالصخيرات [٥]، وهنالك بايعه أنصاره بالإمارة سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م [٦]، وذاع أمره وكثر أتباعه والتمس فيه أهل الأندلس بطلا للتحرير ومنقذاً لدولة الإسلام في الأندلس وسارع إلى الانضمام إليه كثير من الفرسان والجند ولقد ساعد اضطراب الأحوال في المغرب وتجرؤ البعض على خلع المستنصر وقتل العادل، وما نشب من

---

(١) الحميري، المصدر السابق، ص ١١٦.

(٢) ابن عذاري، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٣) كان الغشتي، ويعرف في المدونات الإيطالية باسم Agostino، زعيماً لجماعة من المغاوير أو الصعاليك الذين يقاتلون النصارى أو يقطعون الطرق أحياناً على المسلمين.

(٤) الحميري، المصدر السابق، ص ١١٨.

(٥) هو حصن صغير يقع على نهر شقورة على مقربة من مرسية فيه دعا محمد بن هود لنفسه سنة ٦٢٥هـ.

(٦) خطب فيهم ابن هود فقال: «أنا صاحب الزمان وأنا الذي أرد الخطبة عباسية»، راجع : الحميري، المصدر السابق، ص ١١٨.

تصارع على الخلافة آنذاك، على إذكاء الحماس بين فرسان الأندلس وأنجاد رجالها، وبعث فيهم روح الأمل لتخليص الأندلس من الفتنة التي واكبت انهيار دولة الموحدين وتسببت في سقوط كثير من قواعد الأندلس في أيدى القشتاليين والأرغونيين والبرتغاليين، فسارعوا إلى الانضمام لابن هود، «خفافًا وثقالا فرسانًا ورجالا لعلمهم بما وقع بين الموحدين وأمرائهم من خلعهم لمخلوعهم وقتلهم لعادلهم الذى كان والى مرسيه» [1].

وكان يتولى مرسيه آنذاك السيد أبو العباس بن أبى موسى بن عبد المؤمن الذى أسند إليه العادل ولايتها عقب مبايعته بالخلافة، وكان من أثر الصراع الدائم فى المغرب والأندلس حول الفوز بالخلافة إضعاف هيبة سادات الموحدين فى مختلف قواعد الأندلس من جهة، وتحرج وضع الحاميات الموحدية فى هذه الولايات، مما هيأ لابن هود عندما أحس بكثرة جمعه وتزايد قوته إلى إزالة النفوذ الموحدى فى معظم ما تبقى من أسبانيا الإسلامية، فأقدم على مهاجمة مرسيه وعندما تصدى له واليها السيد أبو العباس منى بهزيمة نكراء ووقع فى قبضته [2].

وفى رواية لصاحب «الروض المعطار» تفيد بأن ابن هود لم يدخل المدينة غازيًا ولم يشتبك فى معركة مع السيد أبى العباس والى مرسيه، ولكنه دخلها بخدعة رتبها قاضى مرسيه أبو الحسن القسطلى، الذى أوهم واليها السيد أبا العباس الملقب بأبى الأمان أن ابن هود سوف ينضوى تحت لوائه وأنه ينوى إزالة الفساد عن هذه البلاد، فابتهج السيد وأنفذ إليه بالمبادرة، فلما دخل عليه ابن هود وأعوانه فى السلاح قبضوا عليه ثم حبسوه [3]، وأجلسوا ابن هود مكانه.

وأيًا ما كان الأمر، فإن والى بلنسيه السيد أبو زيد عندما علم بأمر ابن هود خرج إليه فى قواته فأوقع ابن هود به الهزيمة، واستولى على محلته، ثم عاد إلى مرسيه ودخلها فى جمعه وهو يرفع راية سوداء عباسية [4]، وأسند ولايتها إلى عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب [5].

---

(1) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٥٧.

(2) نفس المصدر والقسم، ص ٢٥٧؛ وراجع أيضًا: ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٢.

(3) الحميرى، المصدر السابق، ص ١١٨-١١٩، وهو القاضى على بن محمد بن أبى العافية اللخمى المرسى أبو الحسن القسطلى، ولى قضاء مرسية وبلنسية وشاطبة وكان جزلا مهيبًا، وكان بالرواية أشبه منه بالقضاء والفقهاء وأضر بآخره، وعلى ذلك كان يتولى الأعمال ويتعسف الطرق وأثار فتنة قرب هلاكه، فقتل بمرسيه فى جمادى الأولى سنة ٦٢٦هـ؛ راجع: ابن الآبار، التكملة، جـ٢، ص ٦٨٠، ترجمة ١٨٩٩.

(4) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٢.

(5) السيد عبد العزيز سالم، مدينة مرسية موطن أبى العباس المرسى، ص ١٧.

بويع لابن هود بمرسيه غرة شهر رمضان المعظم سنة ٦٢٥هـ/أغسطس ١٢٢٨م، والأندلس يجتاز آنئذ مرحلة خطيرة من تاريخه، فالحرب الأهلية تشتد احتداماً، والنوائب والفتن الداخلية تطحنها طحناً، وتمزقها إرباً، وحركة التوسع المسيحي تزداد تقدماً في قلب الأندلس، ثم تسمى بأمير المسلمين ومعز الدين وتلقب بالمتوكل على الله، ودعا للخليفة العباسي المستنصر في أول جمعة له في مرسيه، وبعث إليه بكتبه، فجاوبه بالخلع والمراسيم وسماه مجاهد الدين سيف أمير المؤمنين، عبد الله المتوكل عليه أمير المسلمين، وهكذا كان يكتب عن ابن هود في أوائل كتبه علامة «توكلت على الله الواحد القهار»[1].

ولما وصلت أخبار الثائر ابن هود إلى السيد أبي العلا بأشبيلية وهو على وشك الرحيل إلى المغرب، ووقف على خبر هزيمة الموحدين بشرق الأندلس وضياع مرسيه، وصريخ السيد أبي زيد والي بلنسية في طلب النجدة، عدل عن ركوب البحر إلى مراكش مؤثراً التوجه إلى شرق الأندلس للقضاء على ثورة ابن هود [2]، ثم إنه غادر أشبيلية في قواته نحو مرسيه، وهناك التقى مع ابن هود في معركة على مقربة منها هزم فيها ابن هود أشنع هزيمة، وارتد على أثرها إلى مرسيه وتحصن داخل أسوارها وأقام محاصراً لابن هود إلى أن رحل في السنة التالية ٦٢٦هـ [3].

وهناك رواية أخرى لابن الخطيب تسلط مزيداً من الأضواء على تحرك المأمون لمنازلة ابن هود جاء فيها أن المأمون تحرك في جيش أشبيلية باستدعاء السيد أبي زيد والي بلنسيه، فتحرك المأمون إليه، ووصل غرناطة في رمضان عام ٦٢٥هـ، ومنها بعث بكتبه إلى أخيه يشجعه ويعلمه بقدومه إليه، وانضم إليه جيش غرناطة وما والاها، وواصل سيره تجاه الشرق، فبرز ابن هود إلى لقائه، فكان اللقاء بخارج لورقة Lorca فانهزم ابن هود وفر إلى مرسيه، وعساكر الموحدين في عقبه [4].

ورواية ابن خلدون اختصار لرواية ابن الخطيب ومضمونها أن المأمون هزم ابن هود واتبعه إلى مرسيه فحاصره مدة وامتنعت عليه فأقلع عنها [5].

---

(١) ابن عذاري، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٥٧-٢٥٨؛ راجع أيضاً: المراكشي، المعجب، ص٣٣٥.

(٢) تمثل المأمون قول الشاعر:

إن الطبيب إذا تعارض عنده ∴ مرضان مختلفان داوى الأخطرا

في: الحميري، المصدر السابق، ص ١١٩.

(٣) الحميري، نفس المصدر، ص ١٢٠.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص ٤١٥؛ وراجع أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., p. 271.

(٥) ابن خلدون ، العبر، جـ٤، ص ٣٦٢.

والواقع أن المصادر التي بين أيدينا لم تزودنا بأخبار وتفاصيل كافية لتبرير سبب تراجع المأمون عن حصار مرسيه مع أنه تغلب على ابن هود، فليس من المعقول أن يعزى ذلك إلى نقص في الجند، لأنه استعان بالإضافة إلى جيش أشبيلية بجيش غرناطة، كذلك لا يعقل أن يعزى إلى قوة دفاع حامية مرسيه، ولكننا نعتقد أن الأوضاع في الحاضرة الموحدية بمراكش منذ قيام يحيى الناصر الملقب بالمعتصم وتقلده الخلافة بها، كانت من أقوى الأسباب التي جعلت المأمون يقرر رفع الحصار عن مرسيه والعودة فجأة إلى أشبيلية ليعبر منها إلى أرض المغرب.

جـ ـ امتداد سيطرة ابن هود على قواعد الأندلس الوسطى الجنوبية:

كان انسحاب المأمون من مرسيه قبل القضاء على حركة ابن هود من أقوى الأسباب في في تألق نجم ابن هود وامتداد سلطانه على أغلب قواعد الأندلس، إذ سرعان ما قوى أمره، وذاع ذكره، فبسط سيطرته على شاطبة ودانية وجزيرة شقر، وأعلنت غرناطة وجيان ومالقة وقرطبة وماردة وبطليوس دخولها في طاعته كما اعترف ابن الرميمى بطاعته في المريه [1]. بل أن أشبيلية التي كانت بالفعل حاضرة الموحدين في الأندلس لم تلبث هي الأخرى أن حذت حذو هذه المدن، فلم يكد المأمون يغادرها مبحراً إلى العدوة حتى اجتمع أهلها في اليوم الثاني من عيد الأضحى سنة ٦٢٦هـ/٣١ أكتوبر ١٢٢٩م بموضع يعرف بالنخيل، وأعلنوا خلع طاعة الدولة الموحدية، والاعتراف بطاعة ابن هود في ظل الخلافة العباسية، وكتب عنهم أبو بكر ابن البناء إلى ابن هود كتاباً يعلمه بذلك، وأجابهم باسم ابن هود أخوه أبو بكر الحسن عضد الدولة بتاريخ ١٧ من ذى الحجة سنة ٦٢٦هـ/٦ نوفمبر ١٢٢٩م، مهنئاً على اجتماعهم على الطاعة ودخولهم في حزب الجماعة، وعلى قيامهم بالدعوة العباسية فأرسل ابن هود إليهم والياً من قبله هو أخوه أبو النجاة سالم عماد الدولة[2]، كما قلد الغشتى قائداً للأساطيل بها والنظر في أحوالها[3].

وقد امتدت سيطرة ابن هود على حضرة أشبيلية زهاء ثلاث سنوات إلى أن نكث أهل أشبيلية ببيعتهم له وأخرجوا منها عماد الدولة ونادوا بزعيم أشبيلى هو القاضى أبو مروان أحمد بن محمد الباجى سنة ٦٢٩هـ[4].

---

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٦٩؛ المراكشى، المصدر السابق؛ ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٨٢؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٣.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٧٠، ص ٢٧٩؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص٣٦٣.

(٣) ابن عذارى، نفس المصدر والقسم، ص٢٥٧.

(٤) نفس المصدر والقسم، ص ٢٧٨.

د ـ صدى ثورة ابن هود على الأوضاع في بلنسية :

كانت ولاية بلنسية قد أسندت منذ سنة ٦٢٠هـ إلى السيد أبى زيد عبد الرحمن بن أبى عبد الله محمد بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن[١]، ولما تمكن ابن هود من الاستيلاء على مرسيه، خرج السيد أبو زيد فى قواته لمحاربته ولكنه انهزم وارتد إلى بلنسية، ومنها بعث يستصرخ أبا العلاء المأمون لنجدته، ولكن هذا الأخير لم يستطع أن ينجده على الرغم من وعده بالذهاب لمساعدته، ووجوده على مقربة من مرسيه، إذ اضطر إلى العودة سريعاً إلى أشبيلية والجواز إلى العدوة لمواجهة خصمه القوى يحيى بن الناصر الملقب بالمعتصم فى الحاضرة مراكش. ولهذا اضطر السيد أبو زيد إلى الاعتماد على نفسه فى عاصمته بلنسية.

وسرعان ما سرت الانتفاضة العارمة ضد الموحدين فى الأندلس إلى بلنسية، قادها واحد من أبرز رؤسائها، هو أبو جميل زيان بن أبى الحملات مدافع بن أبى الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش من أعقاب أسرة بنى مردنيش التى استقر أعقابها بعد وفاة محمد بن سعد فى بلنسية، وكان إلى جانب أبو جميل زيان ببلنسية وأحوازها عشرة من رؤساء بيته من الأخوة أو أبناء العمومة تقلدوا الرياسة فى شرق الأندلس فى أخريات الدولة الموحدية [٢]، فلما هبت ريح الثورة فى الأندلس على الموحدين والنصارى فى آن واحد خاض الفتنة مع الخائضين[٣]، وكان أبو جميل، عميد هذه الأسرة المردنيشية ـ يشغل فى ولاية أبى زيد منصباً رفيعاً ـ إذ كان كبير بطانته وصاحب أمره [٤]، فلما انهزم السيد أبو زيد على يد ابن هود وتحصن فى بلنسية بعد أن تقاعس المأمون عن نجدته اضطرمت الثورة فى نفوس أهل بلنسية والتفوا حول الرئيس أبى زيان بن مردنيش، ونادوا برياسته، فوقعت الوحشة بينه وبين السيد أبى زيد واضطر إلى الخروج من بلنسية وامتنع بحصن أنده Onda الذى لا يبعد كثيراً عن بلنسيه، واشتد هياج جماهير بلنسية بعد خروج رئيسهم عنها كما اشتد سخطهم على واليهم الموحدى، فخاف السيد أبو زيد على نفسه وآثر أن يرحل منها هو وأهله وولده، ولما ألفى سلطان الموحدين ينهار أمام عينيه لم يجد بداً من اللجوء إلى جاقمة ملك أرغون، فقصده هو وكاتبه أبى عبد الله محمد ابن أبى بكر القضاعى المعروف بابن

---

(١) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٣٦٠.

(٢) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٣٩٤.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، ص ٢٧٢ ؛ وراجع أيضاً : ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤ ، ص ٣٦٠؛ محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٣٩٤.

الآبار فى ٢٦ صفر سنة ٦٢٦هـ واعتصم بحصن شبرب Segarbe [١] فى نفس اليوم الذى دخل فيه الرئيس أبو جميل زيان بلنسية [٢]، ويذكر ابن عذارى أن السيد أبا زيد دخل فى دين النصارى[٣]، ويذكر أبارس Ibars أنه تنصر واختار اسماً نصرانياً هو بجنت Vicente وأنه تزوج من مسيحية [٤]. أما أبو جميل زيان بن مردنيش فقد توجه إلى بلنسية فدخلها يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٦٢٦هـ/ يناير ١٢٢٩م، وأقام بالقصر، وأخذ البيعة لنفسه فى أول ربيع الأول من السنة المؤرخة، وأمر بالخطبة للخليفة العباسى المستنصر، وبايعته مدينة دانية، واستولى فى رجب من السنة المؤرخة على قربنيره، كما بايعته جنجاله فامتد ملكه وعظمت سطوته[٥]. ومع ذلك فإن معظم نواحى إقليم بلنسيه لم تعترف بسيادة زيان، إذ خرج عليه الرئيسان أبو زكريا وأبو عبد الله ابنا الرئيس أبى سلطان عزيز بن أبى الحجاج بن سعد أبناء عمومته، الرئيسان فى شاطبة وجزيرة شقر ودخلا فى طاعة ابن هود[٦].

هـ ـ موقف ابن هود من انتزاء أبى جميل زيان ببلنسية :

لم يرض ابن هود بظهور منافس جديد له على الزعامة فى الأندلس، لا سيما أن هذا المنافس الجديد ينتمى إلى أسرة عريقة لها فى نفوس أهل شرق الأندلس ذكريات حبيبة، وحظيت بتأييد عامة أهل بلنسية ونواحيها، فحاول ابن هود تجنب الصدام الوشيك بينه وبين الرئيس أبى جميل زيان صاحب بلنسيه، فبعث يدعوه إلى الدخول فى طاعته وأن يحذو حذو أبناء عمومته فى دانية وجزيرة شقر بهدف توحيد الصف وتدارك الآثار البعيدة المترتبة على هذه الفتنة المبيرة التى تعرض الإسلام فى الأندلس إلى خطر مختوم، كذلك وجه الفقيه أبو بكر عزيز بن خطاب، عميد علماء مرسية، رسالة إلى صنوة الخطيب أبى عبد الله بن قاسم ببلنسية يحثه فيها على مخاطبة الرئيس أبا جميل زيان للدخول فى طاعة أمير المسلمين ابن هود، تفادياً لوقوع عواقب خطيرة [٧].

---

(1) Gaspar Remiro, op.cit., p. 276; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 230.
محمد عبد الله عنان، نفس المرجع، ص ٣٩٥.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٧٢.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٧٠.

(4) Ibars, op.cit., pp. 622-625.

(٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٧٢.

(٦) ابن الخطيب، الإحاطة، المجلد الثانى، ص ٢٨٠ ؛ وراجع أيضاً: ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٣؛
Gaspar Remiro, op.cit., p. 276.

(٧) انظر نص الرسالة، ملحق رقم (١)، مأخوذة من كتاب «زواهر الفكر وجواهر الفقر» لمحمد بن على ابن عبد الرحمن المكنى بابن المرابط، مخطوط الأسكوريال رقم ٥١٨ الغزيرى (ديرنبور ٥٢٠)، لوحات ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠؛ وانظر أيضاً: محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص٣٩٥.

ولكن أبا جميل زيان لم يستجب لدعوة ابن هود فيدخل فى طاعته، الأمر الذى حمل ابن هود على أن يزحف فى قواته إلى بلنسيه لإخضاعها لسلطانه فخرج الرئيس أبو جميل زيان لملاقاته خارجها، فوقعت عليه الهزيمة، واضطر إلى الانسحاب إلى بلنسية والتحصن بداخل أسوارها، فتبعه ابن هود فى قواته حتى أسوار بلنسية، وضرب عليها الحصار (١).

وفى هذه الأثناء كان أعداء الإسلام فى أسبانيا يفغرون أفواههم لالتهام ما بقى من ملك المسلمين فى شبه الجزيرة، وكانت أوضاع المسلمين فى هذه البلاد قد ساءت إلى حد أتاح الفرصة أمام قوى أسبانيا المسيحية للانقضاض فى يسر على أشلاء الأندلس التى طحنتها الفتن ومزقتها الثورات، فاستأثر ملك أرغون جاقمة بشرق الأندلس، أما ألفونسو التاسع ملك ليون فبعد أن تمكن من قاصرش فى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٧م أخذ يوجه نظره للاستيلاء على بقية مدن الغرب مستغلا فرصة اشتغال الخليفة المأمون بالصراع مع منافسه فى المغرب فى التفرغ للدفاع عن دولته فى الأندلس، وانبعاث الفتنة الثانية الطاحنة داخل أسبانيا الإسلامية ونشوب الحرب الأهلية بين ابن هود والرئيس أبى جميل زيان لتحقيق أعز أمانيه وهى السيطرة على كل منطقة الغرب بقواعدها الرئيسية بطليوس وماردة ثم أشبيلية، ففى أواخر سنة ١٢٢٩م/٦٢٧هـ، سار جنوباً فى اتجاه نهر وادى يانه، واستولت إحدى فرقه إخوان شنت ياقب Los Freires de Santiago على حصن منتانجش، Montanchez الواقع إلى الشمال من ماردة، ثم زحف بقواته بعد ذلك صوب ماردة Mérida وأحكم حولها الحصار، وفى هذه الأثناء كان ابن هود قائماً على حصار بلنسيه فلما بلغه نبأ تضييق ألفونسو الحصار حول ماردة أسرع فى حشد قواته، وتوجه لإنقاذ ماردة، ونشبت بين قواته وقوات ألفونسو معركة عنيفة عند حصن الحنش Alanje انتهت بهزيمة ابن هود وانسحابه إلى أشبيليه وعندئذ دخلت قوات ألفونسو مدينة ماردة (٢). وعلى الرغم من امتداح المصادر العربية لموقف ابن هود فى مبادرته لإنقاذ ماردة من حصار الليونيين، إلا أن ابن عذارى يوجه إليه مسئولية سقوطها، فيشير إلى أن ابن هود، اندفع فى ساقته فى مصاف قوات العدو، ففقدت باقى قواته أثره، فولوا منهزمين، ويعلل ابن عذارى هذا التصرف من ابن هود بأنه كان من طبعه «ملولا عجولا» (٣).

(١) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٣.

(2) Huici Miranda, Historia political , t. II, p. 478.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٧٠؛ وراجع أيضاً: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ٢٨٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٣؛
Gaspar Remiro, op.cit., p. 277; Huici Miranda; Valencia Musulmana, t. III, pp. 243-244.

وبعد أن استولى الليونيون على ماردة قصدوا بطليوس فلم تلبث أن سقطت بدورها في منتصف عام ٦٢٧هـ/مايو ١٢٣٠[١].

٢ ـ فشل ابن هود في مواجهة المد القشتالى والأرغونى

أ ـ ظهور محمد بن يوسف بن نصر منافساً لابن هود:

كان لبزوغ نجم سيف الدولة بن هود في الأندلس، والنجاح السريع الذى حققه بعد جواز المأمون إلى أرض المغرب، وسيطرته على أغلب قواعد الأندلس باستثناء بلنسيه التى انتزى بها الرئيس أبو جميل زيان بن مردنيش أعظم الأثر فى انعاش آمال أهل الأندلس لإنقاذ ما بقى من دولة الإسلام فى أسبانيا، ولكن إخفاق ابن هود فى ضم بلنسيه، وفشله فى استنقاذ مارده وبطليوس، وتركه قرطبة قاعدة الأندلس، كل ذلك أفقده شعبيته التى كانت سر شهرته وأفسح المجال لظهور زعيم أندلسى جديد وضع فيه أهل الأندلس مناط أملهم بعد أن خيبه ابن هود، ذلك هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس من أسرة بنى الأحمر المعروفين ببنى نصر سادة حصن أرجونة من أعمال جيان، ويرتفع نسب محمد بن يوسف بن نصر إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، وأصل هذه الأسرة من حصن أرجونة Arjona الواقع ما بين جيان وقرطبة، وكان محمد بن يوسف بن نصر بطلا شجاعاً وفارساً مقداماً فى المعارك والحروب دعا لنفسه بادئ ذى بدء فى أرجونه موطن أسرته وما والاها من نواحى فى سنة ٦٢٩هـ، واستند فى دعوته على الدعاء للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب أفريقية وقد تلقى منه بعض العون، ولكنه عاد فدعا للخليفة العباسى، المستنصر بالله[٢].

وفى العالم التالى ٦٣٠هـ دخل محمد بن نصر مدينة جيان Jaén وبويع له

(1) Gaspar Remiro, Ibid, p. 277.

(٢) راجع: ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٧٩؛ ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٨٢؛ ابن سعيد المغربى، المغرب فى حلي المغرب، جـ٢، ص ١٠٨؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ٩٢-٩٥، ص٩٧؛ وله أيضاً: اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية، تحقيق الأستاذ محب الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٤٧هـ، ص ٢١؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٦؛ السلاوى، الاستقصا، جـ٢، ص ٢١١؛ أحمد مختار العبادى، دراسات، ص ٢٢٦-٢٢٧.

فيها، وذلك بمعاونة أبى مروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد أحد رؤساء جيان[١]، كما بايعته مدينة شريش Jerez[٢]، ولم تلبث أن أطاعته كل من قرطبة وقرمونة اللتين نبذتا دعوة ابن هود[٣].

ثم تطلع محمد بن نصر إلى مد نفوذه على أشبيلية فتصاهر مع قاضيها أبى مروان أحمد بن محمد الباجى على ابنته، وتحالف معه على نبذ الطاعة لابن هود، ولم يلبث الباجى أن ثار على ابن هود وأخرج واليها عماد الدولة أبا النجا سالم منها فى عام ٦٢٩هـ، وبقى أمرهم شورى بينهم يرجعون فيه لأمر قاضيهم أبى مروان أحمد بن محمد الباجى الذى رفض فى البداية بيعة أهل أشبيلية إلى أن وصلته بيعة قرمونة فى السنة التالية فقبلها [٤].

ويستفاد من رواية ابن الخطيب أن ابن الأحمر انتهز فرصة قيام أهل أشبيلية على ابن هود وطردهم لأخيه عماد الدولة أبى النجا الوالى عليهم، فقدم إلى أشبيلية ونازلها وتملكها وكان ذلك فى أخريات ربيع الأول عام ٦٢٩هـ[٥]، وإن كان صاحب «روض القرطاس» يرجع ذلك إلى أوائل سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م [٦] ودامت سيطرة ابن الأحمر عليها نحو شهر [٧]. ثم تطلع إلى الغدر بصهره الباجى فثار عليه أهل أشبيلية وعاودوا الدعاء لابن هود وكان قد استولى على قرطبة فى شهر رجب عام ٦٢٩هـ [٨]، ويبدو أن سيطرته عليها لم تدم إلا قليلا إذ سرعان ما انضوت مرة أخرى تحت طاعة ابن هود على نحو ما حدث فى أشبيلية، غير أن صاحب «الروض القرطاس» يذكر فى أحداث عام ٦٣٠هـ أن قرطبة رجعت إلى طاعة محمد بن الأحمر [٩].

---

(١) ابن عذارى، نفس المصدر والقسم، ص ٢٧٩؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ٩٦؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٦.

(٢) ابن عذارى، نفس المصدر والقسم، ص ٢٧٩؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٦.

(٣) ابن عذارى، نفس المصدر والقسم، ص ٢٧٩؛ السلاوى، الاستقصا، جـ٢، ص ٢١١؛ وراجع أيضاً:
Gaspar Remiro, op.cit, p. 280; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 246.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٧٩؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٧، ويذكر المقرى أنه لما قام الباجى بأشبيلية وخلع طاعة ابن هود، وأبدل شعاره الأسود العباسى فى البنود قال أبو محمد عبد الحق الزهرى القرطبى فى ذلك:

كأنما الراية السوداء قد تعبت ∴ لهم غرابا بين الأهل والولد
مات الهوى تحتها من فرط روعته ∴ فأظهر الدهر منها بسمة الكمد

انظر : نفح الطيب، جـ٤، ص ٢٩٢.

(٥) الإحاطة، ج٢، ص ٩٤.

(٦) روض القرطاس، ص ١٨٣.

(٧) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ٩٤.

(٨) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٩) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ١٨٣.

ثم رأى ابن الأحمر أن عداءه لابن هود يبعثر قوى الإسلام ويدعم قوى النصرانية وغلب عليه إحساسه الديني، ولم يأنف أن يضع يده في يد خصمه لصالح الإسلام، ولعله كان يهدف من ذلك أن يكسب دعماً أدبياً في نظر أهل الأندلس لاسيما بعد أن وصل العهد الخلافي من بغداد لابن هود، الذي اعتبره دعماً سياسياً له في الأندلس، وهكذا جنح ابن الأحمر إلى الصلح على أن يعترف بطاعة ابن هود مقابل أن يقره هذا على جيان وأرجونة وأحوازها وبركونة وتم عقد الصلح بينهما في شوال سنة ٦٣١هـ/يونية ١٢٣٤م[(١)].

ب ـ سقوط جزيرة ميورقة:

ظلت جزيرة ميورقة منذ أن انتزعها الموحدون من أيدى بني غانية سنة ٦٠٠هـ تابعة للخلافة الموحدية، وكانت تتبع من الناحية الإدارية ولاية بلنسية ولهذا فقد تعاقب عليها ولاة الموحدين، ونعتقد أن والي ميورقة أصبح منذ أن انفرد أبي جميل زيان بحكم بلنسية يتبع مباشرة الخلافة الموحدية، وكان يلي ميورقة في الوقت الذي احتدمت فيه الفتنة أبو يحيى بن يحيى بن أبي عمران التينمللي[(٢)]، وهو في الترتيب رابع ولاتها الموحدين منذ أن افتتحوها سنة ٦٠٠هـ، ولكن رواية ابن عميرة المخزومي في كتابه «تاريخ ميورقة» تشير إلى أن أمير الجزائر الشرقية في ذلك الوقت هو محمد بن علي بن موسى الذي وليها سنة ٦٠٦هـ[(٣)]، ويرجح الأستاذ محمد عبد الله عنان الرواية الأولى استناداً إلى أن الرواية النصرانية المعاصرة ومنها تاريخ الملك جاقمة نفسه تؤكد أن أبا يحيى كان يلي الجزيرة في هذا الوقت[(٤)].

حظى مشروع فتح الجزائر الشرقية (البليار) باهتمام كبير من جانب أقماط برشلونة ثم ملوك أرغون تأميناً لمواصلاتها وتجارتها، وجمهوريتي بيزة وجنوة وذلك للحد من غزوات ولاتها المسلمين في مياه السواحل النصرانية، وقد بارك الكرسي البابوى في روما هذه المحاولات، ففى سنة ١١٤٦م/٥٤١هـ منح رامون برنجير الرابع،

(١) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٨٣؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٤.

(٢) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ٥١٦؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨٥؛ السلاوى، الاستقصا، جـ٢، ص ١٩٥.

(٣) المقرى، نفح الطيب، جـ٦، ص ٢١٢، وهو أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومي، بلنسي شقوري الأصل يكنى أبا مطرف؛ راجع: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص١٧٣.

(٤) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٤٠٣؛ وفيما يتعلق بالرواية الأسبانية المعاصرة ارجع إلى:
The Chronicle of James I, King of Aragon surnamed the conqueror (Written by himself), translated from the catalan by the late john forster ESQ, Vol. I, London, 1883, p. 170; La Fucente (M): Historia General de Espana, t. IV, p. 77, No. 2.

المتحمس لفتح جزر البليار، جيرمو رامون دى مونكادا Guillerma Ramon de Mon-cada وخلفائه لقب سيد اقطاع، بالإضافة إلى جملة إيرادات فى قطالونية وبلنسية مع ثلث إيرادات مدينة ميورقة ونواحيها، مع تقديم نفس هذه الامتيازات بالنسبة لجزيرتى يابسة ومنورقة، ولكن دى مونكادا لم يقم بتنفيذ هذا المشروع الهام [١].

وفى العام التالى ١١٤٧م/٥٤٢هـ، اتفق رامون برنجير الرابع أيضاً مع الجنويين بموجب اتفاقات وشروط معينة على مساعدته بأسطولهم لفتح مدينة طرطوشة والجزائر الشرقية، لكنه فى النهاية قرر الاكتفاء بفتح مدينة طرطوشة مرجئاً مشروعه بالنسبة للجزائر الشرقية [٢].

وفى عام ١١٧٨م/٥٧٤هـ، عزم ألفونسو الثانى أيضاً على تحقيق مشروع فتح جزر البليار، وفى سبيل تحقيق هذا الهدف قدم عدة تسهيلات لبعض السفن الصقلية عن طريق أحد أقماطه ويدعى ألفونسو، والظاهر أن هذا المشروع تعرض لبعض العراقيل التى أرجأت تنفيذه إلى حين [٣].

وفى سنة ١٢٠٤م/٦٠١هـ أى بعد أن افتتح الموحدون الجزائر تجددت رغبة دول النصرانية فى انتزاع هذه الجزر من أيدى المسلمين وتحمس لذلك ملوك أرغون وعلى الأخص عزم الملك بدور الثانى الأرغونى الذى تم تتويجه فى روما على يد البابا Sumo Pontifice على تحقيق مشروع فتح جزر البليار، فاتفق مع جمهوريتى بيزة وجنوة على مساعدته فى تحقيقه ولكن هذا المشروع أيضاً لم يقدر له أن يوضع موضع التنفيذ، وربما يرجع ذلك إلى تراجع التجار الإيطاليين عن الوفاء بالتزامهم لارتباطهم الودى مع مسلمى ميورقة[٤].

وكانت خاتمة هذه المحاولات من نصيب ابنه جاقمة (خايمى الأول) وهى المحاولة التى تكللت بالنجاح وبانتهاء السيطرة الإسلامية نهائياً على جزيرة ميورقة، وساعده فى تحقيقها انهيار سلطان الموحدين فى الأندلس وتمزق وحدة البلاد.

ويستفاد من رواية المخزومى عن سبب غزو الأرغونيين لميورقة، أن والى الجزيرة بعث طريدة بحرية ومعها سفينة حربية إلى جزيرة يابسة لتأتى إليه بالأخشاب التى يحتاج إليها، فعلم بهذا الأمر والى طرطوشة النصرانى، فبعث بقوة بحرية استولت

---

(1) Alvaro Campaner y Fuertes, Bosquejo historico de la dominacion Islamita en los islas Balears, p. 176.

(2) Campaner y Fuertes, Ibid, p. 176.

(3) Ibid, p. 177.

(4) Ibid, p. 177.

عليها، فغضب الوالى لذلك، وعزم على غزو مياه بلاد الروم، وفى آخر شهر ذى الحجة ٦٢٣هـ/أوائل سبتمبر ١٢٢٥م، بلغه أن سفينة من برشلونة ظهرت فى مياه يابسة، وأخرى من طرطوشة انضمت إليها، فبعث الوالى ولده فى عدة قطع بحرية، فرسى فى مياه يابسة، ووجد فيها مركباً جنوياً كبيراً، فاستولى عليه وعلى السفينة البرشلونية، فلما وقف الروم على ما حدث، استشاطوا غضباً، وأهابوا بملكهم أن يقوم بغزو الجزيرة، وعرضوا عليه أن يتطوعوا بأنفسهم وأموالهم، فأخذ عليهم العهد بذلك، وجمع عشرين ألفاً من أهل البلاد، وجهز فى البحر ستة عشر ألفاً آخرين اشترط عليهم حمل السلاح وتم ذلك فى سنة ٦٢٦هـ [١].

وتذكر الرواية النصرانية أن الملك جاقمة أخذ يعد العدة منذ ٢٩ أبريل سنة ١٢٢٩م لحملته ضد ميورقة [٢]. وكان قد استدعى مجلس البلاط القطلانى فى برشلونة فى شهر ديسمبر سنة ١٢٢٨م/٦٢٥هـ، وعرض عليه مشروعه لفتح ميورقة، مستهدفاً من وراء ذلك تأمين تجارة قطلونية فى البحر المتوسط، فوافق المجلس على مشروعه، كما وافق على أن يقوم الملك بتحصيل ضريبة «الماشية القرنية» للمعاونة فى نفقات الحملة، وعندئذ بدأ الملك جاقمة فى حشد قواته التى أسهم بالاشتراك فيها كبار الرهبان بالإضافة إلى أكابر الأشراف القطلان، وفى مقدمتهم نونيو سانشيز قمط روسيون، وهوجو دى إمبرياس، والأخوان رامون وجيين دى مونكادا وكثير غيرهم فضلا عن عدد كبير من الفرسان والرماة والجند، وتعهد الملك من جانبه بتقسيم الأراضى المفتوحة، والغنائم المكتسبة بالعدل بين المساهمين فى هذه الحملة وفقاً لما قدموه من نفقات، واحتفظ الملك لنفسه بالقصور والسيادة العليا على الحصون والقلاع، وأقسم الجميع على ذلك، واتفقوا على عقد اجتماع تال فى طرطوشة بعد تأدية المهمة فى شهر أغسطس من العام التالى [٣].

وفى الخامس من شهر سبتمبر ١٢٢٩م/١٤ شوال سنة ٦٢٦هـ، خرج أسطول أرغونة وقوامه ١٥٥ سفينة من ميناء طركونة وكامبريلس يحمل ألفاً وخمسمائة من الفرسان وخمسة عشر ألفاً من المشاة دون احتساب الأعداد الهائلة من متطوعى جنوة وبروفانس، حتى وصل إلى خليج بلمه، وكان والى الجزيرة أبو يحيى قد علم بأمر هذه التجهيزات العسكرية الضخمة فاستعد لتلقيها وحشد لهذا الغرض ألف فارس ومثلهم من فرسان الرعية والحضر علاوة على ثمانية عشر ألفاً من المشاة،

---

(١) فى : المقرى، نفح الطيب، جـ٦، ص ٢١٢-٢١٣؛ محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص٤٠٣.

(2) Huici Miranda, op.cit., t. III. p. 230.

(٣) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٤٠٤.

واتفق فى هذه الآونة أنه اكتشف مؤامرة للإطاحة به، فأمر بالقبض على أربعة من أعيان الجزيرة، أمر بإعدامهم فى منتصف شوال، كما اعتقل نحو خمسين آخرين من أبرز أعيان الجزيرة، فهابه الناس وتوجسوا منه خيفة فى الوقت الذى أقبلت فيه سفن النصارى وظهرت منها فى مياه البحر مائة وخمسين سفينة، فبادر أبو يحيى بالصفح عن خصومه وأمر بالتجهيز لدفع النصارى [1].

ورغم وسائل الدفاع المحكمة التى اتخذها المسلمون فى الجزيرة، فقد استطاعت سفن القطلان الرسو ليلا بكل يسر فى خليج ميورقة، وفى الحال نزلت طلائع النصارى بقيادة برناردو دى ارخنتونا إلى أرض الجزيرة واشتبكوا مع المسلمين وتصدى لهم هؤلاء فى عنف واشتد القتال بين الفريقين يوم الاثنين ١٨ شوال [2]، وعلى الرغم من تفوق المسلمين على أعدائهم فقد ارتدوا مسرعين وامتنعوا داخل مدينتهم بعد أن كبدوا أعدائهم خسائر هائلة فى الأرواح، وعندئذ أحكم النصارى الحصار حول مدينة ميورقة، واستمروا فى ضربها بشدة بمختلف آلات الحصار، حتى تمكنوا فى النهاية من اقتحامها من باب الكحل[3] يوم الاثنين الموافق ١٣ صفر ٦٢٧هـ/٣١ ديسمبر ١٢٢٩م[4] والتحموا مع قوات المسلمين فى معركة ضارية، كانت لهم الغلبة فيها، وتمكنت قوات النصارى فى النهاية من السيطرة تماماً على المدينة بعد أن قتل من المسلمين أربعة وعشرون ألفاً وأسر الوالى وعذب، ومات بعد ذلك بخمسة وأربعين يوماً [5]. ويصف صاحب «روض القرطاس» سقوط ميورقة بأنه «الحادث الأعظم على ميورقة وأعادها الله للإسلام» [6].

والملاحظ أن الروايات المسيحية تبالغ فى عدد ضحايا المسلمين عقب المذبحة التالية للهجوم، وتفصح هذه الروايات دون مواربة عن عدد قتلى المسلمين فبعضها

---

(١) فى : المقرى، نفح الطيب، جـ٦، ص ٢١٣-٢١٤؛ وحسب Marsilio فإن عدد المراكب الكبيرة للنصارى كانت ١٥٥ دون حساب للمراكب الصغيرة؛ راجع :
Campaner y Fuertes, op.cit, p. 183, Nota I.

(٢) يبدو أن هذه المعركة التى يشير إليها المخزومى، هى معركة Santa Ponza التى وقعت يوم الأربعاء الموافق ١٢ سبتمبر ١٢٢٩؛ راجع:
Cuadrads (Jose M.), Historia de la conquista de Mallorca, Plama, 1850, p.231, Nota I.

(٣) باب الكحل، وهو المعروف فى كتاب التقسيم وفى المدونات المسيحية باسم Beb-Alcohol, Alcofol ، ويقع فى شمال مدينة ميورقة، والذى يطلق عليه اليوم -Puerta de la Rincona da راجع : Campaner y Fuetes, op.cit., p. 187.

(٤) ابن الآبار، التكملة ، ترجمة رقم ٤٠٠، ٦٣١؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ١٩١ .

(٥) المقرى، نفح الطيب، جـ٦، ص ٢١٤.

(٦) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ١٨٢.

يقدرهم بخمسين ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير، والبعض الآخر بعشرين ألف قتيل فقط[1]، ومهما يكن الأمر فإن العدد الذى ذكره المخزومى فى روايته وهو أربعة وعشرين ألفاً رغم ضخامته يتفق مع جسامة المعركة.

وهكذا انتهى فتح جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية، وتم استيلاء جاقمة (خايمى الأول) على عاصمتها، غير أن المخزومى يضيف فى روايته أن أبى حفص بن سيرى لما رأى أن العدو قد استولى على البلد خرج إلى الجبل وتبعه جماعة كبيرة، فصعده وتحصن به واجتمع له ستة عشر ألف مقاتل، واستعد للمقاومة حتى النهاية، واستمرت المعارك متصلة بينه وبين قوات جاقمة أكثر من عام، إلى أن قتل فى العاشر من ربيع الآخر سنة ٦٢٨هـ/١٣ فبراير ١٢٣١م، وتم استيلاء النصارى على الحصون فى آخر رجب من نفس العام، ويضيف أنه فى شهر شعبان نزل بقايا المسلمين المتحصنين بالجبل صلحاً وهاجروا إلى بلاد الإسلام [2].

جـ - سقوط جزيرة يابسة :

أصبح من الواضح بعد سقوط جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية فى أيدى جاقمة أن سقوط جزيرتى منورقة ويابسة قد بات وشيك الوقوع، سهل التحقيق، لكن جاقمة ملك أرغون كانت لديه خططه ومشاريعه فى بلنسية، فتخلى مؤقتاً عن مشروعه فى إخضاع الجزيرتين، واكتفى باعتراف منورقة بسيادة أرغون والتزامها بدفع جزية سنوية له، كما يشير صاحب «نفح الطيب» فى روايته : «ولما استولى النصارى على ميورقة فى التاريخ المتقدم، ثار بجزيرة منورقة وهى قريبة منها، الجواد العالم أبو عثمان سعيد بن حكم القرشى، وكان وليها من قبل الوالى أبو يحيى المقتول، وتصالح مع النصارى على ضريبة معلومة، واشترط أن لا يدخل جزيرته أحد من النصارى وضبطها أحسن ضبط» [3].

وأما جزيرة يابسة فتلزم الرواية الإسلامية الصمت تجاهها سواء عن وضعها بعد

---

(1) Campaner y fuertes, op.cit., p. 188 y Nota 2.

(٢) فى: المقرى ، المصدر السابق، جـ٦ ، ص ٢١٤ ؛ وراجع أيضاً: ابن عبد الملك المراكشى (أبى عبد الله محمد) ، كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة، السفر الأول، القسم الأول، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة ، بيروت، ص ٣٤٥ ، ترجمة رقم ٤٣٦ لأحمد بن على الأنصارى، ميورقى أبو العباس، ويقول أنه لما تغلب الروم على ميورقة عنوة كان ممن انضوى إلى جبلها، فلما نزل الناس منه صلحاً فى شعبان ٦٢٨هـ نفذ إلى بجاية، ويضع ابن الآبار سقوط ميورقة يوم الاثنين الرابع عشر من صفر سنة ٦٢٧هـ؛ راجع : التكملة ، السفر الثانى، ص ٣٣٥ ، ترجمة رقم ٩٨٣ ، لمحمد بن أحمد بن عبد الودود.

(٣) المقرى، نفح الطيب، جـ٦ ، ص ٢١٥ .

سقوط ميورقة أو عن خطة الاستيلاء عليها، ولكن الرواية النصرانية توضح لنا خطة الاستيلاء على هذه الجزيرة بالتفصيل، يذكر المؤرخ مارسيليو Marsilio أن فى عام ١٢٣٤م/٦٣١هـ، وصل خايمى الأول إلى مدينة Alcanize فقدم إليه جيرمودى مونتجرى Guillermo de Montgri قديس جرنده Gernona، المرشح لأسقفية طركونة Tarragona، وعلم من الملك خايمى الأول أنه لا يفكر فى فتح جزيرة يابسة، فعرض الأسقف عليه اقتراحاً مؤداه أن يتولى هو إخضاعها لشرف الكرسى الرسولى الطركونى تحت سيادة مملكة أرغون، فراقت للملك فكرته ولم يتردد فى قبول مشروعه (١). واحتفل العاهل الأرغونى والأسقف بهذه المناسبة فى ٧ ديسمبر سنة ١٢٣٤م، وعندئذ وافق خايمى الأول على تنصيب الأسقف المنتخب وخلفائه فى الكرسى الرسولى لنفس المدينة مع منحه إيراداتها وإقطاعه جزيرة يابسة للكنيسة بعد افتتاحها، كذلك عقد فى مدينة طركونة فى ٧ أبريل ١٢٣٥م اجتماع ضم جيرمودى مونتجرى والأمير بدرو البرتغالى Pedro de Portugal والقمط ننيو سانشيس Nuno Sanchez قمط روسيلون Conde de Rosellon، وتم فى هذا الاجتماع الاتفاق على افتتاح جزيرة يابسة (٢).

ولم تذكر الرواية النصرانية تفاصيل هامة عن استيلاء النصارى على الجزيرة، غير أن الرواية الإسلامية رغم إيجازها تلقى بصيصاً من الضوء حول هذا الموضوع، فابن أبى زرع يذكر أن الأرغونيين نزلوا بجزيرة يابسة عام ٦٣٢هـ/١٢٣٥م فقاومهم أهلها المسلمون، واستمر الصراع بين أهل المدينة والفاتحين النصارى نحو خمسة أشهر، انتهى بغلبة النصارى واضطر المسلمون إلى التسليم، واستولى الأرغونيون على الجزيرة (٣).

د ـ نهاية ابن هود:

عندما تعرضت قرطبة لغزو القشتاليين فى سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م واستولى هؤلاء على الجانب الشرقى منها غدراً فى ثالث شوال فى غفلة السمار، بعث أهل قرطبة على الفور يستنجدون بابن هود فى مرسيه، فخرج إلى نجدتها فى جيش كثيف، على أنه ما كاد يصل إليها حتى بلغته رسالة من أبى جميل زيان صاحب بلنسيه يطلب منه أن يأتى لإنجاده من غزو ملك أرغون، فآثر ابن هود أن يتوجه إلى بلنسيه تاركاً قرطبة لمصيرها التعس، وعقب مغادرة ابن هود قرطبة وتخليه عن إنجادها

(1) Marsilio en, Cuadrado, op.cit., pp. 344-346.

(2) Alvaro Campaner y Fuertes, op.cit., p. 200.

(٣) روض القرطاس، ص ١٨٣.

سار فى قواته إلى مرسيه سالكاً الطريق المار باستجه، ولا نجد فى الرواية الإسلامية أية إشارة عن ابن هود غير أنه فى جمادى الأول عام ٦٣٤هـ وجه إلى نوابه وعماله فى مختلف قواعد الأندلس التى تخضع لطاعته كتاباً يحثهم فيه على تقوى الله، ومراعاة أحكامه وحدوده، والاقتداء بالسلف الصالح، وتوخى الحق، والحلم والأناة، والحرص على صون الدماء وحقنها، وتوخى الدقة فى اختيار المشرفين على الأموال من ذوى العفة والنزاهة والدين، وأن حرمة الأموال مشبهة بحرمة الدماء، وأن يكون معاملة الناس فى الحق سواء، دون محاباة ولا مفاضلة، ولا تغليب قوى على ضعيف وأن يجرى العمل باتباع أحكام كتاب الله، وأمر عماله فى نهاية كتابه بقراءته على الناس جملة وتفصيلا [١].

وفى أوائل عام ٦٣٥هـ، اتجه ابن هود إلى ثغر المرية، وهنا تختلف الرواية المسيحية والإسلامية حول دوافع قصدها، فالرواية المسيحية تقول أن ابن هود توجه إلى المرية بقصد الإبحار منها فى قواته لإنجاد بلنسية، إذ أن واليها أبا جميل زيان قد بعث يستغيث بابن هود وهو فى استجه، فاستجاب لندائه لرغبته فى امتلاك بلنسية ودخولها فى طاعته [٢].

ويرى الأستاذ جاسبار ريميرو أن ذهاب ابن هود إلى المريه كان للعمل على توطيد سلطانه فى المنطقة الجنوبية وإحلال السلام فيها [٣].

أما الرواية الإسلامية فتعطى لنا سبباً آخر لذهاب ابن هود إلى المريه، فتذكر أن ابن هود كان قد سبى فى إحدى غزواته لأراضى النصارى جارية أسبانية حسناء من بنات الأشراف، ولكونه قد عاهد زوجته بأن لا يتخذ عليها امرأة طوال حياته، أودع هذه الجارية الحسناء عند أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى يحيى الرميمى واليه على ثغر المرية، الذى كان موضع ثقته وكان يدعى بذى الوزارتين، لخشية ابن هود من أن يتسرب خبرها إلى زوجته، فشغف ابن الرميمى بها، واستأثر بها، وعلم ابن هود بالخبر، فسار إلى المريه وهو يضمر معاقبة عامله بها على فعلته، فلما وصل إلى ظاهرها استقبله ابن الرميمى بحفاوة، ودعاه إلى قصره، ليقوم بحقه فيها خير قيام، وليخلو بجاريته الحسناء فقبل ابن هود دعوته، ولما حل بالقصر عرفه بأن جاريته فى الحمام، وكان ابن الرميمى قد دبر أمره للقضاء على ابن هود، فقيل أنه أدخل عليه أربعة من الرجال قبضوا عليه [٤]، ووفق رواية أخرى لأبى محمد البسطى، أنه قتل

---

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٣٣٢، ص ٣٣٥.

(2) Primera Cronica General, p. 433.

(3) Gaspar Remiro, op. cit., p. 286.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٣٣٥؛ ابن سعيد المغربى، المصدر السابق، جـ٢، ص ١٩٩، ص ٢٥٢؛ المقرى، المصدر السابق، جـ٦، ص ٨٩.

خنقاً بمخدتين أقعدهما ابن الرميمى على أنفه وفيه [1].

وفى صباح اليوم التالى الرابع والعشرين من جمادى الأول سنة ٦٣٥هـ أعلن ابن الرميمى وفاة ابن هود [2]. وكان المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود، على شجاعته وحسن نيته، سيء الحظ فى رجاله، لم يخلص له أحد منهم [3].

وعقب مصرع ابن هود بمدينة المرية، خرجت كثير من الولايات الخاضعة له عن طاعته، واستغل ابن الأحمر هذه الفرصة لفرض سيطرته عليها، ففى المريه استقل بحكمها ابن الرميمى، كما خرجت غرناطة عن طاعة ابن هود قبيل مصرعه بقليل، وكان والياً من قبل ابن هود ويدعى عتبة بن يحيى المقيلى، رجلا ظالما، يبغض محمد بن الأحمر وأمر بسبه على المنابر، فلما اشتدت وطأته ثار عليه جماعة من أهل غرناطة بزعامة محمد وأبو محمد ابنا خلف بن ولجر فى أربعين رجلا من أهل النجدة، وقيل فى مائة رجل، واقتحموا القصبة فى أول رمضان سنة ٦٣٥هـ/ أبريل ١٢٣٨م، وعاثوا فى قصورها وقتلوا واليها عتبة، وبعثوا إلى ابن الأحمر وبايعوه فى آخر رمضان من السنة المذكورة بعد خلعهم لطاعة ابن هود، فجاءهم على الفور ابن الأحمر ونزل بخارج غرناطة ودخلها وقت الغروب، ومنذ ذلك الوقت أصبحت غرناطة حاضرة ابن الأحمر بدلا من جيان [4].

وما أن وصلت أخبار مصرع ابن هود، وانتزاء ابن الرميمى بثغر المرية حتى اعتزم ابن الأحمر المسير إلى المرية، فسار فى قواته تجاهها، وأقام على حصارها حتى ضاقت حال ابن الرميمى وانقطعت آماله، فغادر المريه من جهة البحر فى أهله وأمواله، وسار إلى تونس، حيث لجأ إلى أميرها الحفصى أبى زكريا وعاش فى كنفه[5].

وفى العام التالى ٦٣٦هـ، أرسل إليه أعيان مالقه بطاعتهم ووفد إلى غرناطة جماعة من أشرافها ومعهم بيعة أهل المدينة من إنشاء كاتبها الكبير ابن عسكر، فقبلها ابن الأحمر، وولى ابن عسكر قضاء مالقة [6]. وهكذا اقتصرت أملاك ابن هود، بعد موته على مدينة مرسيه ونواحيها.

---

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٣٣٦.

(٢) ابن عذارى، نفس المصدر والقسم، ص ٣٣٥؛ وانظر أيضاً: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ١٣٤، الذى يقول أن وفاته كانت فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة عام ٦٣٥هـ.

(٣) ابن عذارى، نفس المصدر ق٣، ص ٢٣٦.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٣٦-٢٣٧؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٧؛ ابن أبى زرع الفاسى (علي)، الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية، الرباط، ١٩٧٢، ص ٥٧.

(٥) ابن عذارى، نفس المصدر والقسم، ص ٢٣٧؛ الذخيرة السنية، ص ٥٧؛ ابن سعيد المغربى، المغرب، جـ٢، ص ١٩٩.

(٦) ابن عذارى، نفس المصدر والقسم ، ص ٣٤٥.

٣ ـ سقوط قواعد شرق الأندلس

أ ـ موقعة أنيشة وسقوط بلنسيه في يد جاقمة :

ظل الرئيس أبو جميل زيان والياً مستقلا على بلنسيه، وقد أشرنا فيما سبق إلى رفضه الدخول فى طاعة ابن هود، وكيف خرج عن طاعته أبناء عمومته فى دانية وجزيرة شقر، فلما دعم مركزه فى بلنسيه، وتجنب أخطار ابن هود، الذى شغلته فى تلك الآونة هجمات النصارى المتكررة على غرب الأندلس ووسطها بالإضافة إلى منافسة ابن الأحمر له على زعامة الأندلس، بدأ زيان يتطلع إلى بسط نفوذه على مدينة دانية، التى كانت فى ذلك الوقت جزءاً من أملاك ابن هود، وكان قد نصب عليها والياً من قبله هو أبو الحسن يحيى ابن أحمد بن عيسى الخزرجى الذى وليها بالإضافة إلى شاطبة [١]. فانتزع زيان دانية وطرد واليها، وولى عليها ابن عمه أبا عبد الله محمد بن مبيع بن يوسف بن سعد بن محمد بن سعد الجذامى [٢].

وقد بذل الأمير زيان قصارى جهوده لوقف تقدم الأرغونيين المتواصل داخل أراضيه بتحريض السيد أبى زيد والى بلنسيه المخلوع وبمعاونة بدرو فرناندو دى أساجرا وبلاسكو دى ألوسون [٣]، بل حاول زيان فوق ذلك كله أن يغزو أراضى أراغون، منتهزاً فرصة انشغال جاقمة ملك أرغون فى معظم قواته بافتتاح جزيرة ميورقة فخرج فى قواته واتجه شمالا وهاجم بنشكله Peniscola وطرطوشة Tortosa وعاث فى أراضيها، ثم حاصر Ulldecona دون أن يحقق شيئاً سوى إثارة غضب جاقمة عليه [٤].

وما أن انتهى جاقمة من فتح جزيرة ميورقة، حتى أخذ يتأهب لافتتاح ثغر بلنسية، وفى ١٧ ديسمبر ١٢٣٢م وافق القطلانيون على تحصيل «ضريبة الماشية» عن كل زوج من الثيران بصفة استثنائية، لتمويل هذا المشروع، كما سعى جاقمة إلى طبع حملته المقبلة بالصفة الصليبية، وقد استجاب البابا جريجورى التاسع Gregrio IX لهذا الطلب وأصدر مرسومه بإسباغ الصفة الصليبية على مشروع فتح بلنسية، واقترح بلاسكو دى آلاجون Don Blasco de Alagon الذى عاش فى بلنسية لمدة

---

(١) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٣، ص ٣٠٣؛ وله أيضاً: التكملة، جـ٢، ص ٧٢٩، ترجمة ٢٠٦٧.

(٢) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٣١٧؛ وراجع أيضاً:
Roque Chabas (llorens), Historia de la ciudad de Denia, Alicante, 1972, p. 173.

(٣) أشباخ، المرجع السابق، ص ٤٢١.

(4) The Chronicle of James I, King of Aragon, Vol. I, p. 389; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 254.

سنتين وخدم واليها الموحدى ـ على جاقمة الاستيلاء على بلدة بوريانة Burriana [1].

وفى ربيع ١٢٣٣م/أواخر ٦٣١هـ تمكنت قوات جاقمة من الاستيلاء على حصن آرش Ares ثم أردفت به حصن موريله Morella وهو من حصون إقليم بلنسيه الشمالية، ولم يلبث أن أحكم سيطرته على أراضى شارقة Jerica تورس ـ تورس Torres-Torres، ثم زحف بقواته لحصار بلدة بوريانه [2]، الواقعة على البحر على مقربة من شمال بلنسية، بعد أن خرب نواحيها وعاث فيها ودمر زروعها، واشترك مع جاقمة بالإضافة إلى القوات الأرغونية الاسبتارية عدد من الأشراف وفرسان الداوية والاسبتارية، وقلعة رباح، ورغم دفاع أهل بوريانة المجيد لمدة شهرين، إلا أنهم اضطروه فى النهاية إلى التسليم فى شهر يوليو ١٢٣٣م، ثم سقطت بعدها عدة من الحصون منها شفيت Chisvert، وتيرفيرا Cervera و Les Cuevas de Avirnonia; Alcalaten و Pulpis، وقولر Culler، وغيرها من القرى والضياع الواقعة على ضفة نهر شقر، كما استطاع جاقمة أن يستولى على ثغر قسطلونة الهام الواقع شمالى بوريانة ويصل إلى فحص بلنسية ذاته ويستولى على بعض قلاع هذه المنطقة ومنها قلعة مونكادة Moncada ومسيروس Museros القريتين من بلنسية دون أن يتجرأ زيان على الخروج إليه [3].

لكن الظروف الداخلية فى مملكة أرغون اضطرت عاهلها إلى العودة إلى مملكته عام ١٢٣٤م/٦٢٣-٦٣٣هـ مكتفياً مؤقتاً بما حققه من سيطرة على معظم القلاع والحصون الواقعة شمالى بلنسية.

ثم مضى نحو عامين لم يقع خلالهما أى اشتباك سوى بعض غارات خفيفة متفرقة شنتها حاميات الحصون النصرانية فى أحواز بلنسية، ولم ينس جاقمة رغم مشاغله الداخلية مشروعه لفتح بلنسية، وكان يتوق إلى الاستيلاء على حصن أنيشة [4]، المنيع الواقع على مقربة من شمال بلنسية حتى يتخذها قاعدة له يشن منها هجومه على بلنسيه، وكان زيان يدرك أيضاً أهمية هذا الحصن وعظم خطورته

(1) The Chronicle of James I, Vol. I, pp. 222-224.

(٢) بوريانة مدينة جليلة عامرة كثيرة الخصب والأشجار والكروم وهى فى مستو من الأرض وبينها وبين البحر نحو من ثلاثة أميال؛ راجع : الإدريسى ، المصدر السابق، ص ١٩١.

(3) Lafuente, Historia General de Espana, t. IV, pp. 82-83' Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 255.

(٤) يصف الإدريسى موقع الحصن بقوله: «وهو جبل معترض عال على البحر والطريق عليه ولابد من السلوك على رأسه وهو صعب جداً»؛ راجع : صفة المغرب، ص ١٩١، ويسمى الإدريسى هذا الموقع عقبة أنيشة (نفس المصدر والصفحة) ويطلق عليه الحميرى أنيشة، أنيجة، راجع: الروض المعطار، ص ٣٢، وتسميه الرواية الأسبانية El Puig de cebolla تل البصل، راجع الحميرى، نفس المصدر، الترجمة الفرنسية، ص ٤٠، هـ١.

على بلنسية فى حالة إذا ما سيطر الأرغونيين عليه، ولهذا قرر هدمه، وفى أوائل عام ١٢٣٦م/٦٣٣هـ سار جاقمة فى قواته من قلعة أيوب بنية الاستيلاء على موقع أنيشة، ورافقه فى هذه الحملة السيد أبو زيد والى بلنسية المخلوع، وهاجم جاقمة موقع أنيشة وأوقع الحامية الإسلامية التى تصدت لمقاومته، وتمكن من احتلال الموقع، ثم أمر ببناء حصن جديد منيع فوقه ترك عليه حامية أرغونية تتألف من ١١٠ من الفرسان وألفين من المشاة وعهد بقيادة حامية الحصن إلى دون برنادوجيون دى انتنزا Don Bernards Guillén de Entenza، وما أن تم له ذلك واطمأن إلى سيطرته على المناطق المحيطة ببلنسية حتى قفل عائداً إلى أرغون لتجهيز حملة جديدة لفتح بلنسية (١).

شعر زيان بخطورة حصن أنيشة على قاعدته بلنسية، وقرر استرداده، وحشد لهذا الغرض قوات كبيرة، تبالغ الرواية النصرانية فى تقديرها عدتها ستمائة فارس وأربعين ألف راجل، وسار فى قواته نحو أنيشة فى ٢٠ من ذى الحجة سنة ٦٣٤هـ/١٤ أغسطس ١٢٣٧م، فانقض عليه برناردو قائد حاميتها بقوة من حامية الحصن تقدر بخمسين فارساً وألف راجل، ولكن زيان استطاع بقواته أن يتصدى لهذا الهجوم الأرغونى المفاجئ، وكاد يوقع به الهزيمة، لولا أن قوة أرغونية أخرى بقيادة جيون دى أجيلو Guillén de Aguilo أسرعت عن طريق إحدى المنحدرات الجبلية وانقضت على مؤخرة الجيش الإسلامى، وتقاتل الفريقان بشجاعة، وانتهت المعركة بهزيمة نكراء منى بها المسلمون، وقتل منهم جماعة كبيرة، وكان من بين القتلى عدد كبير من علماء بلنسية وأشرافها وصلحائها، وفى مقدمتهم كبير علمائها ومحدثيها يومئذ، أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى، الذى كان فى هذه الموقعة يتقدم الصفوف ويقاتل بشجاعة، ويحث المنهزمينْ على الثبات، حتى لقى مصرعه (٢). ويعبر ابن خلدون أبلغ تعبير عن الموقعة وأثرها فيما بعد بقوله : «وكان يوماً عظيماً،

---

(1) Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 256.١

(٢) راجع فى موقع أنيشة، ابن الآبار، التكملة ، جـ٢، ص ٧٠٨، ترجمة ١٩٩١؛ ابن الخطيب، الإحاطة ، جـ٤، ص ٣٠٣؛ ابن خلدون ، العبر، جـ٦، ص ٦٠١؛ الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٢؛

Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 255-256.

ورثى أبو عبد الله بن الآبار أستاذه أبا الربيع سليمان بقصيدة طويلة منها:

ألمّا بأشلاء العلا والمكارم ∴ تقد بأطراف القنا والصوارم

وعوجا عليها مأربا وحفاوة ∴ مصارع غصت بالطلى والجماجم

تحيي وجوهاً فى الجنان وجيهة ∴ بما لقيت حمراً وجوه الملاحم

راجع فى : ابن الخطيب، الإحاطة ، جـ٤، ص ٣٠٣-٣٠٩.

وعنواناً على أخذ بلنسية ظاهراً » [١].

استقبل جاقمة أنباء هذا الانتصار أثناء مقامه فى وشقه Huesca فعزم على التوجه إلى أنيشة لتهنئة قواته، ولكن ما كاد يصل إلى سرقسطة حتى وصلته الأنباء بمصرع برنارد جيون قائد حاميته، فتألم كثيراً لفقده [٢].

عكف جاقمة على إعداد العدة لفتح بلنسية، ودعا لهذا الغرض إلى عقد اجتماع فى كنيسة Santa Maria Del Puig، وكان قد تمكن قبل ذلك فى مجلس النواب الأرغونى، الذى عقده فى مونزون فى أكتوبر ١٢٣٦م أن يزيل الخلافات القائمة بين الأحزاب وكانت قد عادت إلى الظهور فى مملكته، وأن يحقق حريات البلاد، بحيث أتيح له أن يدعو جميع البارونات والفرنسان الإقطاعيين إلى الانضمام لجيشه، كما تمكن من إسباغ صفة الصليبية على حملته بعد أن أيد البابا جريجورى التاسع مشروعه، وكان من أثر ذلك أن قدمت جموع من فرنسا وإنجلترا لتشارك فى هذه الحملة، وانضم إليها كثير من البارونات والفرسان، وأقسم جاقمة ألا يعود إلى مملكته إذا لم يفز بفتح بلنسية، كما نذر ألا يعاود المرور بطرويل أو عبور نهر طرطوشة (إبره) قبل أن تسقط بلنسية فى يده وقرر تأكيداً لذلك أن تصحبه الملكة والأميرة ابنته [٣].

وكانت الظروف فى ذلك الوقت مواتية تماماً لمشروعه، فبعد هزيمة المسلمين فى موقعة أنيشة، انسحب زيان بقواته وامتنع داخل أسوار بلنسية، وكان أيضاً لسقوط قرطبة قبل ذلك فى أيدى القشتاليين بالإضافة إلى انهيار الجبهة الإسلامية بعد زوال سلطان الخلافة الموحدية وبعد مصرع ابن هود زعيم الأندلس، الذى كان قد قر عزمه على إمداد زيان بأسطول من المرية أعظم الأثر فى تعجيل جاقمة بتنفيذ مشروعه، فخرج فى قواته فى شهر مارس ١٢٣٨م/٦٣٥هـ متجهاً نحو الجنوب صوب بلنسية، فطوقها وضيق عليها الحصار وضرب محلته بين المدينة وخليج جراو، وعمل على قطع علاقات المدينة مع الخارج وقد شرع الأرغونيون فى حصارها فى ٥ رمضان ٦٣٥هـ/أبريل ١٢٣٨م [٤]، وقذفوها بالمجانيق وكان زيان فى ذلك الوقت يدافع بقواته عن مدينته بكل همة وشجاعة دون أن يفقد الأمل فى نجدة المسلمين فبعث برسله إلى مختلف القواعد الإسلامية طلباً للنجدة والإمداد، فأرسل الفقيه محمد بن خلف بن قاسم الأنصارى إلى مرسيه [٥]، كما بعث بسفارة إلى أفريقية برئاسة وزيره

---

(١) العبر، جـ٦، ص ٦٠١.

(2) Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 256.

(3) Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 256-258.

وانظر أيضاً: أشباخ، المرجع السابق، ص ٤٢٢.

(٤) ابن الآبار، التكملة، ترجمة رقم ٣٠٣.

(٥) ابن الآبار، التكملة، ترجمة رقم ١٦٧.

وكاتبه الشاعر المؤرخ أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر بن الآبار القضاعى، يحمل إلى أميرها بيعته وبيعة أهل بلنسية، ويطلب منه الغوث والإنجاد قبل أن يفوت الوقت، ولما وصل ابن الآبار فى سفارته إلى تونس مثل بين يدى سلطانها الأمير أبى زكريا الحفصى فى حفل مشهود، وألقى قصيدته السينية الرائعة التى ذاعت شهرتها فى التاريخ، يستصرخه ويتوسل إليه فيها نصرة الأندلس والمسلمين، ومما جاء فيها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً ∴ إن السبيل إلى منجاتها درساً

وهب لها من عزيز النصر ما التمست ∴ فلم يزل منك عز النصر ملتمساً [١]

وكان لهذه القصيدة أبلغ الأثر فى نفس الأمير أبى زكريا الحفصى، فبادر بتجهيز أسطول شحنه بالسلاح والمؤن والأموال، وعهد بقيادته إلى أبى يحيى بن يحيى بن الشهيد بن إسحاق بن أبى حفص، تقدر الرواية الإسلامية قيمة ما شحن بهذا الأسطول بمائة ألف دينار [٢].

وخلال الحصار حاول زيان الدخول فى مفاوضات مع جاقمة، مستهدفاً أن يرفع جاقمة الحصار عن بلنسية ويعود أدراجه إلى أرغون، فعرض عليه تسليم بعض الحصون مع الالتزام بدفع جزية جديدة سنوية قدرها عشرة آلاف بيزنطى، لكن جاقمة رفض هذا العرض قائلا : «نأخذ الدجاجة الحاضنة ونملك أفراخها» [٣].

وفى هذه الأثناء ظهر الأسطول الحفصى فى مياه بلنسيه، واستطاع أن يصل إلى خليج جراو ولكن الأرغونيين كانوا يحتلون هذه المنطقة الممتدة ما بين الخليج والمدينة ولهذا لم يتيسر لرجال الأسطول الوصول إلى المدينة، كما أن أهل المدينة لم يتمكنوا من الاتصال بهم فاضطر قائد الأسطول الحفصى إلى التوجه ناحية الشمال حتى ثغر بنشكلة، ولكن هذه المحاولة أيضاً باءت بالفشل لظهور السفن الأرغونية، وعندئذ اتجه الأسطول التونسى جنوباً واضطر إلى إفراغ شحنته فى ثغر دانية بعيداً عن ثغر بلنسية المحاصر، ثم أقلع قائد الأسطول عائداً إلى أفريقية ومعه الأموال التى كان قد أرسلها السلطان الحفصى لمساعدة أهل بلنسية لعدم حضور أحد من قبل الأمير زيان لتسلمه [٤]. وعندما علم النصارى عجز الأسطول الحفصى عن مساعدة أهل بلنسية

---

(١) فى مخطوط: «زواهر الفكر وجواهر الفقر» لابن المرابط، من لوحة ٨٢ إلى ٨٤؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٧٢-٢٧٣؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٦٠٢؛ المقرى، نفح الطيب، جـ٣، ص ٣٤٧، وجـ٤، ص ٢٨٢.

(٢) ابن خلدون، نفس المصدر، جـ٦، ص ٦٠٤؛ الزركشى، المصدر السابق، ص ٢٧، ص ٢٨.

(3) The Chronicle of James I Vol. I, p. 357;
وانظر أيضاً: Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 259.

(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ٦٠٤؛ الزركشى، المصدر السابق، ص ٢٨؛ وانظر أيضاً:
The Chronicle of James t, Vol. I, pp. 377-380.

واضطروه للعودة، أخذوا فى التضييق على أهل المدينة وإرهاقهم مدة خمسة أشهر، حتى فنيت الأقوات وعدمت الموارد واشتد البلاء بأهل المدينة، ويعبر صاحب «البيان المغرب» عن قلة المؤن وارتفاع أسعارها بقوله : «أن القمح كان يباع بها (ببلنسية) ستة أواق بدرهم والشعير عشرة أوقيه بدرهم» (١). وعندئذ رأى زيان مع أشراف المدينة، لأنه لا مفر من التسليم قبل فوات الأوان، فبعث ابن أخيه أبا الحملات رسولا من قبله ليفاوض ملك أرغون فى شروط التسليم، واتفق الطرفان على أن تسلم المدينة صلحاً، ويصف ابن الآبار، وكان حاضراً وقت توقيع هذا الاتفاق فى يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ٦٣٦هـ توقيع الاتفاقية بقوله:

«وفى هذا اليوم خرج أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامى من المدينة، وهو يومئذ أميرها ــ فى أهل بيته ووجوه الطلبة والجند، وأقبل الطاغية، وقد تزىّ بأحسن زى فى عظماء قومه، من حيث نزل بالرصافة أول هذه المنازلة، فتلاقيا بالولجة، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد سلماً لعشرين يوماً، ينتقل أهله أثناءها بأموالهم وأسبابهم، وحضرت ذلك كله، وتوليت العقد عن أبى جميل فى ذلك، وابتدئ بضعفه الناس وسيّروا فى البحر إلى نواحى دانية، واتصل انتقال سائرهم براً وبحراً، وصبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر المذكور، كان خروج أبى جميل بأهله من القصر فى طائفة يسيره أقامت معه، وعند ذلك استولى عليها الروم، أحانهم الله» (٣).

أما الرواية النصرانية عن تسليم المدينة فلا تخرج كثيراً عن مضمون ما جاء فى رواية ابن الآبار، وفيها اشترط على أن تسلم بلنسية إلى ملك أرغون على أن يؤمن جميع سلطانها فى أنفسهم مع كفالة حرية الهجرة بجميع أموالهم إلى قليبره Culle-ra أو دانية Denia، وأن فضل بعضهم البقاء بالمدينة تكفل لهم الحرية فى مزاولة شرائعهم وعاداتهم، وأما من جهة دفع المكوس فيتساوون فيها مع ما يدفعه رعايا العاهل الأرغونى من النصارى، كما نص عقد التسليم على أن تسلم المدينة وجميع الحصون الواقعة على الضفة اليسرى لنهر شقر، وفى مقابل ذلك يمنح ملك أرغون الأمير زيان ورعاياه من المسلمين هدنة مدتها سبعة أعوام، أقسم اليمين باحترامها بالنسبة لدانية وقليبرة طوال مدة الهدنة، وتم ذلك فى اليوم الثامن والعشرين من شهر

---

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق١، ص ٣٤٥.

(٢) الحلة السيراء، جـ٢، ص ١٢٧؛ وراجع أيضاً: ابن عذارى، نفس المصدر، ق٣، ص ٣٤٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٦٠٤؛ النويرى، المصدر السابق، ص ٣٠٨؛ والولجة بالأسبانية Huelga، الرحبة الواسعة التى تستعمل للنزهة، وكان هذا اللفظ جارياً فى استعمال الأندلسيين؛ راجع : ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ١٢٦، هـ١.

سبتمبر ١٢٣٨م [١].

وفى اليوم المحدد دخل جاقمة ملك أرغون وزوجته الملكة فيولانتى ثغر بلنسية فى موكب فخم، وفى الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة للنصارى [٢].

أما الرئيس أبو جميل زيان فإنه منذ أن غادر بلنسية فى أهله وسار إلى جزيرة شقر أخذ بيعة أهلها للأمير أبي زكريا الحفصى صاحب أفريقية[٣]. ولكن القوات الأرغونية لم تلبث أن هاجمته لأن جزيرة شقر لم تكن من البلاد الداخلة فى الهدنة المعقودة بين زيان وجاقمة، ومن ثم غادرها إلى دانية، ونزل بها فى شهر رجب سنة ٦٣٦هـ، ودعا بها للأمير أبى زكريا الحفصى[٤].

ب ـ سقوط مرسيه فى أيدى القشتاليين :

كان المتوكل بن هود قبل موته ببضع سنوات، وبالذات على أثر تلقيه سجل الخلافة العباسية، قد اختار ولده أبا بكر محمد لولاية العهد، ولقبه بالواثق بالله، المعتصم به [٥]. ولما لقى ابن هود مصرعه بالمريه فى جمادى الأولى عام ٦٣٥هـ، بايع أهل مرسيه ولده الواثق أبا بكر محمد بن يوسف بن هود [٦]. بيد أن ولايته عليها لم تظل أكثر من سبعة أشهر، إذ لم يلبث أن ثار عليه العالم والفقيه المشهور عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب، الذى كان له تقدم معلوم فى العلوم وتميز بالمشاركة في المنثور والمنظوم، ودعا لنفسه، وبايعه أهل مرسيه فى الرابع من المحرم سنة ٦٣٦هـ/٧ أغسطس ١٢٣٨م. ويشير ابن الآبار المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث أن عزيز بن خطاب إنما ثار على عليّ بن يوسف أخ المتوكل بن هود المتلقب بعضد الدولة على الرغم من أن جميع الروايات العربية تؤكد أن الواثق خلف أبيه فى الحكم [٧]. ويرى الأستاذ چاسبار ريميرو أن عضد الدولة كان وصياً على ابن أخيه الواثق، ومن ثم كان يعتبر الحاكم الفعلى لمرسيه، ولهذا فإن ما يؤكده ابن الآبار إنما يمكن تفسيره

---

(١) The Chronicle of James I, Vol. I, pp. 394-398;

وانظر أيضاً:

Lafuente, op.cit., t. IV, p. 87.

(٢) ابن الآبار، التكملة، ترجمة رقم ١٣٠٦؛

The Chronicle of James t, Vol. I, p. 398.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٦٠٤.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٦٠٥.

(٥) مخطوط زواهر الفكر وجواهر الفقر لابن المرابط، لوحة ١٧٢-١٧٤، يبلغهم فيها اختيار ولده أبى بكر محمد لولاية عهده، بقلم أبى عبد الله بن الجنان، ملحق رقم (٢).

(٦) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٥.

(٧) الحلة السيراء، جـ٢، ص ٣٠٨، ص ٣١٤.

بأن عزيز بن خطاب أعلن ثورته على هذا الحاكم الفعلى الذى يسميه عضد الدولة (١).

ومن المرجح لدينا أن الواثق أبا بكر بن محمد بن هود خلف والده على إمارة مرسيه فترة ثم انتزع عمه عضد الدولة علي بن يوسف الإمارة منه، وسجنه وهو الذى ثار عليه عزيز بن خطاب.

وأيًا ما كان الأمر فإن عزيز بن خطاب أصبح أمير مرسيه منذ أن بايعه أهلها، وتلقب بضياء الدولة (٢)، وكان رجل علم وفقه وأدب لا خبرة له بشئون الحرب والسياسة والحكم، ولهذا ما كاد يخرج فى أول حملة ضد النصارى حتى عاد مهزوماً مغلولاً بعد أن فقد العديد من جنده مما أثار استياء أهل مرسيه عليه (٣).

وكان للأوضاع السياسية فى شرق الأندلس بعد سقوط بلنسية وإلحاح العدو الأرغونى بغاراته على حصونها وقلاعها من جهة الشرق، والعدو القشتالى من جهة الشمال، أثر كبير فى اضطراب نفوس أهل مرسيه، ومن ثم تطلعوا إلى وال جديد تتوفر له الخبرة والدراية بالشئون الحربية والسياسية، فاتصلوا بالرئيس زيان ابن مردنيش ـ وكان وقتئذ مقيماً فى دانية ـ وتفاوضوا معه فى أن يتولى رئاستهم فقبل عرضهم، وسار إلى مرسيه ودخلها فى الوقت الذى قامت فيه الثورة بها على ضياء الدولة أبى بكر عزيز بن خطاب، وعمد الثوار إلى نهب القصر، فانتزع زيان منه الرئاسة وقبض عليه وأودعه سجن القصر وذلك فى الخامس عشر من شهر رمضان عام ٦٣٦هـ، ثم لم يلبث أن أمر بقتله، فقتل فى السادس والعشرين من نفس الشهر والسنة (٤).

ثم أفرج زيان عن الواثق بن محمد بن يوسف بن هود، ودعا بمرسيه للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب أفريقية، وبعث ببيعته مع وفد من أهل مرسيه إلى تونس، وعاد الوفد يحمل إليه من الأمير تقليد ولايته على مرسيه وبلاد شرق الأندلس (٥).

---

(١) وراجع أيضاً:
Gaspar Remiro, op.cit., p. 293; Emilio Morina Lopez, Murcia y el levante Espanol en el siglo XIII (1224-1266) a traves de la correspondencia official, personal y diplomatica, Universidad de Granada, 1978, p. 27.

(٢) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٥؛ وكان عزيز بن خطاب هذا سليل أشرف بيوت مرسية وأعرقها وجده الكبير أبو عمر أحمد بن خطاب، هو الذى استضاف المنصور بن أبى عامر وسائر جيشه، حين مروره في طريق غزاته إلى برشلونة ؛ راجع : ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٣١١.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٧٥؛ وانظر أيضاً:
Gaspar Remiro, op.cit., pp. 293-294.

(٤) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٣١٠؛ بينما يقول صاحب الذخيرة السنية، أن زيان ابن مردنيش دخل مرسيه يوم السادس عشر من رمضان، وقبض على عزيز بن خطاب وقتله ليلة الثلاثاء الموافق عشرين من رمضان المذكور ، انظر : علي بن أبى زرع، الذخيرة السنية، ص٥٦.

(٥) مخطوط الأسكوريال، زواهر الفكر وجواهر الفقر، لابن المرابط، لوحة ١٦٤، ١٦٥، نفس الرسالة التى بعث بها زيان إلى الأمير أبوزكريا الحفصى إثر تلقيه مرسوم الولاية، بقلم الكاتب الفقيه أبى عبد الله بن الجنان.

على أن سيطرة زيان بن مردنيش لم تشمل شرق الأندلس كله، فقد خرجت عن طاعته مدن أوريولة ولورقة ومولة وقرطاجنة الواقعة فى المنطقة التى حددها مارينو ألباريث من سلسلة جبال أسبونيا حتى أجيلاس ومن قمة خارة إلى مسيل سانجونيزا [١].

أما أوريوله فقد استقل برياستها أبو جعفر بن عصام، واستطاع أثناء هذه الفترة المضطربة بالأحداث أن يحافظ على استقلال مدينته ويحميها من طمع الطامعين فنعمت فى ظله بعهد من الأمان والاستقرار واجتذبت إليها الشعراء والأدباء [٢].

وأما لورقة فقد استقل برياستها الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن أحلى الذى كان «يجتمع إليه فن علم الكلام ويؤخذ عنه، وله فيه تواليف»[٣]، واستمر محتفظاً باستقلاله الذاتى بها حتى بعد سقوط مدينة مرسيه فى أيدى القشتاليين.

ولم يلبث زيان أن واجهه الكثير من المشاكل فى الداخل والخارج، ففى المجال الداخلى خرجت عليه مدن أوريوله ولورقة ومولة وقرطاجنة وقد أبدى عجزه عن استرجاع هذه المدن، وأما فى المجال الخارجى فتتمثل هذه المشاكل فى التهديدات القشتالية بالاستيلاء على مرسيه، ومن المعروف أن معاهدة كاسولا Cazola التى عقدت بين قشتالة وأرغون منذ سنة ١١٧٩م تعطى لقشتالة الحق فى افتتاح إقليم مرسيه، ولذلك فإن زيان قام بمحاولة للتفاهم مع فرناندو الثالث ملك قشتالة حسبما تدل عليه رسالة موجهة منه إلى مليكها، محررة بقلم كاتبه القاضى اللامع أبى المطرف بن عميرة المخزومى، يستفاد منها رغبة زيان فى عقد السلم مع ملك قشتالة واستعداده للتفاوض مع من يرسله إليه ملك قشتالة من رجاله لهذا الغرض [٤].

لبث زيان بن مردنيش على رئاسة مرسيه عامين، قام عليه عند نهايتها زعيم من بنى هود، هو عم المتوكل بن هود، يدعى محمد بن هود، التف حوله أهل مرسيه وتمكن بفضل معاونة أبى جعفر بن عصام صاحب أوريوله من طرد زيان منها وتلقب ببهاء الدولة، فخرج زيان من مرسيه فى أهله وأمواله وآثر الاحتماء بين ذويه وأنصاره فى مدينة لقنت، حيث ظل يقيم بها حتى احتلتها قوات خايمى الأول سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦-١٢٤٧م فغادرها إلى تونس وعاش فيها إلى أن توفى بها فى سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩-١٢٧٠م [٥].

---

(1) Alvarez (Merino), Geografia historia del reino de Murcia, p. 156.

(2) Molina Lopez (Emilio), op.cit., p. 281.

(٣) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٣١٤؛

Gaspar Remiro, op.cit., p. 295.

(٤) فى: القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٧، ص ١١٦-١١٧.

(٥) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦١؛ ويقول صاحب الذخيرة السنية أن زيان لجأ إلى صحصن اللش (الش)؛ راجع : الذخيرة السنية، ص ٥٧؛ بينما يقول جاسابار ربميرو أنه قصد مدينة Luxente؛ راجع: Gaspar Remiro , op.cit., p. 296

وهكذا تمكن بهاء الدولة محمد بن هود من السيطرة على منطقة مرسيه، ودانت بطاعته أوريولة، ولكنه لم يستطع فرض طاعته على لورقة وغيرها من المدن التى خرجت عن طاعة مرسيه.

وواجهت بهاء الدولة أخطاراً خارجية تتمثل فى الضغط المتواصل الذى كان يمارسه جاره ابن الأحمر من جهة، وكان يتطلع إلى ضم أراضى مرسيه إلى مملكته بالرغم من تعهداته لقشتالة، ثم مملكة قشتالة التى كانت تتطلع إلى ضم مرسيه إليها من جهة ثانية، بالإضافة إلى تهديدات خايمى الأول ملك أرغون على شرق الأندلس، ومن ثم قرر بهاء الدولة بالاتفاق مع كبار شخصيات مرسيه أن يتفاهم مع القشتاليين، وبعث إلى عاهل قشتالة وفدا من أهل مرسيه برئاسة ولده أحمد بن محمد بن هود، يعرضون عليه الاعتراف بطاعته وأداء الجزية مع السماح بوضع حامية قشتالية بالمدينة، وتحدد الرواية الإسلامية تاريخ هذه السفارة بسنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، وهو ما تذكره الرواية النصرانية (١).

وتؤكد الرواية المسيحية أن الأمير ألفونسو قبل باسم والده فرناندو الثالث العرض الذى تقدم به وفد مرسيه، ثم سار بعد قليل بصحبة معلم شنت ياقب Santiago والسيد بلاى كوريا Don Pelayo Correa حيث التقى فى الكَرَس Alcaraz بنواب مرسيه، وعقد معهم فى سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٣م اتفاقية عرفت باسم هذا المكان، أقر فيها بهاء الدولة الدخول فى طاعة ملك قشتالة مع السماح بإقامة حامية قشتالية فى قواعدها الرئيسية الهامة، ودفع الجزية، وتقديم كافة التسهيلات التجارية، ودخل الأمير ألفونسو ولى عهد قشتالة وصحبه برفقتهم أحمد بن محمد بن هود مرسيه، وتملك الأمير ألفونسو القصر وفرض حمايته على مدن : لقنت Alicante، كرافيلين Crevillén، الش Elche، وأريوله Orihuela، الحامة Alhama، حصن لبيط Aledo، رقوطة Ricote، سياسة Cieza(٢).

أما مدن لورقة ومولة وقرطاجنة، فلم تدخل ضمن اتفاقية التسليم، واحتفظت باستقلالها الذاتى إلى أن استولى عليها القشتاليون فى سنة ٦٤٥هـ.

---

(١) الذخيرة السنية، ص ٦٠؛ وانظر أيضاً:

Gozalez, op.cit., p. 88.

(2) Cronicas de los reyes de castilla desde Alfonso X hasta los reyes catolicos, en biblioteca de autores espanoles, ed, Rosell, Madrid, , 1953, Cronica Alfonso X Tomo 1, Cap. X pp. 8-9;

وراجع أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., pp. 296-297; Molina Lopez (Emilio), op.cit., pp. 30-31.

أما الرواية الإسلامية، فيسجلها ابن عذارى فى «البيان المغرب» وجاء فيها أن «أهل شرق الأندلس صالحوا الروم بمال معلوم يدفعونه لهم فى كل عام، وأعطى أهل مرسيه قصبتهم للروم الذى هو قصرهم» (١).

ولبثت مرسيه تحت حكم واليها بهاء الدولة محمد بن هود، ثم توفى فى عام ٦٥٧هـ وخلفه عليها ابنه أبى جعفر أحمد، الذى واصل دفع الجزيات لقشتالة وبذل الطاعة لملكها، ولكنه احتفظ مع ذلك باستقلالها الذاتى، فصك العملة باسمه وخصص جيشاً لها (٢).

وظل أبو جعفر أحمد بن هود يلى أمر مرسيه وأحوازها تابعاً لملك قشتالة حتى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م، وفى هذا العام قام بالثورة عليه الواثق أبو بكر محمد بن محمد بن يوسف بن هود، الوالى السابق لمرسيه الذى كان يعيش مغموراً منذ خروجه من مرسيه، إلى أن سنحت له الفرصة بانتزاع السلطة من أبى جعفر أحمد بن هود، وبمساعدة ابن الأحمر أمير غرناطة، استطاع أن يخلع من أهل مرسيه طاعة قشتالة، وأن يسترد لها حريتها واستقلالها، فنقض الالتزام الذى كان قد تعهد به واليها السابق نحو قشتالة فى معاهدة الكرس، ولهذا تعرضت مرسيه فى عهده لمضايقات العدو القشتالى وغاراته المتكررة. وأمام الخطر القشتالى الدائم أعلن الواثق طاعته لابن الأحمر أمير غرناطة، فبعث إليه ابن الأحمر قوة من جنده بقيادة صهره الرئيس أبى محمد بن أشقيوله، فقدم إلى مرسيه وضبط أمورها وخطب فيها لابن الأحمر (٣).

وهناك رواية أخرى لابن عذارى تعطى مزيداً من الإيضاح حول تطور الأحداث فى مرسيه سنة ٦٦٢هـ، جاء فيها أن «أهل مرسيه كانوا قد صالحوا الروم بمال معلوم يدفعونه لهم فى كل عام وأعطى أهل مرسيه قصبتهم للروم، فلما تعرض أهل مرسيه لأذاهم وضرهم، أخرجوهم فى هذه السنة من القصبة بالقتال، وقاموا على النصارى وضيقوا الحصار عليهم، وأخرجوهم بعد أن ألقوا بالسلاح إليهم وكتب أهل مرسيه إلى الأمير ابن الأحمر ببيعتهم فبعث الرئيس أبا محمد بن أشقيولة إليهم والياً عليهم، فزحف النصارى إليها، ونزلوا عليها وحصر الرئيس ابن أشقيولة فيها، ثم غادرها بخيله ورجاله فراراً (٤). وهكذا لم يستطع ابن الأحمر أن يحافظ على حمايته

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٤٣٨.

(2) Gaspar Remiro, op.cit., pp. 298-299.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٤٣٨؛ وانظر أيضاً: المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص٤٢١.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٤٣٨؛ وانظر أيضاً: المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص٤٢١.

لمرسيه فتخلى عنها، واضطر نائبه عليها أن يغادرها فى جنده، ويستطرد ابن عذارى قائلا : «فلم يجد أهل مرسيه بعده حماة ولا أنصاراً فضاقت عليهم أحوالهم بما أصابهم من العدو، ونالهم، وطال عليهم حصارهم وعدموا حماتهم وأنصارهم، فأعطوا مرسيه للنصارى وخرجوا منها بأمان إلى الرشاقة فسكنوا بها مدة من عشرة أعوام إلى أن كان من أمرهم ما كان حين أخرجوهم فى سنة ثلاث وسبعين وغدروهم فى الطريق أجمعين وذلك بموضع يعرف ببوركال، فسبوا النساء والأطفال، وقتلوا جميع الرجال » [١].

غير أن الرواية النصرانية تتضمن مزيداً من التفصيلات، فتذكر أنه على أثر مغادرة الرئيس ابن أشقيولة لمدينة مرسيه فى جنده، بايع أهلها للواثق بن هود مرة أخرى، فمضى على رئاستها فترة قصيرة إلى أن افتتحها الملك خايمى الأول، وذلك أن الملك ألفونسو العاشر ظل منذ وفاة والده فرناندو الثالث سنة ١٢٥٢م، يعانى صعاباً فى الاحتفال بفتوحاته الجديدة فى الأندلس، فضلا عن تحركات ابن الأحمر أمير غرناطة وتزايد نفوذه فى منطقة وسط الأندلس، وعبور قوات بنى مرين من العدوة المغربية إلى الأندلس، دعماً لقوات ابن الأحمر فى الفترة التى ساد فيها الاضطراب بمرسيه، وعجز الملك ألفونسو العاشر عن إخمادها، ومن ثم اتجه إلى طلب مساعدة حميه خايمى ملك أرغون فى إخضاع منطقة مرسيه، وقد استجاب خايمى على الفور لنداء ألفونسو العاشر، فجهز حملة قوية واتجه جنوباً صوب إقليم مرسيه، وتمكن من الاستيلاء على حصونها وقلاعها الأمامية الش ولقنت وأوريولة، ثم اتخذ من أوريولة قاعدة لعملياته ضد مرسيه والمعروف فى المدونات المسيحية أنه خلال الثمانية أيام من وصول خايمى الأول إلى أوريولة حضر إليه اثنان من المغاورين Almogavores من لورقة فى منتصف الليل وأطلعوه على أن قوات أمير غرناطة، المكونة من ثمانمائة فارس وألفى راجل مع عدد متساو من الدواب المحملة، مروا عن طريق لورقة إلى موضع الشرق فى طريقهم إلى مرسيه. وفى الحال دفع خايمى بقواته فى طريقهم بمصاحبة الأمير القشتالى مانويل Manuel وأبنائه بدرو وخايمى ومعلمى فرسان المعبد، فرسان شنت ياقب والقديس خوان، واتفقوا على مهاجمة أعدائهم فى بوثنجرا Buzne-gra، وأجبروهم على الانسحاب فى الحال واللجوء إلى الحامة [٢].

وتؤيد رواية المقرى هذه الحادثة إجمالا فهو يقول: «فضايقه ألفنش (ألفونسو العاشر ملك قشتالة) والبرشلونى (خايمى الأول ملك أرغون) فبعث بالطاعة لابن

---

(١) ابن عذارى، نفس المصدر والقسم والصفحة.

(2) Fernando y Gonzales , op.cit., p. 106.

الأحمر، فبعث إليه ابن أشقيولة وتسلم مرسيه وخطب لابن الأحمر بها، ثم خرج عنها راجعاً إلى ابن الأحمر فأوقع به النصارى فى طريقه» (١).

ثم تقدم خايمى الأول فى قواته وضرب الحصار حول مدينة مرسيه، وضايق عليها بمختلف السبل وقطع المعونات والإمدادات التى قد تصلها من غرناطة وطال الحصار بضعة أشهر قاسى المحاصرون فيه الكثير، ورأى الواثق أن لا مفر من التسليم بعد أن فقد الأمل فى مساعدة ابن الأحمر، ففاوض خايمى الأول فى التسليم، واتفق معه على أن يعوضه عن مرسيه بحصن «يسر» ليقيم فيه هو وأهله وصحبه، وهكذا سقطت قاعدة مرسيه أهم قواعد شرق الأندلس بعد بلنسيه، ودخلها خايمى الأول فى شهر فبراير ١٢٦٦م/٦٦٤هـ (٢).

بينما يشير ابن خلدون وآخرون إلى أن سقوط مرسيه فى أيدى النصارى تم صلحاً وأن خروج الواثق من مرسيه نهائياً حدث سنة ٦٦٨هـ (٣)، ويعتقد الأستاذ جاسبار يميدو أنه كان هناك اتفاقيتان للتسليم، أحدهما فى التاريخ المتقدم الذى تذكره المدونة النصرانية سنة ١٢٦٦م/٦٦٤هـ، وهو يوافق دخول خايمى الأول المدينة فى قواته وإقراره الواثق بالخضوع والطاعة لقشتالة، والثانية فى ١٢٦٩-١٢٧٠م/٦٦٨هـ وفيه أرغم الواثق نهائياً على الخروج من المدينة فى أهله وولده والإقامة فى حصن يسر (٤).

وهكذا سقطت قواعد شرق الأندلس تباعاً فى أيدى الملك خايمى الأول ملك أراغون، وانتهت السيطرة الإسلامية نهائياً على هذه المنطقة بعد أن دامت بها أكثر من خمسة قرون.

جـ ـ سقوط جزيرة منورقة :

كان والى منورقة الرئيس أبو عثمان سعيد بن حكم الأموى قد دخلها فى سنة ٦٢٤هـ، وعمل بها مشرفاً على شئون الجباية والجند، إلى أن اضطربت الأحوال فى الأندلس وانحسر نفوذ الموحدين عنها وعندئذ تولى رئاستها من قبل أبى يحيى الوالى على ميورقة، فقام بضبط شئونها وأظهر همة وبراعة كبيرتين، ونعمت الجزيرة فى عهده بالرخاء والأمن، ولما استولى جاقمة على جزيرة ميورقة، بادر الرئيس أبو عثمان بالاعتراف بطاعته وموادعته بتقديم جزية سنوية له، والتنازل له عن حصن ثوداديلا Ciutadela شريطة أن لا يدخل أحد من الأرغونيين الجزيرة، واستمر أبو عثمان سعيد

---

(١) نفح الطيب، جـ١، ص ٤٢١.

(2) Gaspar Remiro, op.cit., pp. 300-303.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٦٥؛ وانظر أيضاً: المقرى، المصدر السابق، جـ١

(4) Gaspar Remiro, op.cit., p. 303- 421.

بن حكم أميراً على الجزيرة زهاء خمسين سنة، إلى أن توفى فى رمضان سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، فخلفه على إمارتها ولده أبو عمر حكم بن سعيد [١].

وظلت جزيرة منورقة تنعم بالاستقلال الذاتى تحت حماية مملكة أرغون إلى أن توفى خايمى الأول، وتقلد ألفونسو الثالث عرش أرغون فى نوفمبر ١٢٨٥م/٦٨٤هـ فتطلع إلى فتح جزيرة منورقة وإخضاعها مباشرة لأرغون، وجاءته الفرصة كما يقول المؤرخ داميتا Dameta بإشاعة كاذبة أو صادقة مؤداها أن أحد أعدائه ويسمى الفرنجى Elfrancés يتطلع إلى احتلال جزيرة منورقة، عندئذ خرج العاهل الأرغونى فى أسطول من ميناء Salou، ووصل إلى ميورقة فى ٢ ديسمبر ١٢٨٦م، حيث قضى أعياد الميلاد بها، ثم تابع رحلته فى جو شتوى قاس وعاصف كاد يدمر معظم أسطوله، الذى ارتطم بسواحل جزيرة ميورقة، ووصل إلى ميناء Mahon منتظراً بقية قطع الأسطول [٢].

هذا ما تقوله المدونة المسيحية فى مقدمات فتح منورقة، أما الرواية الإسلامية فتعطى تفاصيل أخرى عن فتح هذه الجزيرة، فيقول ابن خلدون : «وفى سنة خمس وثمانين ظفر العدو بجزيرة منورقة، ركب إليها طاغية برشلونة فى أساطيله فى عشرين ألفاً من الرجال المقاتلة، ومروا بميورقة كأنهم سفر من التجار وطلبوا من أبى عمر بن حكم رئيسها، النزول للاستسقاء فأذن لهم فلما تساحلوا آذنوا أهلها بالحرب، فتزاحفوا ثلاثاً يثخن فيهم المسلمون فى كلها قتلا وجراحة بما يناهزوا الآلاف، والطاغية فى بطارقته قاعد عن الزحف، فلما كان فى اليوم الثالث واستولت الهزيمة على قومه زحف الطاغية فى العسكر فانهزم المسلمون، ولحق إلى قلعتهم فانحصروا بها وعقدوا لابن حكم ذمة فى أهله وحاشيته، فخرجوا إلى سبتة ونزل الباقون على حكم العدو، فأجازهم إلى جارتهم ميورقة، واستولى على ما فيها من الذخيرة والعدد » [٣].

وتحاول الرواية المسيحية أن تقلل من الاستعدادات التى قام بها العاهل الأرغونى ألفونسو الثالث لفتح جزيرة منورقة، فتذكر أنه حتى لم ينتظر وصول باقى قطع أسطوله الذى شتتته العواصف، بل أصر على بدء العمليات، وتذكر أيضاً أن الرئيس أبا عمر بن حكم قد وصلته نجدات من العدوة المغربية تقدر بعدد ٤٠ ألف جندى وخمسمائة

---

(١) راجع: ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص ٣١٨-٣١٩؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٧٥-٢٧٦؛ الحميرى، الروض المعطار، ص ١٨٥؛ انظر أيضاً:
The Chronicle of James I., Vol. I, pp. 215-216.

(2) Alvaro Campaner y fuertes, op.cit., p. 205.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص ٦٩٨.

فارس، كما افترضت بعض الروايات المسيحية أن ملك أرغون قد هاجم المسلمين فى الجزيرة بعدد أربعمائة فارس فقط، وبعض رجال من المغاورين، وأنه قد قتل فى هذه المعركة عدد كبير من المسلمين بينما قتل عدد قليل جداً من المسيحيين، وأسفرت المعركة عن انسحاب الرئيس أبى عمر بن حكم إلى قلعة Sta Agueda، واضطر إلى طلب التسليم، وعقدت اتفاقية التسليم بينه وبين ألفونسو الثالث فى ٢١ يناير ١٢٨٧م/٦٨٦هـ، وبمقتضاها تم إجلاء المسلمين عن الجزيرة [١]. وغادر أبو عمر الجزيرة ومعه أهله ورفات أبيه وسار أولاً إلى سبتة، ثم قصد إلى تونس، فشرق فى البحر هو وآله [٢].

وهكذا تنتهى السيطرة الإسلامية على آخر معقل من معاقل الإسلام فى الجزائر الشرقية.

(1) Alvaro Campaner y Fuertes, op.cit., p. 205.

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٧٧.

الباب الثانى

بعض مظاهر حضارة شرق الأندلس

الفصـــل الأول

الحيــــاة الاجتماعيـــــــة

أولا : طبقات مجتمع شرق الأندلس.

ثـــانـــيا :الزىّ

ثـــالـــثا : الأطعمة والأشربة.

رابـــعا : فن الغناء والموسيقى

خـامـسا : الاحتفالات والأعياد.

أولا ـ طبقات مجتمع شرق الأندلس

شهدت الأندلس منذ الفتح الإسلامي مباشرة تنوعاً واضحاً في العناصر السكانية من حيث الجنس وما يترتب عليه من اختلافات في العقيدة والثقافة واللغة وأصبحت تضم بالإضافة إلى العرب الفاتحين والعرب الوافدين في موجات بعد أحداث الفتح طائفة من الأسبان المسالمة، وطائفة أعظم من العجم الذميين أو المستعربة، ثم البربر الذين دخلوا مع طارق أو الذين وفدوا إلى الأندلس بعد الفتح، إما بغرض الحصول على المغانم أو بهدف الاستقرار [(١)]، ثم طائفة اليهود، وقد تفاعلت هذه العناصر فيما بينها وحدث تمازج وتواصل ترتب عليه اندماج واضح المعالم في كيان المجتمع الأندلسى نتيجة لمصاهرة المسلمين الوافدين لأهل البلاد وظهور أجيال جديدة من المولدين ثمرة هذه المصاهرات واسعة النطاق. ولقد أسهمت هذه العناصر في البناء الاجتماعي لمجتمع شرق الأندلس منذ قيام الدولة الأموية وما تبع ذلك من فترات تداخلت فيها العناصر تداخلا من الصعب تمييزه بعد سقوط الخلافة بقرطبة وقيام دويلات الطوائف.

وإن كان العنصران الصقلبي والمولد كانا أكثر العناصر وضوحاً ، وبينما غلبت البربرية على مجتمعات وسط الأندلس وجنوبها الشرقي والغربي، ظلت مناطق شرق الأندلس يغلب عليها العنصران العربي والمولد فظهرت شخصيات تاريخية هامة لعبت دوراً هاماً في أحداث المنطقة في عصر دولتي المرابطين والموحدين أمثال بنو مردنيش وبنو هود. وفيما يلي عرض موجز للعناصر المكونة لمجتمع شرق الأندلس في العصر موضوع الدراسة.

أولا ـ المسلمون :

(أ) العرب:

دخل العرب الأندلس على موجات متتابعة تعرف بالطوالع منذ حملة موسى بن نصير في رجب سنة ٩٣هـ/٧١٢م، وكانت تتألف من ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر [(٢)]، وتبعت هذه الطالعة الأولى طالعة الحر بن عبد الرحمن الثقفي في ذى الحجة سنة ٩٧هـ/٧١٦م [(٣)]. وكان أغلب عرب هاتين الطالعتين من اليمنيين ، وسموا بالبلديين أو أهل البلد [(٤)]، وتلتها طالعة بلج بن بشر

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف، لبنان، ١٩٦٢، ص١١٩.

(٢) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن)، فتوح أفريقية والأندلس، نشر ألبرتو جاتو ، الجزائر، ١٩٤٧، ص٩٦.

(٣) المقرى، نفح الطيب، جـ٤، ص ١٣ (نقلا عن الرازى).

(٤) ابن القوطية (أبو بكر محمد)، تاريخ افتتاح الأندلس، نشر خوليان ريبيرا، مدريد، ١٩٢٦، ص ١٩ وما بعدها؛ انظر أيضاً: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، لمؤلف مجهول، نشر دون لافونتى ، القنطرة، مدريد، ١٨٦٧ ، ص ٢٣؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ١٢٠.

بن عياض القشيرى فى سنة ١٢٤هـ/ ٧٤٣م، وأغلبهم من العرب القيسيين ، ويذكر ابن القوطية أن عدداً من هذه الطالعة كان يقرب من عشرة آلاف، منهم ألفان من الموالى، وثمانية آلاف من العرب[١]، وقد سمى عرب هذه الطالعة بالشاميين تمييزاً لهم عن البلديين، ثم وفدت على الأندلس طالعة أخرى من الشاميين عددهم ثلاثون رجلا فى صحبة أبى الخطار بن ضرار الكلبى [٢].

وليس هناك من شك فى أن القبائل العربية اليمنية قد شكلت أغلبية عربية كبيرة فى المجتمع الأندلسى من لخم وجذام ويحصب وحضرموت وتجيب، الذين استقروا فى جنوب غرب أسبانيا وفى شمالها، فى حين استوطنت القبائل العربية المضرية والقيسية وأهمها تميم ومخزوم وكنانة وعرب قيس عيلان وكلاب فى شرق الأندلس [٣].

وسوف ندرس فيما يلى أهم القبائل العربية التى شكلت مجتمع شرق الأندلس فى الفترة موضوع البحث.

ومن أهم هذه القبائل العربية التى استقرت فى حواضر شرق الأندلس قبيلة معافر اليمنية ومن بطونها: بنو جحاف ببلنسيه، وبنو مفوز بشاطبة [٤].

وترجع شهرة أسرة بنى جحاف ببلنسية إلى عميدها جحاف بن يمن والى بلنسية فى عهد عبد الرحمن الناصر والذى استشهد فى موقعة الخندق فى عام ٣٢٧هـ/٩٣٩م فتولى أمر ولاية بلنسية من بعده ابنه عبد الرحمن[٥]. ومنذ ذلك الحين برزت من هذه العائلة شخصيات لعبت دوراً هاماً فى مصير هذه الحاضرة، وفى توجيه حركتها العلمية ، ومن أبرز هذه الشخصيات: أحمد بن جعفر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافرى (ت: ٥٤٧هـ)، الذى تولى قضاء بلنسية [٦]، وأحمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن جعفر بن عبد الرحمن بن جحاف المعافرى (ت : ٥٤٧هـ) والذى استقضى ببلده مرتين [٧]، وعبد الله بن عبد الرحمن بن

---

(١) ابن القوطية، نفس المصدر، ص ١٥ ؛ السيد عبد العزيز سالم، نفس المرجع، ص ١٢٠.

(٢) ابن القوطية، نفس المصدر، ص ١٩ ؛ السيد عبد العزيز سالم، نفس المرجع، ص ١٢٠.

(٣) ابن حزم الأندلسى (أبو محمد علي بن سعيد) ، جهرة أنساب العرب، دار المعارف بمصر، ١٩٤٨، ص ٣٩٢-٣٩٣؛

Guichard (Pierre), Al Andalus, Estructura, Antropologica de una soicedad islamica en Occidente, Barcelona, 1976, p. 338.

(٤) ابن حزم ، المصدر السابق، ص ٣٩٣.

(5) Julian Ribera y Tarrago, Disertaciones y opusculos t. II, Madrid, 1928, p. 218.

(٦) ابن الآبار، المعجم، ص ٣٦، ت: ٢٣.

(٧) ابن عبد الملك المراكشى، الذيل والتكملة، السفر الأول ـ القسم الأول، ص ٨٤، ت : ٩٥.

عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافرى، وكان فقيهاً مشاوراً وولى قضاء بعض مواضع ببنلسية[1]، وطارق بن موسى بن طارق من ولد يمن بن سعيد المعافرى والد جحاف بن يمن (ت: ٥٦٦هـ)، وكان يقرئ بالمسجد الجامع ببلنسية، وتولى الحسبة والمواريث[2]. ومما لا شك فيه أن هذه العائلة كان لها نفوذاً كبيراً فى بلنسية وعند سقوط هذه المدينة فى يد خايمى الأول، كان لا يزال يطلق اسمها على أحد الأحياء الرئيسية بالمدينة Vicus ben Chafah ، فضلا عن عدد لا يستهان به من البيوت الخاصة بعائلة بنى جحاف [3].

أما أسرة بنى مفوز، فقد استقرت فى شاطبة ، ونبغ منهم فى الفقه والأدب شخصيات تقلدت مناصب القضاء فى شاطبة وغيرها من حواضر شرق الأندلس وبرز منهم : طاهر بن حيدرة بن مفوز بن أحمد بن مفوز المعافرى (ت: ٥٥٢هـ) الذى تولى قضاء شاطبة وجزيرة شقر معها [4]، وأخوه محمد بن حيدرة بن مفوز بن أحمد بن مفوز المعافرى الذى يصفه ابن الآبار بقوله : «أحد الحفاظ بل خاتمتهم بالأندلس للحديث وتعلله، والمبرزين فى صناعته معرفة بمعاينة وحفظاً لأسماء رجاله»[5]، ومفوز بن طاهر ابن حيدرة بن مفوز بن أحمد بن مفوز المعافرى (ت : ٥٩٠هـ) ، وكان فقيهاً مشاوراً فصيحاً بليغاً جميل الشارة حسن السمت جليل القدر وقد تولى القضاء بشاطبة [6].

كذلك استقر بنو تجيب وهم بطن من كندة [7]، بادئ ذى بدء بمدينة سرقسطة ودروقة وقلعة أيوب [8]، ثم نزحوا إلى حواضر شرق الأندلس واستقر معظمهم فى مرسيه، وكان جلهم من الأدباء والفقهاء وقد تقلد بعضهم مناصب إدارية هامة بها، ومن أبرزهم أحمد بن عبد الرحمن ابن عيسى بن إدريس التجيبى الذى ولى قضاء الجزيرة الخضراء ثم أسند إليه قضاء شاطبة فدانية [9]، وصفوان ابن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبى (ت: ٥٩٨هـ) وكان من جلة الأدباء والبلغاء ومهرة الكتاب[10]، وعبد الله بن مروان بن أحمد بن مروان بن محمد

---

(١) ابن الآبار، المعجم، ص ٢٧٤، ت: ١٣٦٦.

(٢) ابن الآبار، التكملة، ص ٨٤، ت: ٢٧٨.

(3) Ribera y Tarrago, op.cit., t. I, p. 208.

(٤) ابن الآبار، المعجم، ص ٩١، ت ٧٧؛ وراجع له أيضاً: التكملة، ص ٨١، ت : ٢٧١.

(٥) ابن الآبار، المعجم، ص ٩٤، ت : ٨١.

(٦) ابن الآبار، التكملة، ص ٤١٠، ت : ١١٨١.

(٧) عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، جـ١، المكتبة الهاشمية، دمشق، ١٩٤٩، ص ١١٦.

(٨) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٠٤.

(٩) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٨٥، ت : ٨٨٣.

(١٠) نفس المصدر ، ص ٤٢٩، ت : ١٢٣١؛ وراجع أيضاً: ابن سعيد، المغرب، جـ٢، ص ٢٦٠.

بن مروان ابن عبد العزيز التجيبي من أهل بلنسية (ت : ٥٩٣هـ) عنى بعقد الشروط وتولى قضاء شبرب Segorb [١]. ومحمد بن أحمد بن غالب بن خلف بن محمد ابن عبد الله التجيبي (ت : ٥٣٠هـ)، وكان عالماً بالفرائض والحساب مشاركاً في الطب [٢]، وعبد الله بن محمد بن علي بن خلف بن أبي الفرج التجيبي من أهل شاطبة (ت : ٥٧٤هـ)، ولي الأحكام ببعض جهات بلده ، وكان من أهل المعرفة بالمسائل والبصر بالشروط [٣].

ومن بين اللخميين الذين استقروا بمرسيه ، محمد بن أحمد بن محمد بن أبي العافية اللخمي (ت : ٥٥٨هـ)، وكان صدراً في الشورى مدرساً للمذهب ذا نباهة ونزاهة [٤]، تولى الإفتاء بمرسيه مدة [٥]، وأحمد ابن إبراهيم بن محمد بن عيسى بن سعد الخيرى الأنصارى (ت بعد ٥٩٣هـ)، من أهل بلنسية وكان بارعاً في الحساب والهندسة وفرائض المواريث وكان لا يدانى في ذلك، وعرف بالصلاح والدماثة والعدالة ووفور العقل [٦]. ومنهم علي بن عبد الله بن خلف بن محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الملك الأنصارى (ت : ٥٦٧هـ)، وكان أحد كبار العلماء بشرق الأندلس في عصره، وكان مقرئاً مجوداً، مفسراً محدثاً، راوية حافظاً، فقيهاً مشاوراً، بارعاً في علوم اللغة وقد تولى الخطبة بجامع بلنسية [٧]، ومنهم أحمد ابن علي بن يحيى عون الله الأنصارى (ت : ٦٠٩هـ) من أهل بلنسية وكان واحداً من أشهر المتخصصين في القراءات «ولم يكن أحد من أهل صناعته يدانيه في الضبط والتجويد والاتقان وحسن الأداء، تصدر للإقراء في حياة شيوخه ورأس في ذلك أهل عصره» [٨].

أما بطون الخزرج، فقد توطنت في مدينة شارقة ، وبسبب ذلك عرفت هذه المدينة بقلعة الأشراف [٩]، وقد برز منهم أحمد بن طاهر بن علي بن عيسى الأنصارى الخزرجى من ولد قيس بن سعد بن عبادة (ت : ٥٣٢هـ)، الذى أسندت

---

(١) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٨٥، ص ٤٩٩.
(٢) ابن الآبار، نفس المصدر، ص ١٦٤، ت :٥٨٠.
(٣) نفس المصدر، ص ٤٨٦، ت : ١٣٩٥.
(٤) ابن الآبار، المعجم، ص ١٧٢، ت : ١٥٥.
(٥) الضبي، بغية الملتمس، ص ٤٣، ت : ٣٤.
(٦) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، ص ٦٣، ت : ٤٤.
(٧) نفس المصدر، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٢٢٦، ت : ٤٤٥.
(٨) ابن عبد الملك، المصدرالسابق، السفر الأول، القسم الأول، ص ٣٤٢، ت : ٤٣١.
(٩) ابن الآبار، المعجم، ص ١٤، ت : ١٢؛ وراجع أيضاً:

Julian Ribera y Tarrago, op.cit., t. II, p. 211;

شارقة تقابل Jérica في محافظة Castellon؛ انظر :

Miguel Asin Palacio, contribucion a la toponimia A'rabe de Espana, Madrid, 1944, p. 115.

إليه خطة الشورى بدانية [1]، وعبد الرحمن بن العاصى الأنصارى الخزرجي من ولد سعد بن عبادة ، وكان فقيهاً جليلا تولى الأحكام بشارقة [2] ومحمد بن أحمد بن محمد الذى يرفع نسبه كذلك إلى سعد بن عبادة الخزرجي (ت : ٥٦٧هـ) ، وأصله من شارقة وانتقل للإقامة ببلنسية ، وقد تقلد قضاء مربيطر مضافاً إليه الصلاة والخطبة بجامعها [3]. ومنهم محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن الفرج الأنصارى الخزرجى، استوطن مرسيه وتولى بها خطة الشورى سنة ٥٣٩هـ، ثم تولى بعد ذلك قضاء بلنسيه سنة ٥٤٦هـ [4]، ويحيى بن أحمد بن محمد بن أحمد بن طاهر الأنصارى (ت: ٦٣٤هـ)، من أهل دانية وإن كان قد سكن شاطبة ورأس فيها وتولى تدبير أمورها فترة من قبل محمد بن يوسف بن هود[5]. ومنهم الشيخ الأكبر العارف الزاهد أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الأنصارى المرسى (ت : ٦٨٦هـ) [6].

أما الأزد فقد استوطن عدد كبير منهم مرسيه، وبرز منهم عبد الرحمن ابن عبد الله بن موسى بن سليمان الأزدى (ت : ٥٨٧هـ) الذى تولى قضاء دانية مدة، وولى صلاة الفريضة والخطبة بجامع مرسيه زمناً طويلا بالإضافة إلى مشاركته فى تدريس الفقه [7]، وأحمد بن عبد العزيز بن محمد الأزدى (ت: ٥٦٤هـ) تولى خطة الشورى بمرسيه فى إمارة محمد بن سعد بن مردنيش، ثم تولى قضاء شاطبة مضافاً إليه قضاء أورويله ثم عزل عنها وأعيد إلى خطة الشورى بأوريولة ثم تقلد قضائها مضافاً إليها خطة المواريث [8]، ومنهم الطبيب عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن سعدون الأزدى ببلنسيه الذى عنى بالطب فبرع فيه [9]، وعبد الله بن موسى بن سليمان الأزدى المعروف بابن برطلة (ت : ٥٨٥هـ)، من أهل مرسيه وقد تولى الصلاة والخطبة بمسجدها الجامع [10]، والفقيه عزيز بن عبد الملك بن محمد خطاب، رئيس مرسيه، وكان من رجالات الأندلس وأهل الكمال والزهد فى أول أمره وأقبل على الآخرة ثم مالت به الدنيا وقدم لولاية مرسيه فلم تحمد سيرته فصرف عنها ثم صارت إليه رياستها مرة أخرى

---

(١) ابن الآبار، المعجم، ص ١٤، ت : ١٢.
(٢) ابن الآبار، التكملة، ص ٥٥١، ت : ١٥٥٦.
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٣٠، ت : ٧٥٣.
(٤) نفس المصدر، ص ٢٢٧، ت : ٧٥٠.
(٥) نفس المصدر، ص ٧٢٩، ت : ٢٠٦٧.
(٦) السيد عبد العزيز سالم، مدينة مرسيه موطن القطب الأعظم أبى العباس المرسى؛ وله أيضاً : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الطبعة الثانية، ١٩٦٩، ص ٤٧٥، هـ١.
(٧) ابن الآبار، التكملة، ص ٥٧٩، ت : ١٦٢٤.
(٨) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول، ص ٢٤٤، ت : ٣٢٥.
(٩) ابن الآبار، المصدر السابق، ص ٦٣٢،و ت : ١٧٦٨.
(١٠) نفس المصدر ، ص ٣٥، ت: ١٠٢.

فدبرها ودعا لنفسه وقد قتل فى رمضان سنة ٦٣٦هـ [١].

ومن الأوس، قسم من قبيلة بلحارث [٢]، وبرز منهم حيان بن عبد الملك بن محمد بن هشام الأنصارى الأوسى (ت : ٦٠٩هـ)، استوطن مرسيه ، وكان نحوياً لغوياً ، وأديباً شاعراً كذلك اشتغل بالإقراء زمناً بجامع بلنسية [٣].

ومن المضرية، الفهريين الذين استوطنوا بلنسية ، وقد برز منهم يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أيوب بن القاسم بن فيّره بن عبد الرازق الفهرى (ت : ٥٨٧هـ)، وكان يهتم بالرواية بالإضافة إلى نبوغه فى الآداب كما كان إماماً فى معرفة الشروط، كتب للقضاء وناب فى الأحكام [٤]، والفقيه محمد بن وهب بن لب الفهرى (ت : ٦١٣هـ) تولى الخطبة بجامع بلنسية واستقضى ببعض كورها [٥].

ومن كنانة ، نبغ أحمد بن عبد الرحمن بن أبى أحمد الكنانى (ت : ٥٧٤هـ) من أهل بلنسية، وكان يجمع بين النسب والحسب [٦] ، أقام بمالقة وكتب لابن همشك بجيان [٧]، والفقيه الطيب محمد بن الطيب بن الحسين بن هرقل العتقى الكنانى الذى سكن مرسيه (ت : ٦١٦هـ)، وكان عالماً مرموقاً شارك فى الآداب، ونوظر عليه فى كتب الرأى وأصول الفقه، وتقدم أهل بلده رياسة ورجاحة [٨]، ومنهم الفقيه خلف بن مفرج بن سعيد الكنانى، من أهل شاطبة ، ويعرف بابن الجنان، وكان فقيهاً مشاوراً ، تولى القضاء بإحدى الكور الشرقية لأبى أمية بن عصام [٩].

ومن بنى مخزوم، بنو عميرة ، الذين برز منهم أحمد بن عبد الله بن محمد ابن الحسين بن أحمد بن عميره المخزومى (توفى بتونس عام ٦٥٨هـ)، من أهل شقر، وكان شديد العناية بالرواية، ودرس على مشايخ عصره، وتفنن فى العلوم ونظر فى المعقولات وأصول الفقه، وبرع فى الآداب براعة «عد بها من كبراء مجيدى النظم» [١٠]، كما برز فى الكتابة وله فيها المطولات المنتخبة والقصار

(١) ابن الآبار، المعجم، ص ٢٢٦، ت : ٢٠٦؛ وله أيضاً : التكملة، ص ٤٧٩، ت : ١٣٨٤.
(٢) انظر : عمر رضا كحالة، المرجع السابق، ص ٤٩.
(٣) ابن الآبار، التكملة، ص ٣٩، ت : ١٢٢.
(٤) ابن الآبار، التكملة، ص ٧٣٥، ت : ٢٠٨٥؛ ابن الزبير (أبو جعفر أحمد)، القسم الأخير من كتاب الصلة، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال ، الرباط، ١٩٣٨، ص ٢٠٧.
(٥) ابن الآبار، التكملة، ص ٣١٠، ت : ٩٣٢.
(٦) ابن عبد الملك، المصدر السابق، القسم الأول، السفر الأول، ص ١٩٧، ت : ٢٧٠.
(٧) نفس المصدر والقسم والسفر والصفحة.
(٨) ابن الآبار، التكملة، ص ٧٩، ت : ٢٦٥.
(٩) ابن الآبار، التكملة، ص ٥٠، ت : ١٦٨.
(١٠) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول، ص ١٥٠، ت : ٢٣١.

المقتضبة [1]، وقد وصفه ابن سعيد فقال: «هو الآن عظيم الأندلس فى الكتابة، وفى فنون من العلوم، وقد كتب عن زيان بن مردنيش والى مرسيه» [2].

وقد برز من قيسية شرق الأندلس عدة شخصيات لعبت دوراً هاماً فى الحياة العلمية وشاركت فى دفع الحركة العلمية بشرق الأندلس فى الفترة موضوع الدراسة نذكر منها الفقيه عمر بن محمد بن وبجب القيسى البلنسى (ت : ٥٥٧هـ) صاحب الأحكام ببلنسية ، وقد استقضى بآخر عمره فى دانية فى ولاية محمد بن سعد بن مردنيش [3]، والمحدث أحمد بن أبى الحسن محمد بن عمر بن محمد بن واجب بن عمر بن واجب القيسى البلنسى (ت : ٦١٤هـ) الذى استقضى بشاطبة ثم ببلنسية مرتين ، وعرف بالعدالة [4]، والفقيه محمد بن عبد العزيز بن محمد بن واجب القيسى البلنسى (ت : ٥٣٣هـ)، ولى القضاء بقسنطانية وغيرها من جهات شرق الأندلس [5]، ومحمد بن عمر بن محمد بن واجب القيسى البلنسى ، ولى القضاء بعدة مواضع من بلنسية ، وقدم للشبورى والخطبة بمسجدها الجامع، كما تولى النيابة فى الأحكام [6]، ومحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسى من أهل مرسيه، وتقلد رئاستها إبان الفتنة التى أعقبت سقوط دولة الملثمين بفترة قصيرة ثم تخلى عنها بعد ذلك[7]. ومحمد بن عمر بن محمد بن واجب بن عمر بن واجب القيسى (ت: ٥٤٠هـ) الذى تولى قضاء أوريولة والش من كورة بلنسية [68]. وعمر بن عبد العزيز بن خلف بن أبى العيش من أهل لورقة الذى تولى قضاءها فترة [9].

ومن قضاعة ظهر عدد من الشخصيات البارزة فى المجتمع البلنسى نخص بالذكر منهم سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان بن أحمد ابن عبد السلام الحميرى الكلاعى (ت : ٦٣٤هـ) ، والذى يصفه ابن عبد الملك بأنه «كان بقية

---

(١) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول، ص ١٥٠؛ وانظر أيضاً فى ترجمته: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص ١٧٣؛ الغبرينى، عنوان الدراية، ص ١٧٨؛ ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، ص ٦٢، ت : ٦.

(٢) ابن سعيد، المغرب، جـ٢، ص ٣٦٣.

(٣) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الخامس، القسم الثانى، ص ٤٦٧، ت : ٨١٧؛ وراجع أيضاً: ابن الآبار، التكملة، ص ٦٥٥، ت : ١٨٢٤؛ ابن الزبير، صلة الصلة، ص ١٦٥، ت : ٣٢١.

(٤) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الثانى، ص ٤٧٠، ت : ٧١٣.

(٥) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٠٧، ت : ٧٠٣، وقسنطانية قرية من أعمال مدينة دانية؛ راجع : ابن الآبار، التكملة، ص ٣٨٨، ت : ٩٨٨ .

(٦) ابن الآبار، نفس المصدر، ص ٢٥١، ت : ٨١٣.

(٧) نفس المصدر، ص ٢٣٨، ت : ٧٧٤.

(٨) ابن الآبار، التكملة، ص ١٧٦، ت : ٦١٨.

(٩) الضبى، بغية الملتمس ، ص ٣٩٥، ت : ١١٦٧.

الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقية ، حافظاً للحديث مبرزاً في نقده تام المعرفة بطرقه ضابطاً لأحكام أسانيده، ذاكراً لرجاله وتواريخهم وطبقاتهم» [١]، كما كان كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً وخطيباً مصقعاً، تولى الخطبة بجامع بلنسية فترة، كما تولى القضاء بها [٢]، ومنهم عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي (ت : ٦١٩هـ)، وأصله من أنده واستوطن بلنسيه، وهو والد الكاتب المؤرخ أبي عبد الله بن الآبار، وكان القاضي أبو الحسن بن واجب يستخلفه على الصلاة بمسجد السيدة ببلنسيه [٣]، ومنهم محمد بن علي بن الزبير بن أحمد بن خلف بن أحمد بن عبد العزيز بن الزبير القضاعي وأصله أيضاً من بلدة أندة واستوطن مربيطر ، وكانت له مشاركة في علم الفرائض والحساب[٤]، ونختتم شخصيات هذه الأسرة بالأديب الكاتب المؤرخ محمد ابن عبد الله القضاعي ابن الآبار الذى سنتحدث عن سيرته في الفصل الثالث من هذا الباب.

أما بنو حارث، فقد استوطنوا أندة، وظهر منهم عبد الله بن سليمان بن داوود ابن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر بن خلف بن حوط الله الأنصارى الحارثى (ت : ٥٤٩هـ)، الذى كان إماماً في صناعة الحديث، وتولى في أوقات مختلفة قضاء قرطبة وأشبيلية ومرسيه وسبتة وسلا وغيرها من حواضر المغرب والأندلس[٥]، وداوود بن سليمان بن داوود بن عبد الرحمن ابن عمر بن خلف بن عبد الله بن عبد الرؤوف ابن حوط الله الأنصارى الحارثى (ت : ٥٢١هـ) الذى تولى قضاء الجزيرة الخضراء وغيرها، ثم ولي قضاء بلنسية، فمالقة حيث توفي [٦].

كان عرب شرق الأندلس ومعظمهم من اليمنية يشتغلون إما بالفلاحة أو بالتجارة كما أن بعضهم اشتغل بالأدب والعلم ، وقد ترك العرب في شرق الأندلس بصماتهم واضحة في أسماء بعض القرى الحالية التى كانوا ينزلون بها مثل بنى قيس وبنى خلف وبنى كلاب وبنى سليم وبنى خليد وبنى عمر وبنى لمط وبنى محمد وغيرها[٧]. ويكفى أن نشير في هذا المجال إلى أسرة أبي العباس المرسى التى تنتسب إلى الخزرج وكانوا يعملون بالتجارة وظل شقيق أبي العباس المرسى حتى وهو في

---

(١) ابن عبد الملك، المصدر السابق، بقية السفر الرابع، ص ٨٣، ت : ٢٠٣.

(٢) نفس المصدر والسفر والصفحة؛ وراجع أيضاً: ابن الآبار، التكملة، ص ٧٠٨، ت : ١٩٩١؛ ابن سعيد، المغرب، جـ٢ ، ص ٣١٦؛ وله أيضاً: اختصار القدح المعلى، ص ١٩١ ، ت : ٥٨.

(٣) ابن عبد الملك، نفس المصدر، بقية السفر الرابع، ص ١٧٦، ت : ٣٢٩.

(٤) ابن الآبار، التكملة، جـ١ ، ص ٣٣٦، ت : ٩٨٤.

(٥) ابن الآبار، المصدر السابق، ص ٥٠٦، ت : ١٤٣٥.

(٦) نفس المصدر، ص ٦٣، ت : ٢٠٥.

(7) Miguel Asin Palacio, Contribucion de la Toponimia Arabe de Espana, pp. 80-90.

أفريقية يشتغل بالتجارة فى حين تفرغ أبو العباس نفسه للمعرفة والتصوف. ولا ننسى أن العناصر اليمنية آثرت الاشتغال بفلاحة الأرض والزراعة بحكم انتمائهم إلى بلاد عرفت قبل الإسلام بتقاليدها الزراعية كالأزد ولخم ومعافر [1].

ب ـ البربـــر:

تحمل البربر الصدمات الأولى فى فتوح الأندلس، وعليهم وقع العبء الأعظم فى هذه الفتوح، ذلك أن الجيش الذى قاده طارق كان قوامه الرئيسى من العناصر البربرية، التى ازداد حجمها بعد أن تكشفت نتائج المعارك الأولى مع القوط [2]، فتطاير إلى الأندلس عدد هائل من البربر التماساً للغنائم أو بهدف الاستقرار فى هذه البلاد الغنية، ومنذ ذلك الحين أخذت طلائع البربر تتوافد إلى الأندلس [3]، وأخذت تشكل العنصر الإسلامى الرئيسى فى أرض الأندلس والطائفة المتفوقة فى جملة الطوائف التى يتألف منها مجتمع الأندلس. وقد أورد ابن خلدون أسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش طارق عند دخول الأندلس، ، هى قبائل مطغرة ، ومديونة، ومكناسة، وهوارة وكلها من بطون زناتة [4]، ثم يضيف ابن حزم قائمة أخرى بقبائل البربر التى وفدت إلى الأندلس من بينها : مغيلة وملزوزة ونفزة، وأوربة ، ومصمودة[5]. وقد اتخذت هذه القبائل منازلها فى مناطق مختلفة من الأندلس بعضها يتسم بسهولة أرضه والبعض الآخر بوعورته وكثرة جباله أو قلة موارده ، فبينما نزل بنو البرزالى بقرمونة ، وبنو اليفرنى برندة وبنو هرزون فى شريش وبنو ذى النون بويذة ، وبنو رزين بالسهلة، وبنو عميرة بشاطبة، نزل بنو فرفرن بماردة ومدلين، وبنو الياس بشذونة واستوطن بعضهم الثغور، وبنو سالم بمدينة سالم، وبنو عوسجة، وبنو صبرون بن شبيب، وبنو وهب بن عامر، وبنو عزون، وبنو نعمان فى نواحى هذه المدينة وفى مناطق تضم شنتمريه والسهلة ووادى الحجارة، وتمتد شرقاً إلى تيروال والبونت وغرباً إلى مناطب طلبيرة وماردة وقوريه حتى المحيط عند قلنيره[6]، كما سكن عدد كبير من البربر شمالى نهرى تاجه والدويره[7].

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٤، ص ٧-٨.

(٢) لعل ذلك كان سبباً فى أن يتسم فتح الأندلس بالصفة الإسلامية بدلا من العربية إلى حد أن أحدهم صنف كتاباً عنوانه «Les Arabes n'ont jamais conquis l'Espagne» يشتمل على كثير من المغالطات التاريخية إذ استبعد العرب من عملية الفتح.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، وآثارهم فى الأندلس، ص ١٢٢.

(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١٨٠ وما بعدها.

(٥) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٦٣، ص ٤٦٧.

(٦) حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٣٨٤ وما بعدها؛ لطفى عبد البديع، الاسلام فى أسبانيا، العدد الثانى من سلسلة المكتبة التاريخية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٣٢؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص ٣٨.

(٧) أخبار مجموعة، ص ٣٨.

ومن المسلم به أن البربر لعبوا دوراً واضحاً ملموساً فى تاريخ الأندلس فإليهم يرجع الفضل فى نشر الإسلام والجهاد فى سبيله، ثم أنهم اختلطوا بأهل البلاد اختلاطاً وثيقاً ، وكانوا أعواناً للعرب فى تحقيق النقلة على نحو تجاوز كل تقدير فى الحسبان [١]. ويهمنا أن منطقة شرق الأندلس كانت أقل مناطق أسبانيا التى نزلها البربر، والظاهر أن سياسة الولاة العرب كانت تستهدف إنزالهم فى المناطق الوعرة وإقصائهم عن المناطق الخصبة التى استأثرت بها القبائل العربية وهذا يفسر ندرة أسماء القبائل البربرية التى استوطنت هذه المنطقة، واقتصارها على قبيلة نفزة التى نزلت بشاطبة وبرز منها عدد من الفقهاء والأدباء تولوا بعض الوظائف بها ، من بينهم الفقيه محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن مطرف بن أبى سهل بن ياسين النفزى (ت : ٥٩٠هـ)، وكان معدوداً فى الفقهاء والأدباء [٢]، ومحمد بن سليمان بن سليمان بن خلف الثغرى (ت : ٥٥٣هـ) وكان فقيهاً حافظاً للمسائل بصيراً بالفتوى أسندت إليه خطة الشورى بشاطبة [٣]، ومحمد بن أحمد بن عبيد الله النفزى (ت : ٦١٦هـ)، وكان فقيهاً جليلاً حافظاً للرأى والمسائل مدرساً لها ثقة عدولا [٤]، وإذا كان هناك من بين البربر من اشتغل بالأدب والفقه فإن العدد الأعظم ممن استقر منهم بشرق الأندلس وعلى الأخص بشاطبة كان يعمل بالرعى.

ونضم إلى هذين العنصرين العربى والبربرى جماعة الموالى الذين استقر بعضهم بشرق الأندلس منذ أواخر عصر الولاة، ومعظمهم وفد إلى الأندلس فى جملة من نزل الأندلس فى طالعة بلج بن بشر، وألفوا تكتلا موالياً لبنى أمية وكانوا عنصراً رئيسياً اعتمد عليه عبد الرحمن الداخل عندما نزل بالأندلس، وكان معظم هؤلاء الموالى من أهل الشام أو المغاربة البربر الذين دخلوا فى طاعة بنى أمية أو عمالهم [٥]. وقد لعب الموالى دوراً هاماً فى تاريخ الأندلس فى العصر الإسلامى إذ اعتمد عليهم بنو أمية وقلدوهم مناصب الدولة الهامة لتفانيهم فى خدمتهم وإخلاصهم لهم [٦].

وقد برز من هؤلاء فى منطقة شرق الأندلس ، محمد بن جعفر بن خيرة مولى رزق لابن فطيس القرطبى ، بلنسى (ت : ٥٤٧هـ) وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها [٧]، ومحمد بن محمد بن أبى السداد واسمه موفق مولى زاك اللمتونى (ت

---

(1) Levi - Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. I, Paris, 1950;

وانظر أيضاً: حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٣٩٠.

(٢) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٦٤، ت : ٨٣٧.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٠٥، ت : ٧٠٠.

(٤) نفس المصدر، ص ٣١٧، ت : ٩٤٧.

(٥) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص ١٢٢.

(6) Levi - Provençal, L'Espagne Musulmane au xe siecle, Paris, 1932, p.106, No. 10.

(٧) ابن الآبار، التكملة، ص ١٩٧، ت : ٦٧٣.

: ٦٤٢هـ)، من أهل مرسيه ، تولى قضاء مرسيه والنيابة فى الأحكام [١]، ومحمد بن يوسف بن سعادة مولى سعيد بن نصير مولى عبد الرحمن الناصر من أهل مرسيه (ت : ٥٦٦هـ)، وسكن شاطبة، ودارسلفه بلنسية وإليه أسندت خطة الشورى بمرسيه مضافاً إليها الخطبة بجامعها [٢]

جـ ـ المسالمة والمولدون :

كان لسياسة التسامح الحكيمة التى انتهجها الفاتحون المسلمون مع المغلوبين فى أعقاب الفتح عظيم الأثر فى دخول عدد كبير من الأسبان فى الإسلام، ونبذ كثير من أهل الذمة دينهم المسيحى، واعتنقوا الإسلام إما عن إيمان صادق بهذا الدين السمح الذى يدعو إلى المساواة والعدل والتكافل والتسامح بعد أن عانوا كثيراً فى العهود البائدة من الانقسامات الدينية والمظالم الاجتماعية التى كانت تفرضها عليهم الكنيسة القوطية أو تحقيقاً لمكاسب ذاتية يقتضيها الإقرار بالأوضاع الجديدة وإن كانوا لم يكرهوا قط على اعتناقه. والواقع أن الفاتحين لم يتعرضوا لأهل الذمة بضر، ولم يفرضوا عليهم الإسلام قهراً [٣]، باعتبارهم من أهل الكتاب [٤]. وعلى هذا النحو أقبل كثير من أهل أسبانيا على اعتناق الإسلام، وأصبحوا يشكلوا قسماً رئيسياً فى البناء السكانى الإسلامى فى شرق الأندلس، وساهموا بنصيب وافر فى تاريخ وحضارة هذه المنطقة.

وإلى جانب العناصر الإسلامية السابقة من عرب وبربر ومسالمة، ظهرت طبقة جديدة من المولدين كانت ثمرة مصاهرة المسلمين للأسبان [٥] منذ اللحظات الأولى من الفتح الإسلامى عندما أقبل الفاتحون على الزواج من الأسبانيات جرياً على السياسة التى انتهجها الفاتحون العرب فى الشام ومصر والعراق، وهى سياسة أثبتت فعاليتها فى تثبيت الفتوح العسكرية، إذ أن المعاهدات مع المغلوبين كانت عاملا رئيسياً فى تأليف القلوب وكسبها، وتلاحم الغالب بالمغلوب ونشر الإسلام بإتاحة ظهور جيل من المولدين المسلمين ثمرة هذا التلاحم الذى فرضه زواج المسلمين ببنات المغلوبين. وعلى الرغم من أن هؤلاء المولدين كانوا يتعصبون لأصولهم الأسبانية مثل بنو مردنيش وبنو همشك فى شرق الأندلس، كما كانوا يميلون إلى القشتاليين أو الأرغونيين ويرتبطون معهم بعلاقات سياسية ويتشبهون بهم متمسكين بذلك بأصولهم الأندلسية

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥٧، ت : ١٠٢٧.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٢٣، ت : ٧٤٦.

(3) Lévi - Provençal, op.cit., p. 32'

وراجع أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص ١٢٧ .

(4) Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 73.

(٥) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص ١٢٨ .

سيما بعد أن تغلبت على الأندلس عناصر بربرية مرابطية وموحدية ، وهذا ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن عصر الطوائف ظل قائماً خلال عصرى المرابطين والموحدين بدليل الثورات العنيفة التى قام بها أهل الأندلس فى كل مناطق الأندلس على المرابطين وبدليل المقاومة العنيفة التى قادها بنو مردنيش ضد كل سلطة الموحدين فى شرق الأندلس.

ثانياً ـ العجم أو المستعربون :

وهم النصارى الأسبان الذين عاشوا مع المسلمين ، يتكلمون لغتهم ويصطنعون ثقافتهم مع احتفاظهم بدينهم وحرية إقامة شعائرهم الدينية ، فعرفوا بالمستعربين أو المعاهدة، وعرفوا أيضاً بعجم الذمة ، وكان المستعربون يؤلفون طبقة كبيرة فى بداية الفتح الإسلامى للأندلس، غير أن عددهم أخذ يتناقص تدريجياً بازدياد حركة الدخول فى الاسلام، وإيثار عدد كبير من المستعربين الانتقال بثقافتهم العربية إلى المناطق الشمالية فيما حول الدويرة حيث أقاموا كنائسهم المستعربة المتأثرة معمارياً بالأسلوب الاسلامى القرطبى بحيث يصعب تمييز أسلوب عمائرهم من الأسلوب المعمارى الاسلامى [1]. ولقد لعب من بقى من هؤلاء المستعربين فى دار الاسلام دوراً بالغ الخطورة فى شرق الأندلس وفى غرناطة قبيل قيام الملك ألفونسو الأول المحارب بحملته الطويلة على الأندلس كما سبق أن رأينا ، وما كان من صدور قرار الأمير علي بن يوسف ابن تاشفين فى شأن تغريبهم.

ومما سبق يتضح لنا أن العصبيتين العربية والمولدة كانتا تشكلان الأكثرية العددية فى منطقة شرق الأندلس وأنهما استأثرتا بأهم الوظائف فى حواضر هذه المنطقة ، ولعل ذلك يفسر جنوح هذه المنطقة كثيراً إلى الانتزاء وإثارة القلاقل فى وجه الأمويين والمرابطين والموحدين ، أنفة من السيطرة البربرية الطارئة وتفوق النزعة الطائفية الأندلسية فى شرق الأندلس منذ انهيار سلطان الخلافة القرطبية وقيام دويلات الطوائف على النحو الذى أشرنا إليه عند حديثنا عن المولدين.

وينبغى قبل أن نترك هذا الموضوع الإشارة إلى أن هذه العناصر المولدية والمستعربة كانت تشتغل على السواحل بالملاحة وكان معظمهم من البحريين الذين أفادهم أصلهم الأسبانى بالاتصال بالسواحل المسيحية القطلانية والإيطالية والغالية، والاشتغال بالتجارة البحرية مع أهالى هذه السواحل، وقد سبق أن لعبوا دوراً هاماً فى قيام البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس فى عصر الدولة الأموية وعصر

(١) انظر : جوميث مورينو، الفن الإسلامى فى أسبانيا، ترجمة الدكتور لطفى عبد البديع والدكتور السيد عبد العزيز سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٤٢٥.

الطوائف [١]، كذلك اشتغل بعض هؤلاء المولدين والمستعربين أحياناً بالفنون الصناعية لا سيما صناعة الخزف المزدهرة فى بلنسية ومنيشة وبطرنة وكانت من الصناعات الأندلسية التقليدية.

ثانياً ـ الـــزى

ارتبطت الأزياء بالإنسـان ولازمته فى كل أدوار حياته، وكانت تختلف من صقع إلى آخر باختلاف ظروف البيئة والمناخ.

وعلى الرغم من اختلاف مناطق الأندلس الساحلية مناخياً عن المناطق الداخلية ، فإن السمة الغالبة هى الحرارة العالية خلال شهور الصيف والبرودة الشديدة خلال فصل الشتاء، وقد كان لذلك أكبر الأثر فى تباين الثياب الصيفية عن الشتوية، كذلك تختلف الأزياء باختلاف الظروف الاجتماعية فى المجتمع الأندلسى، فاتسمت ثياب الخاصة بالأبهة والفخامة من حيث المادة والزخرفة فى حين غلب مظهر البساطة على ثياب العامة، وهذا التقسيم ينعكس على دار طراز الخاصة المخصصة للسلاطين والخلفاء وكبار رجال الدولة ودار طراز العامة التى كانت أنوالها تخصص انتاجها لعامة السكان.

(أ) ألبسة العامة:

كان الرجال والنساء يرتدون فى فصل الصيف فوق الجسم مباشرة أقمصة مصنوعة من الكتان أو القطن يليها سراويل [٢] طويلة وضيقة لا تتجاوز الركبة ويحكم السروال بشريط أو حزام، وكان فى الإمكان استبدال القميص برداء فضفاض من النسيج الأبيض، وبينـما يرتدى الرجـال فوق ذلك صدرية من الشرب وهى نسيج رقيق Gilala, Malham، فإن النساء كن يلبسن قمصاناً من أنسجة رقيقة [٣].

أما فى الشتاء ، فكانوا يلبسون أقبية ثقيلة محشوة بالقطن أو حللا من أفرية الخراف أو الأرانب [٤].

---

(١) راجع : السيد عبد العزيز سالم(بالاشتراك مع أحمد مختار العبادى)، تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس، بيروت، ١٩٦٩، ص .

(٢) سروال والجمع ســـراويل، مشـــتق من الاصطلاح الفارسى شلوار ويعرف بالأسبانية Zara-guelles، راجع:

Dozy (R), Dictionnaire détaillé des noms des vêtement chey les arabes, Amesterdam, 1845, pp. 203-204.

(3) Lévi - Provençal, Espana musulmana, en Historia de Espana, dirigida por Roman Menéndea Pidal, tercera édicion, Espana, calpe, t. V, 1973, p. 275;

وانظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، صور من المجتمع الأندلسى فى عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة فى علب العاج، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد، المجلد التاسع عشر، ١٩٧٦/١٩٧٨، ص ٨٠.

(4) Lévi-Provençal, op.cit., t. v., p. 275.

وفيما يتعلق بكسوة الأقدام والسيقان، فكانت تتخذ الجوارب الصوفية الطويلة لكسوة الساق حتى أعلى الركبتين ثم ينتعلون نعالا من الجلد مبطنة باللباد وذلك فى فصل الشتاء، فى حين يتخذون نعالا من الخشب (١)، أو من القنب أو الحلفآء مزدوة بمشبك وتعرف بالقرق فى فصل الصيف (٢).

أما غطاء الرأس، وهو الذى يميز بين الرجال والنساء، فالأكثر شيوعاً فى شرق الأندلس أن الرجال يتركون رؤوسهم مكشوفة، وفى ذلك يقول ابن سعيد : «وأما زىّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم، لاسيما فى شرق الأندلس وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك، ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسيه حضرة السلطان فى ذلك الأوان، وإليه الإشارة، وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة، وهو حاسر الرأس، وشيبه قد غلب على سواد شعره، وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من ترك بعمة فى شرق منها أو فى غرب، وابن هود الذى ملك الأندلس فى عصرنا رأيته فى جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة»(٣). والأقلية منهم من يغطيها بكوفية من الكتان أو شاشية(٤) من اللباد.

أما غطاء الرأس عند المرأة فكان أكثر تعقيداً، إذ كن يضعن على رؤوسهن قبل كل شىء لفاف تدور حول الرأس ثبتت بها طرحة فضفاضة تسمى المقنعة (٥)، تتدلى على الكتفين ، أو خمار (٦) من الحرير ، يغطين به رؤسهن ينسدل على الوجه فيغطيه، وفى بعض الأحيان كن يضعن على رؤوسهن طرحاً تحجب العينين وتنسدل على الكتفين (٧).

أما الريفيون فكانوا يلبسون شاية فوق قميص من القطن يعرف باسم دراعة(٨) أو يتخذون جبة (٩) سميكة أو رداء من الصوف مفتوح كله أو معظمه من الأمام .

---

(1) Ibid, p. 276.

(٢) قرق والجمع قرقات، وبالأسبانية Alcorque، انظر: Dozy, op.cit., p. 53.

(٣) فى : المقرى، نفح الطيب، جـ١، ص ٢٠٧.

(٤) شاشية وهى الطاقية التى يضعها الفرد فوق الرأس ويلف حولها قطعة من القماش لتكون بهذه الطريقة العمامة، راجع: Dozy, op.cit., p. 240.

(٥) عرفت المقنعة فى الأندلس باسم Alquinal، راجع: Dozy, op.cit., p. 378.

(٦) خمار والجمع خمر، والخمار كل ما خمرت به المرأة رأسها من شقاق الحرير، انظر: عبد العزيز الأهوانى، ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٣٠؛ وراجع أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص ١٥٨.

(7) Lévi - Provençal, op.cit., pp. 179-214.

(٨) دراعة والجمع دراريع، وهى جبة من صوف مشقوقة المقدم؛ شاية والجمع شايات وتعرف بالأسبانية Saya - Sayo من اللاتينية Sagum، فسرها دوزى عباءة طويلة بدون أكمام كان يرتديها الفلاحون الأسبان وتعنى Sayo أيضاً جيب للسيدات ، راجع: Dozy, op.cit., pp. 179-214.

(٩) وهى بالأسبانية Aljuba-Jupa, Chupa, Jubon، وبالبرتغالية Aljuba وبالإيطالية Guippone, Guippa، وفى الفرنسية Jupe et Jupon.

ويضاف إلى هذا الزىّ فى فصل الشتاء صدرية لا أكمام لها [1].

والأحذية كانت لا تعدو قباقيب من الخشب مزودة بأشرطة من أفرية الشياة أو الأرانب تعرف بـ Qirgasa، وأحياناً يستخدمون النعال، أما لباس الرأس فى الريف فيقتصر فى الصيف على القلانس المصنوعة من القش المضفور وتنتهى من أدنى بحواف عريضة [2].

أما ثياب البيازرة فكانت أقمصة تصل حتى تغطى الركبتين تتكسر ثنياتها، أكمامها ضيقة عند المعصم وتختلف فى ذلك عن أكمام الجباب الواسعة ومن تحتها كانوا يرتدون سراويل ضيقة تصل حتى الأقدام [3].

ب ـ لباس الخاصة :

أخذت التقاليد البغدادية ابتداءً من القرن الثالث الهجرى (٩م)، تترك بصماتها على ملابس الطبقة الخاصة الثرية في الأندلس ، إذ تدفقت منتجات دور الطراز البغدادية على الأندلس مع التجار المشارقة الوافدين إلى الأندلس، فضلا عما أدخله المغنى زرياب من نظم مستحدثة فى الأزياء تخضع لعوامل الحرارة وتتناسب مع فصول السنة[4].

كان هذا التوجيه الإيجابى نحو التأنق فى الأردية باعثاً على إقبال المسلمين فى الأندلس نحو تطوير ملابسهم وأزيائهم، وقد ساعد على ذلك توفر الحرير الطبيعى والديباج والحلل الموشية بقرطبة وبجانة والمريه واشتغال هذه المدن بصناعته [5]. فمن

---

(1) Lévi - Porvençal, op.cit., p. 276.

(2) Ibid, p. 276.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، صور من المجتمع الأندلسى، ص ٧٩.

(٤) «فقد رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وجعلهم للملون من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة الكائن فى ست بقين من شهر يونيه الشمسى من شهورهم الرومية، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسى منها ثلاثة أشهر متوالية ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة، ورأى أن يلبسوا فى الفصل الذى بين الحر والبرد المسمى عندهم الربيع من مصبغهم جباب الخز والملحم والمحرر والدراريع التى لا بطائن لها لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر التى ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشى ثياب العامة وكذا رأى أن يلبسوا فى آخر الصيف وعند أول الخريف المحاشى المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة، وذلك عند قرص البرد فى الغدوات، إلى أن يقوى البرد فينتقلون إلى أثخن منها من الملونات، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء».

راجع: المقرى، نفح الطيب، جـ٤، ص ١٢٤.

(5) Salem (Elsayed Abdel Aziz), Algunos aspectos del Florecimientos economico de Almeria islamica durante el periodo de los taifas y de los Almoravides, Madrid, 1979, pp. 20-21.

المعروف أن صناعة الوشى والديباج كانت مزدهرة بقرطبة [١]. كما ازدهرت بها صناعة الديباج [٢]، أما الموشى المذهب الذى «يتعجب من حسنه أهل المشرق إذا رأوا منه شيئًا» [٣] فقد اشتهرت به مدينة مرسيه ، ثم اختصت المريه بصناعة الحرير الطبيعى لتوفر دود القز وأشجار التوت المقومان الرئيسيان لهذه الصناعة [٤]. ومن الواضح أن صناعة النسيج تطورت فى عصر دولة المرابطين تطوراً تشهد به النصوص التاريخية فيشير الإدريسى إلى أن طرز الحرير أو الأنوال وأنواع المنسوجات الحريرية بلغت فى المرية خلال الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى ثمانمائة نول، وشملت أنواع المنسوجات الحريرية، الحلل والديباج والسقلاطون والأصبهانى والجرجانى والسقور المكللة، والثياب المعينة والخمر والعتابى والمعاجر [٥]. وتسجل القطع التى وصلت إلينا من عصر الموحدين وعصر دولة بنى نصر بتقدم صناعة النسيج وغلبة التأثيرات المشرقية مصرية وعراقية وفارسية ، وقد ترتب على ذلك أن اتخذت النساء الحلل الموشية ملاحف وأردية مرصعة بصنوف الجوهر، وتفننت النساء فى صباغتها بالألوان الزاهية ومختلف أنواع الزخارف.

أما بالنسبة للرجال فقد كانوا حاسرى الرؤوس بوجه عام إلا أن بعضهم كان يضع الطيلسان [٦] أو غفائر الصوف [٧] الحمراء أو الخضراء، لأن الغفارة الصفراء كانت قاصرة على اليهود الذين حرم عليهم استخدام العمائم[٨].

ونستدل من النقوش الآدمية المحفورة على علب العاج الأندلسية من عصر الطوائف على أن الخاصة كانوا يرتدون جباباً فضفاضة تدور بأكمامها أشرطة مزخرفة، أما الرؤوس فحاسرة، ولكن شعورهم كانت تسدل على أصداغهم وجباههم لا فرق فى ذلك بين الرجال والنساء، وكانت للنساء ثياباً واسعة أشبه بالملاحف مشقوقة من الأمام ولكن كن يخرمنها بزنانير [٩].

---

(١) المقرى، المصدر السابق، جـ١ ، ص ٢٣٤.

(2) Lévi - Provençal, la description del Al-Andalus, Vol. XVIII, 1953, p. 65.

(٣) المقرى، المصدر السابق، جـ١ ، ص ١٨٧ ، جـ٤، ص ٢٠٧.

(4) Salem, op.cit., p. 21.

(٥) الإدريسى، صفة المغرب، ص ١٩٧؛ وراجع أيضاً: الحميرى، الروض المعطار، ص ١٨٤؛ المقرى، نفح الطيب، جـ١ ، ص ١٥٤؛

Salem, Ibid, p. 21.

(٦) نقاب أو حجاب مقور، مصنوع من الموسيلين يوضع فوق العمامة أو على الأكتاف ويتدلى على الظهر؛ راجع : Dozy, op.cit., p. 254, 278.

(٧) الغفارة عند ابن سعيد المغربى لا تعنى طاقية، ويرى دوزى أن الأندلسيين أطلقوا اسم غفارة على ما يعرف فى المغرب بشاشية مماثلة من الصوف الأحمر يلبسونها عادة دون عمامة؛ راجع:

Dozy, Ibid, p. 314.

(٨) المقرى (نقلا عن ابن سعيد)، المصدر السابق، جـ١ ، ص ٢٠٨.

(٩) السيد عبد العزيز سالم، صور من المجتمع الأندلسى، ص ٨٠-٨١.

ثالثاً ـ الأطعمة والأشربة

ظلت كتب الحسبة في الأندلس [1] مصدراً رئيسياً لاطلاعنا على الحياة الاقتصادية وعلى طبيعة الأطعمة والأشربة فى هذه البلاد، وبالإضافة إلى ما يتضمنه الشعر الأندلسى وبعض رسائل الأدباء من ذكر لبعض الأطعمة والأشربة المعروفة فى الأندلس خلال الفترة من القرن الثالث وحتى السابع الهجرى، إلى أن ظهر مخطوط مجهول المؤلف، قام بتحقيقه المستعرب البلنسى الأستاذ أويثى ميراندا عنوانه «كتاب الطبيخ فى المغرب والأندلس فى عصر الموحدين»[2]، والكتاب يتضمن مجموعة من البطاقات التى تصف ألواناً من الأطعمة والأشربة الشائعة فى المغرب والأندلس فى عصر دولة الموحدين ، وترجع أهميته إلى أن مؤلفه يتحدث فيه حديث العارف المطلع بدقائق الطعام[3].

ومن الجدير بالذكر أن الرخاء الاقتصادى الذى عمَّ الأندلس بصفة عامة وشرقه بصفة خاصة قد انعكس على شتى مناحى الحياة ، فأثر فى طبائع الناس، وقد عبر العذرى خلال حديثه عن مدينة بلنسيه، عن هذه الظاهرة أصدق تعبير حين قال: «لا تكاد ترى فيها أحداً من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهم، مليئاً كان أو فقيراً» [4]، فلقد كان لوفرة الانتاج الزراعى وتنوعه بالإضافة إلى تقدم الانتاج الصناعى وما صاحب ذلك من نشاط تجارى شمل حركة الصادر والوارد أعظم الأثر فى اطمئنان الناس إلى معاشهم وتطلعهم إلى الاستزادة من العلوم والآداب، والإقبال على المتع والترف وشهوات النفس والتأنق وتنمية الإحساس بالقيم الجمالية السمعية والبصرية وذلك بالإقبال على الطرب ومجالس الأنس وسماع الموسيقى والغناء، ويعبر العذرى عن ذلك بقوله «ولا تكاد تجد فيها (أى بلنسية) من يستطيع على شيء من دنياه إلا وقد اتخذ عن نفسه مغنية وأكثر من ذلك ، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغانى»[5].

ومن الطبيعى أن يواكب هذا الرخاء الاقتصادى والازدهار الفنى والأدبى التى

---

(١) السقطى (أبو عبد الله بن أبى محمد)، كتاب فى آداب الحسبة، نشر جورج كولان وليفى بروفنسال، باريس، ١٩٣١؛

Lévi - Provençal, Le traité d'Ibn Abdun, en Journal Asiatique, T. CCXX IV, Avril, Juin, 1934.

(٢) كتاب الطبيخ فى المغرب والأندلس فى عصر الموحدين ، لمؤلف مجهول، تحقيق الأستاذ امبروزيو ميراندا، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٦٥.

(٣) راجع: كتاب الطبيخ، ص ١٧-١٨ من مقدمة المحقق.

(٤) العذرى، ترصيع الأخبار، ص ١٨.

(٥) العذرى، ترصيع الأخبار، ص ١٨؛ وانظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، جـ٢، ص ١٠٩.

تعبير عنها مجالس الطرب والأدب لون من ألوان الترف الغذائي التى تتناسب مع هذه المجالات من حيث الأصناف المقدمة ومحتوياتها وطرق تقديمها خاصة عند طبقة أثرياء القوم.

ويتمثل هذا الترف الغذائي المذكور في كتاب «الطبيخ» المشار إليه ويحتوى أوصافاً كاملة ودقيقة لكل أنواع الأطعمة والأشربة التى كانت تقدم فى ذلك العهد، وفيما يلى عرض موجز لبعض أنواع الأطعمة والحلوى الشائعة فى الأندلس فى عصر الموحدين:

(أ) الأطعمة:

تعددت أصناف الأطعمة التى اختص بها أهل الأندلس زمن الموحدين كما وردت فى كتاب الطبيخ، فمنها اللحم المدقوق: مثل المركاس والبنادق والأحرش، ثم أطباق الشواء فاللحم المطهى، فألوان الأطعمة المطهية ، وأطباق التفايا والمجبنات والمخبزات والجنبيصة وأطباق الخضر المختلفة كالباذنجان والبيض المحشو السكباج، بالإضافة إلى مختلف أطباق الحيتان والأسماك.

أما أطباق اللحم المدقوق، ومنها المركاس وهو أقرب ما يكون النقانق (السجق) فيؤخذ من لحم الفخذ أو السن من الضأن ويدق ثم يعجن فى قصعة مع قليل من الزيت والمرى النقيع مع إضافة فلفل وكزبرة يابسة وسنبل وقرفة، ثم يضاف إليه قدر ثلاث أرباعه من الشحم المقطوع أو المضروب على اللوح ويقلب الجميع حتى يمتزجا، ثم تأخذ هذه الخلطة ويحشى بها المصران المغسول المجرى بالخليط بآلاته المصنوعة لحشيه، ويصور أحجاماً صغيرة وكبيرة، ثم بعد ذلك يقلى بالزيت، فإذا نضج واحمر صبت عليه مرقة مكونة من خل وزيت ويقدم للأكل ساخناً.(١)

أما البنادق، فمن الأطعمة الشائعة والمشهورة بجودتها وحسن مذاقها ، وتؤخذ من اللحم الأحمر المنقى من عروقه ، ويدق ويوضع فى طبق ويضاف إليه قليل من ماء البصل ويسير من الزيت والمرى النقيع بالإضافة إلى بعض التوابل كالفلفل والكزبرة اليابسة والكمون والزعفران ، مضافاً إليها عدة بيضات، ويحرك الجميع حتى يمتزج ويندق الجميع كباراً كأنها قطع من اللحم، ثم يوضع فى قدر نظيفة بها قليل من الزيت والخل ويسير من المرى والثوم والتوابل ويرفع على النار فإذا غلا يترك ساعة حتى يتم طبخه، ثم يرفع من على النار ويضاف إليه بيض مضروب وزعفران وفلفل، ويترك حتى يعقد ، ثم يقدم للأكل (٢).

ويؤخذ الأحرش ويعرف بمراكش باسم الأسفيريا من لحم الغنم الأحمر ويدق

(١) انظر : كتاب الطبيخ، ص ٢١.
(٢) كتاب الطبيخ، ص ٢٢-٢٣.

دقاً شديداً، ثم يعرك بالمرى النقيع والتوابل ويضاف إليه الشحم المقطع واللحم المقشر مدقوق ومقسوم وقليل من البيض قدر ما يلتف به الجميع ، ثم يصنع منه قرص على قدر الكف أو أصغر قليلا، ويقلى فى الزيت حتى يحمر، ثم يصنع له مرق بخل وزيت وثوم، ويترك بعضهم دون مرق [١].

أما أطباق الشواء فمتعددة منها شواء فى الطاجين، وشىّ الدجاج والخراف والأرانب ، أما أهم هذه الأطبان جميعاً فهى العجل المشوى الذى قدم إلى السيد أبى العلاء عند وروده إلى مدينة سبتة، وهو أن «يؤخذ كبش فتى سمين مسلوخ منظف يفتح بين فخذيه فتحاً ضيقاً ويخرج جميع ما فى جوفه من أحشائه برفق، ثم يدخل فى جوفه أوزة مشوية ، وفى جوف الأوزة دجاجة مشوية، وفى جوف الدجاجة فرخ حمام مشوى ، وفى جوف الفرخ زرزور مشوية وفى جوفه عصفور مشوى أو مقلو، كل ذلك شوية مدهونة بالمرقة الموصوفة للشعراء ويخاط ذلك الفتح ويدخل الكبش فى التنو حى، ويترك حتى ينضج ويحمر ويطلا بتلك المرقة ثم يدخل فى جوف عجل قد د منظف ويخاط عليه ويجعل فى تنور محمى ويترك فيه حتى ينضج ويحمر ثم حرج ويقدم » [٢].

ويتضمن كتاب الطبيخ ألواناً متعددة من اللحم المطبوخ منها ثردة من لحم وثردة من لحم وباذنجان وثردة من لحم بلفت وجوز ، وثردة من خروف بحمص وثردة برؤوس من سلق [٣].

أما أطباق التفايا فلون من ألوان الطعام المعروفة فى الأندلس زمن الموحدين ومنها أنواع متعددة، كالتفايا البيضاء الساذجة المسماة أسفيد باجة، والتفايا المبيضة باللوزو والتفايا المقلية المعروفة فى مراكش باسم «تاحصحصت» [٤].

هذا غير أطباق الخضر المختلفة المطبوخة، كما اشتهر طبق «البقية»[٥] Paella الذى يعتمد فى تكوينه على الأرز الموجود بوفرة فى إقليم بلنسيه ، فضلا عن الزعفران الذى تنتجه بكميات كبيرة.

أما أطباق الحيتان والأسماك، فقد حظيت أيضاً بنصيب وافر من اهتمام أهل شرق الأندلس فتعددت أصنافها وتنوعت تنوعاً شديداً وأصبحوا يتخذون من الأسماك ثريداً [٦] أو يحشونها فكان هناك الحوت المروج والحوت المعفر والبنادق والأحرش من

(١) نفس المصدر، ص ٣٢-٣٣.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) كتاب الطبيخ، ص ١١٤-١١٥.
(٤) نفس المصدر، ص ٨٦-٨٧.
(٥) هكذا يميل الباحثون إلى تسمية أصل هذا الطبق البلنسى المشهور باعتباره شكلا من بقايا الأطعمة المختلفة، راجع: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس، ص ٤٨٦.
(٦) كتاب الطبيخ، ص ٧٥.

الحوت، والبرانية بالحوت وطبق بيض السمك [١].

ب ـ أصناف الحلوى:

تعددت أصناف الحلوى في شرق الأندلس فكان يصنع منها الخبز المورق والقطايف والسكريات [٢]، والكسكسو والأرز والهرائس والفداوش والرفيس[٣] والكعك[٤]، والهريسة بأنواعها [٥].

جـ ـ الأشـربة:

بجانب الأطعمة وأطباق الحلوى وجدت أصناف متعددة من الأشربة كشراب العسل [٦]، وشراب الحرير والنعنع [٧]، وشراب الورد والبنفسج والريحان [٨] والعناب والتمر هندى والجزر والتفاح [٩] وغيرها.

رابعا ـ فن الغناء والموسيقى

حظيت الحركة العلمية والفنية بالأندلس باهتمام خاص من أمراء قرطبة وخلفائها، فتألقت الفنون وازدهرت العلوم والآداب وارتفعت الأذواق لدى الخاصة والعامة. ولقد اعتبر فن الغناء والموسيقى والرقص فى الأندلس منذ طليعة القرن الثالث الهجرى أكثر وسائل اللهو شيوعاً وتفشياً فى المجتمع الأندلسى، كما أن الرغبة فى التحصيل العلمى والاطلاع شملت جميع طبقات المجتمع الأندلسى فى مختلف أصقاع الأندلس، فلم تقتصر على طبقة معينة على نحو ما كان معروفاً فى المشرق، وإنما عمت الشعب كله، وليس أدل على ذلك مما ذكره القزوينى من أن غالبية أهل شلب Silves يعنون بالأدب، ويستطيع المرء أن يجد حراثاً قادرين على ارتجال الشعر[١٠]، ولم تكن مجالس الأنس التى يعقدها الكبراء والأعيان بقرطبة مجالس حقيقية ما لم يصحبها غناء على نغم عود أو مزمار وما يلى ذلك من حركات إيقاعية راقصة بطبيعة الحال [١١].

---

(١) نفسه ، ص ١٧٦ وما بعدها.
(٢) نفسه ، ص ٩٠ وما بعدها.
(٣) نفسه ، ص ١٧٩ وما بعدها.
(٤) نفسه ، ص ٢٣١.
(٥) نفسه ، ص ١٩١، ص ١٩٢.
(٦) كتاب الطبيخ، ص ٢٣٨.
(٧) نفسه ، ص ٢٤٠.
(٨) نفسه ، ص ٢٤١ وما بعدها.
(٩) نفسه ، ص ٢٤٦ وما بعدها.
(١٠) القزوينى، آثار العباد، تحقيق وستنفلد، جوتنجن، ١٨٤٧، ص ٣٦٤.
(11) Lévi - Provençal, Histoire, t. III, p. 448;
وانظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس، جـ٢، ص ٧٨.

ولا شك أن وفود المغنى زرياب إلى الأندلس فى إمارة عبد الرحمن الأوسط يمثل ثورة فنية واجتماعية كبرى فى الأندلس تركت بصماتها على فنون الغناء والطرب فى الأندلس فيما تبع ذلك من عهود ، يؤكد ذلك قول ابن خلدون «فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف، وطما منها بأشبيلية بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بأفريقية والمغرب»[١].

ومن المؤكد أن الاستقبال الحافل الذى قوبل به زرياب، وإنزاله منزلة حسنة فى بلاط الأمير، وضمان راتب شهرى له يقدر بمائتى دينار فضلا عن تخصيص عشرين ديناراً شهرياً لكل فرد من أبنائه، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف دينار كان يتسلمها كل عام بمناسبة الأعياد دون احتساب ثلاثمائة مد من الشعير والقمح كانت تمنح لها، وتخصيص دور بالحاضرة بمستغلاتها وبساتينها وضياعها مما يقدر بأربعين ألف دينار[٢] قد هيأ جواً ملائماً لزرياب ليخرج ما عنده ويعطى بدون حدود، مبتدعاً ومبتكراً فى فنون الموسيقى والغناء حتى أصبح صاحب مدرسة تسامى مدرسة إسحاق الموصلى فى بغداد، «وزرياب عندهم كان يجرى مجرى الموصلى فى الغناء وله طرائق أخذت عنه، وأصوات استفيدت منه، وألفت الكتب بها، وعلا عند الملوك هنالك بصناعته وإحسانه فيها علواً مفرطاً ، وشهر شهرة ضرب بها المثل فى ذلك» [٣]، حتى أن أحد الكتاب الأندلسيين ويدعى أسلم بن أحمد بن سعيد بن القاضى أسلم بن عبد العزيز صنف كتاباً فى أغانيه ، وفى طرائق غنائه وأخباره [٤].

ولسنا بصدد الحديث هنا عن الابتكارات الفنية التى استحدثها زرياب [٥] وفضله فى ترسيخ قواعد فنون الغناء والموسيقى فى الأندلس [٦]، وإنما أود أن أؤكد هذا النشاط الفنى الذى ترتب على قيام مدرسة زرياب قد صادف هوى فى نفوس كافة أهل الأندلس، حتى لقد أصبح من المألوف مشاهدة جماعة من الرجال أو النساء فى ظاهر المدن أو فى البساتين والمنيات وأبهاء القصور والمتنزهات فى ليالى الصيف الأندلسية يتطارحون الأشعار ويتساجلون النظم والإنشاد أو يطربون على المثانى والمثالث وما يسمعونه من الغناء [٧].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٧٦٦.

(٢) راجع: المقرى، المصدر السابق، جـ٤، ص ١٢١.

(٣) راجع: الضبى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة)، بغية الملتمس، دار الكاتب العربى، ص١٩٦٧، ترجمة ٣٢٧.

(٤) الحميدى، جذوة المقتبس ، ص ١٧٢؛ ابن حزم، كتاب طوق الحمامة فى الألفة والآلاف، ص١٨٦.

(٥) راجع: المقرى، المصدر السابق، جـ٤، ص ١٢٢.

(٦) المقرى، نفس المصدر والجزء، ص ١٢٤؛ وانظر أيضاً، السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، جـ٢، ص ١٩٠؛ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة)، بيروت، ١٩٦٠، ص ٣٩.

(٧) عبد الرحمن الحجى، تاريخ الموسيقى الأندلسية، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩، ص ٣٥.

ولا نشك فى أن مدرسة زرياب وفقت كل التوفيق فى غرس بذورها وترسيخ أصولها : فى سائر أنحاء الأندلس، ولم تلبث القيم الفنية الزريابية أن تعرضت مع مضى الزمن لعوامل التطور بعد أن امتزجت بالتقاليد المحلية الأمر الذى ترتب عليه قيام مدارس متعددة للغناء والموسيقى، وساعد على هذه النهضة الفنية الكبرى ظهور الشعر الغنائي الشعبى وأعنى به الموشحات والأزجال[1].

وعلى الرغم من أن عصر الطوائف يمثل قمة الاضمحلال والتفتت السياسى فى الأندلس إلا أنه كان عصر ازدهار وتقدم فى مجال العلوم والفنون والآداب، فقد تنافس ملوك الطوائف فيما بينهم على اجتذاب أشهر فنانى عصرهم وفحول أدباء الأندلس وشعراؤهم وكتابهم، وحاطوا أنفسهم بهالات من الفخامة والأبهة، وتشبهوا بالملوك والخلفاء، واستغرقوا فى ملذات الحياة، ومتع النفس دون أن يعبأوا بخطر الاسترداد المسيحى الوشيك، ويعبر ابن الكردبوس عن هذه الظاهرة بقوله : «وصادف أيامه (أى ألفونسو السادس ملك قشتالة) نفاقًا كثيراً بين المسلمين واختلافا عظيماً، وضعف بعضهم عن بعض إلا بمعونة الروم فبذلوا للفنش ما يجبه من الأموال ليعينهم على مناوئيهم بأنجاد الرجال، واللعين فى أثناء ذلك، لما بينهم فى الفتنة، مسرور، وهم مع ذلك مشتغلون بشرب الخمر واقتناء القيان، وركوب المعاصى وسماع العيدان»[2].

ازدهرت الفنون والآداب فى بلنسية فى عهد بنى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ازدهار لم تشهده من قبل، وكان لسحر طبيعة هذه الحاضرة من وفرة منازه وخمائل وكثرة سواقى وجداول مع رخاء شامل وعيش رغد ورفه كامل أعظم الأثر فى شيوع ألوان الترف بين الخاص والعام وإقبال على فنون الطرب والعلوم والآداب والإكثار من ارتياد مجالس الشراب فى نطاق هيأته الطبيعة الفاتنة بين الأدواح والخضرة والجداول، هذا الميل إلى المتع والملذات ينعكس تماماً على أهل هذه الحاضرة فعرفوا بمرحهم وإقبالهم على الدنيا، وفى ذلك يقول العذرى: «وقد اطبعت مدينة بلنسية بقلة الهم، لا تكاد ترى فيها أحداً من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهم، مليئًا كان أو فقيراً ، وقد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحات والفرج، ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شىء من دنياه إلا وقد اتخذ عن نفسه مغنية وأكثر من ذلك، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغانى ، ويقولون : عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك، وقد أخبرت أن مغنية بلغت فى بلنسية أكثر من ألف مثقال طيبة، وأما دون الألف فكثيرات» [3].

غير أن هذه الحياة التى تفيض بالمتع والمسرات ومجالس الطرب والأنس

---

(١) جودت الركابى، فى الأدب الأندلسى، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٨٦.

(٢) تاريخ الأندلس لابن الكرديوس، ص ٧٧.

(٣) العذرى، المصدر السابق، ص ١٨.

والمساجلات الأدبية لم تلبث أن توقفت إلى حين فى بداية عصر دولة المرابطين، وفى هذا المناخ المشبع بتأثير الفقهاء «استحال الفكر الحر، وذوت الثقافة والعلم»[1]، فكف الشعراء عن التغنى وعزفوا عن وصف مجالس الطرب وتوقف المغنون والمغنيات عن الغناء والإنشاد، فكسدت دولة الفنون وأصيبت الحركة الفنية فى السنوات العشر الأولى من عصر دولة المرابطين بنكسة موقوتة، ولكن تلك النكسة لم تستمر طويلا إذ سرعان ما أخذ ولاة المرابطين بمظاهر الترف وطوتهم حضارة الأندلس طياً ، فتخلوا سراعاً عن خشونتهم ونبذوا ما ألفوه فى المغرب من حياة الزهد والجفاف وراقتهم حياة الترف والفخامة ومتع النفس، فسبحوا فى بحرها الطامى، وعبوا من فيض ثقافتها وفنونها الزاهرة، واصطنع يوسف بن تاشفين فحول شعراء الأندلس واستقدمهم إليه بحاضرته مراكش إلى حد أنها أشبهت حاضرة بنى العباس فى صدر دولتهم، وتبدل بلاطه فى أمد قصير من بلاط يتسم بالخشونة والبساطة إلى بلاط متألق[2]. ثم أقبل المرابطون فى عهد ابنه عليّ على حياة الترف ولم يلبثوا إلا قليلا حتى شغفوا بتذوق هذا الترف، وبرع فى فن الموسيقى فى هذا العصر الموسيقى الأديب أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الدانى الأشبيلى (ت : ٥٢١هـ وقيل ٥٢٣هـ) وكان متقناً لعلم التلحين[3].

أما الموحدون فقد نهجوا نهجهم وبالغوا فى إقبالهم على حضارة الأندلس فتقدمت فى عهدهم الفنون وتألقت الآداب.

ولم تكن منطقة شرق الأندلس بمنأى عن هذا النشاط الفنى، فقد حظى فن الغناء والموسيقى برعاية حكامه، ففى إمارة محمد بن سعد بن مردنيش تقدمت هذه الفنون بفضل تشجيعه ورعايته، وأقبل هونفسه على حياة الترف ومجالس الأنس والرقص، «وانهمك فى حب القيان والزمر والرقص ... قالوا وكان له فتى اسمه حسن، ذو رقبة سمينة، وقفا عريض، فإذا شرب، كان يرزّ، ويعطيه بعد ذلك عطاء جزيلا»[4] . وفى ذلك يقول كاتبه المعروف بالسّالمى وكان يحضر شرابه ويخمر :

أدر كـــؤوس المدام والـرّز ∴ فـقـد ظفـرنا بدولة العـزّ
ونعم الكفّ من قـفـا حـسن ∴ فـإنهـا فى ليـانة الخـزّ
وصـاحب إن طلبت أخـدعـه ∴ فلم يكن فى بذله بمعتـزّ
انحنى على إخداعى فـأطربتنى ∴ وهـزّ عـطـفـى أيمـا هـزّ[5]

(1) Nicholson (R. A), A Literary History of the Arabs, London, 1907, p. 431.

(٢) ليفى بروفنسال، الاسلام فى المغرب والأندلس، ص ٢٤٧؛ وراجع أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، جـ٢، ص ١١١.

(٣) المقرى، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٠٨؛ وراجع أيضاً: حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية، قسم ٢، تونس، ١٩٦٦، ص ٢٢٧ وما بعدها.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ١٢٣.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ١٢٣.

وليس أدل على شغف أهل شرق الأندلس بالموسيقى عامتهم قبل خاصتهم فقيرهم قبل غنيهم، مما أورده ابن الخطيب فى الإحاطة، وملخصه أن رجلا من أهل شاطبة ، هاجر إلى مرسيه واشتغل بالبناء ثم التقى ذات يوم بقوم من أهل بلده ومن قرابته فدعاهم للمبيت عنده، واحتفى بهم «فاشترى لحماً وشراباً وضرب دفًا » (١)

وكان المغنون والمغنيات ينشدون الشعر أو الموشح أو الزجل على نغمات الموسيقى تصاحبهم الجوقة الموسيقية التى كانت فى أغلب الأحيان تتكون من عازف على العود، وعازف على الناى وضارب على آلة الدف أو بالصنج، وكانت هذه الجوقة تصحب المغنى أو المغنية حتى إذا وصل إلى الجزء الرابع من كل بيت رددته معه البطانة (٢).

أما عن الآلات الموسيقية المستخدمة فى الأندلس فى عهد الموحدين ، فقد عد الشقندى الآلات الموسيقية المستعملة فى أشبيلية وحدها وكانت تستعمل فى غيرها من بلاد الأندلس فيقول: «وقد سمعت ما فى هذا البلد من أصناف أدوات الطرب، كالخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكنيرة والفنار والزلامى والشقرة والنورة وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه، والبوق، وإن كان جميع هذا موجوداً فى غيرها من بلاد الأندلس، فإنه فيها أكثر وأوجد، وليس فى بر العدوة من هذا شىء إلا ما جلب إليه من الأندلس، وحسبهم الدف وأقوال والهيرا وأبو قرون ودبدبة السودان وحماقى البرابر » (٣).

خامساً ـ الاحتفالات والأعياد

كان أهل شرق الأندلس يحتفلون بعيدى الفطر والأضحى مثل سائر غيرهم من أهل الأندلس، فعيد الفطر يحتفل به عند ظهور هلال شوال الذى يعلن نهاية صيام شهر رمضان، أما عيد الأضحى فيحتفل به فى اليوم العاشر من ذى الحجة (٤).

وكان الاحتفال بكلا العيدين ، إلى جانب أداء الشعائر الدينية ، يأخذ صفة الأعياد الشعبية، إذ يخرج الناس إلى الشوارع والميادين والمتنزهات والأماكن العامة مرتدين أفخم الملابس، وغالباً ما تكون جديدة ابتهاجاً بالعيد، فضلا عن تجهيزهم

---

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ١٢٤.

(٢) ليفى بروفنسال، الاسلام فى المغرب والأندلس، ص ٢٨٢.

(٣) فى: المقرى، نفح الطيب، جـ٤، ص ٢٠٠؛ وانظر أيضاً: محمد المنونى، العلوم والآداب والفنون فى عهد الموحدين، معهد مولاى الحسن، تطوان، ١٩٥٠، ص ٢٣٩؛ عرف العود بأسماء مختلفة كالمزهر والبربط؛ راجع: فارمر (هنرى جورج) ، تاريخ الموسيقى العربية ، ترجمة دكتور حسين نصار، ص ٢٥.

(٤) عن هذين العيدين، راجع دائرة المعارف الاسلامية (مقال (E. Mittwock))، جـ٣، ص١٠٣٢-١٠٣٣.

منازلهم، على حسب إمكانية كل أسرة، موائد تضم أصنافًا متعددة من أطباق الأطعمة الشهية والحلوى [١].

إلى جانب هذين العيدين ، كانوا يحتفلون ببعض المناسبات الدينية كالاحتفال بليلة القدر والأعياد الأخرى كعيد العنصرة والنيروز، أو على الأقل يشاركون المستعربين في بعض أعيادهم.

من هذه المناسبات الاحتفال بليلة سبع وعشرين من رمضان ، ليلة القدر بشراء الحلوى، فيقول الطرطوشي : «ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان » [٢].

ومن الأعياد المسيحية التي كان يشارك فيها أهل شرق الأندلس والأندلس المستعربين في الاحتفال بها، أو كما يسميها ليفي بروفنسال الأعياد الفلكية منها : عيد النوروز أو النيروز، وهو من أصل فارسي، اتخذه الفرس لإحياء العام الجديد، ويوافق الاحتفال به أول السنة الجديدة عندهم في التقويم الشمسي الفارسي، ويقع عند الاعتدال الربيعي ودخول الشمس في برج الحمل أو عند ابتداء فصل الربيع [٣].

أما عن ميعاد الاحتفال بعيد النيروز في الأندلس، فيقول الأستاذ ليفي بروفنسال أنه كان يجرى في يوم الاعتدال الربيعي [٤]. ومن جهة أخرى فإن الأستاذ هنرى بيرس، يحدده باليوم الأول من شهر يناير [٥].

ولقد وصلت إلينا بعض الأخبار المتناثرة عن مظاهر الاحتفال بهذا العيد في الأندلس، فكانت الليلة التي تسبق عيد النوروز أكثر ملائمة للدخول بالزوجة، وكانوا يضعون في هذا اليوم خبزًا على شكل المدائن يقطعونه ويوزعونه كعطية، كما كان يخصص لكبار الشخصيات الأندلسية قصائد مديح شعرية [٦]. وهو نفس العيد الذى كان يحتفل به في شهر يناير ، وعن هذا الاحتفال يقول صاحب كتاب الدر المنظوم في مولد النبيّ المعظم : «وأضافوا للتحفي عنها بالسؤال والمحافظة عليها والإقبال، من بدع وشنع ابتدعوها ، وسنن واضحة أضاعوها، بموائد نصبوها لأبنائهم ونسائهم

---

(١) انظر : Lévi - Provençal, Espana musulmana, tomo, v. pp. 282-284.

(٢) الطرطوشي (أبو بكر محمد)، كتاب الحوادث والبدع، تحقيق محمد الطالبي، تونس، ١٩٥٩، ص ١٤٠-١٤١.

(٣) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، مقال (R. Levy)، جـ٣، ص ٩٤٩ وما بعدها.

(4) Lévi - Provençal, Espana musulmana, t.V, p. 229.

(5) Péres (H), La poesie andalusen arabe classique au XIe siecle, Paris, 1953, p. 303.

(٦) وانظر أيضًا:

Pérès, Ibid, pp. 303-304; Fernando de la Granja, Fiestas cristianas en Al-Andalus, Vol. XXX IV, Fasc I, Separata, 1969, p. 2.

وضعوها، وتخيروا فيها أصناف الفواكه وأنواع الطرف وجمعوها، وتهادوا فيها بالتحف التى انتخبوها، والمدائن التى صوروا فيها الصور واخترعوها، ونصب ذو اليسار نصبات فى الديار كما نصب أهل الحوانيت ، فنضدوها، فقوم أباحوا أكلها لياليهم وقوم منعوها، وجلوها كالعروس لا تغلق دونها الأبواب، وفى منصتها رفعوها، وبعضهم أكل من أطرافها، ثم باعوها، ولقد ذكر لنا غير واحد من المسافرين أن النصبة ببعض بلاد الأندلس ـ جبرها الله وأمنها ـ يبلغ ثمنها سبعين ديناراً ، أو يزيد على السبعين ، لما فيها من قناطير السكر وأرباع الفانيد وأنواع الفواكه، ومن غرائر التمر واعدال الزبيب والتين على اختلاف أنواعها وأصنافها وألوانها، ومن ضروب ذوات القشور من الجوز واللوز والجلّوز والقسطل والبلوط والصنوبر إلى قصب السكر ورائع الأترج والنارنج والليم» [1]. وعن أسباب هذه البدعة يقول العسفى : «وأرى أنه ما جرّ على أهل الأندلس هذا إلا جوار النصارى ـ دمرهم الله من جيران ـ ومخالطتهم لتجارهم ومكاشفتهم عند الكيتونة فى إسارهم ولذلك حذرنا من ترائى النيران» [2]، ويضيف : «وأقوى دواعيها مطاوعة الرجال للنساء على الاستعداد لها والفخيم لشأنها وانقيادهم لهن فى ذلك عاماً بعد عام حتى رسخت فى صدورهم وتصورت فى عقولهم وتاقت إليها أنفسهم» [3].

أما العيد الثانى فهو عيد المهرجان، وهو أيضاً من أصل فارسى، كان الفرس يحتفلون به فى آخر السنة حسب تقويمهم الشمسى، ويسمونه روز ميهر ومعناه محبة الروح، وكان من أكبر أعيادهم [4] وموعد الاحتفال به فى الانقلاب الخريفى ويسميه الأندلسيون بعيد العنصرة [5]، وقد أورد القاضى عياض فى ترتيب المدارك نصاً يشير إلى احتفال خلفاء الأندلس وسلاطينهم بهذا العيد جاء فيه أن «الناصر قد أنذر الخطباء والشعراء بحضور خيل الحلبة فى المهرجان، قال ابن هذيل: فجاءنى الأمر بذلك ، عشىّ نهارها، فخلوت بقية يومى والنصف من ليلتى، لم أنظم كلمة، فأويت إلى فراشى، فأخذتنى عينى ، فكنت أرى شخصاً فى المنام يقول لى : ترقد يا أبا بكر ولم يفتح عليك، ثم يقول:

مشاهد يلزمنا حضورها ∴ للخيل حتى تنقضى أمورها

---

(١) العسفى (أبو العباس وأبو القاسم)، كتاب الدر المنظوم فى مولد النبىّ المعظم، نشر فرناندو لا جرانخا، مجلة الأندلس، العدد ٣٤، ١٩٦٩، فصله، ص ٢٠-٢١.

(٢) نفس المصدر ، ص ٢١-٢٢.

(٣) العسفى، المصدر السابق، ص ٢٨.

(٤) راجع: البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد)، الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبعة إدوارد سخاو، ليبزج ١٨٧٨/١٨٧٩ ، ص ٢١٦-٢١٧.

(5) Enc. Islam, I, pp,. 531, (Art de PH. Marçais).

وهببت سريعاً وقد توقد خاطرى وافتتحت بهذا الابتداء ، وانثالت علىّ القوافى، فجئت بأرجوزة حسنة ، غدوتِ بها أول منشد » [1] .

ونخرج من هذا النص الهام بحقيقة أن الخليفة كان يشارك فى الاحتفاء برعاياه المستعربين فى عيدهم، إلى جانب إقامة سباق الخيل ومسابقات شعرية، وهذا يدل على مدى تعاطف السلطة الإسلامية الأندلسية ومشاركتهم رعاياهم المستعربين فى احتفالاتهم .

وصفوة القول أن الأندلسيين بمشاركتهم إخوانهم المستعربين فى أعيادهم بتناولهم مأكولاتهم والمساهمة فى إقامة بعض الألعاب والمسابقات، إنما يدخل من جانب الإسهام الاجتماعى والتسامح الدينى.

(١) القاضى عياض بن موسى بن عياض السبتى ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، نشر أحمد باكير محمود، المجلد الثانى (مجلدين فى أربعة أجزاء)، بيروت (بدون تاريخ)، ص ٥٥٢-٥٥٣؛ وانظر أيضاً:

Fernando de la Granjq, Fiestas Cristianas en Al-Andalus, Vol. XXXV, Fasc I, 1970, p. 126.

الفصـل الثانى
الحيـــاة الاقتصـــادية والفنيـــة

أولا : الزراعـــة.

ثـانـيـا : الصناعـــة.

ثـالـثـا : التجـــارة.

رابـــعا : التنظيمات الاقتصادية.

أولا ـ الزراعـــة

١ ـ عوامل وفرة المحصولات الزراعية في شرق الأندلس:

كان لاتساع رقعة أبارية (شبه جزيرة أيبريا) واتخادها شكل مثلث، يشغل الطرف الغربى من قارة أوربا وارتباطها بقارة أفريقيا عن طريق مضيق جبل طارق، وإطلال سواحلها الشرقية على البحر المتوسط والغربية على المحيط الأطلسى واختلاف طبيعة سطحها ما بين وديان وهضاب وسلاسل جبال، أعظم الأثر فى تنوع مناخها والتحكم فى نسبة أمطارها وفى اتجاه مجارى أنهارها نحو الغرب أو الشرق وبالتالى فى توزيع ثرواتها الزراعية، ومن المعروف أن وفرة مياه أباريه واتساع سهولها على الأخص فى شرق الأندلس وجنوبه، وتنوع درجات الحرارة فى مختلف الفصول كان من العوامل التى ساعدت على وفرة الانتاج الزراعى الذى تميزت به هاتان المنطقتان بوجه الخصوص.

ولقد أدرك الجغرافيون العرب هذا التباين فى طبيعة السطح وفى المناخ وفى الانتاج الزراعى، فهذا أحمد الرازى يعبر عن ذلك فى قوله: «الأندلس أندلسان فى اختلاف هبوب أرياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : أندلس غربى، وأندلس شرقى، فالغربى منهما ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربى وتمطر بالرياح الغربية،... والشرقى المعروف بالأندلس الأقصى وتجرى أوديته إلى الشرق، وأمطاره بالريح الشرقية»[١].

ونستنتج من هذا النص أن أباريه تنقسم إلى إقليمين مناخيين أحدهما رطب والآخر جاف، وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن أغلب الأندلس يقع فى المنطقة الجافة باستثناء الغرب البرتغالى الحالى والمنطقة التى تطل على المحيط الأطلسى. ولهذا فإن الزراعة ازدهرت فى الأندلس فى العصر الإسلامى.

وعلى الرغم من توافر المقومات الأساسية لقيام الزراعة فى الأندلس فإن تنمية الانتاج الزراعى لا يعتمد على هذه المقومات وحدها وإنما يستلزم الأمر رعاية خاصة من جانب الدولة الحاكمة ومن جانب الأفراد القائمين بالزراعة على السواء، وتقتضى دراسات عملية لأنواع النباتات والمحاصيل وخواصها وطرق استنبط أسرات نباتية جديدة

(1) Lévi - Provençal, La description de L'Esspagne D'Ahmad Al-Razi, Al-Andalus, Vol. XVIII, 1953, p. 66'

وراجع: ما أورده ابن غالب الأندلسى (نقلا عن الرازى)، فرحة الأنفس، ص ١٦؛ المقرى، نفح الطيب، جـ١، ص ١٢٨-١٢٩؛ وقارن ما قاله أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بابن النظام فى : المقرى، نفس المصدر والجزء، ص ١٢٩-١٣٠.

كما يقتضى أن يتعهد الأفراد الأرض بالعناية اللازمة لكى تحتفظ بخصوبتها وصلاحية ترتبها، وهذا العامل قد توفر كذلك، فلم يقتصر علماء المسلمين على دراسة تاريخ النبات وأسمائه، وصفاته وخواصه مما نقلوه عن الروم والنبط والفرس ومن الشرق الإسلامى، بل اهتموا بتطبيق ما نقلوه عملياً بالنبات من حيث غراسته، وتتبع مراحل نموه وطريقة معاملته ومعدلات تسميده، ومواعيد زراعته وحصاده، أى أنهم اهتموا بالفلاحة ودونوا ذلك فى مصنفاتهم التى أفادت بلا شك العاملين فى الحقل الزراعى، ككتاب «الزراعة» لابن وافد الطليطلى [1]، وكتاب «الفلاحة» لأبى عبد الله محمد ابن إبراهيم بن بصال المعروف بابن بصال الطليطلى [2] وكتاب «عمدة الطبيب فى معرفة النبات لكل لبيب» لمؤلف مجهول [3]، بالإضافة إلى كتاب تقويم باللغتين العربية واللاتينية بمعرفة العارب بن سعد والراهب المستعرب الذمى ربيع بن زيد، وهذا التقويم يشتمل على أخبار هامة حول أوجه النشاط الفلاحى فى كل شهر، وقد امتد أثر هذا التقويم الفلاحى فى كثير من مؤلفات علماء الفلاحة من الأسبان المستعربين[4]، وكتاب «زهر البستان ونزهة الأذهان» لأبى عبد الله محمد بن مالك المعروف بالتغنرى، المعروف باسم الحاج الغرناطى [5]، وكتاب «الفلاحة الأندلسية» لأبى زكريا بن محمد بن أحمد بن العوام الأشبيلى [6]. هذا إلى جانب عديد من المصنفات التى وضعت فى الفلاحة فى الأندلس ولم تصل إلينا. كذلك نستدل مما أورده ابن جلجل أن عدداً من الأطباء الباحثين كانوا يعنون بعلم النبات لاستخدام بعض النباتات في علم المرضى واستنباط العقاقير ويعرف هؤلاء الأطباء الصيادلة

---

(١) انظر :
Millas (Jose M.), Un Manuscrito arabe de la obra de agricultura de Ibn wafid, Tamuda, 2, 1954, pp. 87-96, 339-344;
وراجع أيضاً: Vernet (Juan), la cultura hispano-arabe en Oriente y Occidente, editorial Ariel. Barcelona, 1978, p. 254.

(٢) نشر هذا الكتاب وترجمه إلى الأسبانية وعلق عليه خوسيه ماريا مييكروسا ومحمد عزيمان، معهد مولاى الحسن، تطوان، ١٩٥٥.

(٣) راجع مقال آسين بلاثيوس Asin Palacios ؛ Glosario de las vocas registrados por un botanica anonimo hispano-musulmana (Siglo XI-III) Madrid, 1943.

(٤) راجع: ;Dozy (R), Le Calendrier de cordoue de l'année 961, Leyden, 1873
وانظر أيضاً: خوسيه ماريه مياس مييكروسا، علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالأندلس، تعريب عبد اللطيف الخطيب، تطوان، ١٩٥٧، ص ١٤.

(٥) راجع مقال: Millas (Jose M), Un nuevo manuscrito de la obra agronomica del al-tignari, tamuda, Vol. I, 1953, pp. 85-86.

(٦) قام بنشره وترجمته إلى الأسبانية Benqueri عام ١٨٠٢، ثم ترجمه إلى الفرنسية Glement Mallet ونشره بباريس فى جزئين سنة ١٨٦٤-١٨٦٦.

بالشجارين منهم من كان عرف زمن الناصر الأموى بالبسباس وأبو عثمان حجر وعبد الرحمن بن إسحاق بن هيثم [١]

ومما لاشك فيه أن ظهور المصنفات المتعلقة بفلاحة الأرض والتشجير ساعد على وفرة المحاصيل الزراعية وغلبة الخضرة فى كافة أنحاء الأندلس، وأدى ذلك بالتالى إلى امتداد العمران، ويعبر ابن سعيد عن ذلك بقوله: «فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحارى فيها معدومة، ومما اختصت به أن قراها فى نهاية من الجمال لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبييضها، لئلا تنبو العيون عنها» [٢]. فهى كما وصفها الوزير ابن الحمارة :

لاحت قراها بين خضرة أيكها ∴ كالدربين زبرجد مكنون [٣]

كانت بلاد شرق الأندلس أكثر أراضى الأندلس خصوبة فكانت بستان الأندلس بمعنى الكلمة فى العصر الإسلامى وعليها تعتمد أسبانيا فى الوقت الحاضر فى التسويق الداخلى والخارجى، وقد ساعد على ذلك طبيعة أرضها السهلية، واعتدال مناخها، وتوافر المياه لكثرة أنهارها الجارية، فكورة بلنسية وحاضرتها مدينة بلنسية أرضها سهلية مستوية [٤]، على نهر جار ينتفع به ويسقى المزارع ولها عليه البساتين والجنات [٥]، ولخصوبة أرضها وصلاحيتها للفلاحة عرفت بـ «مدينة التراب» [٦]، وبقعتها بقعة طيبة [٧]، كثرت بها البساتين والمنيات، فأطلق الأندلسيون عليها «مطيب الأندلس» [٨]، وفيها يقول شاعرها ابن غالب أبو عبد الله الرصافى :

خليلى وما للبيد قد عبقت نشراً ∴ وما لرؤوس الركب قد رنحت سكراً

هل المسك مفترقاً بمدرجة الصبا ∴ أم القوم أجروا من بلنسيه ذكـراً [٩]

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، جـ٢، ص ٢٠٧–٢٠٨.
(٢) فى المقرى، نفح الطيب، جـ١، ص ١٩٠.
(٣) نفس المصدر والجزء، ص ١٩١.
(٤) الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٧.
(٥) الإدريسى ، المصدر السابق، ص ١٩١ ؛ وانظر أيضاً: الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٧
(6) Lévi - Provençal, La description de l'Espagne D'Ahmad Al-Razi, pp. 71-72;
وراجع أيضاً: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٦ ؛ ياقوت الحموى، معجم البلدان، م٢، ص٢٧٥ ؛ المقرى، المصدر السابق، جـ١ ، ص ١٦٨ ؛ حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٦٦، ص ٦٨.
(٧) مخطوط جغرافية الأندلس لمؤلف مجهول، لوحة رقم ٣٣، ٣٤.
(٨) ابن سعيد، المغرب، جـ٢، ص ٢٩٧ ؛ المقرى، المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٠٧
(٩) فى: ابن سعيد، نفس المصدر، جـ٢، ص ٢٩٨

وتميزت أعمال هذه الكورة بالخصب وتعدد الضياع والبساتين، فشقر Jucar مدينة حسنة البقعة، كثيرة الأشجار والثمار والأنهار [١]، ويصفها صاحب «معجم البلدان» بقوله : «هي أنزه بلاد الله وأكثرها روضة وشجراً وماء» [٢]. وشاطبة مدينة عامرة بالبطاح والأنهار [٣]، كان يخترق بطاحها واد أقيمت عليه النواعير وكانت بساتينها ممتدة فيما حولها كما كانت تتميز بالزرع والضرع والثمرة [٤]. وأما مربيطر، فهي قرى عامرة بالضياع والأشجار والمياه المتدفقة[٥]. كذلك كانت لتربة تدمير مميزات طبيعية متعددة [٦]، فهي كريمة البقعة، طيبة الثمرة [٧]، وجميع أرضها يروى عن طريق النهر على نفس طريقة نهر النيل في مصر [٨]، فهي تجمع بين مزايا البحر والبر وبها السهول الخصبة [٩]. وأما حاضرتها مرسيه فأرضها سهلية تقع على ضفة النهر الأبيض، وواديها قسيم وادى أشبيلية، كلاهما ينبع من شقورة[١٠]، تحيط به المنازه والبساتين من كل ناحية [١١]، ولكثرة جناتها أطلق عليها «البستان» [١٢]، ومازالت تعرف حتى اليوم باسم البستان La huerta murcian، ومن أعمال هذه الكورة لورقة Lorca، وهي مدينة خصبة [١٣]، وفيها يقول ابن سعيد نقلا عن المسهب: «قد مررت على هذه المدينة، فلم أر أحسن من بساطها وبهجة واديها وما عليه من البساتين » [١٤]، ودانية مدينة تكثر بها البساتين والمزارع والخيرات والفواكه [١٥]. وأما أوريولة فتقع على ضفة النهر الأبيض، ولها عليه البساتين والجنات والرياض، غنية بفواكهها [١٦]، وقرطاجنة الحلفاء، مدينة أيضاً خصبة يثمر فيها الزرع بسقية مطرة واحدة[١٧].

---

(١) الحميري، المصدر السابق، ص ١٠٢.
(٢) ياقوت ، المصدر السابق، م٢، ص ٢٨١.
(٣) ابن غالب، المصدر السابق، ص ١٦.
(٤) العذري، المصدر السابق، ص ١٩.
(٥) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩١.
(6) Lévi - Provençal, op.cit., p. 70.
(٧) العذري، المصدر السابق؛ وانظر أيضاً: ابن غالب، المصدر السابق، ص ١٦.
(٨) العذري، المصدر السابق، ص ١ ، ص ١٦ ؛ Lévi - Provençal, op.cit., p. 70.
(9) Lévi - Provençal, Ibid, p. 70.
(١٠) المقري، المصدر السابق، جـ٤ ، ص ٢٠٧ (رسالة القلقشندي).
(١١) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٤-١٩٥؛ وانظر : أبي الفدا، تقويم البلدان، ص ١٧٩؛ مخطوط جغرافية الأندلس، لوحة ٣٣؛ الحميري، المصدر السابق، ص ١٨٢.
(١٢) المقري، المصدر السابق، جـ١ ، ص ١٥٥.
(١٣) الحميري، المصدر السابق، ص ١٧١.
(١٤) ابن سعيد ، المغرب، جـ٢، ص ٢٧٥.
(١٥) مخطوط جغرافية الأندلس، لوحة رقم ٣٢.
(١٦) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٩ ؛ وراجع أيضاً: الحميري، المصدر السابق، ص ٣٤.
(١٧) الإدريسي، نفس المصدر، ص ١٩٤ ؛ وراجع أيضاً، الحميري، نفس المصدر، ص ١٥١.

كذلك تميزت الجزائر الشرقية (البليار)، ميورقة ومنورقة ويابسة، بأرضيها السهلة الخصبة وصلاحيتها للزراعة، ونستنتج من رسالة الشقندى فى وصف جزيرة ميورقة كبرى جزر البليار أنها غنية بمنتجاتها الزراعية التى تكفى حاجة سكان الجزيرة بل ويفيض فيصدر باقى محصولها إلى بلاد أخرى، يقول: «أخصب بلاد الله أرجاء، وأكثرها زرعاً ورزقاً وماشية، وهى على انقطاعها عن البلاد مستغنية عنها، يصل فاضل خيرها إلى غيرها» [١].

٢ ـ أهم المحاصيل الزراعية:

يشكل القمح المحصول الرئيسى فى شرق الأندلس فى العصر الإسلامى باعتباره من العناصر الغذائية الرئيسية التى يعتمد عليها السكان، ولذلك انتشرت زراعته فى شرق الأندلس فى إقليم مرسيه [٢]، وفى شبرب [٣]، وفى إقليم لورقة بفحص شنتقيره[٤] الذى جادت زراعته فيها.

وهناك أنواع كثيرة من القمح، حدّد السقطى نوعين منه: الأول وهو الأجود ويسمى درمك Darmak، وهو يعطى دقيقاً ناصع البياض، والآخر يسمى المدهون ـ ويطلق عليه بالأسبانية Almodon[٥] ـ أقل منه جودة، هذا بالإضافة إلى أنواع أخرى عرفها أهل الأندلس بنفس أسمائها الرومانية مثل القمح الريون Ruyun ـ المعروف اليوم Rubio نسبة إلى لونه الأحمر الذهبى ـ، والقمح الترجال ـ بالأسبانية Trechal ـ وهو نوع من القمح الربيعى، والقمح أراكا ـ بالأسبانية Alaga ـ وهو ذو حبة طويلة ، ولونه ضارب إلى الحمرة [٦]. كذلك عرفت مرسيه زراعة الشعير فانتشرت زراعته بها [٧]. وإلى جانب القمح والشعير عرفت بلاد شرق الأندلس الأرز على الأخص فى إقليم بلنسية، نظراً لتوافق هذا البلد ومياهه الغزيرة وتربته الخصبة مع طبيعة زراعة الأرز، وكان أهل بلنسية يعتمدون على الأرز كثيراً فى أطعمتهم فكان لذلك مع القمح يؤلفان أهم المحاصيل الزراعية، فانتشرت زراعة الأرز على نطاق واسع فى

(١) فى: المقرى، المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٠٧.

(٢) مخطوط جغرافية الأندلس، لوحة ٣٣.

(٣) ابن غالب الأندلسى، المصدر السابق، ص ١٦؛ وشبرب حصن من حصون بلنسية.

(4) Garcia Gomez (Emilio), Sobre agricultura arabigo andaluza, Al-Andalus, X, Fasc I, 1945, p. 127.

(٥) السقطى (أبو عبد الله محمد بن أبى محمد)، المالقى الأندلسى، كتاب فى آداب الحسبة، نشر ليفى بروفنسال وكولان، باريس، ١٩٣١، ص ٢٦؛ وراجع صفحات ٢٨-٢٩ من Glosario بنفس المصدر.

(٦) وانظر أيضاً: Garcia Gomez, op.cit., p. 127 yss; Lévi - Provençal, Espana musulmana, en Historia de Espana dirigida por R. Menédez Pidal, Espasa Calpe, p. 154.

(٧) مخطوط جغرافية الأندلس، لوحة ٣٣.

بلنسيه [١]، ومن الجدير بالذكر أن أشهر وجبة أسبانية اليوم وتسمى بالبائية أو «البقية» تعتمد أساساً على الأرز.

كذلك يتمتع الزيتون منذ أقدم العصور وعلى الأخص فى العصرين الرومانى والإسلامى فى الأندلس بأهمية كبرى لأهميته الغذائية ولزيته الذى يستخدمه أهل الأندلس فى سائر أطعمتهم وحتى فى حلواهم، وقد كثرت زراعته فى كل من إقليمى دانية [٢] ومربيطر [٣].

كما حظيت أشجار الكروم باهتمام خاص عند أهل الأندلس وانتشرت زراعتها على نطاق واسع فى أغلب بلاد شرق الأندلس، لا سيما فى مربيطر[٤]، وبوريانة [٥]، ومرسيه [٦]، ودانيه [٧]، ولقنت [٨]، وجزيرة يابسة[٩].

وإلى جانب الزيتون والكروم، اختص إقليم شرق الأندلس بزراعة الفواكه، وتمدنا كتب الجغرافية بالعديد من أصناف الثمار التى اشتهرت بها هذه البلاد، ففى بلتنسية كان يزرع نوع من الكمثرى تسمى الأرزه فى قدر حبة العنب تجمع بين حلاوة الطعم وذكاء الرائحة [١٠]، والقراسيا [١١]. وفى مرسيه توفرت فواكه الكمثرى والرمان والسفرجل[١٢]، والتين[١٣]، وكان التين من الفواكه التى شاعت زراعتها فى كل من دانية[١٤]، ولقنت[١٥]، واشكونى التى جادت فيها أيضاً غراسة أشجار التفاح والرمان[١٦]. وفى قرطاجة الحلفاء كان يزرع السنبل الجيد[١٧]، كما اشتهرت جزيرة يابسة بأشجار الصنوبر الجيد العود[١٨]، أما الزعفران الذى يستخدم فى كثير من

---

(١) العذرى، المصدر السابق، ص ١٧.
(٢) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٢ ؛ انظر أيضاً: ابن غالب، المصدر السابق، ص ١٦.
(٣) الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨٠.
(٤) نفس المصدر، ص ١٨٠.
(٥) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩١ ؛ الحميرى، نفس المصدر، ص ٤٤.
(٦) الإدريسى، نفس المصدر، ص ١٩٤؛ الحميرى، نفس المصدر، ص ١٨١.
(٧) الإدريسى، نفس المصدر، ص ١٩٢؛ ابن غالب، نفس المصدر، ص ١٦.
(٨) الإدريسى، نفس المصدر، ص ١٩٣؛ الحميرى، نفس المصدر، ص ١٧٠.
(٩) الإدريسى، نفس المصدر، ص ٢١٤؛ الحميرى، نفس المصدر، ص ١٩٨.
(١٠) المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٦٨ (نقلا عن ابن سعيد).
(١١) ياقوت الحموى، المصدر السابق، م٢، ص ٢٧٩.
(١٢) العذرى، المصدر السابق، ص ١.
(١٣) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٤؛ وراجع أيضاً: الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨١.
(١٤) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٢؛ وانظر : ابن غالب، المصدر السابق، ص ١٦.
(١٥) الإدريسى، نفس المصدر والصفحة؛ وراجع أيضاً: الحميرى، المصدر السابق، ص ١٧٠.
(١٦) الحميرى نفس المصدر، ص ٢٢٠.
(١٧) الحميرى، نفس المصدر، ص ١٥١.
(١٨) الإدريسى ، المصدر السابق، ص ٢١٤؛ وراجع أيضاً: الحميرى، نفس المصدر، ص ١٩٨

الأطعمة الأندلسية فكان ينبت فى أرض بلنسيه [١].

ولما كانت منطقة شرق الأندلس حافلة بالمنيات والبساتين فقد زرع فيها أنواع لا تحصى من الأزهار منها الروز الأبيض [٢]، والقرمز [٣]، كما اشتهرت بلنسية بالياسمين [٤].

٣- نظم الرى:

كان لاختلاف مواسم سقوط المطر فى الأندلس أثر كبير فى تصنيف أراضيها إلى نوعين : نوع يعتمد على المطر فى سقياه ويسمى «بعلى» ، والآخر يعتمد فى سقياه على مياه الأنهار ويسمى «أرض السقيا» [٥].

فأما الأراضى البعلية، فكانت تزرع مرتين كل ثلاث سنوات، وتترك مرة على الأقل لمدة عام دون زراعة بعد زراعتها عامين متصلين، وذلك لإراحتها ومن ثم تطلق فيها الماشية لتنقيتها من الأعشاب الضعيفة الموجودة فيها، وهذا النظام كان متبعاً فى بلاد المغرب [٦].

أما الأراضى التى تعتمد فى ريها على الأنهار الجارية، فقد استلزم الأمر توافر المياه على نحو متواصل وبالمناوبة، فكان لابد من نظام محكم للرى، لتوزيع المياه بقدر الحاجة على الأراضى المنتشرة، وهذا النظام قد مارسه الأندلسيون في العصر الإسلامى فى جنوب وشرق الأندلس، ويرى المستعرب الأسبانى خوليان ريبيرا أن هذا النظام ليس من اختراع العرب [٧]، حقاً لقد استفاد العرب من نظم الرى الرومانية التى استعملها القوط بعد ذلك ووجدها العرب عند افتتاحهم الأندلس، ولكنهم لم يقفوا عند حد استعمالها كما هى بل أضافوا إلى هذه النظم واستكملوها مستوحين ذلك مما كانوا يعرفونه فى بلاد اليمن قبل الإسلام وفى المشرق الاسلامى فى أرض السواد بالعراق وفى جلق والجابية بالشام وفى أراضى الحوف بدلتا مصر[٨]. ويؤكد ليفى بروفنسال أن

---

(١) العذرى، المصدر السابق، ص ١٧؛ وراجع مخطوط جغرافية الأندلس، لوحة ٣٣/٣٤؛ ياقوت الحموى، المصدر السابق، م٢، ص ٢٧٩؛ المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٦٨ (نقلا عن ابن سعيد).

(٢) مخطوط جغرافية الأندلس، لوحة ٣٣/٣٤.

(٣) البكرى (أبو عبيد)، جغرافية الأندلس وأوروبا، تحقيق الدكتور عبد الله الرحمن على الحجى، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٨، ص ١٢٣؛ المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص١٣٨.

(٤) ابن بصال، كتاب الفلاحة، ص ١٤ (من المقدمة).

(5) Lévi - Provençal, Espana musulmana, p. 152.

(6) Lévi - Provençal, op.cit., p. 152.

(٧) انظر Ribera (J), El sistema de riegos en la huerta valenciana, en Disertaciones y opusculos, t. II, p. 309-303.

(8) Torres Balbas (L.), Las norias Fluviales en Espana en Al-Andalus, V. , 1940, p. 195-208.

هذه النظم كانت معروفة فى العالم الإسلامى حسب مسيل المياه وكميتها وطبيعة الأرض المراد ريها، وقد سجل الجغرافيون فى مصنفاتهم بعض هذه النظم باختصار، فضلا عن مصنفى كتب الزراعة الأندلسية، الذين ذكروا نظماً مشابهة لما هو موجود حالياً فى الأندلس وكذلك فى المغرب الاسلامى (١).

وكان نظام الرى المستخدم فى شرق الأندلس أقل تعقيداً وأكثر فعالية، فلقد أقيمت على أنهار الوادى الأبيض وشقر أعداد لا تحصى من النواعير، وكانت حيازة الأرض تعطى لصاحبها الحق فى مياه الرى، ولذلك فقد سن تشريع اسلامى فى شرق الأندلس لتنظيم حقوق المستفيدين، وأنشئت هيئة تشريعية تسمى «محكمة الماء» ، وهى نوع من المجالس التأديبية ذات الصفة العائلية، اختصاصها أن تبت فى كل ما يتعلق بالمنازعات الناجمة عن توزيع المياه أو فى المخالفات التى حرمها العرف (٢)، ويفهم من نص ابن حيان أنه فى سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م عين اثنان من الموالى الفتيان مبارك ومظفر من قبل الحكومة المركزية بقرطبة فى وكالة السقيا وذلك لمراقبة نظم الرى (٣).

ثانياً ـ الصناعة

كانت الصناعة أحد مظاهر النهضة الحضارية التى تميز بها شرق الأندلس فى عصر الموحدين، فقد قامت فى بلاده صناعات من أهمها صناعة السفن وصناعة الخزف، والصناعات القائمة على الزراعة، بالإضافة إلى صناعات أخرى.

(أ) الصناعات القائمة على الثروة الزراعية والنباتية:

١ ـ صناعة السفن:

كان لطبيعة شبه جزيرة أيبريا بسواحلها الممتدة هذا الامتداد الكبير شرقاً على البحر المتوسط وجنوباً وغرباً على المحيط الأطلسى وشمالا على خليج بسكايا، أعظم الأثر فى تطلع سكانها عبر حقب التاريخ إلى البحر، واشتغال أهلها بالملاحة والنقل البحرى، واعتمادها فى الدفاع عن سواحلهم على الأساطيل الحربية والدفاع البحرى. ولقد أدرك الأمير عبد الرحمن الأوسط منذ التجربة القاسية التى تعرضت لها سواحل الأندلس الجنوبية والجنوبية الغربية للغزو النورماندى فى سنة ٢٣٠هـ إلى أهمية

---

(1) Lévi - Provençal, op.cit., pp. 161-162.

(٢) وانظر أيضاً:

Lévi - Provençal, op.cit., p. 163; Torres Balbas, Las noris Fluviales en Espana, Al-Andalus, V, 1940.

(٣) فى: ابن عذارى، البيان المغرب، جـ٣، ص ١٥٨.

الأساطيل، فأنشأ دار الصناعة بأشبيلية، ثم تعاقب على حكم الأندلس أمراء اهتموا بصناعة السفن لمواجهة الغزو النورماندى (كالأمير محمد) الذى أصبح للأندلس فى عهده أسطول ضخم من ستمائة سفينة [1]، إلى أن تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد فازداد اهتمامه بصناعة السفن واستكثر من إنشاء دور الصناعة فى مختلف أنحاء الأندلس لإنشاء القطائع والأساطيل مستهدفاً مواجهة الدولة الفاطمية الفتية التى كانت تتطلع إلى غزو الأندلس [2]، وعلى هذا النحو أقيمت دور صناعة متعددة فى مختلف سواحل الأندلس ودانية ولقنت والمريه وشلب وطرطوشة وقصر أبى دانس ومالقة وبلنسيه وغيرها [3]. وقد ساعد الخليفة على ذلك توافر خامات الخشب والحديد وكل المقومات الرئيسية لإنشاء القطع البحرية فى الأندلس [4].

ومنذ مطلع القرن الخامس الهجرى (١١م)، اشتهرت دار صناعة دانية، وبلغت فى عهد أميرها مجاهد العامرى شأواً كبيراً ولعل ذلك يرجع إلى تطلع مجاهد إلى غزو سواحل فرنسا الجنوبية وإيطاليا الغربية وقطالونية [5]، بالإضافة إلى سياستها التوسعية التى استهدفت ضم الجزائر الشرقية (البليار) على نحو تحقق فى رمضان عام ٤٠٥هـ/ ديسمبر ١٠١٤م، كذلك نجح مجاهد فى الاستيلاء على قسم كبير من جزيرة سردانية Cerdena عام ٤٠٦هـ/سبتمبر ١٠١٥م [6]. ويصف الإدريسى دار صناعة دانية بقوله : «وهى مدينة تسافر إليها السفن وبها ينشأ أكثرها لأنها دار إنشاء السفن» [7]. وكانت دار الصناعة بدانية تعتمد فى انتاجها على خشب الصنوبر الوارد إليها من قلصة التى يكثر بجبلها شجر الصنوبر ويقطع منها ويلقى فى الماء إلى جزيرة شقر ومنها إلى حصن قلبيرة، وفيها تفرغ كتل الخشب على البحر وتنقل بالمراكب إلى دانية لصناعة السفن الكبار والمراكب الصغار [8]. كذلك كان الصنوبر الجيد

---

(١) انظر : السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، ص ٣٧.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس، ص ٣٧؛ وله أيضاً: تاريخ مدينة المرية الاسلامية، ص ٤٢؛ وله أيضاً: المغرب الكبير، جـ٢، العصر الاسلامى، ص ٦١٠ وما بعدها.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس، ص ؛ وانظر أيضاً: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص ٢٨٥.

(٤) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس.

(٥) أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط، ترجمة أحمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٣١٣-٣١٤.

(٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢١٩؛ كليليا سارنلى، مجاهدى العامرى، قائد الأسطول العربى فى غرب البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجرى، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٩٥؛ أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص٣١١.

(٧) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٢؛ وراجع أيضاً: الحميرى، المصدر السابق، ص ٧٦.

(٨) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٥، وقلصة : حصن منيع شرق قونكة ، تكثر به أشجار الصنوبر، راجع: الإدريسى، نفس المصدر والصفحة.

للإنشاء وعدة المراكب ينبت على حد قول الحميرى بجزيرة يابسة [١]. وقد واصلت دار صناعة دانية انتاجها للسفن طوال عهد المرابطين ولم تلبث في عصر الموحدين أن استعادت شهرتها القديمة فى هذه الصناعة، ويشير الحميرى إلى أن الخليفة الموحدى الناصر محمد بن يعقوب المنصور وجه لمحاربة ابن غانية صاحب ميورقة قطعاً من أساطيل الموحدين، وأمر باتخاذ قاعدة دانية مركزاً لبدء عملياته الحربية ضد ميورقة، فاجتمع في مينائها ثلاثمائة جفن، منها سبعون غراباً وثلاثون طريدة، وخمسون مركباً كباراً [٢].

كذلك اشتغلت دار صناعة لقنت Alicante بانتاج السفن في عصر الموحدين وقد اختصت هذه الصناعة بانتاج المراكب السفرية والحراريق [٣]. ولا نشك فى أن بلنسية كانت من بين القواعد الرئيسية لصناعة السفن فى عصر الموحدين.

٢ ـ استخراج الدقيق:

صاحب زراعة القمح، بطبيعة الحال، عملية طحن القمح لاستخراج الدقيق اللازم لإعداد الخبز وصناعة الحلوى، ومن أجل ذلك ابتكرت الطواحين التى تعتمد فى تشغيلها على الهواء، ومع أن المصادر العربية لم تتحدث عن طواحين الهواء باستثناء طواحين طركونة، فمن المحتمل أن هذه الطواحين كانت تقوم فى السهول المرتفعة، وإلى جانب طواحين الهواء، استخدم أهل شرق الأندلس نوعاً من الطواحين تديره دواب الحمل إلا أن أكثر الطواحين شيوعاً فى شرق الأندلس فى هذا العصر هى طواحين الماء، السواقى المعروفة بالأرحاء أو النواعير وكانت تنصب على حافة مجارى المياه سواء على ضفة نهر أو قناة، وبفعل ضغط الماء وقوة مسيله تتحرك عجلة أو لتنان من عجلات الرحى أو سوانيه فتدور الرحى وبالقوة الناتجة من دورانها يتم طحن القمح[٤]. ولقد تناول السقطى فى كتابه «آداب الحسبة» أنواعاً متعددة من الحيل التى استعملها الطحانون فى غش الطحين ومنها، يقول السقطى: «ومنهم الطحانون وغشهم بأن يخلطوا الردئ مع الطيب ليأخذوا من الطيب ويجعلوا الردئ ويخفى

---

(١) الحميرى، المصدر السابق، ص ١٩٨.

(٢) الحميرى، نفس المصدر، ص ١٨٩؛ راجع أيضاً: أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٦٧؛

Torres Balbas (L.), Atarazanas hispano - Almohades, Al_Andalus, Fasc I, 1946, p., 185.

(٣) الإدريسى ، المصدر السابق، ص ١٩٣؛ راجع أيضاً: الحميرى، نفس المصدر ، ص ١١٧٠؛

Lévi - Provençal, Enc. Isl, Vol. IV, pp. 856-857.

(4) Lévi - Provençal, Espana musulmana, t. V, pp. 163-164.

فعلهم» (١)، ويضيف: «ويغشون أيضاً بأن يأخذوا من القمح ويجعلون عوضه ما يمكنهم من العظام وشوابى البحر ومحره فى بلد الساحل والتراب الأبيض والكذان الرخص» (٢)، ومنها أيضاً : «ويغشون بأن يأخذوا من الدرمك ما شاؤوا ويعرضون عنه شنيه بيضاء مغربلة بعد الطحن ولا يكاد يشعر بذلك إلا عند اختبار الخبز منه فإنه لا يرتفع فى الخمير ارتفاع الدرمك السالم» (٣).

٣ـ استخراج الزيوت:

قامت على محاصيل الزيتون الوفيرة فى المناطق السهلة بشرق الأندلس قيام صناعة استخراج الزيوت، وهى مبانى كانت تقوم فيها معاصر لثمر الزيتون تعرف بالمساكب، وقد كان الزيت من أهم الصادرات التى تعتمد عليها الأندلس فى ثروتها الاقتصادية، ويحدثنا الإدريسى والحميرى عن شهرة زيوت الأندلس فى المشرق الإسلامى. وإلى جانب هذه الصناعة وجدت صناعة تجفيف الكروم وأخرى لعصره، فمن الكروم المجفف يتخذ الزبيب الذى شاع استخدامه فى شرق الأندلس فى المطابخ والأطعمة، ومن عصير العنب كانت تقوم صناعة الأنبذة.

٤ ـ صناعة الورق :

تشير المصادر العربية إلى شهرة شاطبة فى صناعة الورق، فالإدريسى يقول أنه كان «يعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ويعم المشارق والمغارب» (٤).

ب ـ الصناعات الفنية:

١ ـ صناعة الخزف:

تعتبر الفنون القائمة على الصلصال كصناعة الخزف بأنواعه والأوانى الفخارية من أهم الحرف الفنية الهامة التى شهدت تطوراً واضح المعالم فى العصور الوسطى، ومن المعروف أن هذه الصناعة كانت من بين الصناعات الأساسية الأصيلة فى الشرقين الأقصى والأدنى، وحظيت بشهرة عالمية فى العصور الوسطى الإسلامية، وتأثرت بها الصناعات الخزفية فى الأندلس بحيث تردد صداها فى عصر الخلافة، وكان من خصائصها أن المرحلة النموذجية فى حياتها لم يكن مصدرها الفن الإسلامى المشرقى المعروف بل استمدت كيانها عن تيار بيزنطى ولكن مع تطور فى التكوين فاق النماذج

---

(١) السقطى، كتاب فى آداب الحسبة، ص ٢١.

(٢) السقطى، المصدر السابق، ص ٢٢.

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٢ ، وشنية بيضاء هى نوع من الغلال يستخدم فى عمل الخبز أقل جودة من القمح الدرمكى، وهى مشتقة من اللاتينية Centenum؛ راجع: نفس المصدر Glosario، ص٤٠.

(٤) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٢.

المحتذاة، واتخذ تعبيرات زخرفية تعبر عن أشكال وتصاوير لتبث الحياة فيه [١].

ومما لا شك فيه أن ما بلغه فن صناعة التحف الزخرفية المزينة بالزخارف فى عصر الخلافة الأموية بقرطبة يعد أمراً رائعاً تجاوز فى قيمته الفن المسيحى الأوروبى بما فى ذلك الفن البيزنطى الخالى من الإبداع والصنعة الفنية، وهذا يسوغ ما يحتمل من ازدهار تجارة الصادرات مما أدى إلى التيقن من وجود أوان خزفية شبيهة بالأندلسية فى جزيرة يابسة Ibiza والجزائر وصقلية ومالطة وربما بلغت القسطنطينية، وبعث فى نفس الوقت على ظهور مصانع فى أسبانيا فى ترويل Teruel وقطلونية وبطرنة Paterna ومنيشة Manisas [٢]. وكان لتأثر حضارة شرق الأندلس بالتقاليد الرومانية البيزنطية أثر كبير فى ظهور أساليب متعددة فى صناعة الخزف، أخذت فى التطور من العصور القديمة حتى العصور الحديثة [٣].

أ ـ التصنيف الفنى للخزف:

يمكن تصنيف الخزف إلى عدة مجموعات:

المجموعة الأولى: الفخار المحروق مع زخرفة محزوزة أو بارزة

Ceramica Bizcochada con Adornos inciso o en relieve

تشتمل هذه المجموعة على تحف تم تشكيلها ثم زخرفت وبطانتها ماتزال لينة بعد بمنقاش، أو وضعت فى قوالب أو اسطمبات من الخشب أو الطين المحروق. وبهذه الطريقة تدخل التحفة فى مرحلة النقش الزخرفى المحزوز أو البارز الذى لا يخرج عن تعبيرات زخرفية، أغلبها متأثر بالأساليب الفنية المسيحية أو تتخذ أشكالا نجمية أو تسجل كتابات إما دينية مستمدة من القرآن الكريم أو مجرد أسماء، وما أن ينتهى الخزاف من عملية النقش توضع التحف فى الفرن للمرة الأولى والأخيرة. هذا هو الأسلوب المألوف فى صناعة وتزيين التحف المصنوعة من الفخار ذوات الأحجام الكبيرة كحواجز المياه، والخوابى أو الأزيار المخصصة لحفظ المياه أو الزيت [٤]، انظر الشكل (١).

---

(١) مانويل جوميث مورينو، الفن الاسلامى فى أسبانيا، ترجمة الدكتور لطفى عبد البديع والدكتور السيد عبد العزيز سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٣٦٩.

(٢) مانويل جوميث مورينو ، المرجع السابق، ص٣٦٩.

(3) Gonzalez Marti (Manuel), Ceramica del levante Espanol , tomo I, editorial labor, Barcelona, 1949, p. 39.

(4) Ibid, T. t, p. 40.

المجموعة الثانية: الخزف المزين بأكسيد المنجنيز

Ceramica Decorada con manganeso:

بعد أن تتم عملية تشكيل الإناء، يترك ليجف في الظل، ثم يتولى النقاش نقش زخارفه بقلم غليظ أو بمقبض ذى ثلاثة أو أربعة أقلام ناعمة جداً، وهذه الزخارف عبارة عن خطوط متوازية أو مستقيمة أو متعرجة حسب حركة اليد مع استخدام مادة المنجنيز أو أكسيد الحديد، ثم تطور هذا الأسلوب، نتيجة استخدام مدية صغيرة للجز أو مجرد ريشة لرسم موضوعات بسيطة متكررة ذات طابع شعبي، مخططة باللون الأسود بهدف وحدة السياق، وهذا النوع من الخزف ينتمى إلى تقاليد إيبيرية، وفى بعض الأحيان يستخدم النقاش أكسيد الحديد الأحمر Almazarron، الذى يتمتع بخصائص أساسية للغاية فى رسم الخطوط المتفرقة، ولقد اهتم فخارى بطرنة ومنيشة بالبحث عن موارد جديدة لزخرفة أطباقهم وجرارهم التمسوها بمزج أكسيد الحديد الأحمر بلون أصفر طفالى (تراب حديدى) وبالمنجنيز [1] شكل (٢).

المجموعة الثالثة ـ الخزف المزين بمادة الأنجوبى:

Ceramica decoradas con Engobes

الأنجوبى Engobe، مادة طينية أو ملونة بها عرق معدنى، تغطى بها التحف الزخرفية قبل تلميعها لتغطية اللون الطبيعى، وهى مادة تذوب فى الماء، ولا تنصهر بفعل النار، وتستخدم لتزيين الخزف طريقتان :

الأولى: أن يوضع الإناء المشكل من الطين النيئ فى وعاء بسائل الأنجوبى لتغطية بطانته بهذا السائل الملون، وأما الثانية: فتقتصر على غمس الريشة فى مزيج مادة الأنجوبى السائل ودهان العناصر الزخرفية على سطح الإناء بهذه المادة، وبهذه الطريقة تتشكل الحلية على سطح الإناء من لونين أحدهما اللون الأصلى للعجينة أو البطانة وأعنى به اللون الطبيعى لمادة الإناء والثانى الزخارف الملونة المرسومة عليه.

ومن المعروف أن لون الزخارف يتوقف أساساً على نوع التراب المستخدم فى مادة الأنجوبى فلزخارف الخزف ذى اللون الأحمر، يستخدم التراب الحديدى الأحمر أو Almazzaron، وللخزف ذى اللون البنفسجى، يمزج قليل من الرمل مع نسبة معينة تبلغ ضعف مادة الرمل من مادة البوتاسيوم ثم نسبة الرمل من المنجنيز، وللخزف ذى اللون الأصفر، تمزج نسبة جزء من الرمل من مادة البوتاسيوم ثم نسبة الرمل من المنجنيز، وللخزف ذى اللون الأصفر، تمزج نسبة جزء من الرمل مع نسبة جزئين من البوتاسيوم ونسبة جزء الصفار المعروف بنابوليس Amarrillo de Napoles، وللخزف

(1) Gonzalez Marti, op.cit., t. I, p. 41.

الأزرق، تمزج نسبة ستة أجزاء من كربونات النحاس، ويتم حرقه إلى أربع مرات حتى يتكلس، ويضاف إليه نسبة نصف جزء من أكسيد الرصاص الأحمر واثنى عشر جزءاً من التراب الأبيض، وللخزف ذى اللون الأخضر، تستخدم خلطة زرقاء وصفراء مع تراب أبيض، أما الأنجوبى الأسود فنحصل عليه بمزج نسبة خمس أجزاء من المنجنيز المحروق وبرادة البرونز ونسبة واحد من العشرين من الجزء من التراب الأبيض [١].

وقد عثر فى مغارة على ميمون فى بلنسية على قطع متنوعة من هذا الأسلوب الزخرفى، انظر شكل (٣).

الجموعة الرابعة ـ الخزف المكشوط: Ceramica Esgragiada

هذا النوع من الخزف يشابه الخزف الذى استخدمت فيه مادة الأنجوبى فبعد أن يكسو الخزف السطح الخارجى للإناء بمادة طينية ذات ألوان تختلف عن البطانة الداخلية، يوضع الإناء فى الفرن ثم يطلع عليه الرسم المطلوب وتحفر الزخارف حفراً غائراً يزيل الطبقة السطحية ويصل إلى الطبقة الداخلية، وما أن تتم هذه العملية حتى يدهن بطبقة لامعة ثم يدخل الفرن من جديد وللمرة الأخيرة ويتمثل هذا النوع من الخزف فى بعض الأمثلة المصرية من العصر المملوكى التى ترجع إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادى، وفيها تظهر الزخارف المكشوطة مغطاة بمادة الأنجوبى، وقد انتقلت هذه الطريقة بعد ذلك من مصر إلى الفن القبرصى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر[٢].

ومن الغريب أن ينتشر هذا النوع من الخزف فى العالم الإسلامى حتى إيران ويتمثل ذلك فيما يعرف بخزف جابرى الذى نشهده فى بعض الأكواب الزخرفية والأطباق الكبيرة المزينة بموضوعات هندسية وحيوانية بسيطة للغاية[٣]، وقد انتقل هذا النوع من الخزف إلى شمال إيطاليا عن طريق الجنويين واللومبارديين، انظر شكل(٤).

الجموعة الخامسة ـ الخزف ذو الفواصل الجافة : Ceramica de cuerda seca

هو نوع من الخزف المزجج كانت تحدد على سطحه مساحات تغطى بطبقة من أكسيد المنجنيز الخام تذوب على هذا السطح وتكسو مسطحه أثناء وضعه فى الفرن[٤]. وكان يضاف إلى الزجاج أكسيد النحاس يكسب الإناء المراد زخرفته بريقاً معدنياً أخضر اللون أو فيروزى نتيجة إضافة محلول قلوى[٥]. كما كانت تستخدم مع

(1) Gonzalez Marti, op.cit., t. I, p. 41.

(1) Gonzalez Marti, op.cit., t. I, p. 43-44.

(2) Ibid, p. 48.

(3) Ernesto Diaz, Arte del Islam, editorial Labor, Barcelona, p. 104.

(٤) مانويل جوميث مورينو، الفن الاسلامى فى أسبانيا، راجع صفحات ٣٩٤، ٤٩٢.

(٥) نفس المرجع، ص ٣٨٤؛ وراجع أيضاً: محمد عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الاسلامية

المادة التى تغطيه La Cubierta أكاسيد مختلفة [١].

ولقد تطور هذا الأسلوب الفنى فى صناعة الفخار فى مصانع الفخار الأندلسية، بيابسة وبلنسية، ويرجع الأستاذ Gestos y pérez هذا الأسلوب الفنى من الخزف ذى الفواصل الجافة إلى أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر باعتباره ضرب من التبسيط [٢] بينما ينسبه الأستاذ جوميث مورينو إلى القرن الحادى عشر والثانى عشر مستنداً فى رأيه إلى أنه قد اكتشفت بعض أمثلة من هذا النوع من الخزف فى البيرة Elvira ومدينة الزهراء ويابسة [٣]. ولما كانت مدينة الزهراء قد تعرضت للتدمير والتخريب فى بداية القرن الحادى عشر فإن الخلاف بين الرأيين يجعل فارقًا زمنياً كبيراً فى استخدام هذا النوع من الخزف. انظر شكل (٥).

المجموعة السادسة ـ الخزف المنقوش بمادة الأنجوبى البيضاء ويزدان بزخارف خضراء وبنفسجية:

Ceramica con Engobe blanco, decorada sobre él con verde y morado y recubierta de barniz plumbifero

لما كان هدف الخزاف المسلم الوصول بانتاجه إلى الكمال فى الأداء الفنى والزخرف من حيث اتقان الصناعة وإجادة الزخرفة مع تناسق الألوان، فإن هذا الأسلوب الفني المتطور فى صناعة الخزف يتيح تغطية سطح الجرة بعد تشكيلها وإدخالها فى الفرن للمرة الأولى، بمادة الأنجوبى البيضاء، ثم إدخالها مرة أخرى بعد نقش زخارفها بألوان خضراء وبنفسجية، وطلائها بعد ذلك بطلاء رصاص، بحيث تبرز زخارفها الخضراء والبنفسجية على أرضية بيضاء[٤]. هذا الأسلوب الفنى الجديد من أصل شرقى أو غرناطى وصل تياره بسرعة إلى مصانع ميورقة وبلنسية، وحظى بشهرة كبيرة فى المشرق الإسلامى [٥].

المجموعة السابعة: الخزف المطلى بطلاء من القصدير:

Ceramica con rudimentaris barniz estannifero

يتميز خزف هذه المجموعة باستخدام حجر الزنك فى دهانه وتستخلص هذه المادة من القصدير، وكانت هذه المادة معروفة لدى أهل البندقية منذ أمد بعيد واستخدموها

---

(١) اصطلاح La Cubierta فى لغة الخزافين، دهان يكسب السطح بريقًا ويتكون من مزيج من أكسيد الرصاص بنسبة عشرة أجزاء، وعشرة أجزاء رمل وملح؛ راجع:

Gonzalez Marti, op.cit., p. 64, No. 6.

(2) José Gestos y Perez, Historia de los barrios vidriados sevellanos, p. 108.

(٣) جوميث مورينو، المرجع السابق، ص ٣٨٥.

(3) Gonzalez Marti, op.cit., t. I, p. 54.

(5) Ibid. p. 58.

فى صناعة البرونز، ويتخذ الإناء بهذه الكسوة المعدنية اللون الأبيض النقى، ولما كان هذا النوع من الخزف باهظ التكاليف، فقد استعمل فخاريو منيشة مادة الزرنيخ ومادة الكريوليتا Creolita (مزيج من الألومنيوم والصوديوم) الذى يكسب الخزف لوناً أبيض غير براق يماثل الأثر الذى يحدثه كسوته بمادة القصدير (١).

المجموعة الثامنة ـ الخزف المحصب : Ceramica Jaspeada

هو نوع من الخزف المدهون الذى يماثل الحصى أو المرمر، وكان يستخدم فى دهانه مادة دهنية توضع فى وعاء كبير ملىء بالماء، وتظل هذه المادة طافية على سطحه، ثم يضاف لون أو ألوان مختلفة تمزج فيما بينها ويطلى بها الإناء ثم يوضع على أثر ذلك فى الفرن وعندما تنتهى هذه العملية يطلى بمادة الرصاص التى تكسبه لون هذه المادة، ثم يوضع الإناء فى الفرن للمرة الثانية ليتخذ صورته النهائية حيث يكتسب مسطحه طبقة زجاجية تتخللها عروق متعرجة (٢).

ب ـ مراكز صناعة الخزف فى شرق الأندلس:

١ ـ بطرنة Paterna

يتميز خزف بطرنة ببساطة زخارفه التى تعتمد فى معظم الأحوال على موضوعات الصور الحيوانية من طيور وأرانب وخنازير برية بالإضافة إلى بعض التصاوير الإنسانية (٣). ولقد تأثر خزاف بطرنة بطبيعة بلده فكانت مصدر الهامه ووحيه فحاكى المناظر الطبيعية التى تحيط به من أشجار وأزهار وأصداف بحرية وصور حيوانية، وانعكس تأثير الطبيعة فى فنه على الألوان التى استخدمها فى أعماله الخزفية مؤثراً اللون البنفسجى القاتم على بطانة خضراء، هذا إلى جانب الخزف المزين بزخارف نتيجة استخدام أكسيد الكوبلت فى الحليات والزخارف الزخرفية خلال القرن الثالث عشر، وقد بلغ هذا الاتجاه الزخرفى مرحلة متقدمة من الاتقان، غير أن غلبة الطابع التجارى على صناعة الخزف البطرنى أدى إلى نبذ هذا الأسلوب الشعبى فى فنون الخزف، والاتجاه إلى استخدام أكاسيد النحاس والمنجنيز فى إنتاج النوع المعروف بالغضار المذهب (٤) الذى يتميز بزخارفه الزرقاء ذات البريق المعدنى، وهذا النوع من الخزف ازدهر بوجه خاص فى مالقة وغرناطة (٥) انظر أشكال ٦، ٧، ٨.

---

(1) Gonzalez Marti, op.cit., t. I, p. 58.

(2) Ibid, p. 63.

(3) Ibid, p. 212.

(٤) الغضار المذهب Ceramica de reflejo metalico، وهو عبارة عن خزف زخارفه ذات بريق معدنى ناتج من احتراق أكاسيد المعادن؛ راجع: جوميث مورينو، المرجع السابق، ص ٤٩٢.

(5) Gonzalez Marti, op.cit, t. I, p. 215.

٢ ـ منيشة Manises

يكاد يكون تاريخ صناعة الفخار فى هذه المدينة محدداً، فهو لا يكاد يتجاوز القرن الرابع الميلادى وإن كان من الثابت فى أحد المصادر التى وصلتنا أن صناعته ترجع إلى أواخر القرن الرابع عشر، وقد تردد نفس ما جاء فى هذا المصدر مع بعض تعديلات بسيطة فيما أورده عدد من المؤرخين اللاحقين فى بدايات القرن الحالى وذلك عند تعرضهم لنتائج الدراسات والأبحاث الفنية التى أجروها فى مواضع محددة وأسفرت عن وضع صورة واضحة لتطور فن صناعة الخزف فى مدينة منيشة [1].

ومن الجدير بالملاحظة أن مؤرخى الفن قدموا خزف بطرنة على خزف منيشة من حيث القدم، معللين ذلك بأن منطقة منيشة غنية بالصلصال الضرورى لصناعة الفخار بعد مزجه بكميات قليلة من المواد الكلسية المتوفرة فى منطقة بطرنة، ونظراً لصعوبة نقل الصلصال من منيشة، فقد وجد خزافو بطرنة ضرورة إنشاء معامل للخزف فى منطقة منيشة وكان ذلك هو السبب فى بدء ظهور اسم منيشة كمركز رئيسى لصناعة الخزف [2].

. واسم منيشة حسبما يشير إسكولانى Escolano فى مؤلفه «عشرات السنين» Décadas من أصل عربى ويفسر ذلك بأن العرب عندما شرعوا فى حصار بلنسية نزل فارس عربى شريف إلى ريف منيشة، فأعجبته طبيعة المكان، وقال منزلى Manicel، بمعنى أنه اختار منزلا له، ثم تحول اللفظ بمرور الزمن إلى Manises ثم إلى Manicel منيشة [3].

وقد ذاعت شهرة هذه المدينة فى صناعة الخزف عندما شرع الملك خايمى الأول الفاتح بتقسيم أراضيها التى آلت ملكيتها إلى دون أرطال دى لونا Don Artal de luna غير أن هذه المنطقة لم تلبث أن آلت ملكيتها فى عهد خايمى الثانى Jaime II إلى أسرة Boil، التى تمتعت بحظوة كبيرة فى البلاط الملكى وظفرت بامتيازات كبيرة، فاهتم نبلاؤها أعنى سادة منيشة بتشجيع صناعة الخزف بها لا سيما الخزف ذى الغضار المذهب الذى اشتهرت به مدينة غرناطة وكذلك الخزف المالقى، وبذلك تطورت صناعة الخزف بمنيشة على أيدى هؤلاء السادة، وفاقت الخزف الذى كانت تنتجه منطقتا الضيعة Aldea والألكواس Alacuas، وهو من النوع العادى ذى الاستعمال الشائع [4]، ولقد أسفرت حفريات منيشة عن كشف بعض الأصص المزينة

(1) Ibid, p. 213.
(2) Ibid, p. 213.
(3) Gonzalez Marti, op.cit., t. I, p. 213.
(4) Ibid, p. 214.

محمد عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والأندلس، ص ١٠٨.

بزخارف حصرء أو بنفسجية داكنة تتجاوب في زخارفها مع بعض الأواني الخزفية النادرة التي كشف عنها في بطرنة انظر أشكال ٩، ١٠. ١١

جـ - خزف الجزائر الشرقية

شاعت الزخارف الحيوانية علي التحف الخزفية التي تنتجها مصانع الخزف الميورقي ويتمثل ذلك في الصفحة الرائعة المزججة التي يظهر فيها شكل أرنب برى زخرفي الشكل يحتفظ به متحف ميورقة، هذا بالإضافة إلي تحفتين خزفيتين غير كاملتين، إحداهما عثر عليها في بلمة بجزيرة ميورقة والأخرى كشف عنها في موضع غير معروف الاسم بجزيرة يابسة محفوظ اليوم في مخازن المتحف الأهلي لهذه المدينة، وترجع هاتان التحفتان في الظاهر إلي تاريخين أكثر قدماً ولعلهما يرجعان إلي نهاية القرن العاشر أو يرجع تاريخهما إلي السنين العشرة الأولي من القرن الحادى عشر(١).

وقد عثر علي صفحة من الخزف المزجج عليها رسم تخطيطي هندسي للأرنب البرى الذى أشرنا إليه، عثر عليه سنة ١٩٦٧، في البئر رقم ٣ في كنيسة Sant Catalina de sena، وينتمي شكله إلي النوع المعروف باسم مجموعة الطيفور Ataifor (٢)، وذلك خضوعاً للنظام الذى اقترحه الباحث الأثرى الميورقي السنيور روسيوس بوردوى عام ١٩٧٥. وبطانة الصحفة المزججة بيضاء اللون ولكن الشكل الهندسي المخطط للأرنب مرسوم باللون الأخضر والمنجنيزى، ووضع الأرنب كما نشاهده في هذا الرسم في صورة يبدو فيها متحركاً أى أنه يتخذ شكل أرنب يعدو ورجله اليمنى الأمامية مرفوعة في حين تبدو إحدى رجليه الخلفيتين متراجعة والأخرى متقدمة، أما عنقه فيظهر رشيقاً مرتفعاً كالزرافة في حين تتميز أذناه الطويلتان برشاقتها ويغطى بدن الأرنب وعنقه وعضلاته زخارف من دوائر وأشكال بيضية بلون منجنيزى منقوطة في وسطها، أما المناطق المحيطة بالرسم فخضراء اللون، وفي هذه المناطق تستطيع أن تميز بعض الزخارف النباتية من أوراق نباتية ثلاثية الفروع وفروع نباتية تسهم جميعاً في تزيين الصحفة وتعبر عن المنطقة المزروعة التي يتمثل فيها الأرنب الموضوع الرئيسى للزخرفة. ويؤكد السنيور روسيو بوردوى في بحثه الذى خصصه لدراسة الزخارف ذات الرسوم الحيوانية في الجزائر الشرقية بالأندلس علي أن شكل الأرنب وطبيعة لون رسمه من نفس خصائص الخزف الألبيرى بدليل أن الأنموذج الأقرب إلي هذا الرسم يتمثل في القارورة المنسوبة إلي العالم الأثرى دون مانويل جوميث مورينو والتي عثر عليها في موقع بينوس بونيتي وتزدان برسوم تمثل أرانب برية، وهذه التحفة محفوظة اليوم في متحف الآثار بمدينة غرناطة (٣).

---

(1) Rossello - Bordoy (Guillermo), Decoracion Zoo Marfica en los islas orientales de Al-Andalus, Palma de Mallorca, 1978. p. 15.

(2) Rossello - Bordoy (G), Ensayo de Seslemtizacion de la ceramica arabe en Mallorca, Palma de Mallorca, 1978, p. 15, 105.

(3) Rosselo Bordoy (G), Decoracion Zoo morfica en las islas orientales de Al-Andalus, p 16;

وفيما يتعلق بالقارورة المذكورة أعلاه، راجع جوميث مورينو، الفن الاسلامي في أسبانيا، ص ٣٧٣

٢ ـ صناعة النسيج :

تشير المصادر العربية إلى قيام صناعة النسيج فى مدن شرق الأندلس، فاشتهرت صناعة نسج الكتان بمدينة بلنسية، فيقول ابن سعيد: «فيها تقصر الثياب الغالية من الكتان وتنسج» (١)، ولا شك أن نسج الكتان كان من الصناعات الهامة الضرورية لتجهيز الملابس. كما اشتهرت بلنسية أيضاً بصناعة النسيج (٢).

كما قامت صناعة البسط فى تنتاله التى نسبت إليها (٣). وصناعة الوطاء بمرسيه وفى ذلك يقول العذرى : «وفى عمل تدمير الطراز العجيبة والصناعة الغريبة للوطاء والبسط» (٤). كما اختصت شاطبة بصناعة النسيج الأرجوانى والحرير(٥).

٣ ـ صناعات أخرى:

تشير المصادر العربية إلى قيام صناعات أخرى فى مدن شرق الأندلس فى مقدمتها صناعة الآلات والتحف المعدنية التى اختصت بها مرسيه، ومنها صناعة الأسرة المرصعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والأمقاص الذهبية، كذلك اختصت بصناعة الحصر الفتانة وآلات العروس والجندى (٦). وإلى جانب هذه الصناعات عرفت مرسيه صناعة الزجاج الغريب العجيب (٧).

ولم يكن غريباً أن تشتهر شرق الأندلس بصناعاتها العديدة مع كونها مناطق سهلة معروفة بشهرتها الزراعية، فقد كانت تتوفر فى بلاد شرق الأندلس كل المواد الخام الضرورية لقيام هذه الصناعات، فمعدن الفضة كان يتوفر بكورة مرسيه (٨)، ومعدن الرصاص (٩)، ومعدن الحديد فى أندة (١٠)، وحجر اللازورد اللازم لأعمال

---

(١) كتاب الجغرافيا، ص ٢٠٥.
(٢) المقرى، نفح الطيب، جـ٤، ص ٢٠٧.
(٣) المقرى، نفس المصدر، جـ١، ص ١٨٦؛ وراجع أيضاً: جـ٤، ص٢٠٧ (عن رسالة القلقشندى).
(٤) العذرى، المصدر السابق، ص ٩٠، المقرى، نفس المصدر، جـ١، ص ١٨٧.
(5) Miret y sans en Itinerari de Jaume I, «el conqueridor», apud, torres Balbas, Jativa y los restos del palacio de pinahermosa, Al-Andalus, Vol. XXIII, Fasc I, 1958, p. 146.
(٦) المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٨٦؛ جـ٤، ص ٢٠٧.
(٧) المقرى، نفس المصدر، جـ١، ص ١٨٦.
(٨) ابن غالب الأندلسى، فرحة الأنفس، ص ١٦؛ راجع أيضاً: الحميرى، المصدر السابق، ص١٨٢؛ المقرى، نفس المصدر، جـ١، ص ١٣٨؛ السيد عبد العزيز سالم، مدينة مرسيه، ص٢٢.
(٩) العذرى، المصدر السابق، ص ٢.
(١٠) ابن غالب الأندلسى، المصدر السابق، ص ١٦؛ راجع أيضاً: المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٧٠.

الترصيع والحلى ومعدن البلور المادة الأساسية لصناعة التحف البلورية فى لورقة[١]، وحجر المغناطيس الجاذب للحديد بكورة تدمير[٢].

ثالثاً ـ التجـــــارة

كان لازدهار الزراعة والصناعة فى شرق الأندلس أكبر الأثر فى نشاط الحركة التجارية فى داخل الأندلس وخارجه، وقد ساعد على نشاط حركة الصادر والوارد داخلياً، وجود شبكة متصلة من الطرق البرية والنهرية، وخارجياً توافر طرق التجارة البحرية عن طريق موانئ شرق الأندلس بين المشرق والمغرب.

ويهمنا أن نتحدث فى مجال التجارة عن طرق التجارة الداخلية والخارجية ثم عن حركة الصادر والوارد.

١ ـ طرق التجارة:

أ ـ طرق التجارة الداخلية:

الطرق البرية : كانت تربط مدن الأندلس شبكة متصلة من الطرق البرية الرئيسية والفرعية، وكانت أغلب هذه الطرق الرئيسية تتبع تقريباً نفس الطرق الرومانية القديمة[٣]. وقد حدد لنا ابن حوقل طرق التجارة الرئيسية التى كانت تتفرع من قرطبة الحاضرة، وهذه الطرق هى : الطريق من قرطبة إلى أشبيلية فقادس فالجزيرة الخضراء، وعند أشبيلية يتفرع طريق آخر يذهب إلى شلب، ثم الطريق من قرطبة إلى طليطلة فسرقسطة فلارده، والطريق من قرطبة إلى مالقة مروراً باستجة ثم إلى مرسيه، والطريق من قرطبة إلى المعدن إلى قورية فسلمنقة فسموره، والطريق من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء مروراً باستجة ومورور شذونة[٤].

هذا وقد زودنا كل من العذرى والإدريسى بتفاصيل تتعلق بشبكة المسالك الرئيسية والفرعية التى تربط مدن الأندلس بشرقها محددة بالمراحل التى كانت كل مرحلة فى العادة لا تتجاوز ثلاثين كيلو متراً[٥].

---

(١) ابن غالب الأندلسى، نفس المصدر، ص ٤٠؛ راجع أيضاً: الحميرى، المصدر السابق، ص١٧٠؛ المقرى، نفس المصدر، جـ١، ص ١٣٨، ص ١٥٨.

(٢) المقرى، نفس المصدر، جـ١، ص ١٣٨.

(3) Torres (M), Espana Romana, en Historia de Espana, dirigida por Roamon Menendez pidal, t. II, Espana Calpe, 1935, pp. 569-571.

(٤) ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي البغدادى النصيبى)، صورة الأرض، تحقيق كرامرز، ١٩٣٨، ص ٤٦؛ وراجع أيضاً: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٢٨٧ وما بعدها.

(5) Lévi - Provençal, Espana musulmana, t. V, p. 189.

ونخرج من كل هذا بأن وجود شبكة الطرق البرية قد سهل الانتقال وتداول السلع بين مدن شرق الأندلس وحواضر الأندلس الأخرى.

ولما كانت الرحلات البرية طويلة إلى حد ما ومرهقة وقد تستغرق أياماً عديدة، اقتضى الأمر التوقف بين كل عدد من المراحل للاستراحة، ولهذا السبب أقيمت الفنادق فى نهاية كل مرحلة لقضاء الليل ولإراحة الدواب وتزويد الرحالة بالمياه والمؤن، هذا بالإضافة إلى ضرورة أداء الصلوات فى مواعيدها، وكثيراً ما كانت أديرة المستعربين تفتح أبوابها فى المناطق النائية عن العمران لاستقبال الرحالة والمسافرين المسلمين [1]. ولسنا نظن أن النظام المعمارى للفندق فى عصر الموحدين كان يختلف كثيراً عن النظام الذى نشهده فى المشرق الإسلامى فى مصر والشام فى عصر دولة المماليك كخان الخليلى وخان الشراكسة فى القاهرة، وخان الصابون بطرابلس أو حتى فى مدن الأندلس نفسها كفندق الفحم بغرناطة وإن كان تاريخه يرجع إلى القرن الرابع عشر، فكان يتألف من فناء مركزى مستطيل الشكل تتوسطه أحواض للسقاية وتدور به بوائك تطل عليها غرف متصلة تتخذ مخازن للسلع والمتاجر ويعلو هذا الطابق غرف صغيرة لمبيت التجار والمسافرين [2].

الطرق النهرية : إلى جانب الطرق البرية، كانت هناك شبكة من الطرق النهرية لها دورها فى ربط التجمعات العمرانية فى شرق الأندلس فيما بينها، ومن أهم هذه المجارى المائية والقنوات وادى طوريه Turia، ونهر شقر Jucar، وشقورة Segura، ووادى أندرش فى شرق الأندلس، ووادى تاجة Tago، ووادى آنة Guadiana، والوادى الكبير Guadalquivir فى غربها، وكان لهذه الوديان أثر كبير فى تسهيل حركة النقل النهرى لا سيما ما يتعلق بالمواد ذات الأحجام الضخمة كأخشاب الصنوبر الذى كان يقطع من الجبال المحيطة بحصن قلصة، ويلقى فى النهر إلى جزيرة شقر ومنها إلى حصن قلييرة، ويفرغ هناك على البحر فيحمل فى المراكب إلى دانية وبلنسية [3]، أو ما كان يقطع من غابات طرطوشة ويحمل فى المراكب إلى سواحل بلنسية.

كما كان لنشاط دور الصناعة الأندلسية فى بناء السفن دور كبير فى ازدياد

---

(1) Lévi - Provençal, op.cit., t. V, p. 189.

(٢) راجع:
Torres Balbas (L.), Las alhondigas hispano musulmana y el carral del carbon de Garnada, Al-Andalus, Vol. XI, Fasc 2, 1946, pp. 447-449;
السيد عبد العزيز سالم، العمارة الإسلامية فى الأندلس وتطورها، مقال بمجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الأول، أبريل ــ مايو ــ يونيو ١٩٧٧، ص ١٣٤؛ وله أيضاً: العمارة المدنية بالأندلس، دائرة معارف الشعب، العدد ٦٤، ١٩٥٩، ص ١٤٣.

(٣) راجع : الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٥.

نشاط حركة الملاحة النهرية بالأندلس، ومما لاشك فيه أن اعتراض الجبال المرتفعة بين شرق الأندلس وبين جنوبه أو وسطه كان له أعظم الأثر فى فعالية الاتصال بين شرق الأندلس وما يجاوره من مناطق عن طريق الملاحة النهرية، ولم يكن النقل التجارى النهرى يقتصر على الأخشاب فحسب وإنما تجاوز ذلك إلى السلع التى اختصت بها بعض مدن الداخل والجنوب كزيت الزيتون والغضار الأندلسى.

ب ـ طرق التجارة الخارجية:

ساهمت القوافل التجارية بنصيب كبير فى سد احتياجات شرق الأندلس من السلع الضرورية للاستهلاك المحلى، عن طريق البر إلى المغرب وأسبانيا [(١)]، وهذا الطريق البرى كان يبدأ من بلاد الأندلس إلى الجزيرة الخضراء أو طريف إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق مجتازاً المغرب الأقصى مروراً بسبتة والمغربين الأوسط والأدنى عن طريق تلمسان ووهران والمهدية وتونس والقيروان إلى طرابلس وبرقة حتى الإسكندرية، ومن المغرب فى القوافل إلى السودان وزويلة وغانة [(٢)].

أما بالنسبة للطريق البحرى فمن الجدير بالذكر أن التجارة البحرية خضعت منذ أوائل القرن الثانى عشر الميلادى لسيادة المدن الإيطالية البحرية التى غدت مراكز الوساطة الكبرى للتجارة بين الشرق والغرب فيما بين سواحل الأندلس وسواحل الشام[(٣)]. ومن ثم فقدت البحرية التجارية الإسلامية منذ ذلك الوقت تفوقها فى حوض البحر المتوسط، ومع ذلك فقد كانت المراكب التجارية الإسلامية تساهم بنصيب وافر فى هذا المجال وقد ساعد على نشاط التجارة البحرية فى شرق الأندلس توافر المراسى الهامة كمرسى دانية الذى يقول فيه الإدريسى : «وهى مدينة تسافر إليها السفن... ومنها تخرج إلى أقصى المشرق»[(٤)] أو كمرسى قرطاجنة الحلفاء، ومراسى جزائر البليار التى تبحر منها السفن التجارية إلى سواحل المغرب [(٥)].

(1) Heyd (W), Histoire de commerce du levant au moyen age, t. I, Amesterdam, 1959, p. 48.

(٢) راجع: ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله)، المسالك والممالك، تحقيق دى غويه، بريل ١٨٨٩، مكتبة المثنى ببغداد، ص ١٥٤.

(٣) راجع: أرشيبالدلويس، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ٣٩٣؛ السيد عبد العزيز سالم، البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس، ص .

(٤) الإدريسى، صفة المغرب، ص ١٩٢.

(5) Lévi - Provençal, op.cit., p. 193;

وانظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس، ص .

٢ ـ حركة الصادر والوارد:

أ ـ التجارة الداخلية :

قامت التجارة الداخلية على أساس تبادل المنتجات الزراعية والصناعية بين مدن شرق الأندلس وقواعد الأندلس الأخرى، وقد ساعد على نشاط حركة التجارة الداخلية مع إقليم شرق الأندلس فى عصر الموحدين أن معظم مدنه كانت عامرة بالتجارات، وأعظمها مدينة بلنسية التى يشير الإدريسى إلى أنها كانت « عامرة القطر كثيرة التجار والعمار، وبها أسواق وتجارات وحط وأقلاع بينها وبين البحر ثلاثة أميال» [١]. وفى بلنسية يقول العذرى : «قد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحات والفرج ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شىء من دنياه إلا وقد اتخذ عند نفسه مغنية وأكثر من ذلك..» [٢]. كما كانت مرسيه على حد قول الحميرى ذات «حمامات وأسواق عامرة، وهى راخية أكثر الدهر رخيصة الفواكه كثيرة الشجر والأعناب وأصناف الثمار» [٣]. أما دانية، فكانت أيضاً «على البحر عامرة حسنة لها ربض... والسفن واردة عليها هادرة عنها» [٤]. وكانت قرطاجة الحلفاء فرضة مرسيه «كثيرة الخصب والرخاء المتتابع.... ولها إقليم يسمى الفندون وقليلا ما يوجد مثله فى طيب الأرض وعذوبة الماء » [٥]، أما لقنت فكانت «مدينة عامرة... ويتجهز منها بالحلفاء إلى جميع بلاد البحر» [٦]. وكانت لورقة من أعظم مدن شرق الأندلس وأكثرها نشاطاً فى التجارة البحرية، «وكانت تتوفر بها معادن مغرة تحمل إلى كثير من الأقطار» [٧]. وكانت أوريولة مدينة ذات «رخاء شامل وأسواق وضياع» [٨]. وكانت بريانة الواقعة بالقرب من عقبة أنيشة (إقليم بلنسية) «مدينة جليلة عامرة كثيرة الخصب والأشجار والكروم» [٩]. وفى شاطبة يقول العذرى : «وفيها يتجهز التجار بالأمتعة إلى غانة وبلاد السودان وإلى جميع بلاد المغرب» [١٠].

ازدهرت التجارة الداخلية فى شرق الأندلس فى عصر الموحدين وشجع على ذلك تنوع الثروات الزراعية والصناعية فى كل صقع من الأندلس الأمر الذى ساعد

---

(١) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩١.
(٢) العذرى، المصدر السابق، ص ١٨.
(٣) الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨٢.
(٤) نفس المصدر، ص ٧٦.
(٥) نفس المصدر ، ص ١٥١.
(٦) نفس المصدر، ص ١٧٠.
(٧) الحميرى، المصدر السابق، ص ١٧١.
(٨) نفس المصدر، ص ٣٤.
(٩) نفس المصدر، ص ٤٤.
(١٠) العذرى، المصدر السابق، ص ١٩.

على وجود تكامل اقتصادى بين مختلف مدنه.

أما المنتجات الزراعية والصناعية التى كانت تصدرها مدن شرق الأندلس إلى مختلف قواعد الأندلس فهى على النحو الآتى: من بلنسية كان يحمل الأرز إلى جميع مدن الأندلس [1]، ومن شاطبة الكاغد الجيد ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس [2]، ومن بكيران، كانت تحمل الثياب البيضاء إلى مدن الأندلس [3]، ومن لقنت الحلفاء [4]، ومن جنجاله الأوطية الصوفية [5]، ومن لورقة معادن تربة صفراء ومعادن مغرة[6]، ومن مرسيه الأسرّة المرصعة والحصر الفتانة الصفة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة[7].

وكانت منطقة شرق الأندلس تستورد من المدن الأندلسية الأخرى فى مقابل ذلك القطن والعصفر من أشبيلية [8]. وجلد النسر العجيب من الجزيرة الخضراء [9]، والمراسى الحديدية من شلطيش [10]، والعزفران من مدينة وادى الحجارة [11]، والغضار المذهب من قلعة أيوب [12]، والزبيب الشاطبى من قرية شاط (عمل مالقة)[13]، والقصاع والمحابى والأطباق الخشبية من حصن قيشانة (عمل جيان)[14]، والحديد من فرنجولش [15]، ومعدن الزئبق من حصن أبال (شمال قرطبة) [16].

---

(١) نفس المصدر، ص ١٩١.
(٢) ياقوت الحموى، معجم البلدان، المجلد الخامس، ص ٢١٤.
(٣) الإدريسى ، المصدر السابق، ص ١٩٢.
(٤) نفس المصدر، ص ١٩٣.
(٥) نفس المصدر، ص ١٩٥.
(٦) نفس المصدر، ص ١٩٦.
(٧) المقرى، المصدر السابق، جـ١ ، ص ١٨٦؛ جـ٤ ، ص ٢٠٧.
(٨) العذرى، المصدر السابق، ص ٩٦.
(٩) العذرى، المصدر السابق، ص ١٢٠.
(١٠) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٧٩.
(١١) نفس المصدر ، ص ١٨٩.
(١٢) نفس المصدر والصفحة.
(١٣) نفس المصدر، ص ١٩٩.
(١٤) نفس المصدر ، ص ٢٠٣.
(١٥) نفس المصدر، ص ٢١٣.
(١٦) نفس المصدر ، ص ٢١٣.

ب ـ التجارة الخارجية :

سبق القول أن المدن الإيطالية البحرية كانت -منذ أوائل القرن الثانى عشر الميلادى، تقوم بدور الوساطة التجارية بين الشرق والغرب، فعن طريقها كانت منتجات الأندلس الصناعية تحمل إلى المشرق، وإليه كانت ترسو بمراسى شرق الأندلس مشحونة بالسلع الشرقية التى كانت تحتاجها الأندلس، وبذلك نشطت موانئ شرق الأندلس بحركة السفن التجارية التى ترد عليها، فكانت بلنسية تصدر إلى أقطار المغرب أنواعاً شتى من التجارات من أهمها النسيج البلنسى(١)، والزعفران والقرمز الذى يجود فى أرضها ويحمل إلى الآفاق (٢)، وكانت شاطبة تصدر الكاغد الذى «لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ويعم المشارق والمغارب» (٣) ومنها يتجهز التجار بالأمتعة إلى غانة وبلاد السودان وإلى جميع بلاد المغرب (٤)، وكانت مرسيه تصدر إلى بلاد أفريقية والمغرب وغيرها «آلات الصفر والحديد من السكاكين والأمقاص الذهبية وغير ذلك من آلات العروس والجندى ما يبهر العقل» (٥)، وكذلك البسط التنتلية التى تسفر لبلاد الشرق(٦)، وهى بسط تنسب إلى تنتالة أو جنجالة من عمل مرسيه، وكان يغالى فى ثمنها بالمشرق (٧)، وكانت لورقة تصدر معادن تربة صفراء ومعادن مغرة تحمل إلى كثير من الأقطار (٨)، كما كانت لقنت تجهز الحلفاء وتصدره إلى جميع بلاد البحر المتوسط (٩).

أما عن واردات شرق الأندلس الخارجية فقد أجملتها المصادر العربية فكانت الأندلس تستورد من صقلية الثياب المقصورة الجيدة، ومن أفريقية الزيت والفستق

---

(١) المقرى، المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٠٧.

(٢) البكرى، جغرافية الأندلس وأوروبا، ص ١٢٧، ص ١٣٩؛ المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٦٨؛ وراجع أيضاً:

Montavez (Pedro Martinez), Islam Cristiandad en la economia mediterranea de la baja edad media (XIII), Congress International de ciencias historicos, Mosco, 1970, p. 45.

(٣) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٢؛ راجع أيضاً: ياقوت الحموى، المصدر السابق، مجلد ٢، ص ٢١٤؛ المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٥٦.

(٤) العذرى، المصدر السابق، ص١٩.

(٥) المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٨٧؛ وراجع أيضاً: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٢٨٩.

(٦) المقرى، نفس المصدر، جـ٤، ص ٢٠٧.

(٧) نفس المصدر، جـ١، ص ١٨٧.

(٨) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٦.

(٩) نفس المصدر، ص ١٩٣.

واللوز والبرقوق والمزاود والأنطاع والقرب، ومن فاس التمور وغيره[1]، ومن الهند المسك والكافور والعود[2].

وصفوة القول أن عناية الخلفاء الموحدين بالتجارة وحرصهم على تبادلها وتحسين طرقها البرية والبحرية وسعيهم الدائم إلى نشر الأمن فى ربوع شرق الأندلس ووضع حد للحركات الثورية، كان له أكبر الأثر فى تنشيط التجارة الداخلية والخارجية فى مراسى الأندلس بصفة عامة وشرقه بوجه خاص.

رابعًا ـ التنظيمات الاقتصادية

١ ـ الأسواق والقيساريات والفنادق :

اشتهرت مدن شرق الأندلس بأسواقها العامرة وتجارتها الزاهرة فجميع المصادر الجغرافية تشير إلى تألق عمران مدن شرق الأندلس ورخائها بالأسواق والمتاجر[3]، والفنادق، وقد اختصت بعض مدنها بكثرة انتاجها الزراعى كالزيتون والفواكه والغلال، وأخرى بوفرة إنتاجها الصناعى كالمنسوجات والبسط والحصر والغضار المذهب والصابون واستخراج الزيت وصناعة آلات الصفر والحديد من السكاكين والأمقاص وما إليها، ولذلك تقدمت الأسواق فى مدن الأندلس من ذلك أن مدينة لورقة كانت تتميز بأسواقها المتعددة، فالحميرى يذكر أن «بها أسواق وربض فى أسفل المدينة، وعلى الربض سور وفى الربض السوق»[4]، وكانت بشقر وبلنسية أسواق وفنادق[5].

وكانت الأسواق تمتد عادة حول المساجد الجامعة، وكانت البضائع القيمة والسلع تباع فى بناء كبير مستطيل الشكل بداخله دروب ضيقة تتوزع فيها الحوانيت على كلا جانبيها. وكان يطلق على هذه الأبنية اسم قيساريات، وهى كلمة يونانية معربة وتعنى السوق القيصرى التابع للدولة[6]. وكانت لبلنسية قيسارية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر[7]. وكانت القيسارية بوجه عام تضم أسواقًا منها سوق الثياب وسوق الخياطين والصباغين والسقاطين وسوق الصاغة. أما العطارين فكان سوقًا

---

(١) راجع: المقدسى (المعروف بالبشارى)، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، نشر De Goeye، ليدن، ١٩٠٦، ص ٢٣٧.

(٢) المقرى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٣٩ (نقلا عن المسعودى).

(٣) راجع: العذرى، المصدر السابق، ص ١٧؛ الإدريسى، صفة المغرب، ص ٢٠٨؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ١٧١.

(٤) الحميرى، نفس المصدر، ص ١٧١.

(٥) نفس المصدر، ص ٤٧، ص ١٠٣.

(٦) السيد عبد العزيز سالم، العمارة المدنية بالأندلس، مقال بدائرة معارف الشعب، العدد ٦٤، ص١٤٥.

(٧) راجع: ابن الآبار، التكملة، ترجمة ١٤٣٤ لعبد الله بن إبراهيم بن الحسن بن منتيال الوراق، وانظر أيضًا: Torres Balbas (L), Ciudades Hispano - Musulmanas, t. I, p. 347.

قائمة بذاتها تقام عادة قريباً من المسجد الجامع، كما كانت هناك أسواقاً للخشابين أو النجارين وأسواقاً للأطعمة المتعددة وما إلى ذلك.

أما الفنادق فقد كانت تكثر في موانئ شرق الأندلس لتيسير نزول التجار القادمين من وراء البحار، ويشغل الفندق في مدن شرق الأندلس مكانة هامة في العمران الاقتصادى، ولذلك كانت الفنادق تكثر عادة في أهم المراكز العمرانية بالمدينة حيث تزداد كثافة السكان، وقد بلغت من الكثرة في الموانئ التجارية حداً لا يمكن أن نتصوره في غير موانئ الأندلس، فالمرية كان بها في النصف الأول من القرن الثانى عشر ما يقرب من ٩٧٠ فندقاً [١].

٢ـ النظام النقدى:

كانت العملات في العصر الوسيط القاعدة الأساسية للتعامل بين الأفراد والأمم في البيع والشراء، ولذلك كانت لها أهمية اقتصادية كبيرة في التبادل التجارى.

كانت عملات الأندلس قبل عهد عبد الرحمن الأوسط تخضع للنظام الأموى في المشرق الإسلامى، فكانت تحمل اسم الخليفة الأموى وتاريخ الضرب والموضع الذى ضربت فيه دون الإشارة إلى أسماء أمراء بنى أمية في الأندلس، نقشت بحروف كوفية [٢].

وعندما تقلد عبد الرحمن الأوسط الإمارة بقرطبة أحدث دار السكة بقرطبة، وضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ أن دخل المسلمون الأندلس [٣]. وفي سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م أجرى الخليفة عبد الرحمن الناصر تغييراً في العملة، فأمر بإثبات عبارة الناصر لدين الله أمير المؤمنين في دنانيره ودراهمه، واتخذ دار السكة في قرطبة، وعند اكتمال بناء مدينة الزهراء نقل دار السكة إليها وعطلها في قرطبة [٤]. وقد أورد

(١) الإدريسى، صفة المغرب، ص ١٩٨؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨٤.

(٢) راجع: Casto Mª del Rivero , La moneda Arabigo Espanola, Madrid, 1933, p. 4;
وانظر أيضاً: ناصر السيد محمود النقشبندى، الدينار الاسلامى فى المتحف العراقى، الجزء الأول، بغداد ١٩٥٣، ص ١١، ص ٢٧.

(٣) راجع: ابن القرطبى (أبو بكر محمد القرطبى)، تاريخ افتتاح الأندلس، نشره خوليان ريبيرا بعنوان: Historia de la conquista Espana، مدريد، ١٩٢٦، ص ٦٢، ابن سعيد المغربى، المغرب، جـ١، ص ٤٦؛ السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، جـ١، ص٥٦.

(٤) راجع: ابن حيان، المقتبس، الجزء الخامس، تحقيق بدرو شالميتا وآخرين، مدريد، ١٩٧٩، ص ٤١٢؛ وراجع أيضاً: نص الخطاب الذى وجهه الخليفة الناصر بهذه المناسبة فى: ابن عذارى، البيان المغرب، جـ٢، ص ١٩٨، ص ١٩٩؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٣٠؛ الحلل الموشية، ص ١٨-١٩، وعن انتقال دار السكة إلى الزهراء، انظر: ابن حيان، نفس المصدر، ص ٢٤٤؛ ابن عذارى، نفس المصدر، جـ٢، ص ٣٢١؛
Fransisco Codera y Zaidin, Titulos y nombres propios en las monedas Arabigo - Espanolas, Madrid, 1878, p. 56.

ابن حيان نصاً عن الرازى يفهم منه أن ضرب النقود كان معطلا فى الأندلس قبل الناصر بدهر [١]، ولعل ذلك يرجع إلى الاضطرابات السياسية التى سادت الأندلس خاصة فى عهد الأمير عبد الله، ثم استمرت العملات تضرب فى الأندلس حتى انتهاء رسم الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ.

وكان من الطبيعى أن تتشابه عملات عصر الطوائف فى المرحلة الأولى مع عملات الخلافة الأموية، ولكن هذه العملات لم تلبث قرب أواخر عصر الطوائف أن اتسمت بسمات جديدة تختلف مع عملات الأمويين كل الاختلاف [٢]، وإن كان أغلب العملات التى وصلتنا من عصر الطوائف فلوساً نحاسية وهذا لا ينفى وجود عملات ذهبية وفضية ولكن بكميات قليلة[٣].

وفى عصر المرابطين استحدث نظام نقدى يختلف عن النظام النقدى العربى لا سيما ما يتعلق بالدراهم، أما فيما يتعلق بالعملات الذهبية فالاختلاف لا يكاد يلمح، وقد أطلق على الدينار زمن المرابطين بالمرابطى [٤]، أما النقش الكتابى على وجهى العملة، فبجانب أسماء الله وتحميده والصلاة على نبيه، نقش اسم الخليفة العباسى، وأمير المسلمين المرابطى [٥]، ولم تقتصر العملات المرابطية على الدينار والدرهم، وإنما ضربوا بسبب الرخاء الاقتصادى الذى ساد دولتهم [٦] وتسهيلا للمعاملات التجارية فى خارج دولتهم عملات من فئة نصف الدرهم وربعه وثمنه و $\frac{1}{16}$ منه، وكانت هذه العملة الأخيرة تسمى خروبة (بالأسبانية Algorroba) [٧]، واستمر النقش بالخط الكوفى السمة الغالبة على عملات المرابطين لما تتميز به حروفه من الجمال والرشاقة[٨].

---

(١) ابن حيان، نفس المصدر، جـ٥، ص ٢٤٣.

(2) Antoni vives y Escudero , Monedas de las dinastias Arabigo - Espanolas, Madrid, 1898, p. 32

(3) Codera y Zaidin, op.cit., p. 4; Casto, Mª del Rivero, op.cit., pp. 22-24.

(٤) وانظر أيضاً: (من المقدمة) Vives y Escudero, op.cit, p. 7; Casto Mª del Rivero, Ibid, p. 32.

(٥) راجع: ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٨٨؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٤، ص ٣٥٠.

(٦) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ١٠٨؛ وانظر أيضاً: حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧، ص ٤١٢.

(٧) راجع: المراكشى، المعجب، ص ٢٠٧؛ وانظر أيضاً:

Francisco Codera, Decadencia, p. 22;

وعن أنواع ومعايير العملة المرابطية راجع:

Vives y Escodero, op.cit., p. 71; Calve y C.M. del Rivero, Catalogo sumario del museo orqueologico nacional, Madrid, 1926, pp. 187-188.

(8) Codera, Ibid, p. 220.

(أ) عملات شرق الأندلس (إمارة كل من ابن هود وعبد الله بن عياض ومحمد ابن سعد بن مردنيش):

كانت إمارة مرسيه من أهم الإمارات التى استقلت عقب انهيار الدولة المرابطية، وقد تعاقب على رياستها، كل من أحمد سيف الدولة بن هود، والأمير عبد الله بن عياض، والرئيس عبد الله بن فرج، وقد وصلت إلينا عملات لكل هؤلاء الأمراء سكت بأسمائهم ولا تختلف هذه العملات عن العملات المرابطية سوى فى الألقاب واسم الأمير المستقل، وكانت دار السكة قائمة بمرسيه باعتبارها المركز الرئيسى لإمارة شرق الأندلس، وسنكتفى بذكر أمثلة لبعض العملات التى عثر عليها ووردت فى مصنفات النقود الأندلسية، وفيما يلى عرض لها:

(١) دينار باسم أحمد بن هود، ضرب بمرسيه عام ٥٤٠هـ:

نقش على الوجه	نقش على الظهر
لا إله إلا الله	الإمام
محمد رسول الله	عبد
الأمير المستنصر	الله
بالله أحمد بن هود	أمير المؤمنين

(٢) دينار باسم الأمير عبد الله بن عياض، ضرب بمرسيه عام ٥٤٠هـ

ويدور حول حافة الوجه:	ويدور حول حافة الظهر:
ومن يبتغ غير الإسلام دينًا	بسم الله الرحمن الرحيم
فلن يقبل منه وهو فى الآخرة	ضرب هذا الدينار بمرسيه
من الخاسرين	أربعين وخمسماية (١)

(٣) دينار باسم الرئيس عبد الله بن فرج، ضرب بمرسيه عام ٥٤١هـ

نقش على الوجه	نقش على الظهر
لا إله إلا الله	الإمام
محمد رسول الله	عبد الله
الأمير عبد الله بن عياض	أمير المؤمنين

(1) Vives y Escudero, op.cit., p. 320, No. 1920.

نقش حول حافة الظهر بمدينة مرسيه سنة إحدى وأربعين وخمس مائة (١)

(٤) دينار باسم الأمير عبد الله بن عياض (توليته للمرة الثانية)، ضرب بمرسيه عام ٥٤١هـ

ويدور حول حافة الوجه:	**ويدور حول حافة الظهر:**
ومن يبتغ غير الإسلام دينا	بسم الله الرحمن الرحيم
فلن يقبل منه وهو فى الآخرة	ضرب هذا الدينار بمدينة
من الخاسرين	مرسيه سنة أربعين وخمس
	مـــاية (٢)

نقش حول حافة الظهر : بمرسيه سنة إحدى وأربعين وخمس ماية (٣)

ويلاحظ أن النقوش الكتابية على العملات السابقة تتشابه تماماً مع عملات المرابطين ففيها نلاحظ استمرار تبعية الأمراء المستقلين بمرسيه روحاً للخلافة العباسية، ولا تختلف هذه العملات بشرق الأندلس عن العملات إلا فى استبدال الأمير المرابطى باسم الأمير المستقل بإمارة مرسيه، كما يلاحظ أن نقوش محيط الحافة تقتصر فقط على ذكر موضع السكة وتاريخ السك منقوشاً على ظهر العملة. وقد أعانتنا العملات التى عثر عليها لهذه الفترة فى تسليط مزيد من الأضواء على الغموض الذى يحيط بهذه الفترة القصيرة المعقدة الغامضة التى تبعت سقوط دولة المرابطين إلى قيام محمد بن سعد بن مردنيش بتولى السلطة فى إمارة مرسية زهاء خمس وعشرين عاماً.

ظلت إمارة شرق الأندلس تحت سلطة ابن عياض إلى أن توفى، وتولى السلطة بعده محمد بن سعد بن مردنيش، وقد عثر على عملات متعددة يرجع تاريخها إلى عهده وتتبع نفس أسلوب عملات من سبقه على إمارة مرسيه، نقش عليها اسمه الأمير محمد بن سعد. وقد تمكنا بفضل ما وصلنا من هذه العملات التوصل إلى معرفة دار السكة بهذه الإمارة والتاريخ الذى سكت فيه عملات ابن سعد، وقد اتضح من نقوش هذه العملات أن هناك دارين للسكة فى إمارة شرق الأندلس هما مدينتا مرسيه وبلنسية، ولكن دار السكة بمرسيه كانت دار السكة الرئيسية، فقد عثر على عملات ضربت بمرسيه بدون انقطاع من سنة ٥٤٢هـ إلى سنة ٥٦٦هـ، أما عملات بلنسية التى وصلت إلينا فتؤرخ ما بين سنة ٥٤٤هـ، سنة ٥٤٦هـ، سنة ٥٤٨هـ، سنة ٥٥٠هـ، كذلك نستدل من نقوش هذه العملات أن تعديلا هاماً طرأ فى النقوش الكتابية فى العملة الذهبية فمن الملاحظ أنه ابتداء من سنة ٥٤٧هـ

(1) Ibid, p. 322, No. 1926.
(2) Vives y Escudero, op.cit., p. 323, No. 1928.
(3) Ibid, p. 323, No. 1929.

أضيف إلى وجه العملة عبارة «يعتصم بحبل الله»، كما أضيف إلى اسم محمد بن سعد كنيته (أبو عبد الله)، أما اسم ولقب الإمام العباسى فقد اختصر فى ظهر العملة على النحو التالى:

النقش فى العملات السابقة		نقش على الظهر
الإمام أبو عبد الله محمد		الإمـــــام
المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين	اختصر فى سنة ٥٥٧هـ إلى	عـــبـــد الله
العـــبــــاسى		العـبـــاسى [١]

ولعل هذا التغيير قد حدث نتيجة للظروف السياسية التى مرت بها إمارة شرق الأندلس إبان صراعها مع الخلافة الموحدية، ولعل ابن سعد أراد فى البداية أن يتقرب أكثر إلى الخلافة بتمجيد الخليفة العباسى ضماناً لالتفاف أهل هذه المنطقة حوله ولإضفاء الصفة الدينية والشرعية على إمارته، فنقش اسم الخليفة العباسى وكنيته كاملا ولكنه عندما أحس بتفوق قوة الموحدين على قوته واشتداد الضغط الموحدى على منطقة شرق الأندلس واستشعر بحتمية خضوع إمارته للموحدين اكتفى بذكر اسم الخليفة العباسى مجرداً من كنيته، كما نلاحظ أنه بدأ يظهر على وجه العملة ابتداء من سنة ٥٦٤هـ نقش كتابى يحمل اسم ولقب ولى عهده هلال [٢]. ونلاحظ أن العملات الفضية «القراريط» التى ترجع إلى عهد ابن مردنيش فتختلف بشكل واضح عن العملة الفضية المرابطية سواء من حيث الوزن أو المقياس [٣]. أما العملات النحاسية أو الدراهم فنادرة ذلك أنه لم يصلنا منها كاملا سوى درهم واحد، أما باقى الدراهم فقد عثر على أجزاء منها بعضها قد محيت نقوشه، ولكن يمكننا الاستدلال منها أن دار السكة هى مرسيه، وأن ما ضرب منها بدار السكة ببلنسية يعد نادراً [٤].

وفيما يلى عرض لبعض العملات الذهبية والفضية والنحاسية من عهد ابن مردنيش:

(١) دينار باسم محمد بن سعد ضرب بمرسيه فى عام ٥٤٣هـ

نقش على الوجـــه	نقش على الظهـــر
الــــلــــه	الإمـــــام
لا إله إلا الله محـمـد	عـــبـــد الله
رســـــول الـلـه	أمـــيـــر المؤمنين
الأمير محمد بن سعد	

(1) Vives y Escudero, op.cit., p. 76.

(2) Ibid, p. 70.

(3) Ibid, p. 77.

(4) Vives y Escudero, op.cit., p. 77.

نقش على دائرة الظهر:

بسم الله الرحـمن الرحـيم
ضرب هذا الدينار بمرسيه سنة
ثلاثة وأربعين وخمسماية [1]

(٢) درهم من الفضة عيار ٦٥, ٠ جرام لا تحمل اسم دار السكة

نقش على الوجـــــه	نقش على الظهـــــر
الـــــلــــــه	الأمــــــيـــــــر
لا إله إلا الله محـمـد	مـحـمـد بن سـعـد
رســـــول الـلـه	ولى عـهـده هلال [2]

(٣) درهم من النحاس باسم محمد بن سعد، دار السكة مرسيه عام ٥٥٦هـ

نقش على الوجـــــه	نقش على الظهـــــر
لا إلــه إلا الـــلــه	حـــــسبى الـلـه
مـحـمـد رسـول الله	فوضت أمرى إلى الله تعالى
الأمير أبو عبد الله محمد	**نقش على الظهـــــر**
بن ســـعـــد	بسم الله ضــرب هذا الدهم
أيـــده الـــلـــه	بمرسية سنة ست وخمسين
	وخــمـس مــــاية [3]

كما عثر فى عام ١٩٥٠ فى بوسات Busat (لقنت) على دينار لمحمد ابن سعد أمير شرق الأندلس يحمل تاريخ سنة ٥٥١هـ [4].

(ب) العملة الموحدية:

غير الموحدون نظام العملة تغييراً تاماً فى كل مظاهرها، فى الوزن والحجم والنقوش الكتابية، وحتى فى شكل العملة نفسها، فاتخذت عملاتهم الفضية الشكل المربع، أما العملات الذهبية فعلى الرغم من استدارتها إلا أننا نلاحظ أنه يتوسط العملة

---

(1) Casto Ma del Rivero , op.cit., pp. 166-167., No. 123.

(2) Vives y Escudero, op.cit., p. 330, No. 1972.

(3) Vives y Escudero, op.cit., p. 330, No. 1973.

(4) Felip Mateu y Llopio, Hallazgos numasmaticios muslmana, (IV) Al-Andalus, Fasc I, 1951, p. 207.

المستديرة مربع نقشت فيه الكتابات الرئيسية، كما نقشت كتابات أخرى خارج داير المربع في أركانه الأربعة [١]، وتؤكد المصادر العربية هذا التغيير الذى أقدم عليه الموحدون فى نظام العملة واتجاههم إلى تربيعها من ذلك ما أورده ابن خلدون بقوله «ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سنّه لهم المهدى اتخاذ سكة الدرهم مربّع الشكل، وأن يرسم فى دائرة الدينار شكل مربع فى وسطه، ويملأ من أحد الجانبين تهليلا وتحميداً، ومن الجانب الآخر كتب فى السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده، ففعل ذلك الموحدون، كانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد ولقد كان المهدى مما ينقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع نعته بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله»[٢]. ويقول صاحب الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة: «وكانت الدراهم قبل ظهور الدولة الموحدية كلها مدورة، فأمر المهدى أن تكون دراهمه مركنة، فكانت كذلك» [٣]. وبالإضافة إلى تغيير شكل العملة استبدل الموحدون فى النقوش الكتابية على العملة الخط الكوفى بالخط النسخى [٤]. كما أبطل الموحدون عادة تسجيل تاريخ سك العملة، ومحل الضرب، وإذا ظهر فى عملاتهم فإنه ينقش فى مكان ثانوى أدنى الوجه، أو فى ظهر العملة منقوشاً بحروف صغيرة [٥].

أما عن دور السكة الموحدية فقد تعددت فى المغرب، ومن الجدير بالملاحظة أن عملات الموحدين حتى عام ٥٦٨هـ لم تكن تحمل اسم أى من دارى السكة بمرسيه أو بلنسية ويرجع ذلك إلى أن نفوذ الموحدين لم يكن قد امتد بعد إلى شرق الأندلس، على أننا بدأنا نلاحظ أن اسم دور السكة فى مدينة بلنسية ومرسيه ودانية أخذ يظهر بعد وفاة ابن مردنيش.

وكان الدينار الموحدى ضعف الدينار العادى، ولذلك عرف فى المصادر الأسبانية باسم Dobla غير أن الموحدين لم يلبثوا فى عهد أبى يوسف المنصور أن ضربوا نصف دينار موحدى يزن ديناراً عادياً عرف فى المصادر الأسبانية باسم نصف دبله Media do-bla، كذلك ضرب الموحدون ربع الدينار المعروف عند النصارى الأسبان باسم ربع دبله Cuarta dobla أما فيما يتعلق بعيار هذه العملات الموحدية فيمكننا أن نجملها فيما يلى :

(1) Codera y Zaidin, op.cit., p. 5; Vives y Escudero, op.cit., p. 80; Casto Ma del rivero, op.cit., p. 51; Catalogo sumario del museo arqueologico Nacional , p. 188.

(٢) ابن خلدون، العـبـر، المجلد الأول، ص ٤٦٤–٤٦٥؛ وانظر أيضاً: ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ١٦٧–١٦٨؛ المنونى، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص٢٥٨.

(٣) أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، مطبوعات المعهد المصرى للدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٦٠، ص ٥٠.

(4) Casto Ma del Rivero, op.cit., p. 50.

(5) Ibid, p. 50.

أ ـ العملات الذهبية :

١ ـ الدينار الموحدى Dobla عياره يتراوح ما بين ٤,٤٨ و ٤,٧٠ جم

٢ ـ نصف الدينار Media dobla عياره ٢,٣٢ جم

٣ ـ ربع الدينار Cuarta dobla عياره ١,١٤ جم

ب ـ العملات الفضية:

١ ـ الدرهم يتراوح عياره ما بين ١,٥٠ ، ١,٥٥ جرام

٢ ـ نصف الدرهم يتراوح عياره ما بين ٠,٧٥ ، ٠,٧٧ جرام [(١)]

ولعل من الضرورى إيراد بعض نماذج العملة الموحدية، ثم نتبعها بإيراد بعض العملات التى ضربت فى دور السكة بشرق الأندلس.

(١) دينار موحدى باسم الخليفة عبد المؤمن بن علي

نقش على الوجه	نقش على الظهر
القايم بأمر الله	بسم الله الرحمن الرحيم
الخليفة أبو محمد عبد	لا إله إلا الله
المؤمن بن علي أمير	محمد رسول الله
المؤمنين	المهدى إمام الأمة
	مراكش

نقش فى داير الوجه	نقش على داير الظهر
وإلهكم ـ إله واحد ـ	الأمير الأجل ـ أبو عبد الله
لا إله إلا هو	محمد بن ـ أمير المؤمنين[(٢)]
الرحمن الرحيم	

---

(١) راجع عن العملات الموحدية وعيارها ومقاييسها:
(من المقدمة) Vives y Escudero , op.cit., p. 80.
Casto Ma del Rivero, op.cit., p. 51;
الدوحة المشتبكة ، ص ٥٠، هـ١ ؛ كما ورد فى المصادر العربية ذكر لدرهم منسوب لعبد المؤمن أطلق عليه درهم مؤمنى؛ راجع: المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٣) راجــع: Vives y Escudero, op.cit., p. 364, No. (1(

(٢) نصف دينار موحدى باسم الخليفة عبد المؤمن بن علي

نقش على الوجه	نقش على الظهر
القايم بأمر الله	لا إله إلا الله
الخليفة أبو محمد عبد	محمد رسول الله
المؤمن بن علي أمير	المهدى إمام الأمة
المؤمنين	

نقش فى داير الوجيه	نقش على داير الظهر
وإلهكم ـ إله واحد ـ لا	أمير المؤمنين ـ أبو يعقوب
إله إلا هو	يوسف بن ـ أمير المؤمنين(١)
الرحمن الرحيم	

(٣) ربع دينار موحدى

نقش على الوجه	نقش على الظهر
المهدى خليفة الله	لا إله إلا الله
أمير المؤمنين أبو	محمد رسول الله
محمد بن علي	المهدى إمام الأمة

نقش على داير الوجه	نقش على داير الظهر
أمير المؤمنين ـ الواثق ـ	أمير المؤمنين ـ أبو يعقوب ـ
المعتمد ـ أبو العلى	يوسف بن ـ أمير المؤمنين(٢)

(٤) درهم موحدى

نقش على الوجه	نقش على الظهر
الله ربنا	لا إله إلا الله
محمد رسولنا	الأمر كله لله
المهدى إمامنا	لا قوة إلا بالله (٣)

(1) Vives y Escudero, op.cit., p. 349, No. 2069.
(2) Ibid, p. 354, No. 2085.
(3) Ibid, p. 355, No. 2088.

ومن الجديـر بالملاحـظة أن معظـم العـمـلات التى ضـربت فى شـرق الأندلس ووصلتنا نماذج منها فضـية من الدراهـم وأنصـاف الدراهم وتحمل دور السكة ببلنسية [١] وميورقة [٢] ومرسيه [٣] ودانية[٤]

وقد استمر نظام العملة الموحدية على هذا النحو إلى أن تولى إدريس المأمون بن يعقوب المنصور الموحدى الخلافة فأمر بإسقاط المهدى من الدنانير والدراهم ودور الدراهم المركنة الموحدية [٥]، ولكن ابنه وخليفته الرشيد أعاد رسوم المهدى التى كان قد أزالها أبوه [٦].

جـ ـ عملات عصر طوائف ما بعد الموحدين بشرق الأندلس:

كانت إمارة مرسيه من أهم الإمارات الأندلسية التى خرجت عن السيطرة الموحدية بزعامة المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود وولده الواثق، وقد وصلتنا من هذا العهد عملات تحمل اسم الأميرين المذكورين، ومن بينها دينار، ونصف دينار، وقطعتين فئة ربع الدينار طابعها موحدى مع اختلاف جذرى فى النقوش الكتابية، فقد أسقط اسم المهدى وحل محله الخليفة العباسى، وخلا الداير بوجهى العملة فى أغلبه من النقوش الكتابية، فى حين احتفظ بتاريخ والمكان الذى ضربت فيه [٧].

كذلك وصلت إلينا مجموعة من الدراهم وأنصاف الدراهم ذات الطابع الموحدى سواء من حيث الشكل أو النقش باستثناء إسقاط اسم المهدى وإحلال اسم الخليفة العباسى مكانه، ولقب أمير المسلمين [٨].

وفيما يلى نماذج من عملات هذا العصر:

---

(1) Vives y Escudero, op.cit., p. 356, No. 2090.
(2) Ibid, p. 356, No. 2093.
(3) Ibid, p. 357, No. 2096.
(4) Ibid, p. 356, No. 2094

(٥) ابن أبى زرع، روض القـرطاس، ص ١٦٧-١٦٨ ؛ وانظر أيضاً: ابن خلدون، العبـر، المجلد السادس، ص ٥٣٠.
(٦) ابن خلدون، نفس المصدر ، المجلد السادس، ص ٥٣٣.
(٧) (من المقدمة) Vives y Escudero, op.cit., p. 84
(8) Casto Mª del Rivero, op.cit., p. 58.

(١) نصف دينار:

نقش على الوجه	نقش على الظهر
المتوكل على الله أمير المسلمين	لا إله إلا الله محمد رسول الله
محمد بن يوسف بن هود	الأمر كله لله لا قوة إلا بالله
وفي داير هذا الوجه	**وفي داير الظهر**
بسم الله الرحمن الرحيم صلى	لا إله إلا الله محمد رسول الله
الله على محمد وعلى آله وسلم	الخليفة العباسى إمام الأمة[١]
تسليماً	

(٢) نصف درهم يحمل اسم دار السكة (شاطبة) [٢].

(٣) درهم يحمل اسم دار السكة (مرسيه) [٣]

(٤) نصف دينار

نقش على الوجه	نقش على الظهر
لا إله إلا الله	الواثق بالله المعتصم به
محمد رسول الله	أمير المسلمين محمد
الأمر كله لله لا قوة إلا بالله	ابن محمد بن هود
وفي داير هذا الوجه	**وفي داير الظهر**
بسم الله الرحمن الرحيم صلى	القايم بدعوة الخليفة العباسى
الله على محمد وعلى آله وسلم تسليماً	أمير المؤمنين إمام الأمة[٤]

(٥) نصف درهم

وفي داير هذا الوجه	وفي داير الظهر
الحمد لله	الواثق بالله المعتصم به أمير المسلمين
ربّ العالمين	**نقش في داير الظهر**
	مرسيه[٥]

(1) Vives y Escudero, op.cit., p. 364, No. 2131.
(2) Ibid, p. 365, No. 2138.
(3) Ibid, p. 366, No. 2145.
(4) Casto Ma del rivero, op.cit., p. 182, No. 149.
(5) Casto Ma del Rivero, op.cit., p. 183, No. 150.

(٦) درهم

نقش على الوجه	نقش على الظهر
لا إله إلا الله	الواثق بالله المعتصم به محمد ولي
محمد رسول الله	عهد المسلمين
الخليفة العباسي	
أمير المؤمنين	

نقش على داير هذا الوجه
شاطبة(١)

وفي صيف عام ١٧٨٩، عثر في بلنسيه على نحو ستمائة درهم موحدى مربع يظهر بينهما درهمان مربعان تشير نقوشهما الكتابية إلى أنهما تنتسبان إلى جميل بن زيان آخر أمير عربي على بلنسيه، وهاتان العمليتان مهمتان لأنهما تعطينا الاسم الكامل لزيان الذى تلقب بالمؤيد بالله، المجاهد فى سبيل الله بالإضافة إلى ظهور اسم الخليفة العباسى على العملتين (٢).

٣ ـ نظام المكاييل والموازين

استخدمت أنواع متعددة من المكاييل والموازين فى شرق الأندلس زمن الموحدين، وفيما يلى عرض لأهم المكاييل والموازين:

أولا ـ المكاييل:

أ ـ المدّ Almud

من المحتمل أن يكون هذا الاصطلاح مشتقاً من الاصطلاح اللاتينى Modius الذى وصل إلى الأندلس عن طريق الممالك المسيحية فى رأى أحد المستعربين الأسبان(٣)، وقد يكون من أصل عربى ودخل فى اللغة اللاتينية بدليل أنه كان مستخدماً لدى العرب قبل الإسلام وقد فسر دكتور جواد عليّ بأنه سمى كذلك لكونه ملء كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومدّ يده بهما وبه سمى مداً (٤)، وأياً

(1) Ibid, p. 183, No. 151.

(2) Felipe Mateu y Liopis, Hallazgos numasmaticos musulmana (IV) Al-Andalus, Fasc I, 1951, pp. 208-209.

(3) Bermejo (Joaquin Vallvé), Notas de metrologia Hispano - arabe, Medias de Capacidad, Al-Andalus, XL II, 1977, p. 76.

(٢) راجع: جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الثامن، مطبعة المجمع العلمى العراقى، ١٩٦٠، ص ٤٢٤.

ما كان الأمر فالمد نوعان : الأول، المد الشرعى أو مد النبىّ ﷺ، والثانى، المد الكبير وهو أربع أضعاف الأول فى الحجم.

ففيما يتعلق بالمد الشرعى (مد النبي ﷺ)، لم يتفق فقهاء المسلمين على تحديد وزنه على وجه الدقة سواء بالدرهم أو بالأوقية أو بالرطل. ولا ينبغى حسب رأيهم أن تتجاوز زنته رطلا ونصف الرطل ولا تقل عن رطل وربع الرطل [1]، غير أنه أمكن عن طريق ما أقره فقهاء المسلمين عن المقادير الشرعية لأداء الزكاء تحديد عيار مد النبى برطل وثلث، ولما كان مد النبى ﷺ قد استعمل في الأندلس كوحدة مكاييل وموازين، فإن عياره بلغ إحدى وعشرين أوقية وثلث، على أساس أن الرطل ١٦ أوقية، وفى ذلك يشير ابن الجياب نقلا عن كتاب «الجواهر» : «أسند عبد الحق إلى عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال ذكر لى أنه عاير مد النبىّ ﷺ فوجد رطلا وثلث رطل فى المد»[٣].

أما المد الكبير، فكان من المكاييل الشائعة فى الأندلس، يساوى صاع النبى ﷺ وعياره أربعة من مدّ النبىّ ﷺ، ولما كان مدّ النبىﷺ عياره رطل وثلث، فإن المد الكبير عياره أكثر من خمسة أرطال [٣].

٢ ـ المدى Almudi

يبلغ عياره اثنى عشر قفيزاً، ويزن ثمانية قناطير، ونستدل مما أورده مؤرخو العرب أن استعماله شاع فى الأندلس فى عصر الدولة الأموية [٤].

٣ ـ الكيل:

شاع استخدامه فى الأندلس لكيل الحبوب وقياس الجوامد والمائعات على السواد وشمل استعماله قياس الأطوال والسعة [٥]، ومن المعروف أن الكيل كان يتخذ فى

---

(1) Bermejo (Joaquin Vallvé), Notas de metrologia Hispano - arabe, El codo en la Espana musulmana, Al - Andalus, XLI, 1976, pp. 340 yss.

(٢) ابن الجياب (أبو طاهر محمد بن عبد العزيز بن يوسف المرادى)، كتاب التقريب والتيسير لإفادة المبتدين بصناعة مسوح السطوح، مخطوط الأسكوريال، رقم ٩٢٩، لوحة رقم ٩.

(٣) نفس المصدر، لوحة رقم ٨.

(٤) ذكر المقرى هذا النوع من المكاييل فى نص أورده يتعلق بمقدار الجباية فى مدينة قرطبة زمن الأمير الحكم بن هشام، راجع: المقرى، نفح الطيب، جـ٢، ص ٧٩؛ كما أورده ابن غالب فى فرحة الأنفس عندما تعرض لذكر النفقات على بنيان مدينة الزهراء زمن الناصر، راجع: ابن غالب، فرحة الأنفس، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، العدد الأول، ١٩٥٥، ص ٣٠١.

(5) Bermejo (Joaquin Vallvé), Medidas de capacidad, p. 81.

قرطبة لكيل الدراهم القاسمية [١].

وعن عياره، يذكر ابن الجياب أن عيار القدح أو القنطار كان ست مد كبير وزنتها نحو من ٣٢ رطل، وفى الأندلس طابق القنطار أو القدح مع الكيل[٢].

٤ـ القسط:

جاء أول ذكر لهذا المقياس في العهد الذى عقده عبد العزيز بن موسى بن نصير مع تدمير بن عبدوس، وأورده العذرى ومنها : «وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية، من ذلك على كل حر: دينار وأربعة أمداء من قمح، وأربعة أمداء من شعير، وأربعة أقساط خل، وقسطا عسل، وقسط زيت، وعن كل عبد نصف هذا » [٣] والقسط من المكاييل المعروفة عند العرب قبل الاسلام واستخدم فى الأندلس منذ الفتح واستمر استخدامه قائماً فى الأندلس طوال العصر الإسلامى [٤]، وكان يتخذ لكيل العسل والزيت وعياره حسبما يذكره السقطى ثلاثة أرطال ونصف إذا كان عيار الربعة ٢٨ رطلا [٥] ومن الواضح أن القسط كان مقياساً كبيراً للسوائل.

٥ ـ الثمن Azumbre

يبدو شائعاً فى المصادر الأندلسية كلمة الثمن أو ثمن لتحديد ثمن المعيار أو الوزن، فحسب ابن عبدون، «الثمن من ثمن ونصف، وكذا كان فيما تقدم ولا يباع بكيل الزيت» [٦]. ويضيف ابن عبدون فى مكان آخر، أن جرة الزيت يجب أن يكون عيارها اثنى عشر ثمناً [٧]. وتعادل الاثنى عشرة ثمناً ربعه ونصف وعلى ذلك تزن الجرة أربعين رطلا ونصف، وفى وجوب اتباع وزن جرة الزيت يقول ابن عبدون : «يجب أن تكون القلة (من الزيت) من اثنى عشر ثمناً فإن ما يعمل منها الآن هى صغيرة وتكون وافرة الثقب» [٨]. أما السقطى فيزودنا بحقائق مشوقة تتعلق بالثمن فيذكر أن الثمن الشائع فى مالقة من الربعة من العمل الأندلسى وذو النوعية الطيبة يزن ثلاث أرطال ونصف[٩].

---

(١) راجع استخدام هذا الاصطلاح فى نص لابن عذارى أورده بمناسبة ذكر ما أنفقه الناصر فى بنيان صومعة جامع قرطبة وفى بناء مدينة الزهراء؛ البيان المغرب، جـ٢، ص ٢٣٠–٢٣١.

(٢) انظر : ابن الجياب، المصدر السابق، لوحة رقم ٩.

(٣) ترصيع الأخبار، ص ٤–٥؛ وانظر أيضاً: الضبى، بغية الملتمس، ص ٢٥٩، ترجمة ٦٧٥؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ٦٢–٦٣.

(٤) العذرى، نفس المصدر ، ص ٩٣.

(٥) آداب الحسبة، ص ١٣.

(6) Le traité d'Ibn Abdun, publié por Lévi - Provençal, en Journal Asiatique, t. CCXXIv, Avril, Juin, 1934, p. 230 del texto àrabe.

(٧) نفس المصدر، ص ٢٣٠.

(٨) آداب الحسبة، المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٩) السقطى، المصدر السابق، ص ٣٩.

٦ ـ القفيز Cahiz

من المقاييس العربية القديمة المستعملة لتقدير كميات الأشياء الجامدة، وعلى الأخص لكيل القمح [١]. وقد ظهرت منه أنواع مختلفة، فمنه القفيز القرطبى وعياره ٤٨ مد نبى بوزن ٦٤ رطل، وهو يتطابق مع القفيز البلنسى الذى عياره أيضاً ٤٨ مد نبى [٢]. ويذكر ابن الجياب، أن القفيز فى عصره (ق ٧هـ) كان يتضمن عشرين قدحاً أو قنطاراً، كل قدح عياره ست مد كبير تزن ٣٢ رطل، وكل قفيز يسع ستة مد كبير تزن ٣٢ رطل، ويزن القفيز ٦٤٠ رطلا وفيه ١٢٠ مد كبير أو ٤٨٠ مد نبى، ويضيف ابن الجياب أن حجم أو سعة هذا القفيز ٤,٥٠ ذراع مكعب حسب الذراع الشائع الاستعمال فى الأندلس لقياس الأقمشة بـ ٤١,٧٩ سم طول [٣]. ونستدل مما سبق أن حجم القفيز يبلغ ٣٢٨,٥٤٣ ديسمتر مكعب، وأما وزنه فـ ٦٤٠ رطل. وكان عيار القفيز الذى استعمل فى القرن السابع الهجرى عشرة أقفزة قرطبية تعادل ٤٨ مد نبى لكل واحد [٤].

(٧) القدح:

كان يستخدم لكيل الحبوب، وعياره ست مد، كل مد خمسة أرطال وثلث [٥]، يذكر السقطى أن القدح من القمح عياره ٣٤ رطل، ومن الشعير والشنيتبة ربعاً واحدة ٢٥ رطل أو أقل، والقدح من الكزبرة اليابسة ١١ رطل كل رطل ١٦ أوقية، والأوقية عشرون درهماً [٦].

ولقد انتقلت كلمة قدح من العربية إلى اللغات اللاتينية المختلفة فى شبه الجزيرة الأيبيرية فعرفت فى القشتالية بـ Alcadafe، وفى البرتغالية Alcadefe وفى كلا اللغتين لها نفس المدلول [٧]

(٨) طماني:

يعرف بالقشتالية Celemin يعنى ثمن جزء المكيال الفائق، ويرى الأستاذ خواكين باليبه أن اصطلاح Celemin هو ثمن جزء من القفيز الأصغر من ٦٤ رطل وهذا الثمن يزن ٨ أرطال [٨].

---

(١) راجع: دائرة المعارف الاسلامية، الجزء الثانى، ص ٦٢٢.

(٢) انظر : مخطوطة رقم ٤٨، من مجموعة de la Junta apud, Bermejo, op.cit, p. 89.

(٣) راجع: ابن الجياب، المصدر السابق، لوحة رقم ٩.

(٤) ابن الجياب، نفس المصدر، لوحة رقم ٩.

(٥) ابن الجياب، نفس المصدر، لوحة رقم ٥ وما يليها.

(٦) السقطى، المصدر السابق، ص ١١.

(7) Joaquin vallvé , op.cit., p. 97.

(8) Ibid, p. 100.

(٩) الفنيقة :

من المكاييل المستخدمة لكيل الحبوب أو الغلال، ويقول البكرى أن الفنيقة القرطبية عيارها ٢٠ مد نبى [(١)]، لكن المقدسى يرى أنها تزن نصف قفيز عياره ٦٠ رطل أو ليكن عيارها ٣٠ رطل [(٣)]، وعلى أية حال فإن الفنيقة تحدد مع الربع الشائعة فى الأندلس بـ ٢٧، ٢٨، ٣٠، وحتى ٣٢ رطل [(٣)].

(١٠) المكيلة:

يستفاد من كلام ابن عبدون أن الطحان فى أرحية الماء لا يجب أن يأخذ أجراً أكثر من عشرة أرطال لحمل من ا لقمح [(٤)]. وإذا كان حمل القمح يساوى قفيزاً عياره عشرون قدحاً أو ربعه و ٦٤٠ رطلا وزناً، فمعنى هذا أنه إذا حصل الطحان على عشرة أرطال من كل قفيز كان نصيبه ٦٤ رطل [(٥)].

(١١) تعليقة :

من المحتمل أن التعليقة Talega، كانت تستخدم فى الأندلس لكيل الحبوب وقياس المساحة، على الرغم من أن المصادر العربية لم تذكر شيئاً عنها، أما هذا الاصطلاح فقد ورد فى اللغة البرتغالية مشتقاً من الاصطلاح العربى Tega, Teiga, Tego [(٦)].

ثانياً- الموازين:

أما عن وزن المعادن الثمينة من عملات ذهبية وفضية، وبعض المواد النادرة من التوابل، فقد استخدم مثقال من الذهب، ودرهم من الفضة، وكان وزن الدرهم ٣,١٤٨ جراماً، ولذلك طابق تماماً عشر الأوقية، لكن هذه العلاقة الوزنية تغيرت فى القرن الثانى عشر، إذ يذكر السقطى أن عيار الأوقية عشرين درهماً من الفضة [(٧)].

أما بالنسبة للمثقال فوزنه الشرعى ٤,٧٢ جراماً، وكان عيار القيراط نصف درهم، والجرام عياره حبة [(٨)].

---

(١) البكرى (أبو عبد الله بن عبد العزيز)، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، تحقيق البارون دى سلان، الطبعة الثانية، الجزائر، ١٩١١، ص ١١٢-١١٣.

(٢) المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد)، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، مكتبة خياط، بيروت، ص ٢٤٠.

(٣) راجع: Joaquin Vallvé, op.cit., p. 106.

(٤) ابن عبدون، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(٥) راجع: Joaquin Vallvé, op.cit., p. 106.

(6) Ibid, p. 108.

(٧) السقطى، المصدر السابق، ص ١٣.

(8) Lévi - Provençal, Espana musulmana, t. V, p. 137.

وأما الحبة، فهى من العبارات المستعملة فى نظم الوزن، أما وزنها فقد اختلف فيه باختلاف الأزمنة والأمكنة، وقد قدرها بعضهم بسدس ثمن درهم، وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من درهم، راجع: جواد علي، المرجع السابق، جـ٨، ص ٤١٥-٤١٦.

الفصل الثالث
الحياة العلمية

١ ـ العلوم الدينية

أ ـ علم القراءات والتفسير.

ب ـ علوم الحديث والفقه.

٢ ـ العلوم اللغوية.

أ ـ الشعر.

ب ـ الموشحات والأزجال.

جـ ـ النثر.

د ـ الدراسات النحوية.

٣ ـ علمي التاريخ والجغرافيا.

٤ ـ الطب والرياضيات والهندسة.

حظيت الحركة العلمية والأدبية فى قرطبة بنصيب وافر، ومكانة لا نظير لها، حتى غدت بحق قاعدة العلوم ومركز الآداب، وبلغت أقصى ذروتها فى عصر الخلافة، وأصبح اسمها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلم، بل أصبح العلم من معالمها البارزة التى يتفاخر بها أبناء قرطبة [١].

ومن الطبيعى أن قرطبة لم تصل إلى هذه المكانة الفائقة إلا لكونها حاضرة الخلافة ومركز الحكم فكان نمو الحركة العلمية فيها مبكراً عن حواضر الأندلس الأخرى، وكان عطاؤها العلمى المتنوع غزيراً، إلى أن فقدت سلطتها المركزية كحاضرة للأندلس فى أعقاب التفتت السياسى الذى واكب انهيار الخلافة الأموية، فتأثرت الحياة الأدبية فيها بعمق بالكوارث والنكبات التى تلاحقت عليها سريعاً وطحنتها طحناً ومزقتها أشلاءً مما دفع بكبار علمائها ومفكريها إلى الهجرة عنها والتماس مجالات أخرى لنشاطاتهم الأدبية فى ظل ملوك الطوائف.

ولا شك أن هذه الظروف السياسية كانت خيراً على مناطق كثيرة من الأندلس وبالذات على المشرق الذى أفاد منها أكبر فائدة فكان مركز الهجرة ومحل الاستقرار لما كان ينعم به من هدوء نسبى، ولهذا انتجعه علماء قرطبة وكبار مفكريها وانعكس ذلك بطبيعة الحال على الأوضاع الاجتماعية والثقافية فى مدنه منذ طليعة القرن الخامس الهجرى فنشطت الحركة العلمية فيه نشاطاً تجاوز كل تقدير فى الحسبان، واستمر هذا النشاط قائماً فى العصور التالية، وبلغ الازدهار العلمى أوجه فى ظل الموحدين الذين لم يترددوا فى تشجيع العلوم ورفع رايتها ورعاية العلماء فى كل مجالات الفكر [٢]، فقد أحاط السادة الموحدون أنفسهم بحشد من أعلام الكتاب والشعراء والمفكرين، وكان لذلك أعظم الأثر فى تألق الحياة العلمية وازدهار العلوم، وساعد على هذا الازدهار أن كثيراً من خلفاء الموحدين كانوا من هواة الأدب والعلوم، فأحاطوا بلاطهم بطائفة من عظام شيوخ العصر وكبار مفكريه أمثال أبى الوليد ابن رشد، وأبى بكر بن طفيل، وأبى بكر بن عبد الملك بن زهر أعظم علماء الأندلس فى هذا العصر [٣].

وهكذا كانت سياسة الموحدين المباركة بدفع عجلة الفكر فى الأندلس واحتضان علمائها ورعايتهم أحق الأثر فى ازدهار العلوم والآداب، وحظيت حواضر

---

(١) راجع : السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس، جـ٢، ص ١٥٩.

(2) Nicholson (Reynold, A), A Literary History of the Arabe, Cambridge, 1953, p. 432.

(3) pérés (Henri), La poésie à fés sous les Almoravides et les Almohades, en Hespéris, t. XVIII, 1934, Fasct, p. 40, (No. I).

شرق الأندلس بنصيب وافر من العلماء والمفكرين فى شتى مجالات العلم والمعرفة بل إن الواحد من هؤلاء العلماء كان فى تخصصه يجمع بين العلوم الدينية كالحديث والأصول والتفسير وبين العلوم اللغوية والأدبية كالنحو والأدب، بينما وجد منهم فريق كان يجمع بين هذه الدراسات الأدبية والعلوم النقلية كالطب والفلسفة والرياضيات، وتسوق التراجم العديد من هذه الأمثلة.

وفيما يلى عرض لأهم جوانب النشاط العلمى فى شرق الأندلس فى فترة موضوع الدراسة.

(١) العلوم الدينية:

وهى العلوم التى تخدم بشكل مباشر القرآن الكريم والحديث الشريف وتشمل علم القراءات والتفسير وعلوم الحديث والفقه.

أ ـ علم القراءآت والتفسير:

حظيت العلوم الدينية المتصلة بالقرآن الكريم بنصيب وافر من الفكر الإسلامى فى شرق الأندلس على مرّ العصور باعتباره المصدر الرئيسى للشريعة والمنهج الذى ارتضاه المسلم، ولعل ذلك كان باعثاً على تقدم هذه العلوم الدينية وتألقها فكثرت فيها التواليف وبرز عدد كبير من العلوم فى هذا المجال فى شرق الأندلس، ففى علم القراءات نبغ:

١ ـ محمد بن الحسن بن محمد بن سعيد المقرى من أهل دانية، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن غلام الفرس (ت فى عام ٥٤٧هـ)، وكان إماماً فاضلاً صاحب ضبط وإتقان مشاركاً فى علوم جمة يتحقق منها بعلم القرآن والأدب، كما عرف بإتقانه للخط وأناقته فى الوراقة ويعتبره ابن الآبار آخر المقرئين [١]، وقد تولى بآخر عمره الخطبة بجامع دانية [٢].

٢ ـ علي بن محمد بن علي بن هذيل (ت فى عام ٥٦٤هـ) من أهل بلنسية، «وكان صدر المقرئين وإمام الموجودين، عمّر فانتهت إليه رياسة الإقراء بشرق الأندلس فى عصره، متقناً ضابطاً مجوداً حسن الأخذ على القراء مشهور الفضل والزهد» [٣].

---

(١) ابن الآبار، التكملة، ص ١٩٣ وما يليها، ت :٦٦٩.

(٢) نفس المصدر، ص ١٩٥.

(٣) ابن عبد الملك المراكشى، الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة، السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ص ٣٦٩، ت ٦٣٨.

٣ ـ أحمد بن علي بن يحيى بن عون الله الأنصاري وكنيته أبو جعفر الحصار، (ت في عام ٦٠٩هـ)، أصله من دانية، وسكن بلنسيه، وصفه ابن عبد الملك بقوله : «كان خاتمة المقرئين ببلنسية، لم يكن أحد من أهل صناعته يدانيه في الضبط والتجويد والاتقان وحسن الآداء»[1]. انفرد بقراءة «ري الظمآن في تفسير القرآن» على مصنفه أبي الحسن بن النعمة، علاوة على اتقانه الخط والوراقة، وكانت وفاته ببلنسية حيث دفن بمقبرة الجنان [2].

٤ ـ ومن جلة علماء شرق الأندلس أيضاً الفقيه الحافظ الضرير أبو القاسم ابن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني من شاطبة (ت بالقاهرة في عام ٥٩٠هـ) ودفن بالمقبرة الفاضلية بسفح المقطم [3]. كان واحداً من أعظم علماء شرق الأندلس في عصره وأكثرهم فضلا [4]، رحل إلى مصر وسمع من الحافظ السلفي وابن برى وغيرهما، ويذكر المقرى أنه «كان إماماً، علامة ذكياً، كثير الفنون، منقطع القرين، رأساً في القراءات حافظاً للحديث، بصيراً بالعربية، واسع العلم» [5]، ألف قصيدتين في القراءات والرسم، «حرز الأماني»، و«عقيلة أتراب الفضائل»، نالت شهرة كبيرة، وقد امتدحه ابن خلكان بقوله : «أنه أبدع في حرز الأماني، وهي عمدة قراء هذا الزمان في تعلمهم فقلّ من يشتغل بالقراءات إلا ويقدّم حفظها ومعرفتها، وهي مشتملة على رموز عجيبة وإرشادات لطيفة » [6].

وفي علم التفسير نبغ :

١ ـ زيادة الله بن محمد بن زيادة الثقفي المرسي، ويعرف بابن الحلال ويكنى أبا الحسن (ت في عام ٥٥٢هـ) [6]، وأصله من مرسيه، وكان يقرئ الحديث ويفسره، وقد تولى خطة الشورى ثم استقضى بمدينة بلنسية.

٢ ـ محمد بن عبد الملك بن محمد بن خلف بن علي بن قاسم الأنصاري، من أهل

(١) ابن عبد الملك المراكشي (أبو عبد الله محمد)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول، القسم الأول، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، ص ٣٤٢، ت: ٤٣١.

(٢) ابن عبد الملك، نفس المصدر، السفر الأول، القسم الأول، ص ٣٤٢، ت : ٤٣١.

(٣) المقرى، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣٠.

(٤) نفس المصدر والجزء، ص ٢٩٩.

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٣١.

(٦) المقرى، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣١.

(٧) ابن الآبار، التكملة، ص ٧٥، ت :٢٥١.

بلنسية ويقال أنه من قلعة أيوب ولد فى رمضان عام ٥٥٤هـ، وتلقى العلم فى بلنسية ونبغ فى علم التفسير بوجه خاص فكان له «تحقق بالتفسير وقيام عليه وقعد لذلك بجامع بلنسية وقتاً مع مشاركة يسيرة فى النظم والنثر» [١]، وكانت تغلب عليه طريقة التصوف، وقد صنف عدداً من الكتب من أهمها كتاب «نسيم الصبا فى الوعظ على طريقة الجوزى»، وكتاب «بغية النفوس الزكية فى الخطب الوعظية»، وتوفى بأوريوله فى ٢٢ رجب عام ٦٤٠هـ [٢].

٣ ـ محمد بن أيوب بن محمد بن وهب بن نوح الغافقى من أهل بلنسية ولد فى سنة ٥٣٠هـ، وقضى صباه فى بلنسيه حيث تلقى العلم على شيوخها، وبرز ورسخ فى علمى التفسير والقراءات، ويصفه ابن الآبار بقوله : «لم يكن فى وقته بشرق الأندلس نظير له تفنناً واستبحاراً، كان رأساً فى الراسخين من العلماء وصدراً فى المشاورين من الفقهاء... وشارك فى التفسير وتحقق بالقراءات، وأما عقد الشروط فإليه انتهت الرياسة فيه» [٣]، وولى خطة الشورى كما تولى قضاء بعض أعمال بلنسيه، وخطب بجامع بلنسيه وقتاً، وتوفى ببنلسيه فى شوال عام ٦٠٨هـ حيث دفن بمقبرة باب الحنش [٤].

ب ـ علـوم الحديث والفقـه:

شغلت دراسة الحديث والفقه مكانة هامة من النشاط العلمى فى شرق الأندلس وكان البحث فى هذه الدراسات من أهم مظاهر الحركة العلمية فى شرق الأندلس الأمر الذى نستدل منه على حرص أهل هذه المنطقة على التحقق من مصادر التشريع وإقبالهم على النظر فى أمور المجتمع المختلفة، ولقد برز فى مجال هذه العلوم عدد كبير من المحدثين والفقهاء من أثروا المكتبة الأندلسية بعديد من مصنفاتهم فى الفقه، وتزخر كتب التراجم الأندلسية بأسماء جمهرة من هؤلاء العلماء نذكر منهم:

١ ـ المحدث يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن إبراهيم بن فيره بن عمر اللخمى الأندى، ويكنى أبا الوليد ويعرف بابن الدباغ، ويصفه ابن الزبير بقوله «القاضى الإمام المحدث الجليل أحد الأئمة المهرة المتفننين فى صناعة الحديث وجهابذة النقاد» [٥]، كما ذكره أبو العطاء وهب بن لب بن نذير، وكان ممن صاحبه بين

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٥٤، ت: ١٠٢١.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٩٧، ت : ٩١٢.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) ابن الزبير (أبو جعفر أحمد)، القسم الأخير من كتاب صلة الصلة، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال، الرباط، ١٩٣٨، ص ٢٠٧.

أئمة المحدثين فأشار بأنه «خاتمة أيمة المحدثين»، وعلل ذلك بكثرة شيوخه الذين لذكرهم مصنفاً يتناول تراجمهم، جاء «تأليفاً بليغاً أنبأ عن حفظه وتهممه وإتقانه ورياسته في صَنَعة الحديث وإمامته فيه وقته»[1]. ومن مصنفات ابن الدباغ أيضاً «معجم شيوخ شيخه القاضي أبي علي الصدفي»، وكتاب «الغوامض والمبهمات»، و«طبقات المحدثين والفقهاء»، و«اختصار إيضاح الاشكال لعبد الغني»، وقد توفي بدانية عام ٥٤٦هـ، ودفن بمرسيه[2].

٢ ـ المحدث عيسى بن محمد بن فتوح الهاشمي (ت في عام ٥٦٠هـ) من أهل شرق الأندلس، أقام بمدينة بلنسية، ويعرف بابن المرابط، من مؤلفاته كتاب: «التقريب والحرش في أصول قراءة قالون وورش»[3].

٣ ـ المحدث أحمد بن سلمة بن أحمد بن يوسف بن سلمة الأنصاري، من أهل لورقة (ت: ٥٩٧هـ)، يكنى أبا العباس وأبا جعفر، ذكره ابن عبد الملك في تراجمه بقوله: «كان محدثاً حافظاً كامل العناية بالحديث، ومن أهل المعرفة، به ضابطاً متقناً وافر الحظ في علم العربية»[4].

٤ ـ المحدث عبد الكبير بن محمد بن عيسى بن محمد بن بقي أبو محمد الغافقي المرسي، (ت في عام ٦١٧هـ) كان فقيهاً محدثاً بصيراً بالشروط متقدماً في الفتيا وصناعة التوثيق وعلم الفروع والطب، وتنسب إليه اختصارات في الطب، ومؤلفات في التفسير، ومختصر في الحديث، وصنف تفسيراً نحا فيه الجمع بين تفسير ابن عطية والزمخشري[5].

٥ ـ المحدث محمد بن عبد الرحمن التجيبي، أبو عبد الله، من أهل لقنت، عاش في النصف الثاني من القرن السادس، ورحل إلى المشرق في طلب العلم والحج، وتلقى العلم على جلة علمائه، ثم قفل من رحلته عائداً إلى وطنه، وألف مصنفات عديدة منها: «أربعون حديثاً في المواعظ»، وأخرى في الفقر وفضله، وفي الحب في الله تعالى، وفي «فضل الصلاة على النبي ﷺ» وكتاب «الفوائد

---

(١) في: ابن الزبير، نفس المصدر والصفحة.

(٢) نفس المصدر والصفحة، انظر أيضاً: الضبي، بغية الملتمس، ص ٤٧٦، ت: ١٤٤٥.

(٣) نفس المصدر، ص ١٩٨، ت: ٣٩٠؛ وراجع أيضاً ابن الآبار، التكملة، ص ٧٣٠، ت: ٢٠٦٩.

(٤) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول، القسم الأول، تحقيق الأستاذ محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، ص ١٢٥، ت: ١٧٧.

(٥) ابن الآبار، التكملة، ص ٦٥٤، ت: ١٨١٢؛ وانظر أيضاً: ابن الزبير المصدر السابق، ص٤٤، ت: ٦٩.

الكبرى»، و«الفوائد الصغرى»، وكتاب «فضل عشر ذى الحجة»، وكتاب «مناقب السبطيين»، وكتاب «الترغيب فى الجهاد»، وكتاب «المواعظ والرقائق»، وكتاب «مشيخة السلفى» [1].

٦ ـ المحدث أبو عمر بن عات، أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزى الشاطبى، استشهد فى موقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ [2]، تلقى العلم فى شاطبة ثم رحل إلى المشرق، وأخذ عن كبار علمائه وألف مصنفين أحدهما «النزهة فى التعريف بشيوخ الوجهة»، والآخر «ريحانة النفس، وراحة الأنفس فى ذكر شيوخ الأندلس» [3]، ويصفه ابن عبد الملك بأنه «كان من أكابر المحدثين، وجلة الحفاظ المسندين للحديث والاداب بلا مدافعة، ويرد الأسانيد والمتون ظاهراً فلا يخل بحفظ شيء منها» [4].

٧ ـ المحدث عبد الله بن سليمان بن داود عبد الرحمن بن سليمان بن عمر بن خلف بن حوط الله الأنصارى الحارثى من مدينة أنده، ولد عام ٥٤٨هـ، وكان على حد قول ابن الآبار «إماماً فى صناعة الحديث مقيداً ضابطاً بصيراً بها معروفاً بالاتقان لها حسن الخط حافظاً لأسماء الرجال واقفاً على المعدلين والمجرحين يجمع إلى الاحتفال فى الرواية حسن الاستقلال بالدراية»[5]، ومن أهم مصنفاته «كتاب فى تسمية شيوخ البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى والترمذى» ونزع فيه منزع أبى نصر الكلاباذى ولكنه لم يكمله، توفى بغرناطة فى ربيع الأول عام ٦١٢هـ[6].

٨ ـ ومن المحدثين المنسوبين إلى أنده كذلك داود بن سليمان بن داود عبد الرحمن بن حوط الله الأنصارى الحارثى، أخو عبد الله، ولد عام ٥٦٠هـ، وتوفى بمالقة فى ٦ ربيع الآخر عام ٦٢١هـ[7]، وكان على حد قول ابن الخطيب : «فهيماً بصيراً بعقد الشروط، حاذقاً فى استخراج نكتها تلبس بكتبها زمناً طويلا

---

(١) المقرى، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٦٠.

(٢) المقرى، نفس المصدر، جـ٣، ص ٣٥٨.

(٣) المقرى، المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٥٧.

(٤) فى : المقرى، نفس المصدر والجزء، ص ٣٥٨.

(٥) ابن الآبار، التكملة، جـ٢، ص ٥٠٦، ت : ١٤٣٥؛ وراجع أيضاً فى سيرته: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٣، ص ٤١٦؛ ابن سعيد المغربى، المغرب ، جـ٢، ص ٣١٦.

(٦) ابن الآبار، نفس المصدر، جـ٢، ص ٥٠٦؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٣، ص ٤١٧.

(٧) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ١، ص ٥٠٦.

بمسجد الوحيد من مالقة، وكان محبًا فى العلم وأهله حريصاً على إفادته إياهم صبوراً على سماع الحديث »[1].

٩ ـ المحدث سليمان بن موسىٰ بن سالم بن حسان الحميرى الكلاعى البلنسى، أبو الربيع بن سالم، ويعتبر من أئمة المحدثين فى عصره، وكان حسبما يذكره تلميذه ابن الآبار «إماماً فى صناعة الحديث، بصيراً به حافظاً حافلا عارفاً بالجرح والتعديل ذاكراً للمواليد والوفيات يتقدم أهل زمانه فى ذلك، وفى حفظ أسماء الرجال، مع الاستبحار فى الأدب والاشتهار فى البلاغة، فرداً فى إنشاء الرسائل، مجيداً فى النظم، خطيباً فصيحاً مفوهاً»[2]، ووصفه ابن عبد الملك بأنه «بقية الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقى، حافظاً للحديث مبرزاً فى نقده تام المعرفة بطرقه ضابطاً لأحكام أسانيده ذاكراً لرجاله وتواريخهم وطبقاتهم، ريان من الأدب كاتباً بليغاً شاعراً مجيداً خطيباً مصقعاً»[3] تولى الخطبة بجامع بلنسية لفترة ما، كما تولى منصب القضاء ومن حيث انتاجه العلمى كان مشهوراً له بالمصنفات العديدة فى الحديث والسير والاداب من بينها كتاب «مصباح الظلمْ فى الحديث»، وكتاب « الأربعون عن أربعين شيخاً لأربعين من الصحابة»، وكتاب عنوانه «الأربعون السباعية»، وكتاب «السباعيات من حديث الصدفى»، وكتاب «حلية الأمالى فى المراقبات العوالى»، وكتاب «تحفة الوداد ونجعة الرواد»، وكتاب «المسلسلات والإنشاءات»، وكتاب «الاكتفاء فى مغازى رسول الله»، و«مغازى الثلاثة الخلفاء»، وكتاب «ميدان السابقين وحلية الصادقين المصدقين فى عرض كتاب الاستيعاب»، ولم يكمله[4].
وكان أبو الربيع بن سالم فوق علمه، من أولى الحزم والجرأة والبسالة والشهامة، يشارك فى الغزوات، ويباشر بنفسه القتال ويبلى فيه أحسن البلاء، وشهد موقعة أنيشة التى وقعت فى ظاهر بلنسيه فى ٢٠ من ذى الحجة عام ٦٣٤هـ، واستشهد فيها إلى جانب أبى الربيع عدد كبير من المسلمين، وقد رثاه تلميذه ابن الآبار بقصيده الشهيرة التى مطلعها :

ألمّا بأشلاء العلى والمكارم ∴ تقدّ بأطراف القنا والصوارم
وعوجا عليها مأدبا وحفاوة ∴ مصارع غصّت بالطلى والجماجم[5]

(١) نفس المصدر والجزء، ص ٥٠٣.

(٢) التكملة، جـ٢، ص ٧٠٨، ت : ١٩٩١.

(٣) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، بقية السفر الرابع، ص ٨٣، ت : ٢٠٣.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٤، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٥) فى: ابن الخطيب، نفس المصدر والجزء، ص ٣٠٤؛ وراجع أيضاً: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة بقية السفر الرابع، ص ٩٠.

وفي علوم الفقه، برز عدد كبير من علماء شرق الأندلس، نذكر من بينهم :

١ ـ الفقيه أحمد بن محمد بن زيادة الله بن عيسى الثقفي، من أهل مرسيه، وكان فقيهاً مشاوراً ذاكراً للمسائل بصيراً بالفتاوى في النوازل، مشاركاً في الأدب، تقلد بعض الوظائف في شرق الأندلس [١]، منها منصب «قاضي قضاة الشرق»[٢]، إلى أن سعى به عند محمد بن سعد ابن مردنيش أمير شرق الأندلس آنذاك، فقبض عليه واستصفى أمواله وغربه إلى أنده، واعتقل بها فترة ثم قتل عام ٥٥٤هـ [٣].

٢ ـ الفقيه عمر بن أبي الحسن محمد بن واجب بن عمر بن محمد بن واجب القيسي من أهل بلنسيه، ولد عام ٤٧٦هـ، من بيت علم، وكان فقيهاً مشاوراً، درياً بالفتيا عارفاً بالأحكام [٤]، تولى قضاء بعض مدن شرق الأندلس، وكان خاتمة حفاظ الفقه بشرق الأندلس ثم توفي آخر رمضان عام ٥٥٧هـ [٥].

٣ ـ الفقيه علي بن عبد الملك بن خلف بن محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الملك الأنصاري (ت : ٥٦٧هـ)، من أهل بلنسية، وكان على حد قول ابن عبد الملك خاتمة العلماء بشرق الأندلس في عصره، فكان إلى جانب تبحره في العلوم والمعارف «راسخاً في العلم مقرئاً مجوداً، مفسراً محدثاً، راوية حافظاً، فقيهاً مشاوراً، بارعاً في علوم اللسان» [٦]، ذكره ابن الزبير في صلة الصلة بقوله : «كان مقرئاً جليلاً ونحوياً عارفاً فقيهاً مشاوراً» [٧] وقال فيه أبو عمر بن

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول، القسم الثاني، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، ص ٤٢٥، ت : ٦٢٧.

(٢) ابن الآبار، المعجم، ص ٤٠، ت : ٢٨.

(٣) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الثاني، ص ٤٢٥؛ وراجع أيضاً: ابن الآبار، المعجم ، ص ٤٠-٤١.

(٤) ابن عبد الملك ، نفس المصدر، السفر الخامس، القسم الثاني، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ص ٤٦٨، ت : ٨١٧.

(٥) نفس المصدر والقسم والصفحة، بينما يقول ابن الآبار أنه توفي سنة ٥٦٠هـ؛ راجع التكملة، جـ٢، ص ٦٥٥، ت : ١٨٢٤.

(٦) نفس المصدر ، السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ص ٢٢٦، ت : ٤٥٥؛ راجع أيضاً في سيرته: ابن الآبار، التكملة، ص ٦٦٩، ت ١٨٦٣ ١٨٦٣.

(٧) ابن الزبير، صلة الصلة، ص ١٠٤، ت : ٢١١.

عات: «إمام بلنسيه وفقيهها المشاور وأستاذها الذى لا يبارز، وخطيبها الذى لا يجاوز، مقرئ فائق، ونحوى حاذق» [١]. ووصفه الكاتب البارع أبو بكر يحيى بن محمد الأركشى فى مقامته «قسطاس البيان فى مراتب الأعيان» بأنه «فقيه عارف وحامل أدوات ومعارف، وما هو إلا زبدة زمان تمخض العصر عنها، وروضة علم تضوع العطر منها، تلتمس أشتاتها من عنده وتقتبس، ويفزع إليه فى كل ما أشكل منها والتبس، ذهب فى اقتنائها أهدى مذهب، وامتطى إلى حامليها صهوة الهجير الملهب، حتى انتهجت له شعابها، وانقادت إلى فهمه صعابها، ومازال متتبعاً مساقط أثرها، حتى روى من سلسبيلها وكوثرها [٢].
ومن أهم مصنفاته، «رى الظمآن فى تفسير القرآن»، و«الإمعان فى شرح مصنف أبى عبد الرحمن»، الذى بلغ فيه الغاية من الاحتفال وحشد الأقوال» [٣].

٤ ـ الفقيه محمد بن أحمد بن عبد الملك، من أشهر فقهاء مرسيه، وكان فقيهاً حافظاً عارفاً بمذهب مالك، عكف على تدريسه، وكان إلى جانب ذلك حسن البيان، عادلا فى الأحكام [٤]. ألف عدداً من التواليف من بينها كتاب «نتايج الأبكار ومناهج النظار فى معانى الآثار»، وكتاب «إقليد التقليد المؤدى إلى النظر السديد» وبرنامج المقتضب من كتاب الأعلام»، و«الأنبا بأنباء ابن خطاب»، وقد تقلد بعض الوظائف فى بلده، وتوفى بمرسيه فى المحرم سنة ٥٩٩هـ [٥].

٥ ـ الفقيه عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب، أبو بكر، من بيت جليل مشهور بالقاعدة المرسية [٦]، وكان من بين الفقهاء الذين لعبوا دوراً بارزاً فى السياسة كما كان بالإضافة إلى تفقهه ذا بصيرة بقرض الشعر [٧]، وصفه ابن

---

(١) فى: ابن الزبير، نفس المصدر والصفحة.

(٢) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٢٢٨.

(٣) ابن عبد الملك، نفس المصدر والسفر والقسم، ص ٢٢٩، بينما يقول ابن الزبير أنه توفى عام ٥٧٠هـ أو ما بعدها، راجع: صلة الصلة، ص ١٠٤.

(٤) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٧٦، ت: ٨٧٠.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

(٦) ابن سعيد المغربى، اختصار القدح المعلى فى التاريخ المحلى، تحقيق الأستاذ إبراهيم الإبيارى، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٤٦، ت :٣٣؛ وراجع له : المغرب، جـ٢، ص ٢٥، ت :٥١٩.

(٧) ابن سعيد، اختصار القدح، ص ١٤٧.

الآبار فقال : «كان من رجالات الأندلس وأهل الكمال، زهد فى أول أمره وأقبل على الآخرة، ثم مالته به الدنيا وقدم لولاية مرسيه فلم تحمد سيرته» [١]، وقد تقلد ولاية مرسيه في دولة محمد بن هود صدر المحرم عام ٦٣٦هـ، وصار إليه الحل والعقد إلى أن لقى مصرعه على يد زيان بن مردنيش فى أول رمضان سنة ٦٣٦هـ[٢].

(٢) العلوم اللغوية:

تأثرت علوم اللغة العربية وآدابها فى شرق الأندلس بطبيعة هذه المنطقة المعروفة بتقلبها واضطرابها من الناحية السياسية وتفتحها على البحر وانبساط أراضيها من الناحية الجغرافية، ولذلك فقد كانت آداب شرق الأندلس فى هذه المرحلة التاريخية تعبيراً عن الطبيعة الجغرافية للمنطقة ومرآة صادقة للأحداث السياسية المتلاحقة.

ومما لاشك فيه أن الأدب العربى المشرقى كان معيناً لا ينضب ومصدراً خصباً لآداب الأندلس، فمن الشعر المشرقى استمد الشعراء الأندلسيون أشكاله واقتبسوا قوالبه المعبرة، ومن مادة آدابه استنبطوا أفكارهم وتصويراتهم الأدبية، وقد ساعد على ذلك وفود عدد كبير من الأدباء المشارقة إلى الأندلس أمثال صاعد اللغوى وأبو على القالى واستقدام أعداد كبيرة من المغنيين والمغنيات والجوارى المشرقيات إلى الأندلس أمثال قمر والعجفاء وزرياب [٣]. إلا أن طبيعة الأندلس الساحرة من مياه جارية، وجبال خضراء وبساتين زاهية رققت من مشاعر أهل الأندلس وهذبت من جفوتهم، وأثارت ملكاتهم الفكرية الحية، فاستخدموا ملكات الحس والخيال فى وصف جمال الطبيعة وفى إجادة تصويرها [٤] والواقع أن ما تشتمل عليه بلاد شرق الأندلس من أراض خصبة وسهول خضراء وجداول وأنهار وفيرة ومناخ معتدل وطبيعة ساحرة كان له أثره على الشعر والشعراء.

ويظهر أثر بيئة شرق الأندلس واضحاً فيما وصل إلينا من الانتاج الأدبى لهذا العصر، فقد سجل الأدباء صورها الخلابة داخل إطارات أدبية بديعة، وعبروا عن رقة حواسهم، وتأثرهم بالطبيعة، وهكذا عشقوا الطبيعة التى أحاطت بقلوبهم [٥].

---

(١) ابن الآبار، التكملة، ص ٦٩٦، ت :١٩٥٣.
(٢) ابن سعيد ، اختصار القدح، ص ١٤٧.
(٣) غرسيا غوميث ، الشعر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٣٣.
(٤) السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، جـ٢ ، ص ١٦٨ ؛ وانظر أيضاً: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسى، موضوعاته ومقاصده، بيروت، ١٩٧٢، ص ٣٠.
(٥) حكمت على الأوسى، الأدب الأندلسى فى عصر الموحدين، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٦٥.

ثم إن أدب شرق الأندلس نظماً ونثراً مرآة صادقة تنعكس عليها جوانب الحياة السياسية والحضارية التى مرت بها هذه المنطقة فى العصر موضوع الدراسة، والأدباء على هذا النحو ترمومتر الأحداث ينفعلون بها ويتفاعلون معها، ويسجلون آلامهم ومحنهم وهزائم أمتهم ويسجلون فرحتهم بانتصار أصابوه أو غنم حصلوا عليه، وينتقدون حالة الضعف والهوان التى يتعرض لها الإسلام فى شرق الأندلس على أيدى أعدائه، ويستحثون مواطنيهم على النضال ويستنفرونهم للصمود أمام المحن والأخطار أو يتغنون بما حققه رؤسائهم من انتصارات، ويتباهون بذلك فى أشعارهم فكان الأدب شعره ونثره تعبيراً عن القضايا السياسية والاجتماعية والأحداث الكبيرة التى عاشتها الأمة [1]. وفيما يلى عرض لبعض جوانب الحياة الأدبية فى شرق الأندلس.

أ ـ الشعر:

تناول شعراء هذا العصر فى قصائدهم أغراض الشعر المألوف : المدح والوصف والخمريات والغزل ورثاء المدن والاستنفار على النضال والاستنصار بقوى الإسلام فى المغرب لإنقاذ الأندلس، والشكوى من الزمان وسوء الحظ، والتوسل الدينى، وفيما يلى نماذج من قصائد شعراء شرق الأندلس فى هذه الفترة.

١ ـ المـــدح :

نظم أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد الكنانى [2] قصيدة فى مدح الأمير أبا يعقوب بن عبد المؤمن تعرض فيها لذكر الأندلس ووصف سوء أحوالها السياسية، منها :

أبت غيـر مـاء بالنخـيل وروداً ∴ وهامت به عذاب الجمام مروداً
وقـالت لحـاديهـا أتم زيادة ∴ على العشر فى وردى له فأزيدا
عـدمتك مـا هذا القنوع وهـا أنـا ∴ عـهـدتك لا تثنين عنه وريداً
أنوناً إذا مـا كنت منه قـريبـة ∴ وضبّاً إذا ما كان عنك بعيداً
دوى حضرة الملك الظليل رواقـة ∴ ففيها لعمرى تحمدين وروداً [3]

---

(١) غارسيا غوميث، الشعر الأندلسى، ص ٣٠ وما بعدها، راجع أيضاً: إحسان عباس ، تاريخ الأددب الأندلسى، بيروت، ١٩٩٠، ص ٩٠.

(٢) أحمد بن عبد الرحمن بن أبى أحمد الكنانى بلنسى، سكن مالقة، وكان من بيت جليل ، سوى الهمة ، أديباً بارعاً فاضلا، شاعراً مطبوعاً، كاتباً بليغاً ، كتب بجيان عن أبى إسحاق بن همشك، ولما توفى ابن همشك قصد مراكش، راجع: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، القسم الأول ـ السفر الأول، ص ١٩٧.

(٣) ابن عبد الملك، نفس المصدر والقسم والسفر، ص ١٩٧.

ومنها يصف حال الأندلس ويبعث على الجهاد:

ألا ليت شعرى هل يمدّ لى المدى ∴ فأبصر حفل المشركين طريداً

وهل بعد يقضى فى النصارى بنصره ∴ تغادرهم للمرهفات حصيداً

ويغزو أبو يعقوب فى شنت ياقب ∴ يعيد عميد الكافرين عميداً

ويلقى على إفرنجهم عبء كلكل ∴ فيتركهم فوق الصعيد هجوداً

يغادرهم جرحاً وقتلا مبرّحاً ∴ ركوعاً على وجه الفلا وسجوداً

إلى أن يقول:

لعل أمير المؤمنين يعيدها ∴ إلى أفضل من حالها فتعودا(١)

ومن قصيدة لأبى الحسن بن الفضل (٢)، يمدح ابن هود فى أول دولته:

أحببت فى الناس بان هود ∴ ملك بنى هود الكرام(٣)

ولم يزل أمرنا قديماً ∴ فى آل لخم أو فى جذام

وقال ابن الآبار يمدح أبا زكريا الحفصى (٤) سلطان أفريقية:

تحلت بعلياك الليالى العواطل ∴ ودانت لسقياك السحاب الهواطل

وما زنية الأيام إلا مناقب ∴ يفرعها أصلان بأس ونائل(٥)

إذ الطول والصّول استقلا براحة ∴ ترقت لها نحو النجوم أنامل

ومن شعره أيضاً فى مدح سعيد بن حكم رئيس منورقة:

سيّد أيّد رئيس بئيس ∴ فى أساريره صفات الصباح

قمر فى أفق المعالى تجلّى ∴ وتحلى بالسؤدد الوضّاح(٦)

سلم البحر فى السماحة منه ∴ لجواد تسمّوه بحر السماح

وقال ابن الآبار يمدح المستنصر الحفصى صاحب أفريقية:

إن البشائر كلها جمعت ∴ للدين والدنيا وللأمم(٧)

فى نعمتين جسيمتين هما ∴ برء الإمام وبيعة الحرم

---

(١) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، القسم الأول، السفر، ص ١٩٨.

(٢) الشاعر أبو الحسن بن الفضل من أهل أوريولة، سكن أشبيلية، وكان فقيهاً شاعراً ألف عدة تواليف فى الموشحات، راجع فى ترجمته: ابن سعيد، اختصار القدح، ص ١٠٨، ت 16.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) هو الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد مؤسس الدولة الحفصية بتونس، حكم من سنة ٦٢٥-٦٤٧هـ/١٢٢٨-١٢٤٩م؛ راجع: الزركشى، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ٢٣ وما بعدها.

(٥) فى: المقرى، نفح الطيب، جـ٥، ص ١٧.

(٦) المقرى، نفس المصدر، جـ٥، ص ١٧.

(٧) نفس المصدر والجزء، ص ٢٥٦، حكم المستنصر بن أبى زكريا بن يحيى من سنة ٦٤٧ـ ٦٧٥هـ/ ١٢٤٩ ـ١٢٧٦م، راجع: الزركشى، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ٢٣ وما بعدها.

٢ ـ الوصف:

تزخر كتب الأدب الأندلسي بشواهد عديدة من الشعر الوصفي الذى اختصت به بلاد شرق الأندلس التى كانت مصدراً خصباً استلهم منها الشعراء موضوعاتهم ففي وصف بلنسية يقول الشاعر ابن الزقاق البلنسي:

بلنسيه ـ إذا فكرت فيها ∴ وفي آياتها ـ أسنى البلاد[1]

وأعظم شاهدى منها عليها ∴ وإن جمالها للعين بادى

كساها ربها ديباج حسن ∴ لها علمان من بحر ووادى

كما شبهها الشاعر مروان بن عبد الله بن عبد العزيز بحسناء تكسوها الخضرة فقال:

كأن بلنسيه كاعب ∴ وملبسها سندس أخضر[2]

إذا جئتها سترت نفسها ∴ بأكمامها فهى لا تظهر

ويعبر الشاعر محمد بن عياش عن حالة القلق والضيق التى أصابت أهلها عندما أصبحت بلنسية ثغراً للعدو يصاحبها ويماسيها بهجماته وضاقت الحال فيها، واشتدت الحال على أهلها وازداد خوفهم على مصيرها ومصيرهم، فيقول:

بلنسيه! بينى عن القلب سلوة ∴ فأنك روض لا أحن لزهرك

وكيف يحب المرء داراً انقسمت ∴ على صارمى جوع وفتنة مشرك[3]

∴

وكأنما أراد أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن حريق المخزومي[4] أن

---

(١) وهو أبو الحسن علي بن عطية، توفى عام ٥٣٠هـ؛ راجع: المقرى، نفح الطيب، جـ١، ص١٦٨.

(٢) في: المقرى، نفس المصدر، جـ١، ص ١٦٩.

(٣) وابن عياش، شاعر أديب من شعراء الأندلس، عاش فى القرن السادس الهجرى، راجع: المقرى، نفس المصدر والجزء والصفحة؛ وانظر أيضاً: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٢٧٥، ت : ٥٣٣.

(٤) بلنسى، مولده عام ٥٥١هـ، وكان شاعراً مفلقاً مجيداً، سريع البديهة بارعاً، كاتباً بليغاً مكثراً من نظم الكلام ونثره، توفى عام ٦٢٢هـ؛ راجع: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٢٧٥، ت : ٥٥٣؛ ابن الزبير، صلة الصلة، ص ١٢٩، ت : ٢٦٣؛ ابن الآبار، التكملة ، ت : ١٨٩٥.

يناقض ابن عياض ويصحح الفكرة التي يكونها قارئ بيتيه عن بلنسيه حين قال:

بلنسيه ا قرارة كل حسن .·. حديث صح في شرق وغرب

فإن قالوا : محل غلاء سعر .·. ومسقط ديمتي طعن وضرب

فقل هي حفت رباها .·. بمكروهين من جوع وحرب (١)

ويتغنى بها أبو عبد الله الرصافي البلنسي [٢] فيقول:

بلادي التي ريشت قويد متي بها .·. فريخاً وآوتني قرارتها وكراً

مهادي ولين العيش في ريق الصبا .·. إلى الله أن أنسى اعتيادي بها خيراً

إلى أن يقول:

بلنسيه تلك الزمردة التي .·. تسيل عليها لؤلؤة نهراً (٣)

ومن شعر الرصافي في وصف بلنسيه:

ولا كالرّصافة من منزل .·. سقته السحائب صوب الولي

أحسن إليها ومن لي بها .·. وأين السرى من الموصلي (٤)

وفي وصف جزيرة ميورقة يقول ابن اللبانة:

بلد أعارته الحمامة طوقها .·. وكساه حلة ريشة الطاووس

فكأنما الأنهار فيه مدامة .·. وكأن ساحات الديار كؤوس (٥)

وفي ذكر محاسن شاطبة يقول بعضهم:

---

(١) في : المقري، نفح الطيب، جـ١، ص ١٦٩.

(٢) بلنسي الأصل، سكن غرناطة مدة ثم انتقل إلى مالقة ، ويصفه ابن الخطيب بقوله: كان فحلا من فحول الشعراء ورئيساً في الأدباء عفيفاً ساكناً ، ذا سمت توفي عام ٥٧٢هـ، راجع: الإحاطة، جـ٢، ص ٥٠٥ وما بعدها.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة ، جـ٢، ص ٥٠٧؛ المقري، جـ٥، ص ١٥٦ .

(٤) في : المقري، المصدر السابق، جـ١، ص ١٦٩.

(٥) في: المقري، نفس المصدر والجزء، ص ١٥٨.

نعم ملقى الرحل شاطبة ∴ لفتى طالت به الرحل
بلدة أوقاتها _ سحر ∴ وصبا في ذيله بلل
ونسيم عرفه أرج ∴ ورياض عضتها تمل
ووجدة كلها غرر ∴ وكلام كله مثل[1]

وفي وصف صنم شاطبة يقول أبو عامر البرياني:

بقية من بقايا الروم معجبة ∴ أبدى البناة بها من علمهم حكما
لم أدر ما أضمروا فيه سوى أمم ∴ تتابعت بعد سموه لنا صنما
كالمبرد الفرد ما أخطأ مشبهه ∴ حقاً لقد برد الأيام والأمما
كأنه واعظ طال الوقوف به ∴ مما يحدث عن عاد وعن إرما
فانظر إلى حجر صلد يكلمنا ∴ أسمى وأوعظ من قس لمن فهما[2]

وفي وصف قطعة بحرية يقول محمد بن عبد الله بن سلفير الشاطبي :

ونبت ماء لمسرى الريح جريتها ∴ تمشى كما مشت النكباء والثمل
قد جللوها شرعاً مثل ما نشأت ∴ يظللها من غمام فوقها ظلل
كأنها فوق متين الريح سابحة ∴ فتخاء يعلو بها طوراً ويشتغل[3]

٣ ـ الرثـــــاء:

اشتهر شعرآء شرق الأندلس بشعر الرثاء من ذلك قصيدة بليغة لابن الآبار رثى فيها أستاذه أبا الربيع سليمان الكلاعي الذى استشهد في موقعة أنيشة عام ٦٣٤هـ، مطلعها:

ألما بأشلاء العلا والمكارم ∴ تقد بأطراف القنا والصوارم
وعوجا عليها مأربًا ومغازه ∴ مصارع خصت بالكلات والجماجم
تحيي وجوهاً في الجنان وجيهة ∴ بما لقيت حمراً وجوه الملاحم[4]

(١) في: المقرى، نفس المصدر والجزء، ص ١٧٣ وما يليها.

(٢) في: المقرى، المصدر السابق، جـ٥، ص ٢٥٣.

(٣) ابن سعيد، المغرب، جـ٢، ص ٣٨٩.

(٤) في: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٤، ص ٣٠٤.

ويمثل شعر الاستغاثة لاستنقاذ مدن شرق الأندلس جانباً إنسانياً هاماً من جوانب الشعر فى هذه المرحلة التاريخية، فعندما اشتد الخطر على بلنسية وفغرت النصرانية الأسبانية فاها وتخاذلت مقاومة أهلها عن الصمود وتطلعت الأنظار نحو المغرب الحفصى، فنظم الشعراء القصائد يستحثون فيها الحفصيين على نصرة بلنسيه وإنجادها، ومن هذه الأصوات الحزينة التى انطلقت لتستنفر عزائم الحفصيين صوت ابن الآبار من قصيدة طويلة نظمها مستنجداً فيها بأمير أفريقية أبى زكريا الحفصى، مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ∴ إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست ∴ فلم يزل منك عزّ النصر ملتمساً

وحاش مما تعانيه حشاشتها ∴ فطالّ ما ذاقت البلوى صباح مسا [(١)]

كما نظم أبو المطرف بن عميره قصيدة وجهها إلى الشيخ أبى جعفر بن أمية يستغيث به حين حل الرزء ببلنسيه منها:

ألا أيها القلب المصرّح بالوجد ∴ أمالك من بادى الصبابة من بدّ

وهل من سلوّ يرتجى ليتيم ∴ له لوعة الصادى وروعة ذى الصّد [(٢)]

كما وجه إلى أمير أفريقية الحفصى يستنجد به:

شاقه غب الخيال الوارد ∴ بارق هاج غرام الهاجد

صدق وعد للتلاقى ثم ما ∴ طرقاً ألا يخلف الواعد

إلى أن يقول:

إنما الفخر لمولانا أبى ∴ زكريا بن عبد الواحد

ملك لولا حلاه الغر لم ∴ يجر بالحمد لسان الحامد [(٣)]

---

(١) وردت هذه القصيدة فى مخطوط زواهر الفكر وجواهر الفقر لابن المرابط، لوحات ٨٢، ٨٣، ٨٤، كما وردت فى المقرى، أزهار الرياض، جـ٣، ص ٢٠٤.

(٢) فى: المقرى، نفح الطيب، جـ١، ص ٢٨٤.

(٣) نفس المصدر والجزء، ص ٢٨٧.

ويدخل في نطاق هذا اللون من الشعر، شعر الحنين للوطن، وذلك أنه عندما اشتدت حركة الاسترداد المسيحى وازداد إلحاح العدو على ثغور شرق الأندلس، عمد كثير من أهل شرق الأندلس إلى الهجرة إلى المغرب وأفريقية، وظهر فى شعر المهاجرين عاطفتهم المشبوبة نحو وطنهم، فتمثل فى ذلك الحنين المتواصل يناجون به أوطانهم وديارهم التى شهدت أيام لهوهم ومرحهم فلم يسلوها وهم آمنون فى دار هجرتهم، ومن أمثلة هذا الشعر، قول أبى المطرف بن عميرة بعد انفصال عن بلنسيه عن وحشة فى ذى القعدة عام ٦٢٨هـ:

أسير بأرجاء الرجا، وإنما ∴ حديث طريق طارق الحدثان

وأحضر نفسى أن تقدمت خيفة ∴ لغصن عنان أو لغصن زمان

أيترك حظى للحضيض وقد سرى ∴ لا مكانة فوق الذرا جبلان [(١)]

وله أيضاً فى نفس الغرض:

أحنّ إلى نجد ومن حلّ فى نجد ∴ وما ذا الذى يغنى حنيناً أو يجدى

وقد أوطنوها وادعين وخلفوا ∴ محبّهم رهن الصّبابة والوجد [(٢)]

٤ـ شعر المجون:

كان لحياة الترف والرفه التى يعيشها الشعراء فى نطاق طبيعى لا نظير له يحيط ببيئة شرق الأندلس، من رياض تكسوها الخضرة السندسية، وتنبت فيها الرياحين والزهور، وتشقها الجداول الملتوية، والقنوات المنسابة بين هذه الرياض، أعظم الأكثر فى إكثار الشعراء وأولى اللهو من مجالس الأنس يغترفون ما شاءوا من متع الطبيعة، من غناء تشدو به قينة أو لحن يعزفه عواد وكؤوس تعب وأخرى تصب، من ذلك قول أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير [(٣)]، من جزيرة شقر ممن عرف بالمجون والخلاعة بالأندلس :

---

(١) فى: المقرى، نفح الطيب، جـ٢، ص ٢٩٥.

(٢) فى: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٤، ص ٢٩٧.

(٣) أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير الكاتب، من بيت مشهور بجزيرة شقر، كتب عن ولاة الموحدين بشرق الأندلس، ثم استكتبه الأمير محمد بن يوسف بن هود حتى تغلب على الأندلس، راجع: المقرى، نفح الطيب، جـ٤، ص ٢٨٤ وما بعدها.

هات المدام إذا رأيت شبيهها ∴ فى الأفق يا فرداً بغير شبيه
فالصبح قد ذبح الظلام بنصله ∴ فغدت تخاصمه الحمائم فيه (١)

ب- الموشحات والأزجال:

يذهب الأستاذ خوليان ريبيرا إلى القول بأن أهل الأندلس كانوا يستعملون اللغة العربية الفصيحة كلغة رسمية فى المدارس وكتابة الوثائق، ونتيجة لاختلاط عرب الأندلس بالعجم انتشرت لهجة أعجمية من اللاتينية الدارجة أو العجمية El Romance كانوا يستخدمونها فيما بينهم فى شئونهم اليومية وفى أحاديثهم، وكان هذا الازدواج فى اللغة الأصل فى نشأة لون جديد من الشعر المختلط، تمتزج فيه مؤثرات عربية وشرقية (٢). ويخدم هذا الطراز فن الغناء لسهولته وسلاسته وتحرره من قيود الشعر التقليدى وعبودية القافية الواحدة (٣). وذاع أمره وانتشر بين أوساط العوام، حتى أصبح لوناً من الأدب، وقد أخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبى صورتين : إحداهما «الموشحة » والثانية «الزجل» (٤).

الموشحات:

تتألف الموشحة من فقرات تسمى الأبيات، كل فقـرة منها تتكون مـن عدد من أشطار البيوت فى قافية واحدة، وتعقب كل فقرة خرجه فـى بحر أشطار الغصن ولكن فى قافية أخرى، ويلتزم الوشاح قافيـة هذه الخرجـة فى كل خرجات موشحته، أما الأغصان فقد يكون كل منها على قافية ولكن من بحر واحد(٥)، ولغة الموشحة

---

(١) المقرى، نفس المصدر والجزء، ص ٢٨٦.

(٢) جنثالث بالنثيا (آنخل)، تاريخ الفكر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٤٢-١٤٣.

(٣) جودة الركابى، فى الأدب الأندلسى، دمشق، ١٩٥٥، ص ٣٠٢؛ وراجع أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، جـ٢، ص ١٨٤.

(٤) جنثالث بالنثيا، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٥) نفس المرجع والصفحة، وانظر أيضاً: عبد العزيز الأهوانى، الزجل فى الأندلس، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٦ وما بعدها؛ سيد غازى، فى أصـول التوشـيح، الطـبعة الثانيـة، دار المـعارف، ١٩٧٩، ص ١١.

الفصحى [1]. ويمكننا القول بأن لفظ الموشحة يطلق على المهذب من الزجل الذى تستعمل فيه الفصحى أو ينظم فى أسلوب أرفع من أسلوب الأزجال [2].

ولقد ازدهرت صناعة الموشحات فى شرق الأندلس فى عصر المرابطين وصدر من دولة الموحدين، وظهر من كبار الوشاحين فى هذا العصر الأخير الوشاح ابن موهد الشاطبى، وكان من أهل مرسيه، وقد مدح ابن مردنيش أمير شرق الأندلس بموشحة محكمة النسج، مفعمة بالنغم والرشاقة مطلعها:

آما طربت إلى الحميا ∴ ما بين ندمان وساق

والبدر فى عقب الثريا ∴ والليل ممدود الرواق

خذها على رغم العذول

خرقاء تلعب بالعقول [3]

ومن الوشاحين الذين برزوا فى هذا العصر أبو الحسن بن نزار من وادى آش الذى نظم موشحه قدمها لابن مردنيش يستعطفه فيها ليطلق سراحه مطلعها:

نازعك البدر اللياح ∴ بنـــت الدّنـــان

فلم يدع لك اقتراح ∴ علـــى الزّمـــان

وفيها يقول:

∴

يا هل أقول للحسود والعيـــس تحـــدى

بالائمى على السّراح كانـــت أمانـــى

أخرجها ذات السماح إلـــى العـــيان [4]

(1) ليفى بروفنسال، الإسلام فى المغرب والأندلس ، ص ٢٨١.

(2) جونثالث بالنثيا، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(3) ابن سعيد، المغرب، جـ٢، ص ٣٩٠؛ وانظر : سيد غازى، فى أصول التوشيح، ص ١٦٩؛ محمد زكريا عنانى، الموشحات الأندلسية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يوليه ١٩٨٠، ص ١٣٥.

(4) المقرى، المصدر السابق، جـ٥، ص ٣٩-٤٠.

أما الزجل:

فشعر غنائى يصاغ فى فقرات تسمى أبياتاً، وتبدأ مقطوعته ببيت يعرف بـ «المركز» أو «السمط»، تليه أغصان ذات قافية واحدة ووزن واحد، يتكون الغصن منها من ثلاثة مصاريع أو أكثر، ثم يعقبها بيت فى نفس وزن المركز وقافية حتى يتيسر إنشاده مع المجموعة على نغمات العود أو المزمار [١]، ولغته دارجة ملحونة [٢].

ومن أشهر زجالى شرق الأندلس أبو عبد الله محمد بن ناجية اللورقى، الذى ذكره الدباغ فى كتاب الأزجال بأنه «شيخ الزمان وخليفة الإمام ابن قزمان» [٣]، ومن أزجاله :

كلما ذكرت فيه ∴ والذى بقى لى أبدع

لم يرا قط من أملح ∴ لم يرا قط من أشجع [٤]

جـ ـ النثر:

من الأهمية بمكان أن نستعرض بادئ ذى بدء المراحل التى مر بها النثر الأندلسى حتى سقوط قواعد شرق الأندلس فى أيدى المسيحيين. ويمكننا القول أن هذا النثر سلك منذ البداية فى تطوره نهج المشرق، فقد تميزت مراحله الأولى، بالبساطة والبعد عن التعقيد والايجاز فى القول والقصد فى التعبير وندرة التحلية والسجع حتى عصر الخلافة الأموية، ثم انتقل بعد ذلك بتأثير الأساليب الوافدة من المشرق إلى مرحلة تتسم بالميل إلى التطويل والأطناب والبسطة فى التعبير والفخامة فى التراكيب والتفنن فى الأساليب والمراوحة بين السجع والازدواج واستعمال الاقتباسات المختلفة والإشارات والتلميحات إلى الأحداث التاريخية وغيرها منذ أيام دولة العامريين حتى أوائل عصر الطوائف، وفى هذه المرحلة ظهر كبار الناثرين من أمثال ابن شهيد وابن زيدون، وفى عصر الطوائف والمرابطين وصل النثر إلى مرحلة من الصناعة الدقيقة بلوازمها من سجع وجناس وطباق وغيرها من محسنات البديع وألوان الزخرفة على نحو ما نراه فى كتابات ابن بسام فى ذخيرته وابن خاقان فى مطمحه، وتعتبر هذه

---

(١) جنثالث بالنثيا، المرجع السابق، ص ١٤٣؛ عبد العزيز الأهوانى، المرجع السابق، ص ٥١.

(٢) ليفى بروفنسال، الإسلام فى المغرب والأندلس، ص ٢٨١.

(٣) ابن سعيد، المغرب، جـ٢، ص ٢٨٣.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

المصنفات مثالا حياً لهذا النثر الحافل بمظاهر التوشيه والتنميق [1]. وفى عهد الموحدين دخل النثر الأندلسى مرحلة التكلف والإسراف فى الصناعة، ولعل أبرز ظاهرة نلحظها عند كتاب هذا العصر أنهم كانوا ذوى ثقافة عامة، وقد كان لغلبة ثقافتهم الدينية وهى الثقافة السائدة بصفة خاصة فى عصر الموحدين، أثر كبير فى أساليبهم الكتابية التى حفلت بالألوان البديعية والمصطلحات العلمية المتنوعة، ففقدت بذلك كثيراً من روح الخفة والرقة التى كنات نجدها عند كتاب العصور السالفة، وغلب عليها طابع جامد دينى تعليمى، مما كان له أثره فى غلبة المسحة الدينية والتعليمية على النثر الأدبى، وكثير من كتاب هذا العصر تناولوا الموضوعات الدينية والزهدية وكان معظمهم من أهل الحديث والفقه قبل أن يكونوا أهل أدب ولهذا كان من الطبيعى أن تنعكس ثقافتهم الدينية فى إنشائهم الأدبى، بالإضافة إلى أن طبيعة هذا العصر فى المشرق أم فى المغرب باعتباره عصر الحركة الصليبية كانت تفرض على الكتاب الالتزام باستخدام شعر الحماسة وموضوعات تعبر عن المشاعر القومية والدينية، وكان لسقوط قواعد شرق الأندلس فى أيدى الأرغونيين والقشتاليين أصداء قوية وانعكاسات واضحة على الكتابات الأدبية والشعر، فقد حملت الأدباء على بكاء مدنهم ورثاء حواضرهم بل إن بعضهم عمد إلى رثاء الإسلام فيما آلت إليه مصائر المساجد حيث استبدل قرع النواقيس بآذان المؤذنين، وعلقت الصلبان مكان الأهلة، وتحول المسلمون الحاكمون إلى محكومين مستذلين أطلق عليهم اسم المدجنين، وكان لهذا التحول أعظم الأثر فى شيوع الزهد [2].

تعددت صور الكتابة الأدبية فى هذا العصر فهناك الرسائل الديوانية والإخوانية، وأدب المساجلات بين المدن كما تمثله رسالة أبى بحر صفوان بن إدريس التى يناظر فيها بين مدن الأندلس، ورسالة الشقندى فى المفاضلة بين العدوتين، وهو الشكل الذى كان ابن حزم قد ابتدأه فى رسالة «فضل الأندلس» وتابعه فيما بعد ابن الخطيب فى المفاخرة بين مالقة وسلا. أما الرسائل الديوانية لهذا العصر فقد تميزت بوجه عام بميلها إلى الإسهاب والتطويل مع المبالغة فى اصطناع المحسنات البديعية والسجع.

ومن الجدير بالذكر أن حركة الموحدين الإصلاحية التى شملت كافة الأنظمة والمؤسسات الثقافية أدركت ديوان الرسائل فتراهم يصنفون الكتاب صنفين : كتاب الإنشاء وكتاب الجيش [3]، وأصبحت الكتابة الديوانية على عهدهم ذات رسوم

---

(١) محمد بن شريفة، أبو المطرف بن عميرة المخزومى، حياته وآثاره، الرباط، ١٣٨٥هـ، ص ١٧٩ وما بعدها.

(٢) انظر : محمد بن شريفة، نفس المرجع، ص ١٨٠-١٨١.

(٣) انظر : المراكشى، المعجب، ص ٢٤٤.

وتقاليد خاصة، وطريقة تميزت بها عن غيرها، ويذكر المراكشى أن الكاتب أبا عبد الله بن عياش هو الذى ابتدع هذه الطريقة فسلكها الكتاب من بعده ويعبر عن ذلك بقوله : «ولم يكتب لهم منذ قام بأمرهم أعنى من كتبة الإنشاء من عرف طريقتهم وصب فى قالبهم وجرى على مهيعهم وأصاب ما فى أنفسهم لأبى عبد الله بن عياش هذا فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب، ثم جرى الكتاب بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة » [1]. ويستفاد مما أورده القلقشندى فيما يتعلق بمكاتبات الموحدين الرسمية من خلال النماذج التى انتهت إليه، أنها كانت على أسلوبين، الأول أن تفتتح المكاتبة بعبارة من أمير المؤمنين فلان ويدعى له بما يناسبه إلى فلان ثم يدعى له بما يليق به، ثم يلى ذلك عبارات السلام والتحية ثم تليها عبارات التحميد والصلاة على النبى ﷺ والترضية عن الصحابة ثم عن إمامهم المهدى، ثم يؤتى الهدف الرئيسى من الرسالة وينتهى بالسلام، ومن الجدير بالملاحظة أن الكاتب يصطنع نون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن الشخص الذى وجهت إليه الرسالة [2]. ونفس هذا الأسلوب هو الأسلوب الشائع فى مجموع رسائل موحدية التى نشرها الأستاذ ليفى بروفنسال [3].

أما الأسلوب الثانى، فالمكاتبة تفتتح فيه عادة بلفظ «أما بعد» ثم يتابع الكاتب فيه نفس ما تقدم فى الأسلوب الأول بعد البعدية [4].

أما الرسائل الإخوانية، فالمقصود بها الرسائل التى كان يتبادلها الإخوان فى مختلف المناسبات كالتعازى والوصايا والشفاعات والمعاتبات، وكان يغلب على أسلوبها مظاهر الصناعة والتكلف، كما كانت تخلو من روح الخفة والمرح والدعابة والصراحة والانطلاق وهى الصفات التى نجدها فى إخوانيات العصور السابقة وبخاصة فى عصر الطوائف [5].

ومن بين الكتاب الذين برزوا فى شرق الأندلس:

١ ـ عبد الرحمن بن محمد بن محمد السلمى، من أهل مرسيه، وكان يلقب بالمكناسي ويكنى أبا محمد (ت : ٥٧١هـ)، عنى بالآداب واشتغل بالكتابة،

(١) المراكشى، المعجب، ص ٢٦٤.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٦، ص ٤٤٣.

(٣) انظر : مجموع رسائل موحدية، نشر ليفى بروفنسال.

(٤) القلقشندى، المصدر السابق، جـ٦، ص ٤٤٦.

(٥) محمد بن شريفة، المرجع السابق، ص ١٨٣.

وكان كاتباً لأبي عبد الله بن سعد ولغيره من الأمراء، وصفه ابن سعيد وقال: «به ختمت البلاغة في الأندلس» [1].

٢ ـ علي بن إبراهيم بن محمد بن سعد الخير، من أهل بلنسية، يكنى أبا الحسن، (ت : ٥٧١هـ)، كان أديباً بارعاً، صنف كتاباً عنوانه «كتاب القرط المذيل على كتاب الكامل للمبرد» [2]، عالماً بالعربية واللغة والآداب إماماً في ذلك[3].

٣ ـ أحمد بن عبد العزيز بن الفضيل بن الخليع الأنصارى، من أهل شريون ولكنه أقام في بلنسيه، وكان بارعاً في الآداب، شاعراً محسناً أنيق الوراقة بديعها معروفاً بالاتقان والضبط، توفي عام ٥٧٢هـ[4].

٤ ـ أحمد بن محمد بن جعفر بن سفين المخزومى يكنى أبو بكر (ت:٥٨٠هـ)، من أهل جزيرة شقر، وكان أديباً نابهاً من بيت علم ورئاسة[5].

٥ ـ الكاتب أبو القاسم أحمد بن يامن، من أهل جزيرة شقر، كتب مدة عن أبى الحسين بن عيسى رئيس شاطبة، وكان سريع النادرة فى أنواع المقال وقد استحسن ابن سعيد فصولا من رسائل صنفها ابن يامن ووقف عليها ابن سعيد[6].

٦ ـ محمد بن أبى بكر بن يوسف بن عفيون الغافقى، ويكنى أبا عمر من أهل شاطبة، (ت: ٥٨٤ هـ)، ألف كتاباً فى عجائب البحر، وكتاباً فى أخبار الزهاد والعباد[7].

٧ ـ عبد الرحمن بن محمد بن مغاور بن حكم مغاور السلمى، من أهل شاطبة (ت : ٥٨٧هـ) كان فى زمنه أحد كبار الكتاب وأبرز شيوخهم وجلة أدبائهم وكان يتميز بالثقة فيما يكتب وصدق اللهجة وكرم النفس، كما كان بليغاً مفوهاً، رزق إلى جانب إجادته فى الكتابة حظاً وافراً فى نظم الشعر، وفى المشاركة فى الفقه وعقد الشروط، وألف كتاباً عنوانه «نور الكمايم وسجع الحمايم» [8].

---

(١) ابن الآبار، التكملة، جـ٢، ص ٥٦٧، ت : ١٦٠٥.

(٢) ابن الزبير، صلة الصلة، ص ٩١، ت : ١٨١.

(٣) ابن الآبار، التكملة، جـ٢، ص ٦٧١، ت : ١٨٦٧.

(٤) ابن عبد الملك ، المصدر السابق، القسم الأول، السفر الأول، ص ٢٤٣، ت : ٣٢١.

(٥) الضبى، بغية الملتمس ، ص ١٥٦، ت : ٣٧١.

(٦) ابن سعيد، اختصار القدح، ص ٥٣، ت :٧٧.

(٧) ابن الآبار، التكملة، جـ١، ص ٢٥٣، ت :٨١٧.

(٨) نفس المصدر، جـ٢، ص ٥٧٨، ت :١٦٢٢.

٨ ـ علي بن عبد الله بن علي (ت: ٦١٤ هـ)، من بلدة شاطبة ولكنه أقام فى مرسيه وكان أديباً محدثاً متقناً، وفقيهاً مشاوراً، ومن مصنفاته «ترتيب أحاديث التقصى على أبواب الموطأ» [١].

٩ ـ عبد الله بن حامد بن يحيى بن سليمان بن أبى حامد المعافرى، من أهل مرسيه (ت ٦٢١هـ) [٢]، وصفه ابن الآبار فقال: «كان من رجالات الأندلس وجاهه وجلالة من التحقق بالكتابة والمشاركة فى قرض الشعر وإليه كانت رياسة بلده» [٣]، وقد اتخذه الخليفة الموحدى العادل كاتباً له، ورافقه ابن حامد فى غزوته إلى أشبيليه، فقال من قصيدة منها :

هذه حمص فقد تم الأمل ∴ سادت الشمس فحلت بالحمل [٤]

١٠ ـ أبو الربيع الدانى (سليمان بن أحمد بن على بن أبى الأغلب)، (ت : ٦٣١هـ) [٥] من بيت مشهور بدانية، تعلق بطريقة الكتابة فأبلى فيها شبابه، ثم اشتغل بالتوثيق فى شيخوخته[٦].

١١ ـ حسن بن عبد الرحمن بن محمد الكنانى المعروف بالرّفاء (ت : ٦٣٧هـ)[٧]، من أهل مرسيه، وكان أديباً صاحب مقطعات وتذييلات حسنة مشاركاً فى العربية وعلم العروض.

١٢ ـ محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى، المعروف بابن الجنان من أهل مرسيه، وكان إلى جانب اشتغاله بالشعر كاتباً بليغاً، محدثاً راوية ضابطاً، استكتبه بعض أمراء الأندلس، وفيه يقول ابن الخطيب: «كانت كتابته شهيرة تضرب بذكره فيها الأمثال، وتطوى عليه الخناصر، قالوا لما عقد أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود البيعة لابنه الواثق بالإمارة من بعده، تولى إنشاءها وجعل الحاء المهملة سجعها مردفاً»[٨].

---

(١) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٢٣٥، ت : ٤٧٠؛ وراجع أيضاً فى سيرته: ابن الزبير ، المصدر السابق، ت: ١٢٥؛ ابن الآبار، التكملة، جـ٢، ت:١٨٨٨.

(٢) ابن الآبار، التكملة، جـ٢ ، ص ٥١٣، ت :١٤٤٣.

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٤) ابن سعيد، المغرب، جـ٢، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٥) ابن سعيد، اختصار القدح، ص ١٢٣ ، ت :٢١.

(٦) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٢ ، ت :٥٢.

(٧) ابن سعيد : اختصار القدح، ص ٢١ .

(٨) الإحاطة، جـ٢ ، ص ٣٤٨ وما يليها.

ويبرز على هؤلاء الكتاب جميعاً فى شرق الأندلس شخصيتان عظيمتان هما:

أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومى، ومحمد بن عبد الله بن الآبار.

أما الأول وهو أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن أحمد ابن عميرة المخزومى [(١)]، فأصله من جزيرة شقر بها ولد فى عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م، وبها نشأ، وفيها كان بيته وأسرته المخزومية، وإليها كان يعود كلما انتهى من تطوافه فى سبيل العلم أو العمل، سكن بلنسيه زمناً بغرض الدراسة حيناً وبحكم العمل حيناً آخر، ذلك أنه تقلد ابن عميرة منصب الكتاب بإمارة بلنسية فى ولاية السيد أبى عبد الله بن أبى حفص الموحدى، ثم تركها وعاش فترة فى أشبيلية فى خدمة بعض سادتها الموحدين ثم عاد إلى بلنسية ليكتب على واليها السيد أبى زيد، ثم عن خلفه الأمير زيان ابن مردنيش، ثم التحق عام ٦٢٨هـ بخدمة أمير المسلمين أبى عبد الله بن هود فكتب زمناً يسيراً عن القائد أبى عبد الله بن مردنيش رئيس شقر ثم شغل بعد منصب القضاء بشاطبة، وانتقل بعدئذ إلى مرسيه حيث كتب عن الأمير ابن هود ورافقه فى بعض حروبه وقام له ببعض المهمات فى أنحاء مملكته، كما كتب عن أبى بكر بن خطاب أثناء توليه على مرسيه، وعندما تغلب زيان ابن مردنيش على مرسيه ظل مقيماً بها يكتب عنه إلى أن أحس بدنو نهاية إمارته، فتركها متوجهاً إلى المغرب فى عام ٦٣٧هـ، وهناك تقلد الكتابة عن الخليفة الرشيد الموحدى بمراكش، ثم تولى منصب القضاء ببعض مدنها إلى أن رحل إلى أفريقية فى عام ٦٤٦هـ حيث تولى قضاء بعض أعمالها ثم أصبح مستشاراً للخليفة الحفصى إلى أن أدركته المنية فى عام ٦٥٨هـ [(٢)]، وقد اشتهر ابن عميرة فى صناعة الكتابة والترسل، وانتهت إليه رياستها فى عصره وشهد له بالأمانة فيها فحول الكتاب والمترسلين من معاصريه ومن أتى بعدهم، فوصفه ابن سعيد فى القدح، فقال: «شيخ كتاب زماننا، وإمام أدباء أواننا»[(٣)]، وقال عنه فى المغرب، «هو الآن عظيم الأندلس فى الكتابة فى فنون من العلوم» [(٤)] أما المقرى فقال عنه «قدوة البلغاء وعمدة العلماء، وصدر الجلة الفضلاء... مال إلى الأدب فبرع براعة «عد فيها من مجيدى النظم، فأما الكتابة فهو

---

(١) هكذا ورد اسمه كاملا فى ، ابن الشاط (قاسم بن عبد الله الأنصارى): كتاب الشرف على أعلى شرف، فى التعريف برجال سند البخارى من طريقة الشريف أبى على بن أبى الشرف، مخطوط الأسكوريال رقم ١٧٣٢، ورقة ٣٤.

(٢) راجع: محمد بن شريفة ، أبو المطرف بن عميرة، ص ٨٥.

(٣) اختصار القدح، ص ٤٢، ت ٦٠.

(٤) ابن سعيد، المغرب، جـ٢، ص ٣٦٣.

فارسها الذى لا يجارى وصاحب عينها الذى لا يبارى» [1]. وكتب ابن عميرة العديد من الرسائل الديوانية والإخوانية، ورد بعضها فى المصادر العربية، كما ورد بعضها فى مجموع ألفه أبو العلاء بن المرابط الذى كان معاصراً لابن عميرة وظل قاضياً بأوريولة حتى سقوطها فى أيدى المسيحيين، وبلغ عدد هذه الرسائل نحو أربعين رسالة بعضها إخوانى والآخر ديوانى [2]. وهناك مجموعة أخرى من رسائل ابن عميرة وردت فى «كتاب لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتاب»، عدتها عشرة رسائل مما كتبه ابن عميرة إلى الرئيس أبى عثمان سعيد بن حكم القرشى [3]. ومن هذه الرسائل رسالة يصف فيها ابن عميرة استيلاء المسيحيين على مدينة شقر، ويتوجع لسقوطها ويبكى ويتحسر على عظمتها جاء فيها : «ثم زحفت كتيبة الكفر بزرقها وشقرها حتى أحاطت بجزيرة شقرها، فآهاً لمسقط الرأس هوى نجمه، ولفادح الخطب سرى كلمه، ويا لجنة أجرى الله تعالى النهر تحتها، وروضة أجاد أبو إسحاق - يعنى ابن خفاجة الشاعر المعروف - نعتها وإنما كانت داره التى فيها دب وعلى أوصاف محاسنها أكب، ولم تعد بعده محبين قشيبهم إليها، ودمعهم عليها أراقوه» [4]. أما عن رسائله الديوانية فقد سبق أن نوهنا عنها فى الدراسة السياسية من هذا البحث.

وغير كتابة الرسائل، ألف ابن عميرة مصنفات أخرى فى التاريخ وفى العلوم الدينية وفى مجالات أخرى، فمؤلفاته التاريخية سنذكرها فيما بعد، أما فى الدين فله كتاب تعقب فيه على الفخر الرازى فى كتاب المعالم [5]، ومن مؤلفاته العامة «كتاب التنبيهات على ما فى التبيان من التمويهات» [6]، وهو كتاب ألفه فى الرد على «كتاب التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن» الذى ألفه أحد معاصريه من المشارقة ويدعى أبو محمد عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانى [7]، و«كتاب التنبيه على المغلطة والتمويه وإقامة المحال، عن طريق الاعتدال بالبرهان الكافى، والبيان الشافى» [8].

---

(1) نفح الطيب، جـ1 ، ص ٢٩٢-٢٩٣.

(2) وردت هذه الرسائل فى الجزء الثالث من كتاب زواهر الفكر وجواهر الفقر لابن المرابط، مخطوط الأسكوريال رقم ٥٢٠، من الورقة ٩٢ إلى الورقة ١١٦.

(3) ضمن مخطوط الأسكوريال رقم ٥٢٠، الورقة ٦٥ إلى الورقة ٧٩.

(4) فى: نفح الطيب، جـ٦ ، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(5) نفس المصدر، جـ1 ، ص ٢٩٣.

(6) نفس المصدر، جـ1 ، ص ٢٩٤؛ وقد تولى نشر هذا الكتاب الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثى، بغداد، ١٩٦٤.

(7) راجع : محمد بن شريفة، أبو المطرف بن عميرة، ص ٢٦٠.

(8) هذا الكتاب لا يزال مخطوطاً ، وتوجد منه نسخة فريدة محفوظة بمكتبة الأسكوريال تحمل رقم ٢٩٦؛ انظر : محمد بن شريفة، المرجع السابق، ص ٢٦٩.

أما الكاتب الثاني ابن الآبار فهو محمد بن عبد الله بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي بن الآبار، ويكنى أبا عبد الله، ولد ببلنسيه في ربيع الثاني عام ٥٩٥هـ، وبها كانت نشأته الأولى، وكانت الكتابة - الديوانية والإخوانية - حرفته،و قام بها لعدد من الولاة بالأندلس وأفريقية، وكان ابن الآبار إلى جانب مزاولته لمهنة الكتابة يقرض الشعر، ذكره ابن سعيد في المغرب فقال: «ورأيته فاضلا في النظم والنثر والتاريخ وملح الآداب» [١]، وفي اختصار القدح وصفه بقوله : «كاتب مشهور، وشاعر مذكور» [٢]. كما نعته الغبريني بقوله : «الفقيه المحدث المقرئ النحوي الأديب المجيد اللغوي الكاتب البارع التأريخي له نزعات في الأدب بارعة مستحسنة» [٣]. وكتابات ابن الآبار تنحصر في مؤلفاته ورسائله، ففي مجال التأليف له تصانيف في الحديث والأدب منها : «تكملة الصلة»، و«الحلة السيراء»، و«تحفة القادم»، و«هداية المعترف في المؤتلف والمختلف»، و«قطع الرياض وهو كتاب في متخير الأشعار»، و«كتاب التاريخ» [٤]، و«المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي، و«أعتاب الكتاب». وقد تميز كل كتاب من هذه الكتب بخصائص ومميزات من حيث محتوياته، وأسلوبه وموضوعه، أما رسائل ابن الآبار فنجد بعضها منشوراً متثوراً في كتب الأدب والتاريخ، نهج في أسلوبها منهج كتاب الأندلس من حيث السجع، وتحكم الكلمة في الفكرة، واختيار الكلمة لجرسها ومناسبتها في الجملة، ومن تكرار العبارة المؤدية للفكرة الواحدة، ومن حيث التورية وإن كانت تورياته سهلة الإدراك واضحة الإشارة، مع عدم مغالاة في الصناعة اللفظية، ولم يبالغ في الإطناب فيجعل رسائله مملة، وقد أخذت رسائله الطابع المألوف من البدء عادة بمقدمة والانتهاء[٥]. أما موضوعات رسائله فكانت واقعية خالية من الخيال، بعيدة عن اللهو والعبث ومجون الحياة التارفه، فضلا عن أنه لم يتناول من الموضوعات القصص أو الوصف وصف الطبيعة ومظاهر الحياة [٦]، وربما يرجع سبب ذلك إلى كثرة ما تولاه من مناصب، وإلى الظروف الصعبة التي مرت بها بلنسية في عصره نتيجة اشتداد تضييق النصارى عليها.

---

(١) المغرب، جـ٢، ص ٣٠٩.

(٢) اختصار القدح، ص ١٩١.

(٣) عنوان الدراية، ص ١٨٣.

(٤) المقرى، نفح الطيب، جـ٣، ص٣٤٩.

(٥) انظر : عبد العزيز عبد الحميد، ابن الآبار، حياته وكتبه ، الرباط، ١٩٥١، ص ٣٢٢.

(٦) نفس المرجع، ص ٣٣٢، ص ٣٣٣.

د ـ الدراسات النحوية:

أولى نحاة شرق الأندلس علم النحو اهتماماً خاصاً باعتباره الأساس لتفهم قواعد اللغة وآدائها وضبط حركات ألفاظها، فكانوا يتولون تدريسه كما كان منهم من يصنف فيه وفي قواعده المصنفات، ومن هؤلاء محمد بن أحمد بن عامر أبو عامر الشاطبي الذى ألف كتباً في اللغة (١).

وقد برز من نحاة شرق الأندلس عدد من العلماء نذكر منهم :

١ ـ عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فتوح بن محمد بن يحيى بن عبد الله الحضرمي النحوى، من أهل دانية، وأصله من قرية بالمة، ويعرب بابن صاحب الصلاة، وكان على حد قول ابن الآبار أديباً مبرزاً في صناعة العربية مشاركاً في الفقه والأدب وقرض الشعر ظاهر التواضع طاهر الخلق، توفى في عام ٥٨٧هـ (٢).

٢ ـ عبد العزيز بن محمد اليحصبي المعروف بالبابي (ت :٥٨٠هـ) من أهل مرسيه، وكان نحوياً عارفاً بأبيات المعاني (٣)

٣ ـ محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف بن حميد بن مأمون الأنصارى (ت : ٥٨٦هـ)، بلنسي الأصل، كان مبرزاً في النحو، إماماً فيه يعتمد عليه كما كان بارع الأدب، وافر الحظ من البلاغة، والتصرف البديع في الكتابة، ومن تواليفه شرح على «إيضاح الفارسي» وآخر على «جمل الزّجّاجي» (٤).

٤ ـ علي بن يوسف بن محمد بن أحمد الأنصارى، من أهل دانية ولكنه استوطن مرسيه ويعرف بابن الشريك (ت :٦١٨هـ) (٥).

٥ ـ أبو عبد الله محمد بن طاهر بن علي بن عيسى الخزرجي، من أهل دانية (ت : ٦١٩هـ) كان نحوياً من كبار نحاة شرق الأندلس في عصر الموحدين له من التواليف النحوية كتاب «تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب» (٦).

(١) الضبي، بغية الملتمس، ص ٤٣، ت :٣٣.
(٢) ابن الآبار، التكملة، جـ٢، ص ٤٨٩، ت :١٤٠٢.
(٣) الضبي، بغية الملتمس، ص ٣٧٠، ت :١٠٨٦.
(٤) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٣، ص ٧٠ وما بعدها.
(٥) ابن الزبير ، صلة الصلة، ص ١٢٨ ، ت :٢٦٦؛ انظر أيضاً: ابن الآبار، التكملة، ت :١٨٩٣.
(٦) المقرى، نفح الطيب، جـ٢، ص ٣٤٢.

٣ ـ علم التاريخ والجغرافيا:

حظيت الكتابات التاريخية باهتمام علماء شرق الأندلس، فأولوها كثيراً من عنايتهم، وسجلوا حوادث أيامهم ووقائع عهودهم بين ما سجلوه من وقائع الأندلس، ونبع من هذا الصقع عدد من المشتغلين بالكتابة التاريخية منهم:

١ ـ محمد بن عبد الله بن سفين بن سيّالة التجيبى (ت: ٥٥٨هـ)، من أهل شاطبة، الذى كان عارفاً بالأخبار حافظاً لأسماء الرواة [١]. وصنف كتاباً فى رجال الأندلس وصل به كتاب الصلة لابن بشكوال [٢].

٢ ـ محمد بن أحمد بن عامر البلوى، أصله من طرطوشة وسكن مرسيه ويعرف بالسالمى نسبة إلى مدينة سالم، ويكنى أبا عمر (ت :٥٥٩هـ)، وكان إلى جانب معرفته بعلم التاريخ من أهل الأدب والعلم، ومن مؤلفاته التاريخية كتاب عنوانه «درر القلائد وغرر الفوائد»، نقل منه ابن الآبار كثيراً من الأخبار [٣].

٣ ـ خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال (ت :٥٧٨هـ) وأصله من شريون بشرق الأندلس، ولكنه سكن قرطبة، ويذكر ابن الآبار أنه ألف خمسين كتاباً فى مختلف العلوم أعظمها «كتاب الصلة» الذى سلم له أكفاءه بكفايته فيه، وله تأليف آخر وهو «كتاب النوازع والمبهمات»، يقع فى اثنى عشر جزءاً، اختصره أبو الخطاب بن واجب ورتبه ـ لم يصل إلينا ـ ، وكتاب «الفوايد المنتخبة والحكايات المستغربة» ويقع فى عشرين جزءاً ـ لم يصل إلينا ـ ، وكتاب «المحاسن والفضائل فى معرفة العلماء الأفاضل» [٤]، (فى واحد وعشرين جزءاً).

٤ ـ أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومى، الذى سبق التعريف به، وقد ألف فى التاريخ عدداً من المصنفات منها تأليف فى كائنة ميورقة وتغلب العدو عليها هكذا سماه ابن فرحون فى «الديباج» [٥٥]، وابن القاضى فى «جذوة الاقتباس» [٦]، وسماه المقرى «تاريخ ميورقة وتغلب الروم عليها» ويؤكد أنه نحا

---

(١) ابن الآبار، التكملة، جـ١، ص ٢١١، ت :٧١٩.

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣) نفس المصدر والجزء، ص ٢١٣، ت :٧٢٥.

(٤) ابن الآبار، التكملة، جـ١، ص ٥٤؛ ت:١٧٩.

(٥) راجع : ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن علي اليفرى)، الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب، القاهرة، ١٣٢٩هـ، ص ٤٧.

(٦) راجع، ابن القاضى (أحمد بن محمد)، جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء مدينة فاس، فاس، ١٣٠٩هـ، ص ٧٣.

فى الخبر عنها منحى الإمام الأصبهانى فى «الفتح القدسى»، وقد أورد المقرى فقرات منه فى «النفح» [1]، أما جونثالث بالنثيا فقد جعله كتابا فى فضائل ميورقه وتاريخها [2]. ولابن عميرة مؤلف آخر ـ فقد للأسف كسابقه ـ وهو «اقتضاب من تاريخ المريدين» وصفه ابن عبد الملك بأنه اقتضاب نبيل [3]، والكتاب اختصار لتاريخ ثورة المريدين الذى ألفه أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجى المشهور بابن صاحب الصلاة المتوفى عام ٥٧٧هـ.

ونضيف إلى هؤلاء الأديب الكاتب والمؤرخ البارع عبد الله بن الآبار الذى سبق أن أشرنا إليه، وقد أدت كتاباته التاريخية خدمات جليلة للباحثين فى تاريخ الأندلس وعلى الأخص شرق الأندلس، فقد كشف فى «الحلة السيراء» النقاب عن أحداث بلنسية قبل سقوطها فى يد جاقمة، كما سلط أضواء هامة على هذه الفترة، من خلال تراجمه المفصلة الدقيقة لأهل الأندلس.

أما علم الجغرافيا فقد كان مصدر اهتمام علماء شرق الأندلس بوجه خاص فقد ظهر منهم ابن جبير الذى وقف حياته على تسجيل مشاهداته ورحلاته فى المشرق والمغرب، وابن جبير هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى، ويرجع نسب عائلته إلى جدهم الأعلى الذى وفد إلى الأندلس فى طالعة بلج بن بشر بن عياض القيسى القشيرى، ونزل بكورة شذونة [4]، ولد فى بلنسية وقيل فى شاطبة فى ١٠ ربيع الأول عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م، ودرس فى بلده بادئ ذى بدء ، ثم انتقل إلى غرناطة، وبها تقلد بعض الوظائف إلى أن أصبح كاتباً لأبى سعيد بن عبد المؤمن عامل الموحدين على غرناطة، ومما ساعده على تقلد هذه المكانة الممتازة ما كان يتمتع به من علم واسع باللغة والآداب والفقه وقدرة على نظم الشعر [5]. ويسوق المقرى رواية لابن الرقيق عن سبب رحلة ابن جبير إلى المشرق ملخصها أن الأمير أبا سعيد ابن عبد المؤمن عامل الموحدين على غرناطة استدعى كاتبه الشيخ محمد بن أحمد بن

---

(١) نفح الطيب، جـ٦، ص ٢١٢؛ وراجع: نفس المصدر، جـ١، ص ٢٩٣.

(٢) جونثالث بالنثيا، المرجع السابق، ص ٣٠٥.

(٣) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول، ص ٧٩، ت :٩٠.

(٤) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول، ص ٧٩، ت :٩٠.

(٥) المقرى، المصدر السابق، جـ٣، ص ١٤٣؛ وراجع أيضاً: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، ص ٤٢٩؛ السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص ٢٢٠.

جبير ليكتب عنه كتاباً وهو على شراب، فأراد أن يمزح مع الشيخ فمد له يده بكأس من النبيذ فاعتذر عن قبولها وأبى واسترجع، وعزّ على هذا الأمير أن ترد دعوته، فأقسم على ابن جبير ـ تحت تأثير الخمر ـ أن يشرب منها سبعاً، فخشى الرحيل وشربها اتقاء لما هو أسوأ، فملأ الأمير له الكأس سبع مرات دنانير ـ بتأثير الخمر أيضاً ـ فأزمع ابن جبير الحج بهذه الدنانير تكفيراً عما شرب من الإثم [١].

وأيًا ما كان صدق هذه الرواية، فإن ابن جبير قرر القيام برحلة، ويبدو أنه كان يعتزم قبل القيام بها على أن يسجل وصفاً لها، واستعد لذلك فكان أثناء الرحلة يرقب حساب الأيام والشهور فى دقة بالغة، ويدون ملاحظاته عما شهد ورأى يوماً بعد يوم، وخاصة فى الأوقات التى قاسى فيها من هول الأنواء والعواصف فأخذ يدون مشاهداته ويسجل أحاسيسه عندما تسنح له الفرصة فى تفصيلات غاية فى الدقة، وصحبه فى رحلته صديق له من المشتغلين بالطب يسمى أحمد بن حسان كان يعمل معه فى الكتابة فى الديوان الموحدى فى غرناطة [٢]، وقد ورد فى أول المخطوط الوحيد للرحلة أن اسمها «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، وورد فى ختامها أن اسمها «اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك»، ولا نعرف أيهما كان عنوان الكتاب، وقد لا يكون العنوان على حد قول كراتشكوفسكى من العبارة الأولى ولا الثانية وإنما مجرد رحلة ابن جبير أو رحلة الكنانى فحسب [٣]. ومما لا شك فيه أن كتاب الرحلة لابن جبير يعبر عن دقة ملاحظة، ورؤية صادقة ومعارف واسعة تتمثل فيما رواه وسجله عن مشاهداته فى أسلوب سهل معبر يبعث على الثقة.

٤ ـ الطب والرياضيات والهندسة:

لم يقتصر اهتمام علماء شرق الأندلس على الدراسات الدينية والأدبية، بل اهتموا أيضاً بالعلوم التجريبية كالطب والفلك والهندسة والكيمياء وهى من أهم العلوم التى عنى بها المسلمون وحققوا فيها أعظم اكتشافاتهم. وقد برز من علماء شرق الأندلس فى علم الطب، محمد بن يحيى بن محمد بن خليفة بن ينق، من أهل شاطبة (ت ٥٤٧هـ) الذى أخذ عنه أبى العلاء بن زهر علم الطب [٤]. ويحيى بن

---

(١) فى: المقرى، نفس المصدر والجزء، ص ١٤٥.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق الدكتور حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٧، ص : ى من المقدمة.

(٣) راجع: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٤٣٠.

(٤) راجع فى سيرته: ابن الآبار، التكملة، جـ١، ص ١٩٨، ت 674 ؛ وله أيضاً: المعجم، ص١٦٢؛ ابن سعيد ، المغرب، جـ٢، ص ٣٨٨.

بقى أبو بكر ويعرف بالسلاوى (ت :٥٦٣هـ)، وكان فقيهاً عارفاً بالتفسير، أديباً وطبيباً، اشتغل فترة بوعظ الناس، وكان الأمير محمد بن سعد بن مردنيش قد خصص له راتباً، ثم قطعه عنه فتفرغ لمهنة الطب وظهر فيها [١]. وأحمد بن عبد العزيز بن محمد بن سعدون، من أهل بلنسية وكان على حد قول ابن عبد الملك طبيباً ماهراً [٢]. وأحمد بن الحسن ابن أحمد بن حسان القضاعى المرسى (ت : ٥٩٨ـ٥٩٩هـ) صنف فى الطب مختصراً هاماً سماه بـ «الجمل والتفصيل فى تدبير الصحة» [٣]. وعبد الملك بن علي بن سلمة الغافقى البلنسى المتوفى عام ٥٧٤هـ أو ٥٧٥هـ [٤]. وأحمد بن علي بن مرطى البلنسى، رحل من مرسيه عام ٥٨٣هـ، واستوطن مراكش ومارس بها مهنة الطب التى نبغ فيها وفاق أطباء عصره [٥]. وعبد العزيز بن حمدين بن العزيز بن سعدون الأزدى الطبيب البلنسى المتوفى عام ٦٠٥هـ [٦]. وعبد الكبير بن محمد بن عيسى الغافقى المرسى (ت : ٦١٧هـ)، كان متقدماً فى صناعة التوثيق وذكر الفروع مع مشاركة فى الطب وله فيه اختصارات [٧]. ويوسف بن أحمد بن علي أبو الحجاج المربيطرى (ت : ٦١٩هـ) الذى اشتغل بالطب ونبغ فيه ورأس معاصريه وخدم به الأمراء [٨]. ويوسف بن أحمد طحلوس أبو الحجاج، من أهل جزيرة شقر (ت :٦٢٠هـ)، صحب أبا الوليد بن رشد، وأخذ عنه علمه، وكان آخر الأطباء بشرق الأندلس مع تحققه بعلوم الأوائل [٩].

وفى مجال الرياضيات وعلوم الهندسة بشرق الأندلس نبغ محمد بن يوسف بن عميرة الأنصارى (ت :٥٤٩هـ)، من أهل أوريولة، وكان عالماً بالفرايض والحساب [١٠]. ومحمد بن منخّل بن ريّان، من أهل جزيرة شقر، (ت :٥٥١هـ) وكان متحققاً بالفرايض والحساب بصير بالمساحة [١١]. والفضل بن محمد بن أحمد

---

(١) الضبى، بغية الملتمس، ص ٤٨٣، ت :١٤٦٤.
(٢) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، ص ٢٤٤، ت :٣٢٤.
(٣) نفس المصدر والقسم، ص ٨٧، ت :١٠٤.
(٤) نفس المصدر والقسم، ص ٢٤، ت :٥٧.
(٥) نفس المصدر والقسم، ص ٣٤١، ت :٤٢٧.
(٦) التكملة، جـ٢، ص ٦٣٢، ت :١٧٦٨.
(٧) ابن الزبير، صلة الصلة، ص ٤٤، ت :٦٩؛ راجع فى سيرته أيضاً: ابن الآبار، التكملة، ص٦٥٤، ت :١٨٢١.
(٨) ابن الآبار، التكملة، جـ٢، ص ٧٣٨، ت :٢٠٩١.
(٩) نفس المصدر والجزء، ص ٧٣٨، ت :٢٠٩٣.
(١٠) نفس المصدر والجزء، ص ١٩٩، ت :٦٧٨.
(١١) نفس المصدر، ص ٧٣، ت :٢٤٢.

بن إسحاق، البلنسي (ت :٥٦٤هـ) [(١)]. وأحمد بن أبي المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن سعيد بن جزى البلنسي (ت:٥٨٣هـ) [(٢)]. وأحمد بن إبراهيم بن محمد بن عيسى بن سعد الخير الأنصارى البلنسى(ت : ٥٩٣هـ)، مهر في علوم الحساب والهندسة وفرائض المواريث، «حتى كان لا يدانى فى ذلك، وتصدر لإفادة ذلك وتعليمه ببلده مدة طويلة فأخذ عنه أهله، وشهر بالعدالة والصلاح والدماثة ووفور العقل» [(٣)]. ومحمد بن بكر بن محمد بن عبد الرحمن بكر الفهرى، البلنسى (ت ٦١٨هـ) وكان متحققاً بعلم الحساب إلى جانب مشاركته في علم الطب [(٤)]. وأحمد بن إبراهيم بن علي بن منعم العبدرى، الدانى (ت : ٦٢٦هـ)، وكان واحداً من النابغين فى العدد والهندسة من فنون التعاليم وقد ألف في الفنين تصانيف جليلة، وتلاخيص هامة واستنباطات رائعة، ومن أشهر تصنايفه «فقه الحساب»، ومقاله فى استنباط إعداد الوفق، وكتاب «تجريد أخبار كتب الهندسة على اختلاف مقاصدها»، علاوة على دراسة كتاب «الأركان» لإقليدس، كما كانت له مشاركة أيضاً فى صناعة الطب وتوفى عام ٦٢٦هـ [(٥)].

(١) نفس المصدر، ص ٢٠٤، ت ٦٩٨.

(٢) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، ص ١٩٤، ت :٢٦٤.

(٣) ابن عبد الملك، نفس المصدر والسفر والقسم، ص ٦٣، ت :٤٤.

(٤) نفس المصدر والسفر والقسم، ص ٥٩.

(٥) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، ص ٥٩، ت ٣٦.

الفصــل الرابع

العمران والآثار الاسلامية الباقية في شرق الأندلس

أولاً : التوسع العمراني

١ ـ تخطيط مدينة مرسيه.

٢ ـ تخطيط مدينة بلنسية.

ثانياً : الآثار الاسلامية الباقية في شرق الأندلس

١ ـ المنشات المدنية:

أ ـ الحمامات.

ب ـ القصور.

جـ ـ شواهد القبور.

د ـ صهاريج المياه

٢ ـ الآثار الحربية:

أ ـ آثار حصن Olocau بإقليم بلنسية.

ب ـ قلعة شاطبة.

جـ ـ آثار برج بوفيا.

د ـ بقايا برج موسى.

هـ ـ آثار برج Trullars

أولا ـ التوسع العمرانى

كان تخطيط المدينة الاسلامية سواء فى المشرق أو المغرب يتوقف على موقع مسجدها الجامع من البؤرة العمرانية، وكان فى العادة يتوسط المدينة الاسلامية ويؤلف قلبها النابض بالحياة اجتماعياً واقتصادياً، فحوله يكثر العمران الاجتماعى كالحمامات والمنازل، كما تتوزع الأسواق التجارية والصناعية [1]. وقد جرت العادة أن يخصص لكل صنعة أو حرفة سوق، ويفرد لكل صناعة مكان خاص بها فتعرف صناعتهم فيه[2].

وقد اتسمت الأسواق العربية فى المغرب بمراعاة التجانس بين الحرف المتجاورة، فضلا عن عنايتهم بالفصل بين الحرف التى يخشى منها على بعضها الآخر، ومعنى هذا أنه كان هناك تناسب بين الأسواق، فإلى جانب سوق الأكسية والثياب توجد دكاكين الرفائين وإلى جوارهما سوق الكتانيين، أما الحرف التى ليس فيها تجانس ويخشى من حصول الضرر على بعضها فإنها تبعد عن بعضها من ذلك من كانت صناعته تحتاج إلى وقود كالخباز والطباخ والحداد، فللمحتسب السلطة فى أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزازين، لعدم المجانسة بينهم وحصول الإضرار [3].

وكانت المدينة الاسلامية تضم إلى جانب هذه الأسواق منشآت ذات طابع اقتصادى كالقيساريات والفنادق. وقد شهدت مدن شرق الأندلس فى عصر الموحدين توسعاً عمرانياً لم تشهده من قبل لكثرة ما أقيم فيها من منشآت اقتصادية نتيجة لازدهار الحياة الاقتصادية وما تعرضت له من زيادة متواصلة فى عدد السكان، وقد رأيت أن أعرض لأهم مدن شرق الأندلس فى هذا العصر وأعنى بهما مدينتى مرسيه وبلنسيه.

---

(١) راجع:

Torres Balbas (H.), Ciudades Hispano - Musulmana, t. I, p. 9;

السيد عبد العزيز سالم، تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها فى العصر الاسلامى، بيروت، ١٩٦٣، المقدمة؛ وانظر أيضاً:

التخطيط ومظاهر العمران فى العصور الوسطى، مقال بمجلة المجلة، العدد ٩ ، سبتمبر ١٩٥٧، ص ٥٤ وما بعدها.

(٢) يحيى بن عمر، أحكام السوق، تحقيق الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٥ ،ص ٢٢.

(٣) يحيى بن عمر، نفس المصدر، ص ٣٣، هـ٣.

١ ـ تخطيط مدينة مرسيه:

ازدهرت مدينة مرسيه فى عصر الموحدين، فكانت حاضرة شرق الأندلس ومقراً للوالى الموحدى، وبطبيعة الحال تركزت فيها جميع الإدارات الرئيسية التى تخدم إقليم شرق الأندلس، فاتسع عمرانها تبعاً لذلك وفاض خارج أسوارها، وتمثل فى ربضها المسور، وكان يتصل بالمدينة عن طريق قنطرة من السفن(١)، فيذكر الإدريسى أن بمرسيه ربض عامر آهل بالسكان تحيط بها وبه أسوار حصينة، وكانت مياه النيل الأبيض تشق هذا الربض، وكان يجاز إلى المدينة من الربض على قنطرة من المراكب(٢). ويشير أبو الحسن القرطجانى إلى ربضين آخرين بمدينة مرسيه هما ربض الراحة وربض الرشاقة(٣).

وربما كان الربض الذى ذكره الإدريسى أحدهما. كما ورد فى التكملة إشارة إلى ربض آخر باسم ربض سرحان(٤).

أما البؤرة العمرانية فقد كان يتوسطها المسجد الجامع(٥)، أساس العمران فى المدينة الاسلامية وبالقرب منه كان يقوم قصر الإمارة وحولهما السوق التجارى (٦) ومنه تتفرع الطرق والدروب المؤدية إلى أحياء بالمدينة(٧).

وكانت مرسيه مدينة مسورة تحيط بها الأسوار(٨)، وينفتح فى هذه الأسوار الأبواب التالية:

---

(١) انظر : الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٤؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨٢؛ السيد عبد العزيز سالم، مرسيه الاسلامية، ص ٢١.

(٢) الإدريسى، نفس المصدر والصفحة، وانظر أيضاً: المقرى، نفح الطيب، جـ١، ص ١٥٥.

(3) Garcia Gomez, observaciones sobre la «quasida maqsura» de Abu- L - Hasan Hazim Al-Qartayani, Al-Andalus, I, 1933, pp. 94-101.

(٤) ابن الأبار، التكملة، ص ٣١٤، ت :٩٣٩.

(٥) انظر : الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨١؛ السيد عبد العزيز سالم، مدينة مرسيه، ص ٢١؛ وقد حول النصارى عند استيلائهم على المدينة عام ٦٤١هـ/١٢٤٣م المسجد الجامع إلى كنيسة، راجع:
محمد عبد الله عنان، الآثار الاسلامية الباقية فى أسبانيا والبرتغال، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٠٠.

(٦) الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨١.

(7) Torres Balbas, op.cit., pp. 169, 335.

(٨) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٤؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨٢.

أ ــ باب ابن أحمد، وكان ينفتح فى السور الغربى للمدينة [١].

ب ــ باب السوق [٢].

جـ ــ الباب الجديد[٣].

د ــ باب الفرج[٤].

هـ ــ باب الفارقة[٥]

و ــ باب الشريعة [٦]

هذا كل ما ذكرته المصادر العربية عن أبواب مرسيه، وكان للمدينة أبواب أخرى مازالت تحمل مسمياتها حتى اليوم منها:

* باب القبلة La Alquibla الذى سمى بعد ذلك بباب Del toro نسبة لإقامة سرح تجاهه فى القرن السابع عشر الميلادى.

* باب أفريقية، الذى سمى أيضاً بباب القنطرة لأنه كان يطل على قنطرة مراكب كانت تربط المدينة بالربض الجديد الواقع خارجها، وهو ما أشارت إليه المصادر العربية [٧].

* باب شقورة، ويعرف أيضاً بباب الزجاجين Vidrieros لقربه من محلتهم، وسمى بعد ذلك بباب De Pilar لوجود كنيسة لصيقة.

* باب السقيا، وعرف بعد ذلك بباب القديسة فلورنيتنا Santa Florentina

* باب المنية، وأطلق عليه منذ عام ١٦٠٤ اسم باب السوق لإقامة سوق أسبوعى تجاهه.

* باب أوريولة، وسمى أيضاً بالأبواب السبعة، ومن هذا الباب دخل الملك خايمى الأول مدينة مرسيه، وبعد ذلك سمى باب ليون، وذلك لتمثال أسود كان قائماً بجواره

---

(١) ابن الآبار، التكملة، صفحات ٢٥٦، ٣٥٨، ٤٢٩، ٥٧٥؛ ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس، ص ٦٤.

(2) Torres Balbas, op.cit., t. I, p. 650.

(٣) ابن الآبار، التكملة، ص ٥٨٠؛ وانظر أيضاً: ليفى بروفنسال، الاسلام فى المغرب والأندلس، ص ٦١.

(٤) نفس المصدر، ص ٢٢٣، ص ٢٢٥؛ ليفى بروفنسال، نفس المرجع ،ص ٦٨.

(٥) الضبى، بغية الملتمس، ص ٣٧.

(٦) ليفى بروفنسال، المرجع السابق، ص ٧٤.

(٧) راجع: الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٤؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨٢.

متجهاً بوجهه وجهة أرغون وفي حالة متحفزة.

وكانت المدينة تضم بجانب المسجد الجامع عدة مساجد منها: مسجد الجرف ويقع في غربها على مقربة من باب أحمد[1]، ومسجد ابن حيون على مقربة من باب الفرج[2]، ومسجد الرشاقة [3]، ومسجد ابن أبي جعفر[4].

أما خارج أسوار المدينة وبالقرب من الطرق المؤدية إلى أبوابها الرئيسية فكان يوجد عدد من المقابر ورد ذكرها في كتب التراجم وهي: مقبرة باب الفرج، وفيها دفن محمد بن حرث بن عمر بن فيره بن حيون بن سكرة الصدفي[5]، ومقبرة المصلى الجديد، فيها دفن محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن هاجد الأنصاري عام ٥٩٨هـ [6]، ومقبرة الباب الجديد، بها دفن الفقيه عبد الرحمن بن عبد الله بن موسى بن سليمان الأزدي المعروف بابن برطلة، قاضي دانية وصاحب الصلاة بجامع مرسيه عام ٥٥٩هـ [7]، ومقبرة باب أحمد وفيها دفن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف ابن أبي عيسى الأنصاري المعروف بابن حبيش عام ٥٨٤هـ [8]. وقد كشف أخيراً في مرسيه على مقبرة خارج باب أوريولة، ووجد فيها عظاماً آدمية وهياكل عديدة داخل حفر مستطيلة الشكل موزعة بجوار أسوار المدينة، ونستدل من قطع الخزف التي عثر عليها أثناء الحفر عن هذه المقبرة على أنها ترجع إلى عصر الموحدين.

بجانب المقابر كانت توجد الروضات، فيشير ابن الآبار إلى روضة ابن فرج بربض سرحان[9].

(١) ابن الآبار، التكملة، ص ٤٢٩،ت :٢٣١، ص ٣٥٧، ت ١٠٢٧، ص ٥٧٣، ت :١٦١٧.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٢٢، ت :٧٤٣.

(٣) ابن الزبير ، صلة الصلة، ص ١٤٤، ت :٢٨٨.

(٤) السيد عبد العزيز سالم، دائرة معارف الشعب، العدد ٦١، ص ٥٠.

(٥) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٢٢، ت :٧٤٣.

(٦) نفس المصدر ، ص ٢٧٤، ت :٨٦٤.

(٧) نفس المصدر، ص ٥٧٩، ت :١٦٢٤.

(٨) ابن الآبار، التكملة، ص ٥٦٧، ت :١٦٠٥.

(٩) نفس المصدر، ص ٣١٤، ت:939 ؛ والروضات مقابر صغيرة خاصة بالأمراء والأثرياء ، كانت تقع عادة في وسط البستان الملحق بالقصر، انظر:
Torres Balbas, Ciudades, t. I, p. 236.

٢ ـ تخطيط مدينة بلنسية:

تحتل مدينة بلنسية موقعاً ممتازاً وسط سهل زراعى خصب[١]، ترويه شبكة من القنوات المائية. وكانت مركزاً إدارياً لكورة واسعة، تتبع مرسيه حاضرة شرق الأندلس، ونظراً لمكانتها كثانية حواضر هذه المنطقة ضمت سائر الوظائف الإدارية المختلفة التى تخدم أوجه النشاط المتعددة للكورة.

أما النطاق العمرانى لبلنسية فقد كان يتوسطه المسجد الجامع[٢]، وتقع لصقه دار الإمارة وحولهما تمتد الأسواق، ومن رحبة الجامع تتفرع الطرق والدروب المؤدية إلى أحياء المدينة المختلفة، وقد وصفها العذرى (ق٥هـ) بقوله: «ولها خطة فسيحة، وهى بلدة منيعة» [٣]. ومن هذه الأحياء حومة ابن جحاف وحومة رحبة القاضى التى كانت تتوسط المدينة تقريباً، وقد ورد ذكرهما بعد سقوط المدينة فى يد خايمى[٤].

وكانت بلنسية مدينة مسورة، اهتم بتسويرها المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر، فأتقن تسويرها، وفى منعة أسوارها يقول العذرى: «ولا يعلم ببلاد الأندلس أتقن بناءً من سورها ولا أجل منه» [٥]، وبناؤه من الحجر والطابية[٦]، بناه مبارك ومظفر العامريان[٧]، واتخذت على السور أبراج تكمل مهمته الدفاعية منها برج «القنطرة» [٨].

وكان ينفتح فى سور بلنسية عدد من الأبواب، عدّها العذرى خمسة[٩] بينما ذكر الحميرى أنها أربعة [١٠]، وهذه الأبواب هى:

---

(١) الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٧.

(٢) هذا المسجد الذى حوله السيد الكمبيادور سنة ١٠٩٤ إلى كنيسة ، وعقب استرداد المرابطون مدينة بلنسية حولوه إلى مسجد جامع، واستمر كذلك حتى افتتح جايمى الأول مدينة بلنسية عام ١٢٣٨هـ، فقلب هذا المسجد الجامع إلى كنيسة ألق عليها اسم «مارية العالية القداسة»، Sanctissima Maria، راجع: محمد عبد الله عنان، الآثار الباقية فى أسبانيا والبرتغال، ص ٩٥.

(٣) العذرى، ترصيع الأخبار، ص ١٨.

(٤) انظر : ابن الآبار، التكملة، ص ٣٨، ت ١١٨، ص ٣٤٣، ت ١٠٠٣؛
Bofarull, Repartimiento, apud, Torres Balbas, Ciudades, t. I, p. 192; Menédez pidal (Ramon), La Espana del Cid, Espasa Calpe, Madrid, 1929, p. 339;
السيد عبد العزيز سالم، دائرة معارف الشعب، العدد، ٦١، ص ٦٠.

(٥) العذرى، ترصيع الأخبار، ص ١٧–١٨.

(٦) الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٧ وما بعدها.

(٧) ابن عذارى، البيان المغرب، نشر ليفى بروفنسال، جـ٣، ص ١٦٠.

(٨) تاريخ الأندلس لابن كرديوس ووصفه لابن الشباط، ص ٩٩.

(٩) العذرى، المصدر السابق، ص ١٨.

(١٠) الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٧ وما بعدها.

١ ـ **باب القنطرة** : كان ينفتح فى السور الشرقى، ويخرج منه على قنطرة قد صنعها المنصور عبد العزيز بن أبى عامر، ومنها يخرج الناس بأثقالهم وأحمالهم إلى طليطلة وسرقسطة وطرطوشة (١).

٢ ـ **باب الوراق**: ذكره العذرى، وحدد موضعه فى السور الشرقى وكان يخرج منه ويسلك إلى الربض الشرقى على قنطرة خشب (٢)، وربما أضفى عليه هذا الاسم نسبة إلى صناعة الوراقة.

٣ ـ **باب ابن صخر**: ذكره العذرى وحدد موقعه فى الجنوب الشرقى(٣) وهو باب صغير ضيق، ومن المحتمل أنه كان من الأبواب الثانوية.

٤ ـ **باب الحنش** (٤): وكان ينفتح فى السور الشمالى، وقد ورد اسمه فى كتاب إعادة تقسيم بلنسية تحت اسم باب الهايش Bab al Haix وكان يقع فى المنطقة التى تعرف اليوم باسم Portal de Valldigno وشارع Salinas وكان يوجد خارجه فندق ومقبرة رئيسية(٥).

٥ ـ **باب بيطالة**: ذكر العذرى أنه كان ينفتح فى السور الغربى ويؤدى إلى دانية وشاطبة والجزيرة (٦). وقد حدد أويثى ميراندا موضعه فقال أنه كان ينفتح فى السور الجنوبى فى المنطقة الواقعة بين الشارع المعروف اليوم بسنت فنسنت على مشارف كنيسة سان مارتين وشارع تيرافيرو Cerrafero وشارع ماريا نوبنيوير Mariano Benlluire(٧) أما اسم الباب فأصله رومانى(٨).

٦ ـ **باب القيسارية**: وكان ينفتح فى السور الغربى، ويؤدى إلى دانية وشاطبة والجزيرة (٩).

---

(١) العذرى، المصدر السابق، ص ١٨ ؛ وانظر أيضاً: ليفى بروفنسال، الاسلام فى المغرب والأندلس، ص ٧٣.

(٢) العذرى، نفس المصدر ، ص ١٨.

(٣) العذرى، المصدر السابق، ص ١٨.

(٤) العذرى، نفس المصدر، ص ١٨ ؛ وانظر أيضاً: ليفى بروفنسال، الاسلام فى المغرب والأندلس، ص ٦٢.

(5) Rodrigo Pertegas (José), La urba valenciana en el siglo XI, III, congreso de Historia de la coronada Aragon. Memoriast, Valencia, 1923, p. 335.

(٦) العذرى، المصدر السابق، ص ١٨.

(7) Huici Miranda, Historia de Valencia Musulaman, t. I, p. 30.

(٨) ليفى بروفنسال، الاسلام فى المغرب والأندلس، ص ٦٢-٦٣.

(٩) العذرى، ترصيع الأخبار، ص ١٨.

٧ ـ باب الشريعة: لم يذكره العذرى ضمن أبواب بلنسية، ومن المرجح أنه فتح بسور بلنسية في القرن السادس الهجرى ـ أى بعد وفاة العذرى ـ فى اتجاه مدينة شاطبة، أما لفظ شريعة فالمقصود به مسجد مكشوف كانت تقام فيه صلاة العيد(١)، وقد ورد تفسيره فى المدونة العامة الأولى «مكان كان العرب يتوجهون للصلاة فيه فى أعيادهم ومزاولة شرائعهم الاسلامية»(٢) وفسره الأستاذ خوليان ريبيرا بمعنى مصلى (٣)، وحدده Eguilaz بمكان الصلاة عند العرب(٤)، أما دوزى فيرى أنه المكان الذى يتلى فيه القرآن والوعظ(٥) وأيًا ما كان الأمر فإن هذا الباب كان ينفتح على ربض الشريعة الواقع خارج السور الشرقى للمدينة عند منتصفه، وكان ربضًا فسيحًا تؤدى فيه الصلوات وخاصة صلاة العيدين وصلاة الاستسقاء(٦).

وكان يوجد ببلنسية بخلاف مسجدها الجامع، عددًا من المساجد الأخرى منها: مسجد ابن حزب الله(٧٦)، ومسجد رحبة القاضى(٨)، ومسجد الغرفة(٩)، ومسجد السيدة(١٠)، ومسجد ابن عيشون على مقربة من باب القنطرة (١١)، ومسجد ابن غليون، ومسجد أبى عبد الله بن نوح، ومسجد الشراجيب ومسجد ابن سرتباق(١٢).

ولكون مدينة بلنسية ثانية حواضر شرق الأندلس لم يلبث عمرانها أن اتسع اتساعًا كبيرًا إلى الأرباض الموزعة خارج أسوارها وعلى ضفتى نهرها الذى أقيمت عليه

---

(1) Torres Balbas (L.), «Musalla» (Saria) en las ciudades hispano musulmanas, Al-Andalus, XIII, 1948.

(2) Primera cronica General, édic Menédez Pidal, Madrid, 1905, Cap. 880, p. 551b.

(3) Julian Ribera y Tarrago, Disertaciones y opusculos , t. II, Madrid, 1928, pp. 326-328.

(4) Eguilaz y Ganguas (Leopoldo), Glosario etimologico de las palabras espanolas de origen oriental, Granada, 1886.

(5) Dozy, Supplement aux diccionaires arabes, t. II, Leiden, Paris.

(6) Torres Balbas, ciudades, t. I, p. 174.

(٧) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٢، ت :٥١، ص ٢٥٩، ت :٨٢٦.

(٨) نفس المصدر، ص ٣٨، ت ١١٨، ص ٣٤٣، ت :١٠٠٣.

(٩) نفس المصدر، ص ٢٠١، ت :٦٨٥.

(١٠) نفس المصدر ، ص ٥١٠، ت :١٤٤١.

(١١) نفس المصدر، ص ٣٠٨، ت :٩٢٩، ص ٥٣٨، ت :١٥١٢.

(١٢) السيد عبد العزيز سالم، دائرة معارف الشعب، العدد ٦١، ص ٦٠.

القناطر لتسهيل انتقال الناس بأثقالهم [1]. فقد اشتهرت بلنسية بكثرة منازهها ومسارحها التى كان يرتادها الولاة وأثرياء القوم للترويح عن النفس ولإقامة مجالس الطرب، وكان لروعة هذه المتنزهات وجمالها وما كانت تتمتع به من سحر وجمال فى نطاق طبيعى يفوق الوصف عظيم الأثر فى إلهام الشعراء، فنظموا فيها أشعاراً تعبر عن روعتها وحسنها وجمالها، ومن أبدع وأشهر منازه بلنسية: الرصافة ومنية أبى عامر[2]، ومنية ابن عبد العزيز[3].

أ - رصافة بلنسية:

أنشأها عبد الله البلنسى ابن الأمير عبد الرحمن الداخل تقليداً لرصافة الشام التى بناها جده هشام بن عبد الملك شمال شرقى تدمر بالشام[4]، وكانت من بين منيات بلنسية المقصودة للفرجة والنزهة، وفيها يقول ابن سعيد: «وبرصافة بلنسية مناظر وبساتين ومياه»[5]. ويحدد الحميرى موقعها جنوب شرقى بلنسية[6]، ومازالت هذه المنية تعرف حتى اليوم باسم الرصافة La Rusafa[7].

ب - منية ابن أبى عامر:

تنسب إلى المنصور عبد العزيز بن المنصور عبد الرحمن بن المنصور محمد ابن أبى عامر أحد ملوك الطوائف فى شرق الأندلس، وكان مقره بلنسية، ويصفها الفتح بن خاقان بقوله: «وهى منتهى الجمال، ومزدهى الصبا والشمال، على وهى بنائها، وسكنى الحوادث برهة بفنائها، فوافيتها والصبح قد ألبسها قميصه، والحسن قدِ شرح بها عويصه، وبواسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه، وتوشحت بالأزر الذهبية أثوابه، يخترقه جدول كالحسام المسلول، وينساب فيه انسياب الأيم فى الطلول، وضفاته بالأدواح محفوفة، والمجلس يروق كالخريدة المزفوفة»[8].

---

(1) الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٧.

(2) ابن سعيد، المغرب، جـ٢، ص ٢٩٨؛ وانظر أيضاً: المقرى، نفح الطيب، جـ١، ص ١٦٨.

(3) المقرى، نفس المصدر، جـ٢، ص ١٨٩.

(4) نفس المصدر، جـ٢، ص ١٤.

(5) فى: المقرى، نفس المصدر، جـ١، ص ١٦٩.

(6) الحميرى، المصدر السابق، ص ٧٨.

(7) الحميرى، نفس المصدر، الترجمة الفرنسية، ص ٩٧؛ وانظر أيضاً: تاريخ الأندلس لابن الكرديوس، ص ٨٦، هـ٤.

(8) الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، المطبعة الخديوية، القاهرة، ١٢٨٣هـ، ص ٧٧.

جـ ـ منية ابن عبد العزيز:

تنسب إلى أبي بكر بن عبد العزيز وزير أمير بلنسية ٤٥٦-٤٧٨هـ/ ١٠٦٣-١٠٨٥م[١]، وكانت تقع شمالي غربي بلنسية خارج باب الحنش أحد أبوابها، وكانت من المنازل البديعة والمنازه الجميلة[٢].

وكان يقع خارج أسوار مدينة بلنسية عدداً من المقابر بالقرب من الطرق المؤدية إلى أبوابها الرئيسية منها:

١ ـ **مقبرة باب بيطالة:** وتقع جنوب مدينة بلنسية بالقرب من الطريق العام المؤدى إلى الرصافة، وفيها دفن جمهور كبير من علماء بلنسية وأعيانها نذكر منهم على سبيل المثال، الشيخ محمد بن جعفر بن خيره البلنسي صاحب الصلاة والخطبة بجامعها عام ٥٤٧هـ [٣]، والفقيه محمد بن حسين بن عبد الله بن عمر بن هرون بن موسى سنة ٦٠٩هـ[٤]، والنحوى محمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصارى سنة ٦١٠هـ[٥]، وعبد الله بن أحمد بن محمد بن سالم سنة ٦٠١هـ[٦]، والشاعر علي بن محمد بن أحمد بن حريق المخزومى سنة ٦٢٢هـ[٧]، وعبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أحمد بن أبي بكر القضاعي والد أبي عبد الله بن الآبار سنة ٦١٩هـ[٨].

٢ ـ **مقبرة باب الحنش:** وتقع بالقرب من السور الغربي لبلنسية، وفيها دفن محمد ابن يوسف بن مفرج بن سعيد البنانى المعروف بابن الخباز عام ٥٩٣هـ[٩]. والفقيه محمد بن أيوب بن محمد بن وهب الغافقى عام ٦٠٨هـ[١٠] ومحمد بن

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلس، ص ٦٤١، ص ٦٧٠.

(٢) المقرى، المصدر السابق، جـ٢، ص ١٨٩-١٩٠.

(٣) ابن الآبار، التكملة، ص ١٩٧، ت :٦٧٣.

(٤) نفس المصدر، ص ٣٠٢، ت :٩١٧.

(٥) نفس المصدر، ص ٣٠٢، ت :٩١٨.

(٦) نفس المصدر ، ص ٥٠٢، ت :١٤٢٦.

(٧) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٢٧٥، ت : ٥٥٣؛ وانظر أيضاً: ابن الزبير ، صلة الصلة، ص ١٢٩، ت :٢٦٣.

(٨) ابن عبد الملك المراكشي، نفس المصدر، بقية السفر الرابع، ص ١٧٩، ت :٣٢٩.

(٩) ابن الآبار، المصدر السابق، ص ٢٦٨، ت :٨٥١.

(١٠) ابن الآبار، نفس المصدر، ص ٢٩٧، ت :٩١٢.

وهب بن لب بن عبد الملك بن أحمد ابن محمد بن نذير الفهرى خطيب جامع بلنسية سنة ٦١٣هـ[١]، ومحمد ابن إبراهيم بن مسلم البكرى سنة ٦٢٨هـ[٢]، والمقرئ عتيق بن علي ابن سعيد بن عبد الملك بن موسى بن عبد الملك بن رزين العبدرى عام ٦٠٠هـ[٣].

٣ ـ مقبرة المصلى : تقع شرقى المدينة خارج باب الشريعة (أو المصلى) وفيها دفن محمد بن علي بن محمد بن علي بن هذيل من أهل بلنسية، وكان من أهل الصلاح والورع عام ٦١٤هـ [٤]، والفقيه سعد بن أحمد ابن محمد بن الحسن بن خلف بن يحيى الأموى عام ٦٢٦هـ [٥].

٤ ـ مقبرة الجنان: ذكرها ابن عبد الملك فى سيرة أحمد بن علي بن يحيى بن عون الأنصارى الدانى نزيل بلنسية، الذى توفى بها ودفن عام ٦٠٩هـ[٦].

ومن الجدير بالذكر أن آثار هذه المقابر والروضات قد ضاعت بعد سقوط قواعد شرق الأندلس فى أيدى المسيحيين [٧]، وشغل مواقعها بمنشآت أخرى مسيحية، ويشير الأستاذ توريس بلباس إلى أن حركة طمس هذه الآثار بدأت من بداية القرن الرابع عشر الميلادى (٨هـ) عندما أزيلت هذه المقابر تمهيداً لبناء أحياء جديدة وكان ذلك فى عهد بدرو الرابع ابتداءً من عام ١٣٥٦م[٨].

ثانياً ـ الآثار الاسلامية الباقية فى شرق الأندلس

إن الآثار الاسلامية الباقية فى شرق الأندلس نادرة للغاية ويرجع سبب دثور المنشآت الاسلامية وضياعها إلى ضعف بنيتها وسرعة تهشمها مع رطوبة أراضى شرق الأندلس باعتبارها أرضاً زراعية لا تساعد على حفظ الأبنية، ومع ذلك فقد تبقت آثار قليلة وهامة فى آن واحد بعضها مدنية وبعضها ذو طابع عسكرى، أما الآثار الدينية فلم يتبق منها شىء بعد أن هدمت تماماً وأقيمت فى مواضعها كنائس.

---

(١) نفس المصدر، ص ٣١٠، ت :٩٣٢.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٣٧، ت :٩٨٦.

(٣) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الخامس، القسم الأول، ص ١٢٤، ت :٢٣٩.

(٤) ابن الآبار، المصدر السابق، ص ٣١٥، ت :٩٤١.

(٥) ابن عبد الملك، المصدر السابق، بقية السفر الرابع، ص ١٠، ت :٢٥.

(٦) نفس المصدر ، السفر الأول، القسم الأول، ص ٣٤٢، ت :٤٣١.

(٧) راجع : ابن الآبار، التكملة، ص ١٩٧، ت :٦٧٣.

(8) Torres Balbas ciudades, t. I, p. 267.

١ ـ المنشآت المدنية:

أ ـ الحمامات:

تعتبر الحمامات العامة من أهم العمائر المدنية في المدن الاسلامية، ولها أهمية كبرى في الحياة الاجتماعية في المجتمع الاسلامي، فإن عادة الاستحمام متأصلة في سلوك المسلمين، ولقد كانت الحمامات من مرافق المدن الهامة التي تعطى المدينة صفتها الحضارية.

وقد تميزت مدن شرق الأندلس وقراه بكثرة الحمامات، لكن للأسف لم يتبق من هذه الحمامات سوى آثار نذكر منها:

(١) **حمام مرسيه**: عثر في شارع La madre de Dios بمرسيه على آثار حمام، كانت تقتصر على قاعات مقببة، إحداهما تعلوها قبوة نصف اسطوانية قليلة الارتفاع[١]، وتنفتح في قبوة الممر المؤدى إلى إحدى القاعات التي يتألف منها الحمام مضاوى وهي فتحات نجمية الشكل الهدف منها أن يتسلل الضوء من خلالها إلى داخل قاعات الحمام. والقبوات ترتكز على عقود ضخمة تجاوزت نصف الدائرة وأقرب إلى حدوة الفرس تكاد تكون مغلقة، وكان يخترق الجدران الفاصلة لهذه القاعات أنابيب تجرى فيها المياه لتصب في أحواض الاستحمام، وكان البيت الساخن يقع في موضع قريب من غرفة الخدمة[٢] وكانت جدران الحمام مقامة من الملاط شديد الصلابة وخليط من الحجر في حين أقيمت القبوات والعقود من الآجر والكلس، ومن المرجح أن تاريخ بناء الحمام يرجع إلى القرن الثالث عشر قبل سقوط المدينة نهائياً في أيدى المسيحيين، وذلك أن ألفونسو العاشر قد منح الحمام والحوانيت وملحقاتها إلى الأسقف دون جارثيا مارتينث Don Garcia Martinez[٣]. وللأسف تعرض هذا الحمام للهدم منذ عشرين سنة وضاعت معالمه تماماً نتيجة للتوسع العمراني الحديث في مرسيه.

(٢) **حمام توريس توريس**: ينسب هذا الحمام إلى بلدة توريس توريس Torres Torres، التي تقع جنوب شارقة Jérica، على بعد ستة أميال من مبريطر وعلى مسافة واحد وعشرون ميلا شمالي بلنسية، وتقع هذه البلدة في أرض سهلية يشقها وادى بالنثيا وإلى قبليها تقوم آثار حصنها القائم على قمة ربوة شديدة الارتفاع،

(1) Torres Balbas (L.), El bano musulmana de Murica y sus conservacion, Al-Andalus, Fasc 2, 1952, pp., 432-436.

(2) Torres Balbas, op.cit., p. 437.

(3) Ibid, p. 437.

وكان ضمن حصون شارقة وشبرب التى استولى عليها الملك خايمى الأول الملقب بالفاتح قبل أن يقدم على محاصرة بلنسية ويستولى عليها صلحاً(١).

وقد عثر فى شمال شرقى توريس توريس على بقايا آثار حمام كان يطلق عليه لاس كويباس Las Cuevas أى المغاور أو الكهوف، وآثار هذا الحمام تتكون من ثلاثة ممرات متوازية بعرض مترين، و ٢,٩٠م، ٢,٤٠م وبطول ٦,٧٥م تتجه من الجنوب إلى الشمال، وتعلوها قبوات نصف اسطوانية منخفضة يبلغ ارتفاعها ٣,١٥م، ويلى الممران الثانى والثالث غرفتان يفصلهما عن الممرين المذكورين عقد نصف دائرى من الآجر، أما الممر الأول ويقع إلى الغرب، فكان يتصل عند بدايته بمدخل الحمام، وفى إحدى الغرفتين تنفتح ثلمة فى الجدار توصل إلى الموقد لتسخين المياه، وفى الأخرى مصطبة ومحراب، وبينما كانت الجدران مقامة من الحجر الجيرى، كانت القبوات مشيدة من صفوف حجرية منتظمة من الحجر الجيرى على شكل عقود متصلة، وفى الوقت التى كسيت أرضيات الغرف بفسيفساء صغيرة من الملاط يتراوح طول ضلع الواحدة ما بين ٥ إلى ٦سم، وكسيت أرضية الممرات بتربيعات مزججة يتناوب فيها اللونان الأبيض والأخضر الفاتح، أما الإضاءة فكانت عن طريق طاقات نجمية الشكل أو مثمنة (مضاوى) تنفتح فى القبوات نصف الاسطوانية (٢). ويحتفظ الحمام بثلاث غرف، أولهما يسمى «البيت البارد»، يتلوه «البيت الوسطانى»، ثم «البيت الساخن»، وهذا الحمام من طابع أكثر تواضعاً من الحمامات الأخرى الباقية فى مدن الأندلس، وأنموذج طيب للحمامات العادية الريفية يشابه تلك التى عثر عليها فى المدن الصغيرة وقرى شرق الأندلس وبعض قرى الريف الغرناطى (٣).

(٣) **حمام مربيطر:** عثر فى مدينة مربيطر على آثار حمام، كان يقع غربى المدينة فى شارع أبريل Calle April إزاء باب لوس جرانوتس Puerta de Los Granotes، وقد تبقى منه ثلاثة ممرات بطول ٩,٨٣م وعرض ٣,٣٠م تعلوها قبوات نصف اسطوانية وتتخللها طاقات نجمية الشكل (مضاوى)، وقد آلت ملكية هذا الحمام بعد سقوط المدينة فى يد خايمى الأول إلى اليهودى يوسف شبروط(٤).

(٤) **حمام جزيرة شقر:** عثر فى جزيرة شقر Alcira منذ سنوات على ثلاثة غرف مقببة كانت تابعة لحمام اسلامى، وقد ورد فى كتاب إعادة تقسيم بلنسية فى سنة

---

(1) Torres Balbas El bano de Torres Torres, (Valencia), y otros levantinos, Al-Andalus, fasc (I) 1952, p. 178.
(2) Torres Balbas, op.cit, pp. 181-182.
(3) Ibid, p. 184.
(4) Ibid, p. 187.

١٢٤٢، يشير إلى أن حماماً يقع أمام كنيسة سان نيكولاس San Nicolas آل إلى القس خوان [١].

(٥) **حمامات شاطبة**: في سنة ١٢٥١م منح خايمى الأول سكان ربض شاطبة الذى سمي مؤخراً بربض القديس خوان San Juan فى جملة ما منحه لفرسانه عدداً من الحمامات، والظاهر أن هذه الحمامات كانت من الكثرة فى شاطبة إلى حد أن أحد أبواب شاطبة كان يطلق عليه اسم باب الحمام، وكان يقع فى نهاية شارع فرانسيسكو فى الميدان الذى يسمي حالياً بميدان اميليو كاستيلار Plaza de Emilio Castelar، وهناك حمام آخر يعرف باسم حمام شاطبة، وكان يقع فى شارع مونكادا Moncada، ويحتفظ متحف الآثار بشاطبة ببعض عناصر زخرفية ومعمارية تم الكشف عنها داخل آثار الحمام [٢].

٦ـ **حمامات شنشالة**: عثر فى شار إميليو كاستيلار بشنشالة على آثار حمام لا تعدو بقايا ممرات خشنة البنيان تعلوها قبوات نصف اسطوانية [٣]. ومن المعروف أن شنشالة كانت من المواقع الاقتصادية الهامة فى شرق الأندلس اشتهرت بالبسط والأوطية.

٧ـ **حمامات ميورقة** : تقع هذه الحمامات فى شارع سرّا وهى بقايا خربة مشوهة من حمامات اسلامية يبدو عليها أثر الاحتراق، عبارة عن مربع فى كل ضلع من أضلاعه ثلاثة عقود، وتحتوى جميعاً على اثنى عشر عقداً رفيعة وتعلوه قبة صغيرة عارية من النقوش [٤].

ب ـ القصـــــور:

لم يتبق من آثار القصور الاسلامية فى شرق الأندلس غير آثار قصير مرسيه وقصر المدينة بميورقة، وإن كان موقع القصر الكبير فى مدينة مرسيه الذى تشغله الآن كنيسة سانتا كلارا قد عثر فى أرضيته على آثار كثيرة معظمها كسوات زخرفية من الجص والحجارة وقطع عديدة من الخزف.

---

(1) Prospero de Bofariul, Repartimiento de Mallorca, Valencia y Cerdena, 1856, apud, Torres Balbas, op.cit, p. 185.

(2) Torres Balbas, óp.cit, p. 186.

(3) Ibid, p. 186.

(٤) انظر : محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ١٣٢.

١ ـ قصير مرسيه El Castillejo de Murcia:

أسفرت أعمال الحفائر التى أجريت خلال عامى ١٩٢٤-١٩٢٥ فى سهل مرسيه الخصب على بعد أربعة كيلو مترات شمالى شرقها، وأسفل التل المقام عليه قلعة مونت أقوط Monteagudo على بقايا أساسات جدران قصر، من المرجح أنها تتعلق بإحدى دور السرور التى نوه بها أبو الفدا، ويسمى اليوم القصير El Castillejo[١].

أما عن تاريخ بناء هذا القصر، فيرى الأستاذ توريس بلباس أنه يرجع إلى عصر محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرق الأندلس ١١٤٧-١١٧١م[٢] فى حين يؤكد الأستاذ جوميث مورينو أنها ترجع إلى عصر المرابطين مدللا على ذلك بمقارنة طبلات العقود من الجص المحفور ذات التوريقات البارزة بما هو موجود فى مسجد تلمسان وتمثل مرحلة متقدمة للفن الأندلسى فى الثلث الأول من القرن الثانى عشر، وكذلك تشابه الزخارف التى عثر عليها فى هذا الموقع من الزخارف المكتشفة بدار لاشانكا بالمريه وترجع إلى عصر المرابطين[٣].

ويمثل القصير مستطيلا طوله ٦١م وعرضه ٣٨م له أربع واجهات وله مدخلان متقابلان تدعمها أبراج مربعة تشرف على مداخل البهو الذى يشغل أغلب مساحة المبنى [٤].

أما الآثار الباقية منه فجدران يتروح ارتفاعها ما بين ثلاثة أمتار فى بعض الأجزاء، وفى أخرى ما بين ١,٢٠م، ٠,٨٠م، بناؤها من الملاط المتماسك الشديد الصلابة بين كتل حجرية غير منتظمة أو من الآجر، يكسوها طبقة من الجير[٥].

كما تحتفظ القاعات بهذا القصير والأروقة التى تربط بينهما بقسم كبير من وزراتها المطلية بلون أحمر مع زخارف من تشبيكات أقرب إلى التشبيكات السداسية أو الثمانية المعروفة منها إلى تشبيكات دار لاشانكا كما بقيت طبلات عقود من جص محفور كانت تزخرف الأبواب بها توريقات بارزة تشبه تمام الشبه تلك التى فى مسجد تلمسان وتقوم على أساس خطوط حلزونية، وهناك بنيقة خاصة بعقدين توأمين

(1)Torres Balbas (L.), Monteagudo y El Castillejo en la vega de Murcia, Al-Andalus, Fasc II, 1934, p. 868.

وراجع أيضاً: جوميث مورينو، الفن الاسلامى، ص ٣٣٣.

(2)Torres Balbas, Ibid, p. 369.

(٣) جوميث مورينو، المرجع السابق، ص ٣٣٣، ص ٣٣٦.

(4) Georges Marcais, L'Archtecture musulmana D'occident, Paris, 1924, p. 214.

(5) Ibid.

مع سنجات ملساء مزخرفة على التعاقب من التقليد الخلافي، ثم سطح ينحصر بين فصوص، كذلك عثر على كوابيل غنية بالزخرفة وقطع أخرى بها نقوش كوفية ونسخية، وبقى أيضاً تاجان من المرمر وفق النوع الكورنثى والمركب، وأوراقهما ملساء ليس فيها جمال ثم قاعدة ذات تقعير شديد الاتساع بين طوقين بارزين [١].

ويحتفظ متحف الآثار بمدريد ببعض هذه القطع فى حين يحتفظ متحف الآثار بمرسيه بالبعض الآخر[٢].

٢ ـ قصر المدينة Almudaina

كان قصراً لولاة المسلمين وأمرائهم، شيد فوق أنقاض صرح رومانى قديم، واستمر مقراً لهم حتى سقطت ميورقة فى أيدى خايمى الأول وأصبح الآن مقراً للقيادة العسكرية ودار المحفوظات العامة، أما عن القصر فبداخله فناء كبير مربع ذو عقود عربية من الجهتين، ولم يتبق من آثاره الاسلامية فى فنائه ـ الذى يسمى «فناء الملكة» ـ سوى نافذتان معقودتان بعقدين اسلاميين وحوض نافورة، وبقايا عقد اسلامى يقوم فى أعلى الجدار فى أحد ممراته، وتوجد أيضاً عدة قطع زخرفية من أعمدته القديمة[٣].

جـ ـ شواهد القبور:

أسفرت أعمال الحفريات بمقبرة باب أحمد بمرسيه عن كشف عدد من شواهد قبور، كلها تحمل نقوش عربية خاصة بمسلمين دفنوا فى هذه المقبرة، ومن بين هذه الشخصيات الهامة التى دفنت فى هذه المقبرة السيدة الفاضلة بنت ذى الوزارتين القائد الأجل المجاهد أبى عثمان سعد بن مردنيش توفيت عام ٥٥٧هـ وذو الوزارتين القائد أبو عمران موسى بن يحيى المدعو بابن الأزرق الفهرى، المتوفى سنة ٥٦٦هـ[٤].

---

(١) جوميث مورينو، المرجع السابق، ص ٣٣٦، وانظر أيضاً:
Torres Balbas, op.cit., p. 371
أما الوزرة فتعرف بالأسبانية Zocalo وبالفرنسية Socle، وهى كسوة من الرخام مزينة بالزخارف النباتية والتوريق تغطى أسفل الجدار، راجع : جوميث مورينو، المرجع السابق، ص٤٩٦.

(2) Torres Balbas, Ibid, p. 368.

(٣) انظر : محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ١٢٨.

(4) Lévi - Provençal, Inscription Arabes D'Espagne, tomo I, Paris, Leyde, 1931, pp. 98-99.

د ـ صهاريج المياه:

استلزم بناء الحصون إقامة خزانات للمياه بهدف تزويد الحامية بالمياه اللازمة، وقد أمدتنا أعمال الحفائر فى حصون وقلاع شرق الأندلس بنظام بناء الخزانات والمادة المستخدمة فى تشييده.

ففى حصن Olocau عثر على خزانين للمياه، أحدهما فى حالة جيدة يتخذ شكل مستطيل طوله ٧,٥٠ م وعرضه ٥,٤٠م، تغطيه قبوة نصف اسطوانية استخدم فى بنائها اللوحات الصخرية والملاط، وقد كسى داخل الصهريج بطبقة سميكة من المصيص الأبيض المدهون باللون الأحمر، وبقبوة الصهريج فتحتين لصب المياه فيه من موضعين[١].

كما عثر فى حصن المنارة Almenara (قسطليون) على ثلاثة صهاريج مياه، استعمل فى بنائها الآجر[٢].

وفى السور البرانى لحصن شاطبة الكبير أربع صهاريج متحدة فى بناءها مغطاة بقبوات من ألواح صخرية، أما جدرانها فمكسوة بالجص ومدهونة باللون الأحمر، ويتمثل نفس نظام البناء فى هذا الصهريج فى صهاريج عثر عليها بحصون شارقة Jérica، وشيرب Segorbe، وحصن Oropesa del mar، وكذلك مربيطر Murviedro يوجد بها آثار صهاريج مختلفة ذات طابع اسلامى صرف[٣].

٢ ـ الآثار الحربية:

كان لوقوع شرق الأندلس فى الطرف الشرقى للأندلس على حدود مملكة قطالونية من جهة ومملكة أرغون من جهة ثانية سبباً فى تعرضها لأخطار الغارات التى كانت تتهددها دوماً، كما كان امتداد سواحلها على البحر المتوسط عاملا لتعرض موانيها للغزو البحرى الذى تمارسه قوى النصرانية، الأمر الذى دعا الموحدين إلى أن يولوها قسطاً كبيراً من اهتمامهم ويحرصوا على تحصينها درءاً للخطر المتزايد لاسيما فى المنطقة المتقدمة شمالى بلنسية، وهكذا اهتم الموحدون بتحصين ثغور شرق الأندلس بالأسوار والتحصينات المنيعة وترميم القلاع وتعزيز الأسوار بأبراج قوية.

ومن الآثار الحربية الباقية:

---

(1) Basilio Pavon Moldonado, El Castillo de Olocau de Valencia, en Al-Andalus, Vol. XLII, Fasc1, Madrid, Granada, 1977, pp. 210-211.
(2) Ibid, p. 212.
(3) Ibid, pp. 213-215.

أ ـ آثار حصن Olocau [1] بإقليم بلنسية:

أمدتنا الحفائر الأثرية التى أجريت عام ١٩٧٦ فى بليدة Olocau بحقيقتين هامتين تفيدان كمدخل لدراسة هذا الأثر الهام، الأولى، أن هذا الحصن بنى على قمة صخرية هائلة ومرتفعة ذات مدخل يصعب ارتقاؤه يبعد ثلاثة كيلو مترات عن البليدة، ويقع عند خط تقسيم المياه مع بليدة مارينس القديمة Marines el Viejo، وأما الحقيقة الأخرى فهى أن أعمال الحفائر قد أسفرت عن وجود أطلال برج يماثل أبراج العصور الوسطى فى سهل بليدة Olocau ذلك أن البنيان الداخلى لهذا البرج يقوم على أساس قطع الحجارة التى تتطابق مع أسوار الحصن الصخرية، ويرجع الأستاذ مالدونادو تاريخ بناء النواة الداخلية لهذا البرج إلى القرن السابع الهجرى (١٣م) [٢].

ومن الواضح أن ارتفاع هذا البرج قد ازداد حتى المستوى الحالى بدليل أنه استخدم فى بناء هذه التعلية الحجر والآجر وهى مادة تختلف عن المادة التى بنى بها القسم الرئيسى منه. ومن الجدير بالملاحظة أن تشييد هذا البرج فى أعلى هذه القمة الصخرية المرتفعة قد تسبب فى صعوبة الارتقاء إليه وخطورة ذلك لطبيعة سطح الجبل الجنوبية والغربية، علاوة على منعته من جهة الشمال والشرق حيث يوجد جرف قائم، أما محيط دائرة الحصن فتتخذ مساراً غير منتظم، وتشتمل دائرة الحصن على سورين أحدهما خارجى أو حزام برانى مقام عليه برج فى حالة شبه خربة وعلى مسافة يسيرة منه يقع خزان للمياه[٣]. أما السور الثانى أو الرئيسى، فقد استخدم فى بناء جدرانه قطع الحجارة المربعة مع ملاط صلب [٤]، وينم تخطيطه إجمالا عن شكل شبه

---

(١) فسر آثين بلاسيوس اصطلاح Olocau بمعنى مرتفع أو ربوة أو صخرة جبلية كبيرة، كما فسرها بأنه مشتق من الاصطلاح العربى العقاب، بينما يرى الياس تيرس أن هذا الاصطلاح مشتق أصلا من الكلمة العربية De al - Ugab فأصبح Olocau، راجع:

Asin palacio, contribucion a la tomonomia arabe de Espana, p. 126; Basilio Pavon Moldonado, op.cit, p. 208;

هذا وقد ورد اسم حصن العقاب ضمن حصون شرق الأندلس، فابن عذارى فى حديثه عن ثورة القاضى ابن جحاف ببلنسية يذكر أن القادر بن ذى النون بعث «بعض عياله إلى ابن ياسين قائده على حصن شبرب، وإلى ابن حديرة بحصن العقاب»؛ راجع: ابن عذارى، البيان المغرب، القطعة الخاصة بالمرابطين، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧، ص ٣١.

(2) Basilio Pavon Moldonado, op.cit, p. 209.

(3) Ibid, p. 210.

(٤) الملاط الصلب، هو مزيج من الجير والرمل وقطع الدبش، راجع: جوميث مورينو، الفن الاسلامى، ص ٤٩٤.

منحرف بأقصى طول ٢٢,٣١م وعرض ٨,٤٠م فى أغلب الجانب الشمالى، وكان يشتمل على ثلاثة قطاعات ذات مستويات مختلفة، القطاعان الأولان والداخليان وجدت آثارهما تحت الأنقاض، ولو أنه برزت فى بنية الثانى غرفة غير متصلة بالسور على شكل قاعة فسيحة مستطيلة الشكل تعلوها قبوة نصف اسطوانية اتخذت من ألواح صخرية، وغرفة أخرى صغيرة غير كاملة على شكل مستطيل بطول ١,٩٨م وعرض متر، ومن المرجح أن هذه الغرفة كانت مؤثثة بأثاث استقدم من قصور ومنازل اسلامية ومدجنة، واتخذت مخادع للنوم أو مجالس للاستقبال[1]. ومن المحتمل أن يكون القطاع الثانى الذى يؤدى إلى طريق اسطوانى فسيح إلى مدخل الحصن مجلساً للسمر فى حين يمكن أن يكون القطاع الثالث والعلوى ساحة للاحتفالات العسكرية، ويبدو أنه كان مقاماً به برج من طابقين وسطح مما يعطى للناظر إليه من المنخفض الموجود فى الطريق إلى بليدة مرينس القديمة الانطباع بأنه إزاء مرقب أو برج طليعة، والبرج المذكور لا يعدو بهواً مربع الشكل ٦,٥٠ ×٥,٨٠م يتصل بدهليز منحدر، وتنفتح فى جانب منه خوخة تماثل نظيرتها فى خزان الحصن، وقد عثر على درج يقع على عمق قليل يتجه إلى ممر ضيق منخفض الارتفاع لا يستطيع المرء أن يقف فيه على راحته ولو لوقت قليل إذا لم يستند بيديه إلى الشرفات التى تتوج الحائط، وجدران البرج تخلو من منافذ السهام التقليدية ولكنها مزودة بفتحات صغيرة، كما عثر داخل البرج على سلم ذا مرقى مزدوج عن طريقه يصعد إلى الطابع الثانى والشرفة، بالإضافة إلى غرفتين ملحقتين كانتا تستخدمان كمطبق، ينفذ الضوء إليهما من خلال نافذتين ضيقتين وأعلى النافذتين توجد بعض فتحات لعلها تخلفت من آثار استخدام لوحات الخشب فى بناء الجدران[2].

ب ـ قلعة شاطبة:

تعتبر قلعة شاطبة من أهم قلاع وحصون شرق الأندلس الدفاعية، وهى من بناء الرومان واستمرت تقوم بفضل متانتها وإحكام بنيانها ومنعتها بدورها الدفاعى عن منطقة شرق الأندلس، وقد وصفها الرازى بأنها حصن قديم جداً ويطل على البحر[3]، أما العذرى فقد وصفها بالمنعة وأنه لا مثيل لها[4]، وألمح إليها الإدريسى فى حديثه

(1) Moldonado, op.cit., p. 216.
(2) Moldonado, op.cit., p. 218.
(3) Lévi - Provençal, la description de l'Espane D'Ahmad Al-Razi, Al-Andalus, Vol. XVIII, Fasc I, 1953, p. 7.
(٤) ترصيع الأخبار، ص ١٨.

عن مدينة شاطبة بقوله : «ولها قصاب يضرب بها المثل في الحسن والمنعة»[١].

أما المدونات المسيحية فقد أسهبت إلى حد كبير في وصف القلعة وتحديد موضعها، فكتب مارتن دى بثيانا أن القلعة أقيمت على حافة سلسلة جبلية وأنها تتوزع على حصنين، الحصن الكبير تجاه الغرب، والحصن الصغير تجاه الشرق، يطوقها سور واحد، ومدخل واحد، يؤدى إلى أربع ممرات مختلفة، لكل منها مدخل منيع، والحصن الكبير توجد به كنيسة تسمى كنيسة العذراء، وبه برجين كبيرين رئيسيين يطلق على الأول La Vina de Sanct Joergo، والثانى Sancta Fe، بالإضافة إلى عشرين برجاً حصينا موزعة على السور، أما الحصن الصغير، فبداخله كنيسة القديسة آنا Santa Ana، ومزود بثمانية أبراج، والحصنان مزودان بالمياه عن طريق ١٢ صهريجاً كبيرا [٢].

ويضيف بثيانا أن السور المرتفع الذى يطوق الحصنين كان يسمى بسور البقر، لأنه كان يحيط بمواضع قفراء ترعى فيها الماشية، وقد تبقى السور الأسفل المنخفض الذى يواجه المدينة وتنفتح فيه تسعة أبواب: باب قسنطينة، باب البويج، باب بلنسية، باب سانتا أنا Santa Ana، باب ليون، باب فريريا، باب الحمامات، باب القديسة تكلا، باب سان جورج [٣].

أما ديجو Diago، فقد اهتم بإبراز موقع القلعة، فيقول أن جبل شاطبة ينحدر من الغرب إلى الشرق، وهو جبل عال للغاية يصعب ارتقائه من جهة ترامونتانا Tra-montana، وتقع مدينة شاطبة على سفح الجبل من هذه الناحية ويمتد عمرانها من الغرب إلى الشرق، أما الحصن الكبير فقد أقيم فى أكثر سطوح الجبل ارتفاع وهى الجهة الغربية، وعلى قمة أخرى أقل ارتفاعاً فى الجانب الشرقى أقيم الحصن الصغير، ويحدثنا عن صهاريج المياه فيقول أن الحصن الكبير به عشرة صهاريج والحصن الصغير به صهريجين للمياه[٤].

وقد زودنا اسكولانو Escolano بوصف أقل تعبيراً عن الوصفين السابقين وذكر أن القلعة تتوازى مع مدينة شاطبة، ويتفق مع ديجو فى وصف الحصنين والأبواب

---

(١) الإدريسى، صفة المغرب،ص ١٩٢.

(2) Viciana, Tercera parte de la cronica de valencia, apud, Carols sarthou carreres; El Castillo de Jative y sus historicas prisioneros, tercera edic, valencia, 1951, p. 15.

(3) Viciana, apud, torres Balbas, Jativa y los restos del palaco de piohermoso,Al-Andalus, Vol. XXIII, 1958, Fasc I, pp. 149-150.

(4) Carreres, op.cit., p. 16.

والأبراج[١]، ويصف مادوث Madoz في قاموسه الجغرافى التاريخى قلعة شاطبة بالمنعة وأن أسوارها مشيدة على قمة جبل برنيسا Bernisa وبها خنادق، وثلاثون برجاً، واثنى عشرة خزاناً للمياه، بناؤها رائع، ويضيف أن عظمة هذه القلعة قد انتهت على يد فيليب الخامس، الذى أمر بتدميرها، وبقيت منها آثار تشهد بازدهارها القديم[٢].

ويمتدح خايمى الأول ملك أرغون قلعة شاطبة عندما افتتحها، ويصفها بأنها من أعظم قلاع الأندلس وأنه لا يوجد فى كل الأندلس قلعة أفضل منها[٣].

هذه بعض أقوال القدماء والمحدثين في وصف قلعة شاطبة، ويهمنا فى هذا المجال، أن نبرز الأعمال الإنشائية الموحدية التى أضيفت إلى القلعة فقد أسفرت أعمال الحفريات الأثرية على وجود بعض الأسوار والأبراج الصغيرة من الملاط الصلب، خاصة فى الواجهة الجنوبية للحصنين، حيث يصبح انحدار جبل برنيسا أشد وعورة من الجهة المواجهة للمدينة، وهذه الأسوار والأبراج هى الوحيدة التى تنسب إلى العصر الاسلامى بوجه عام وإلى عهد الموحدين بوجه خاص، ويشير اسكولانو Escolano إلى وجود لوحتين من الحجر نقشت عليها كتابات عربية، إحداها نقشت بها كتابات دينية بحتة، وأما الأخرى وهى التى تهمنا فنقرأ فيها النص التالى: «بنى هذا البرج بعون الله وقوته لسنة سبع وستمائة» [٤]. ويستفاد من هذا النص أن بناء هذا البرج يرجع إلى فترة السيطرة الموحدية على شرق الأندلس، مما يدل على أن الموحدين قد اهتموا بأعمال التحصينات الدفاعية، فى هذه المنطقة.

جـ ـ آثار برج بوفيا Bufilla

بالقرب من قرية بوفيا وعلى قمة مرتفعة ينتصب برج مربع الشكل طول ضلعه ٦م وارتفاعه ١٦م، مشيد من الطابية، وواضح فى بنائه آثار الألواح الخشبية التى كانت تعلو الواحدة الأخرى عند ملئها بالملاط، والقسم العلوى من هذا البرج قد اختفى تقريباً بالإضافة إلى الاطارات التى كانت تحيط بالفتحات وكان يطوق البرج من أدناه قاعدة من البناء مربعة أو منصة فى الجهة الشمالية، الظاهر أنها أقيمت بعد بنيان البرج بفترة ما لأنها أكثر حداثة من بنيانه، كما عثر على بقايا غير متكاملة من سورين، أما بقايا الغرف التى كانت تقع فى منطقة تبعد بنحو ١٥٠م إلى الشمال

(1) Carreres, op.cit, p. 16.
(2) Madoz, Diccionario Georgafico historico, t. IX, Madrid, 1856, p. 601.
(3) Desclot, Cronica, V. cap, XL IX, apud, Torres Balbas, Jativa y Los restos del Palacio de pinohermoso, p. 147.
(4) Escola no, Segundo parte de la decada primera de la historia de la insigne y coronada ciudad y Reyno de Valencia, apnd, Torres Balbas, op.cit., p. 153.

الغربى من البرج فقد أسفرت الحفريات التى أجريت عليها فى فترات قصيرة متلاحقة ما بين عامى ١٩٦٩، ١٩٧٢ عن كشف كثير من قطع الخزف يمتد تاريخها إلى القرن الرابع عشر الميلادى [١]. وواضح من بنيان البرج أنه لا يختلف من حيث الطابع العام والمادة المستخدمة فى البناء عن أبراج الموحدين.

د ـ بقايا برج موسى:

يقع هذا البرج عند مدخل قرية بنى فيو Benifayo مباشرة بعد تجاوز خط السكة الحديدية، وقد وصل إلينا هذا البرج فى حالة جيدة جداً ويرجع تاريخ بنائه إلى القرن ١٣م/٧هـ، ويطلق عليه أيضاً اسم برج L'Hort، وواضح أنه أقيم على أسس بنيان برج قديم، ويتكون البرج من ثلاثة طوابق، الطابق الأساسى يتخذ شكل مربع مساحته ١٠,٥٠ ×١٠,٦٠م. ويتراوح ارتفاعه ما بين ٣,٢٥ إلى ٣,٧٥م، وبناؤه من قطع الدبش غير المنتظمة مع ملاط كثيف، ويليه طابق شبه مربع مساحته ٧,٧م بارتفاع ٣,٢٠م، ومداميكه أفقية منتظمة، أما بقية بنيان البرج ضمن الطابية التقليدية وتتخللها فتحات مستطيلة الشكل يبدو أنها حديثة، وفى الوجه الشمالى الشرقى فتحة ارتفاعها ٢م واتساعها ١,٢٠م يعلوها نافذة معقودة على شكل عقد نصف دائرى، ومن الجدير بالملاحظة أن الأركان الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية فى أدنى البرج مبنية بناءً لا عناية فيه[٢].

هـ ـ آثار برج Trullars

تبقت آثار برج قد سقط معظم بنائه ولم يبق ظاهراً سوى أسسه وبعض كتل من المدماك الأسفل تقع فى الركن الأدنى، وبقايا هذا البرج تشبه بقايا برج موسى[٣].

(1) Andre Bazzane et pierre Guichard; Les tours de defense de la huerte de valence au XIII es, en Melages de la casa de velazquez, tomo XIV, Paris, 1978, p. 87-91.

(2) Anre Bazzane y Pierre Guichard, op.cit, p. 92.

(3) Ibid, p. 91.

المصادر والمراجع

(أ) المصادر المخطوطة:

١ ـ ابن الجياب (أبو طاهر محمد بن عبد العزيز بن يوسف المرادى):

كتاب التقريب والتيسير لإفادة المبتدى بصناعة مساحة السطوح، مخطوط الأسكوريال، رقم ٩٢٩.

٢ ـ ابن الشباط (قاسم بن عبد الله الأنصارى):

كتاب الشرف على أعلى شرف، فى التعريف برجال سند البخارى، من طريق الشريف أبى علي بن أبى المشرف، مخطوط الأسكوريال، رقم ١٧٣٢.

٣ ـ ابن المرابط (أبو العلاء محمد بن علي):

كتاب زواهر الفكر وجواهر الفقر، ضمن مخطوط الأسكوريال، رقم ٥٢٠.

٤ ـ مؤلف مجهول:

جغرافية الأندلس، مخطوط مصور بالمعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد، تحت رقم ٣٦، عن الأصل الموجود بالخزانة العامة بالرباط

(ب) المصادر العربية القديمة:

١ ـ أبو الفدا (عماد إسماعيل بن محمد بن عمر):

تقويم البلدان، تحقيق de Slan, Reinaud، باريس، ١٨٤٠م.

٢ ـ أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل):

كتاب المختصر فى أخبار البشر، الجزء الثالث، طبعة بيروت، ١٩٥٩م.

٣ ـ الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله): (ت: ٦٥٨هـ/١٢٦٠م):

الحلة السيراء، الجزء الثانى، نشر الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣م.

٤ ـ ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله): (ت: ٦٥٨هـ/١٢٦٠م):

التكملة لكتاب الصلة، جزءان، طبع بعناية كوديرة وزيدان، مجريط، ١٨٨٦م.

٥ ـ ابن الآبـــار: المقتضب من تحفة القادم، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧.

٦ ـ الإدريسى (أبو عبد الله محمد الشريف السبتى): (ت: حوالى ٥٤٨هـ/١١٥٤)

المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ليدن، ١٦٦٨م.

٧ ـ ابن بصال: (أبى عبد الله محمد بن إبراهيم):

كتاب الفلاحة، نشر خوسيه ماريا مييكروسا ومحمد عزيمان، معهد مولاى الحسن، تطوان، ١٩٥٥.

٨ ـ البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد):

الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبعة إدوارد شخاو، ليبزج، ١٨٧٨/١٨٧٩.

٩ ـ التيجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد): (ت: حوالى ٧١٧هـ/١٣١٧م):

رحلة التيجانى، تقديم الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، المطبعة الرستمية، تونس، ١٩٥٨.

١٠ ـ ابن الآثير (أبو الحسن علي بن أبى الكرم):

الكامل فى التاريخ، جـ١٠، جـ١١، القاهرة، ١٢٩٠هـ.

١١ ـ ابن جبير (محمد بن أحمد الأندلسى): (ت: ٦١٤هـ/١٢١٧م)

رحلة ابن جبير، تحقيق د. حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٧.

١٢ ـ ابن حزم (أبو محمد علي بن سعيد):

جمهرة أنساب العرب، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال، دار المعارف بمصر، ١٩٤٨.

١٣ ـ ابن حزم:

الفصل فى الملل والأهواء والنحل، جـ٤، القاهرة، ١٣٢١هـ.

١٤ ـ أبى الحسن علي بن يوسف الحكيم:

الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، مطبعة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد، ١٩٦٠.

١٥ ـ الحميرى (أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم):

صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧.
١٦ ـ ابن حوقل: (أبو القاسم محمد بن علي البغدادي النصيبي):
صورة الأرض، تحقيق كرامرز، ١٩٣٨.
١٧ ـ ابن حيان (أبو مروان): (ت: ٤٦٩هـ/١٠٧٩م)
المقتبس، الجزء الخامس، نشر الأستاذ بدور شالميتا وآخرون، مدريد، ١٩٧٩.
١٨ ـ ابن خرداذبة (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله): ت: ٣٠٠هـ/٩١٣م
المسالك والممالك، مكتبة الشمني ببغداد، مصور عن طبعة بريل، ١٨٨٩.
١٩ ـ ابن الخطيب (لسان الدين): (ت: ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)
الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، المجلد الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٣.
الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الثاني، القاهرة، ١٩٧٤.
الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٧٥.
تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، والأستاذ إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، ١٩٦٤.
رقم الحلل في نظم الدول، تونس، ١٣١٧هـ.
اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق الأستاذ محيي الدين الخطيب، القاهرة ١٣٤٧هـ.
اعمال الاعلام، الجزء الخاص بتاريخ اسبانيا، نشر ليفي بروفنسال، بيروت، ١٨٥٦.
٢٤ ـ ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد): ت: ٨٠٨هـ/١٤٠٥م
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد الأول والرابع والسادس، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٩.
اعمال الاعلام، الجزء الخاص بتاريخ اسبانيا، نشر ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦.
٢٥ ـ ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد): ت: ٦٨١هـ/١٣٨٢م:

وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، جـ٤، ط١، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م.

٢٦ـ ابن أبى دحيه (أبو الخطاب السبتى) : (ت : ٦٣٣هـ/١٢٣٥م)

المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق الأستاذ إبراهيم الإبيارى وآخرون، القاهرة، ١٩٥٤.

٢٧ ـ ابن أبى زرع: (أبو الحسن علي بن عبد الله):

الأنيس المطرب بروض القرطاس، تحقيق كارل ، تورنبرج، أبساله، ١٨٤٣.

٢٨ ـ ابن أبى زرع: الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية، الرباط، ١٩٧٢.

٢٩ ـ الزركشى (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم):

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق الأستاذ محمد ماضور، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٦٦.

٣٠ ـ ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى):

رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق الدكتور النعمان عبد المتعال القاضى، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

٣١ ـ : اختصار القدح المعلى فى التاريخ الحلى، تحقيق الأستاذ إبراهيم الإبيارى، القاهرة، ١٩٥٩م.

٣٢ ـ : المعرب فى حلى المعزب، جـ٢، تحقيق الدكتور شوقى ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣.

٣٣ ـ السقطى (أبو عبد الله محمد بن أبى محمد):

كتاب في آداب الحسبة، نشر جورج كولان، وليفى بروفنسال، باريس، ١٩٣١.

٣٤ ـ السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى):

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ٢، الدار البيضاء، ١٩٥٤.

٣٥ ـ ابن صاحب الصلاة (عبد الله): كان حياً سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م:

تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، السفر الثانى، دار الأندلس، الطبعة الأولى، ١٩٦٤.

٣٦ ـ الصنهاجي (أبو بكر) المكنى بالبيذق : (ق ٦هـ/١٢م) :
كتاب أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال، باريس ١٩٢٨ .
٣٧ ـ الضبى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) :
بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق كوديرا وزيدان، مجريط، ١٨٨٤ .
٣٨ ـ الطرطوشي (أبو بكر محمد) : (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م) :
كتاب الحوادث والبدع ، تحقيق محمد الطالبى، تونس، ١٩٥٩.
٣٩ ـ ابن عبد الحكم (عبد الرحمن) :
فتوح أفريقية والأندلس، نشر ألبرت جاتو، الجزائر، ١٩٤٧ .
٤٠ ـ ابن عبد الملك المراكشي (أبو عبد الله محمد) : (ت : ٧٠٣هـ/١٣٠٤م)
الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة،
ـ السفر الأول، القسم الأول، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، دار الثقافة ، بيروت.
ـ السفر الأول، القسم الثانى، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، دار الثقافة ، بيروت.
ـ بقية السفر الرابع، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت.
ـ السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت.
ـ السفر الخامس، القسم الثانى، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت.
٤١ ـ ابن عذارى (أبو العباس أحمد بن محمد) : (كان حياً ٧١٢هـ/١٣١٢م)
البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الثالث، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال، بيروت.
البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، قطعة خاصة بالمرابطين، بيروت.

البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، القسم الرابع، تحقيق الأستاذ أويثى ميراندا وآخرون، تطوان، بيروت.

٤٢ ـ العذرى (أحمد بن عمر بن أنس): (: ٤٧٨هـ/٩٨٨م):

نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان فى غرائب البلدان والممالك إلى جميع الممالك، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٦٥م.

٤٣ ـ العسفى (أبو العباس وأبو القاسم):

كتاب الدر المنظوم فى مولد النبى المعظم، نشر الأستاذ فرناندو لاجرنخا، مجلة الأندلس، العدد ٣٤، ١٩٦٩.

٤٤ـ القاضى عياض بن موسى بن عياض السبتى:

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، نشر الأستاذ أحمد باكير محمود، المجلد الثانى، (مجلدين فى أربعة أجزاء)، بيروت (بدون تاريخ).

٤٥ ـ ابن غالب (محمد بن أيوب):

نص أندلسى جديد، قطعة من كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٥٦.

٤٦ ـ الغبرينى (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله): (ت : ٧١٤هـ/١٣١٥م)

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية، طبع بعناية الأستاذ محمد بن أبى شنب، الطبعة الأولى، الجزائر، ١٣٢٧هـ/١٩١٠م.

٤٧ ـ ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن علي اليعمرى): (ت : ٧٩٩هـ/١٣٩٦م)

الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، القاهرة، ١٣٢٩هـ.

٤٨ ـ ابن القاضى (أحمد بن محمد): (ت : ١٢٠٥هـ/١٦١٦م)

جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء مدينة فاس، فاس، ١٣٠٩هـ.

٤٩ ـ القزوينى:
آثار العباد، تحقيق وستنفلد، جوتنجن، ١٨٤٧

٥٠ ـ ابن القطان (أبو الحسن علي بن محمد الكتامى الفاسى): ت :٦٢٨هـ/١٢٣٠م
نظم الجمان فى أخبار الزمان، تحقيق الدكتور محمود على مكى، الرباط، ١٩٦٤.

٥١ ـ القلقشندى (أبو العباس أحمد) : ت : ٨٢١هـ/١٤١٨م
صبح الأعشى، جـ٦، جـ٧، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م.

٥٢ ـ ابن القوطية (أبو بكر محمد القرطبى):
تاريخ افتتاح الأندلس، نشره خوليان ريبيرا بعنوان: Historia de la conquista Espana مدريد، ١٩٢٦.

٥٣ ـ ابن الكرديوس:
تاريخ الأندلس، نص ، نشره الدكتور أحمد مختار العبادى، مدريد، ١٩٧١.

٥٤ ـ مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة الموحدية، إصدار الأستاذ ليفى بروفنسال، رباط الفتح، ١٩٤١.

٥٥ ـ المراكشى (عبد الواحد):
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، الطبعة الأولى، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى، المكتبة التجارية، مصر ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

٥٦ ـ المقرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد):
نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، عشرة أجزاء، تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، ١٩٤٩.

٥٧ ـ ________ : أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض، ثلاثة أجزاء، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.

٥٨ ـ مؤلف مجهول:

الحلل الموشية، تونس، ١٩١١.

٥٩ ـ مؤلف مجهول:

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، نشر دون لافونتى القنطرة، مدريد، ١٨٦٧.

٦٠ ـ مؤلف مجهول :

كتاب الطبيخ فى المغرب والأندلس فى عصر الموحدين، تحقيق الأستاذ امبروزو أويثى ميراندا، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٦٥.

٦١ ـ ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله):

معجم البلدان، الطبعة الأولى، المجلد الخامس، القاهرة، ١٣٢٣هـ/١٩٠٦م.

٦٢ ـ ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله):

معجم الأدباء، الجزء الثانى، القاهرة، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

جـ ـ المراجع الحديثة والمعربة:

٦٣ ـ إحسان عباس (دكتور):

تاريخ الأدب الأندلسى، (عصر سيادة قرطبة)، بيروت، ١٩٦٠.

٦٤ ـ أحمد مختار العبادى (دكتور):

دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس، الطبعة الأولى، الاسكندرية، ١٩٦٨.

٦٥ ـ ــــــــــ : الموحدون والوحدة الإسلامية، مقال فى مجلة التربية الوطنية المغربية، العددان ١، ٢، مارس ـ أبريل، ١٩٦٢.

٦٦ ـ ــــــــــ : الصقالبة فى أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية، مدريد، ١٩٥٣.

٦٧ ـ ارشيبالد لويس:

القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط، ترجمة الأستاذ أحمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠.

٦٨ ـ السيد عبد العزيز سالم (دكتور):

قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس، الجزء الثانى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢.

تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، دار المعـارف، لبنان، ١٩٦٢.

المغرب الكبير، المؤسسة العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٦٨.

تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى، الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٦١.

تاريخ مدينة المريه الإسلامية، قاعدة أسطول الأندلس، الطبعة الاولى، ، بيروت، ١٩٦٩.

صور من المجتمع الأندلسى فى عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة فى علب العاج، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، المجلد التاسع عشر، ١٩٧٦-١٩٧٨.

مدينة مرسيه، موطن الشيخ الزاهد العارف بالله القطب الأكبر أبو العباس المرسى، فصله من مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية، ١٩٦٩.

الجزائر الشرقية، دائرة معارف الشعب، العدد ٦١.

٧٦ ـ السيد عبد العزيز سالم (دكتور) والعبادى (دكتور أحمد مختار):

تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس، بيروت، لبنان، ١٩٦٩.

٧٧ ـ أنستاس مارى الكرملى البغدادى:

النقود العربية وعلم النميات، القاهرة، ١٩٣٩.

٧٨ ـ جنثالث بالنثيا (آنخل):

تاريخ الفكر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥.

٧٩ ـ جواد علي:

تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الثامن، مطبعة المجمع العلمى العراقى، ١٩٦٠.

٨٠ ـ جودت الركابي (دكتور):

في الأدب الأندلسي، دمشق، ١٩٥٥

٨١ ـ حسن إبراهيم حسن (دكتور):

تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الجزء الثاني، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨.

٨٢ ـ حسن أحمد محمود (دكتور):

قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.

٨٣ ـ حسن حسني عبد الوهاب:

ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية ، قسم ٢، تونس، ١٩٦٦.

٨٤ ـ حسين مؤنس (دكتور):

فجر الأندلس، القاهرة، ١٩٥٩

تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٦٧.

أربع وثائق جديدة في مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة، المجلد الحادي عشر، الجزء الثاني، ديسمبر ، ١٩٤٩.

٨٥ ـ حكمة علي الأوسي (دكتور):

الأدب الأندلسي في عصر الموحدين مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٥.

٨٦ ـ سعد زغلول عبد الحميد (دكتور):

محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب، والأندلس، محاضرة ألقيت بجامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٧٣.

٨٧ـ عبد الرحمن علي الحجي (دكتور):

تاريخ الموسيقى الأندلسية ، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩.

٨٨ ـ عبد الرحمن فهمي محمد:

صنع السكة في الاسلام، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٧.

٨٩ ـ عبد العزيز الأهوانى (دكتور):

ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٥٧.

الزجل فى الأندلس، القاهرة، ١٩٥٧.

٩٠ ـ عبد العزيز عبد المجيد (دكتور):

ابن الآبار، حياته وكتبه، الرباط، ١٩٥١.

٩١ ـ عبد الهادى التازى (دكتور):

مهدية المولى إسماعيل، مجلة المغرب، مايو ١٩٦٣.

٩٢ ـ عثمان الكعاك:

الحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط، مجموعة محاضرات ألقيت بمعهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٥.

٩٣ ـ عمر رضا كحالة:

معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، الجزء الأول، المكتبة الهاشمية، دمشق ١٩٤٩.

٩٤ ـ غرسيا غوميث:

الشعر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٦.

٩٥ ـ فارمر (هنرى جورج):

تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة الدكتور حسين نصار، مراجعة الدكتور عبد العزيز الأهوانى، القاهرة.

٩٩ ـ لطفى عبد البديع:

الاسلام فى أسبانيا، العدد الثانى من سلسلة المكتبة التاريخية، القاهرة، ١٩٥٨.

١٠٠ ـ ليفى بروفنسال:

الاسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى، القاهرة، ١٩٥٨.

١٠١ ـ مانويل جوميث مورينو:
الفن الاسلامى فى أسبانيا، ترجمة الدكتور لطفى عبد البديع والدكتور السيد عبد العزيز سالم، مراجعة الدكتور جمال محرز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧.

١٠٢ ـ محمد المنونى:
العلوم والآداب والفنون فى عهد الموحدين، معهد مولاى الحسن، تطوان، ١٩٥٠.

١٠٣ ـ محمد بن شريفة (دكتور):
أبو المطرف بن عميرة المخزومى، حياته وآثاره، الرباط، ١٣٨٥هـ.

١٠٤ ـ محمد عبد الله عنان :
عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس، القسم الأول، القاهرة، ١٩٦٤.
الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦١.

١٠٥ ـ مصطفى الشكعة (دكتور):
الأدب الأندلسى، موضوعاته ومقاصده، بيروت، ١٩٧٢.

١٠٧ ـ ناصر السيد محمود النقشبندى:
الدينار الاسلامى فى المتحف العراقى، الجزء الأول، بغداد، ١٩٥٣.

١٠٨ ـ يوسف أشباخ:
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، الطبعة الثانية، ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٥٨.

د ـ المراجع الأجنبية:

1. Abdel Aziz Salem (Dr. Elsayed): Algunos Aspectos del Florecimiento Economico de Almeria Islamica Durante el Periodo de los Taifas y de los Almoravides, Madrid, 1979.

2. Aguado Bleye, Manual de Historia de Espana, t. I, Madrid, 1947.

3. Alfred Bel, Les Banou Ghania, Paris, 1903.

4. Alvaro campaner y Fuertes, Bosquejo histôrico de la dominacion islamita en las islas Baleares.

5. Andre Bazzane et Pierre Guichard, Les tours de defense de la huerta de Valence au XIII es, en Melanges de la casa de Velazquez, Tome X IV, Paris, 1978.

6. Anotonio Vives y Escudero: Monedas de las dinatias Arabigo-Espanales, Madrid, 1893.

7. Bermejo (Joaquin Vallve): Notas de metrologica Hispano - arabe, El code en la Esapana Musulmana, Al - Andalus XLI, 1976.

8. : Notas de Metrologia Hispano arabe, Medidas de capacidad, Al-Andalus, XLII, 1977.

9. Calvo y C. M. del Rivero, Catalogo sumario del museo arqueologico nacional, Madrid, 1926.

10. Camarena (Miguel Gual), Precendentes de la Reconquista Valenciona, Valencia, 1953.

11. Camarena (Miguel Gual): Precendentes de la reconquista Valenciana, Valencia, 1953.

12. Carlos Sarthou Carreres, El Castillo de Jativa y sus historicos prisioneros, tercera édic, valencia, 1951.

13. Casto Mª del Rivero: La Moneda Arabigo - Espanola, Madrid, 1933.

14. Chronica Adefonsi Imperatoris de la édicion Luis Sanchez Belda, Madrid, 1950.

15. Codera (Francisco): Decadencia y desaprcion de los Almoravides en Espana, Zaragoza, 1899.

16. Codera y Zaidin (Francisco): Titules y nombres Propios en las

monedas Arabigo - Espanalas, Madrid, 1878.

17. Daydi (Oliver): La Vajilla de Madera y la Ceramica de uso en Valencia y en Cataluna Durante el siglo XIV, Valencia, 1950.

18. Dozy (R), Recherches sur l'histoire et la litteratura de l'Espagne, t. I, 3ed, Amesterdam, 1865.

19. : Supplement aux dicctionaires arabes t. II, Leiden, Paris, 1877.

20. : Diccionnaire Detaille de noms de vetement chez les arabes, Amesterdam, 1845.

21. Eguliaz y Ganguas (Leopoldo), Glosario etimologico de los palabras espanoles de origin oriental, Granada, 1886.

22. Fernandez y Gonzalez, Estado Soical y politico des los mudejares de castilla, Madrid, 1866.

23. Felip Mateu y LLopis: Hallazgos numasmaticos musulman (IV), Al-Andalus, Fasc I, 1951.

24. Fernando de la Granja, Fiestas cristianas, en Al-Andalus, Vol. XXXIV, Fasc I, 1969.

25. Floch -i- torres (Joaquin): Noticia Sobre la ceramica de paterna, Barcelona, 1921.

26. Garcia Gomez (Emilio): Sobre Agricultura Arabigo-Andaluza, Vol, X, Fasc , I, 1945.

27. Gaspar Remiro (M), Historia de Murcia musulmana, Zaragoza, Historia de Espana y Africa, por En-Nuguairi, texto arabe y traduccion castellana segun un ms de la R.A. de la Historia, cotijedo con otros textos, en (Revista del centro de estudios Historicos de Granada y su Reino, t. VIII, 1918.

28. Gestos y Perés (José), Historia de los barrios vidriados sevillanos.

29. Gomez Moreno (M), Arte arabe Espanol hasta los Almohades.

30. Gonzalez (J), Las conquistas de Ferrando III en Andalusia, Madrid, 1946.

31. Guichard (Pierre): Al-Andalus estructura antropologica de una sociedad islamica en Occidente, Barcelona, 1976.

31. Henri Basset & Henri Terrasse, Sanctuaires et forteresses Almohades, collection, Hesperis, 1932.

32. Heyd (W): Histoire de commerce du Levant au moyen-Age, t.I, Amesterdam, 1959.

33. Huici Miranda (A): Historia de Valencia y su region, tomo, I, III, Valencia, 1969.

34. : Hisotoria Politica del Imperio Almohade, 2 tomos, Tetuan, 1956.

35. Ibars (Andrés Piles), Valencia Aràbe, Tomo I, Valencia, 1901.

36. Isidero Pscense , Espane Sagrada, Tomo XIII.

37. Lane Poole (S), The moors in Spain , with collobaration of Arthur Gilman, 4th ed. London, 1890.

38. Lévi - Provençal, Le traité d'Ibn 'Abdun, en Journal Asiatique, t. CC XXIV, Avril, Juin, 1934.

39. : Espana Musulman, en Historia de Espana, dirigida por Ramon Menendez Pidal , Tercera ediciton, Espasa Jalpe, 1973.

40. : Histoire de l'Espagne musulmane, tomo I, Paris, 1950.

41. : Inscriptions arabes D'Espagne, Tomo I, Paris, Leyde, 1931.

42. : La toma de Valencia porel , Al-Andelus, 1948, Fasc I.

43. :La Descripcion de L'Espagne D'Ahmad Al-Razi, en

Al-Andalus, Vol. XVIII, Fasc I, 1953.

44. Lopéz (Emilio Morena): Murcia y el Levante Espanol en el Siglo XIII (1224-1266) a traves de la correspondencia oficial, personal, diplomatioa Universidad de Granda, 1978.

45. Millas (Jose Mª): Un manuscrito arabe de la obra de agricultura de Ibn Wafid, Tamuda 2, 1942.

46. Millet (Rene): Los Almohades , Paris, 1923.

47. Madoz (Pascual): Diccionario Geografico, Estadistico historico de Espana, Segunda edicion, Madrid, 1846.

48. Marçais (Georges), L'Architectura musulmana D'occident, Paris, 1924.

49. Moldonado (Basilio Pavion), El castillo de Olocau de valencia, en Al-Andalus, Vol. XLII, Fasc I, Madrid - Granada, 1977.

50. Nicholson (Reynold, A), A Literary history of the arabes, Cambridge, 1953.

51. Primera Cronica General de Espana, Tomo 2, publicada por Ramon Menédez Pidal, editorial Gredos, 1955.

52. Pérés (Henri), La poésie à Fes sous les Almoravides et les Almohades, en Hespéris, t. XVIII, 1934, Fasc I.

53. Pérés (Henri), La poésie andalouse en arabe classique au XI e siecle, Paris, 1953.

54. Quadrado, Historia de la conquista de Mallorca, Palma, 1850.

59. Rodrigo Pertegàs (José), La urba vlenciana en el siglo XIV (III Congreso de historia de la corona de Aragon, Memorias I, Valencia, 1923.

55. Simonte (Francisco Javier), Historia de los mozàrabes, Madrid, 1896.

56. Torres (M), Espana Romana, en Historia de Espana, dirigida por Roman Menedez Pidal, t. II, Espasa Calpe, 1935.

57. Torres Balbas (L.), Jativa y los restos del palacio de Pinohermosa, Al-Andalus, Vol. XXIII, Fasc I, 1928.

58. Torres Balbas (L.),A tarazanas hispano - Almohades, en Al-Andalus, Fasc I, 1946.

59. ; El bano musulmàn de Murcia y sus conservacion, Al-Andalus, Fasc 2 , 1952.

60. ; Almeria Islamica, en, Al-Andalus, Vol. XXII, 1957.

61. Torres Fontes (Juan), El-obispado de Cartagena en el siglo XIII, 1953.

62. Ximénez de Rada, Opera Historia Arabum, en «Textos medivales», 22,Valencia, 1968.

63. Zurita, Anales de la Corona de Aragon, anotados por A. Ubieto y Ballesteros, Libro I, II.

64. Diccionario de la Lengua Espanola, Real Academia Espanola, Madrid, 1970.

65. Encyclopédie de L'islam, Nouvelle edition, (2edicion) Tomo II, III, 1968.

66. Enciclopedia de la cultura Espanola, Tomo, V. Madrid, 1963.

الملاحــــــق

الملحـــق الأول

رسالة من الفقيه أبى بكر عزيز بن خطاب الى الخطيب أبى عبد الله ابن قاسم، يشير عليه فيها بأن يحدث الرئيـــس أبا جميل زيان ابن مردنيش للدخول فى طاعة أمير المسلمين أبى عبد الله محمد بن يوسف بن هود [1]

لوحة ١٦٧ب : وللفقيه الأجل العالم الحسيب المرفع الأكمل أبى بكر عزيز ابن خطاب رحمه الله تعالى هذه الرسالة، وكان قد كتب بها الى الخطيب الفاضل أبى عبد الله بن قاسم رحمه الله تعالى، يشير عليه فيها بأن يحدث الرئيس الأجل المعظم أبا جميل زيان بن الرئيس الأجل المجاهد المرحوم أبى الحملات مدافع ابن الرئيس الأجل المكرم أبى الحجاج بن سعد، للدخول فى طاعة أمير المسلمين أبى عبد الله محمد بن يوسف بن هود رحمه الله تعالى وذلك قبل تحرك أمير المسلمين الى بلنسيه أعادها الله تعالى للاسلام، ونسختها من الكتاب الذى كان الفقيه الأجل أبو بكر عزيز المذكور رحمه الله .

لوحة ١٦٨أ : تعالى قد وجه به إلى الفقيه أى عبد الله قاسم المذكور وكان بخط يده وهى هذه:

سلام كريم عليك أيها الفقيه المعظم الخطب الزاهد للبر، الورع، التقى، الفاضل المقدم، الحبيب فى الله عزّ وجلّ، المكرم أبو عبد الله بن قاسم ورحمه الله تعالى وبركاته، كتب إليك أخوك فى الله تعالى العارف بحقك، المعترف بفضلك، المحب فيك، الناصح لك، عزيز بن خطاب، مستفتحاً الخطاب، مستميحاً للجواب، مستجنحاً للصواب، يقول مذكراً بآيات الله تعالى: ﴿ وإذ أخذَ اللهُ ميثاقَ الذين أوتوا الكتابَ لتبيّننّه للنّاسِ ولا تكتمونه ﴾ [2] ، ﴿ إنّ الّذينَ يكتمونَ ما أنزلْنا منَ البيّنَاتِ والهدى... ﴾ [3] الآية، ثم قد علِمتم ما فى إصلاح ذات البين من الأجر، وإنه من الفرائض التى يأثم الجميع

(١) قطعة من مخطوط الأسكوريال، زواهر الفكر وجواهر الفقر، لابن المرابط، رقم ٥٢٠.

(٢) قرآن كريم، سورة آل عمران، آية : ١٨٧.

(٣) قرآن كريم، سورة البقرة، آية : ١٥٩.

بحلومهم عن قايم حده وأعمه أعظمه أجراً، وأتمه، وعلمتم ما فى الأمر بالمعروف وما تجشم الصالحون فيه، وعلمتم أن المدن المتجاورة المتشاركة فى الدين التى لا تستقل كل واحدة منها بنفسها فى معاشها أو دفاع عدوها الذى يروم الاستيلاء على أهلها واستيصال دينهم الحق، واجب عليها أن تتناصر وتتعاهد على دفاع ذلك العدو ويأمن بعضها من بعض وتنبت بينهما أسباب التواد والتناصر، ويكونوا كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»، وكما قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، كما يجب ذلك فى المدينة الواحدة بين المنازل وهذا كله بيّن لا يخفى أنه فرض فى ديننا الذى رضيه لنا ربنا جل وعزّ وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾[1] ، وبقوله تعالى: ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكُم ﴾[2] ، وبين محكوم أن ذلك لا يكون إلا بالاتفاق على مدبر واحد يمكن منه الاطلاع على أحوال جميعها تبعاً (...) مدبر كل واحدة منها، ويقبل منه المصالح المشتركة وينهى إليه ما يخص القوم الذى... بين يديه إذ ذلك تأتلف نفوس

لوحة ١٦٨ب : الجميع وتكون كل واحدة منها على ثقة من أن المصلحة التى لها في الأخرى يصل إليها فتسمح هى بالمصلحة التى للأخرى فيها الآن نسبها إلى مدبر واحد نسب متكافية فهو يعنى بها عناية متساوية فيحسن النظام ويقع التعاضد على ثقة من الناصف فإنه إن لم يتفق مدبروها إلى مدبر واحد يمكن منه ما ذكر اختل نظامها الذى به تتعاضد، وأقر كل واحد منهم مصلحته الخاصة على المصلحة التى للآخر ولم يثق أهل مدينة منهم أهل مدينة أخرى فى أن يستأثروا عنهم بما يخصهم، ولم يركنوا إلى مدبر يصرفهم لتتساوى عنياته بهم، وهكذا يكونون عند السالم توقعاً فكيف عند ظهور استيثار أو تغالب أو تجاذب على بعض الأطراف ويوجب هذا ولابد وهنا فى جميعها وتهيئوا لاستيلاء عدوها عليها أن كانت متكافية وكان الخلاف بين كل واحدة وكل واحدة منها، أو هى

(١) سورة آل عمران، آية ١٠٣.

(٢) سورة الأنفال، آية : ٤٦.

المفردة منها إن كان أكثرها منتظماً مقاوماً للعدو ويجب على الصالحين من أهل الدين والرضا أن يسعوا فى نظامها ويدعوا إليه ويوكدوا على المنفردة عن الأكثر أن ترجع عن انفرادها لغير سبب دينى ولا عدل مدنى، ويغطوا المدبر والرؤساء فى اتباع الهدى العايد عليهم بالخسر المؤدى إن داموا عليه إلى إثبات دياستهم رأساً وانقطاع كلمة الدين عن مدينتهم على يدى عدو دينهم، فإن أجاب الرؤساء والمدبر إلى ذلك وجب على حملة الدين وعلمائه أن يسعوا إلى إعلاء مراتب ذلك المدبر وأولئك الرؤساء ويبثوا بينهم وبين المدبر الذى انقادوا إليه أسباب المودة ويوكدوا عليه استخلاصهم وتمكينهم إذا صلح الله تعالى أهل الدين ونظم شملهم على أيديهم ويشددوا الثقة بهم إذا ترووا الصواب على ما كان بأيديهم طوعاً لله تعالى وإنصافاً من أنفسهم فإن لم يجيبوا إلى ذلك أوجب كتاب الله تعالى والنظر الصحيح على أهل المدن المنتظمة محاربتهم

لوحة ١٦٩أ : بعد الإعذار إليهم، والموعظة لهم حتى يرجعوا إلى الانتظام معهم والتعاهد على عدوهم، وكانت محاربتهم عند الظهور (البغى) عندهم ومفارقتهم الأكثر، وجعلهم لعدو الدين سبيلا إلى أنفسهم وحريمهم، قال الله تعالى: ﴿ فقاتلوا التى تبغى حتى تفيءَ إلى أمرِ الله ﴾ [(١)] ، وأنتم من يصاب منهم من المستضعفين ومن لا يعلم من الصالحين على المدبر المنفرد وحجة الله تعالى عليهم للآتى للذين يصيبهم: ﴿ ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها ﴾ [(٢)] ، ﴿ ما فرَّطنا فى الكتاب من شيءٍ ﴾ [(٣)] ﴿ وما كان ربُّكَ نَسيّاً ﴾ [(٤)] . هذا كلّه بينٌ لا يَنكر ذو دين صحته قرآناً، وسنّة، وإجماعاً، ونظراً،ولا تخفى عليكم حال الأندلس الآن وحال بلنسية منها وبأى أصل من هذه الأصول تلحق، وأى الثغور الواسعة إليها قد ضعفت وشارفت استيلاء العدو عليها وكثير منها قد استشعر ذلك فانتظم مع الأكثر ثقة بأنه الصواب وبقى على أن أعلمكم بأن البلاد

(١) سورة الحجرات، آية : ٨.

(٢) سورة النساء، آية : ٩٧.

(٣) سورة الأنعام، آية : ٣٨.

(٤) سورة مريم، آية : ٦٤.

المصاقبة لكم التي انتظمت مع هذه البلاد تأكد الرغبة على أمير المسلمين أيده الله تعالى في النهوض إليها ويقرر أنها قد أحقدت بلنسية فلا تأمن عاديتها ولا تتهدف معها ارجاؤها، ويقولون إنما لحقنا بالأكثرين لنصر على عدو الدين فإن أسلمنا إلى ما نخاف من الأقلين كان ذلك أشد لنكايتنا وأبعد من حمياتنا، وأمير المسلمين أيده الله تعالى يرى أنه لا يسعه تركهم ولا تسوغ له إضاعتهم ويكره أن يطأ في أثنا أهل بلنسية رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات فيصيبهم معرة بغير علم فيتوددوا ويرجعوا إلى الدعاء والضراعة إلى الله تعالى في رفع العين وجمع الكلمة ويبكي بحضرتي... رأفة بالمؤمنين وإشفاقاً على ضعفاء المسلمين ويقول كيف الخلاص قبل إسلام قوم تقوم لهم علينا الحجة ووطئ قوم قبل أن تتم عليهم الحجة على أنه قد استغنى من قبله ما قوى بالنهوض إليهم إلا من شاء الله... توفيقه فأفتاه، بالرفق بهم والأناة فيهم والموعظة لهم، معذرة للرد عليهم ولعلهم فإن استمروا على الفرقة فأجلوهم أن تتفق الفتوى على حربهم ويجتمع المسلمون على سقوط حرمتهم أعاذنا الله تعالى من التمادى على الفرقة وعصمنا من الاختلاف ودعاني إلى الدخول في هذا الشأن الذى لم يكن من شئوني إذا ما تعين عليّ من السعي في إصلاح ذات البين وحذار الاثم في الكف عنه إذا لم أر من يتحرك إليه ويقوم به مع أنه فرض على الجميع، وأنا أدعوك إلى الله تعالى في أن تعينني في ذلك وتلقى الموعظة عني وعنك إلى الرئيس أبي جميل وتذكره بالله تعالى وبآيات الله، وبأن الدنيا لا تساوى عند الله تعالى جناح بعوضة ولأن يهدى الله تعالى به رجلا واحداً خير له مما طلعت عليه الشمس وتقوى ما جعل الله تعالى في قلبه وجبله عليه من اختيار الخير واتباع معالم الدين، وتضعيف كيد الشيطان بما يريد أن يوقعه من العداوة بين المؤمنين وتذكره ندامة أبي بكر رضى الله تعالى عنه إذ حضرته الوفاة فقال وندمت على أن لم أقذف بالأمر في عنق أحد الرجلين فيكون أميراً وأكون وزيراً و ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [1] ، قضى الله أن يؤتيه المثغبة العظمى التي كان رسول الله ﷺ

١) سورة الشورى، آية : ٢٠.

يبشر بها الحسن رضى الله تعالى عنه ويفضله من أجلها، ويقول له ابنى هذا سيد ويصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، وتعلمه أن نفوس صلحاء الأندلس تجتمع على محبته إذا دخل فيما دخلوا فيه ويقر له جميعهم بفضل الانقياد إلى الحق وتنطلق ألسنتهم بالدعاء له، وينشر الملأ الكبير فضائله ثم لا يفوته من الملك إلا كدره ويشرب صفوه، ويأخذ عقده (عفوه)، ممتعاً به هنياً ورمح إلى ذلك (فارة الأيدى) وينال عند الله تعالى ومن مودة أمير المسلمين وإخائه كل ما يرجى وما أربح صفقة من أتاه الله تعالى الدنيا فاشترى بها

لوحة ١٧٠أ : الآخرة فاعتاض / من نايل حقير قليل دائماً كبيراً كثيراً، أين من تراحم... رادتهم فى مقامه، أين من تتبع الحسن بن علي رضى الله تعالى عنه فى مأثرته، هل فى الأمراء من يفاخرهما، أو فى المسلمين بعدهما من لا يرى تقديمها والتوسل إلى الله تعالى بهما، أما يقنع الرشيد السعيد أن يكون لهما ثالثاً تالياً وإلى على درجتهما راقياً.

أين المتنازعون على الممالك، أين السالكون من ظلمة الدنيا فى شتى المسالك، هل ترى لهم من باقية، هل وقبهم من الموت واقية، هل بقى لهم من ملكهم ما بقى للحسن وابن (أدهم) من أهلهما)، أين الذين قالوا لمن أتاه الملك نحن أحق بالملك منك، أين الذين قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله فصدوا عنه، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً، ما أعلم من يسمعنى بما صاروا إليه، ما أقل ما تنفعهم الندامة فى ما ندموا عليه حين رأووا ما قدموا إليه، ورسول الله ﷺ يأخذ بحجزنا عن النار ونحن نتعاقب عليها تعاقب الفراش، يقول لنا لا تطلبوا الإمارة ولا تتخذوا الدنيا دار عمارة، ونحن لا نستقر من أجل طلبها على فوائده ما أغوانا إن لم نقبل نصيحته، ما أقل... إن لم نسلك طريقه، والله إنى لأنصح الناس للرئيس أبى جميل، وأولهم له على كل جميل، وأسعاهم فى أن ينال فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة، وأنت فكذلك يوجب عليك الدين فتعال نتعاون على نصيحته فقد جعله الله تعالى ممن يحب أهل الصلاح والدين ويأخذ فى أموره أخذ المهتدين... فى

توصيل الموعظة إليه، وأعرض نصيحتي عليه فعسى الله تعالى أن ينظم شمل المسلمين على يديه وقد أديت ما لله تعالى على من النصيحة والتنبيه على غفلة وبما عرضت ولم يبق مع (الأصول) التى قدمت موضع أشكال، وقد تبين الرشد من الغيّ، والعدل من البغى، فادعى يا أخى أنت ما عليك كما يقتضيه الحق منك ولا تأخذك فى الله تعالى لومة لايم والله تعالى... على... إن عجزت عنه عملا، فأنا منتظر جوابك بما ترى، قال الله تعالى

لوحة ١٧٠ب : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذينَ آمنوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسطِ شُهداءَ لِلَّهِ ولَوْ على أنفسكُم أوِ الوالدين والأقربين ﴾ (١) .

جعلنا الله تعالى ممن قال الحق وأطاع الله سراً وجهراً، وجعل لنا الدنيا طريقاً إلى السعادة فى الأخرى وهدانا من مرضاته إلى الأحق والأحرى عنه، والسلام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته.

(١) سورة النساء، آية : ١٣٥.

الملحق الثاني

رسالة بقلم الفقيه أبي عبد الله بن الجنان من مجاهد الدين سيف أمير المؤمنين عبد الله المتوكل عليه أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود بمبايعة ابنه أبا بكر الملقب بالواثق بولاية عهده، لأهل شاطبة وبيران ودانية[1]

لوحة ١٧٢ب : وللفقيه الأجل أبي عبد الله بن الجنان أعزه الله تعالى وهو تقديم الفقيه الأجل الحسيب العارف أبي الحسين ابن الوزير الفقيه أبي جعفر بن عيسى رحمه الله تعالى بشاطبة أعادها الله تعالى.

ومن مجاهد الدين سيف أمير المؤمنين عبد الله المتوكل عليه أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود أيده الله تعالى بنصر من عنده وأمده بتوفيقه في كل محاول قد شده، وتكفل بإعزاز أمره وإنجاز وعده إلى أوليائنا الذين صدقت نياتهم، واتسقت مزياتهم، وأصفيائنا الذين خلصت طوياتهم وتخصصت بالوفاء المحض سجياتهم، أولي السوابق المقدمة والخلايق المفكهة والطرايق المتصفة بالمحاسن المتممة، الفقهاء والوزراء والقواد والأعيان الجلة الحسباء المكرمين الأكملين الفضلاء الصدون العلية المتبرزين والوجوه المؤثرين والنبهاء المتميزن بكرم المذاهب، والإنجاد المحرزين غاية السبق في المتابعة والولاء، المبرزين في حلبة الصادقين النصحاء والكافة المتعمدين بالاهتمام والاعتناء، المعتمدين بجميل المقاصد فيهم والآراء بشاطبة وجهاتها وفجاجها، وما انضاف إليها وانتظم معها من جهة بيران ودانية كلأ الله جميعها بحفظه ووقايته وشملهم بكرامته ورعايته وأنالهم من إسعاده أسنى نهاية، وعرفهم الخير في كمال كل أمر وبدايته واطلع عليهم اليمن مع من اختير لتقلد أمرهم، وولايته سلام كريم عليكم معشر أوليائنا ورحمة الله تعالى وبركاته، أما بعد فالحمد لله الذى له الملك في أرضه وسمائه وبإذنه يتصرف المخلوق في تقديمه وتأخيره وإعادته وابدائه وهو الذى يخار

(١) قطعة من مخطوط الأسكوريال، زواهر الفكر وجواهر الفقر، لابن المرابط، رقم ٥٢٠.

فيختار ما تكون فيه الخيرة لأوليائه، ومنه... الرحمن... التعمى بوسائط التوسل بأسمائه وصلواته الزاكية الطيبة، وتحياته الهامية الطيبة على إمام مرسليه وأنبيائه محمد رسوله المخصوص بالتقريب ليلة اسرائه المنصوص على أفراده فى المحشر بمقامه المحمود ولوليه المبعوث بالحق الذى انصدعت غياهب الباطل بأضوائه وعلى آله وصحبه الهادين واضح سنة...... إلى نصره وايوائه المتلقين ما جائهم به من ربه بامتثاله وارتضائه... بذلك ما شرفهم من ذكر الله تعالى لهم وثنائه وعلى خليفته المرتضى... ابن خلفائه قسيم النبىّ عليه السلام وابن عمه وبقية آبائه سيدنا ومولانا الإمام المستنصر بالله أبى جعفر المنصور أمير المؤمنين الذين نستنصر بلوائه ونستقضى كل شرف

لوحة ١٧٣ب : لذى شرفه... ونستبصر بنور إمامته فى آفاق المعمور وأرجائه وإن هذا كتابنا إليكم كتب الله تعالى لكم من... نصيباً موفوراً ومن إكرامه ما يأتلق وجهه إشراقاً وسنوراً، ومن العناية بكم ما يحسبكم جذلا وحبوراً، ومن النظر لكم ما لا تخشى كواكب ميامينه أفولا وعؤوداً من حضرتنا بمن سيتحرسها الله تعالى، والتوكل على الله تعالى ملاك أمرنا وعماده وزمامه الذى به انسياق كل خير وانقياده والاستعانة به ملجأنا الذى إليه رجوع كل مؤمن واستناده، وملاذنا الذى نأوى إلى ظله فيكنفنا شيوعه وامتداده والتوسل إليه بسليل الذى توسل به الفاروق فى القطر فهمت عبادة وصلنا إلى نصر الله العزيز الحكيم الصادق ميعاده، والشكر والحمد له جل جلاله دأبنا الذى لا يغيب ولا يغب معتاد، وشأننا الذى ينال به مستهاد كرمه الجم ومستفاده والتهم بمن قلدنا الله سبحانه أمره من خلقه، وأسند إلينا فى النظر له القيام بحقه عمل يوفى قصده ونبتغى به الزلفى وحسن المآب عنده، ولما كنتم فى أولياء أيالتنا صدوداً وخلصتم فى متابعتنا قلوباً وصدوراً وكرمتم فى مشايعتنا وروداً وصدوراً واستوجبتم لدينا الأثر والمزايا وأنصفتم فى أهل مناصحتنا بمشكور السجايا، جعلنا نخصكم من مقاصد الاحتفاء بالأسمى والأسمى ونستقبلكم منها بكل ما يعزى إلى سمى الآراء ويتمن، ونلتمس لكم الوجوه

التى ترد عليكم بالخير الأجمع الأهمى فأحق الأولياء بحلل التقاء أهل الصدق والصفاء، وأولى بسبق فى غرض الاعتناء من جاء بسبقه الأول إليه السعداء، فنحن إذا ما ذكرنا المخلصين ذكرناكم، وإذا ما أثرناهم بأمر أثرناكم مما رأيناه، وقصدنا

لوحة ١٧٤أ : فيه الخير وثوبناه أن يظهر مكانه هذه البلاد / الشرقية لدينا وكرامة أهلها الذين نحبهم ويحبوننا، علينا ونحفظ لها الأدمة التى يحفظها أولى الديار ومثوى النشأة القديمة والاستقرار ومنازل أهل الهجرة السابقة والانتصار وربوع القوم المعروفين بكرم العهد وحسن الجواد، فلم نجد فى ذلك أحد سبيلا وأبين شاهداً على الحظوة ودليلا، وأجمل فيها وسما، وأثبت فى رعى ساكنيها رسماً من أن نوليها ولى عهدنا المتولى لأمور المسلمين من بعدنا ابننا الأمير الموفق المبارك الميمون السعيد الرشيد، الواثق بالله المعتصم به، أبا بكر محمداً، وفقه الله تعالى توفيقه وهدايته، ومنحه إنجاده، وعضده وإسعاده، ونملكه جميع أمورها وكافة حواضرها وثغورها، ونقدمه منها فى بلاد هى منشأة ومنبته ومبدأه، وفيها رفعت رايات الدعوة أولا وطلعت فى أفقها أنوار الهداية فكان لها متنا فتضافى هذا الرأى السعيد إن شاء الله تعالى عواقب الجميل...... استخارة الله ربنا واسترشاده وسؤاله التوفيق الذى هو من خير ما أفاده، ولينا ابننا هذا الأمين لولاية العهد وتقلده من بعدنا أمور المسلمين فى يده وفقه الله تعالى وهداه،... فى السعادة مداه، جميع أقطار المشرق وبلاده، وأغواره، وانجاده، تولية عامة فى حياتنا، مع أنه المتولى بحكم العهد الذى ارتضيناه له لكل ممالكنا وطاعتنا، وخصصنا هذه البلاد الشرقية، حاطها الله تعالى بتقديمه فيها.

الملحـــق الثالث

رسالة موجهة من الأمير زيان بن مردنيش إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة، بقلم أبو المطرف بن عميرة المخزومى[1]

كتب أبو المطرف بن عميرة عن أبى جميل زيان، إلى ملك قشتالة من بلاد الأندلس فى مراودة الصلح.

كتابنا إليكم ـ أسعدكم الله برضاه، وزدام عزتكم وكرامتكم بتقواه ـ من مرسيه، ونحن نحمد الذى لا شيء كمثله ونلجأ إليه فى أمرنا كله، ونسأله أن يوزعنا شكر إحسانه وفضله ـ وعندنا لجنابكم المرفع تكرمة نستوفيها، ومبرة ننتهى إلى الغاية فيها، وعلمنا بمحلكم الشهير، وكتابكم الخطير، يستدعى الزيادة من ذلكم ويقتضيها، وقد كان من فضل الله المعتاد، وجميل صنعه فى انتظام الكلمة فى هذه البلاد ما اكتنفته العصمة، وكملت به النعمة والمنة، وتيسر بمعونة الله فتح أقر العيون، ورضيه الإسلام والمسلمون ، وكانت مطالعتكم به مما آثرنا تقديمه ، رأينا أن نحفظ من الأسباب المرعية على التفضيل والجملة (حديثة وقديمة) ، وحين ترجمت مخاطبتكم من هذا المكان، ومفاوضتكم فى هذا الشأن، رأينا من تكملة الميرة وتوفية العناية البرة، أن ننفذ إليكم من يشافهكم فى هذا المعنى، ويذكر من قصدنا ما نولع به ونعنى، وهو فلان فى ذلك السلم ومحاولتها، ما يتأدى من قبله على الكمال بحول الله تعالى. وإن رأيتم إذا انصرف من عندكم أن توجهوا زيادة إلى ما تلقونه إليه من رجالكم وخاصتكم، فى معنى هذا العهد وأحكامه، ومحاولته وإبرامه، فعلمت من ذلك ما نرقب أثره ، ونصرف إليه من الشكر أوفاه وأوفره إن شاء الله تعالى: وهو الموفق لا ربّ سواه والسلام الأتم عليكم كثيراً.

---

(١) فى: القلقشندى (أبو العباس أحمد)، صبح الأعشى، جـ٧، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م، ص ١١٦-١١٧.

الملحـــق الرابع

حكام بلنسيه وَمرسيه منذ قيام أهل الأندلـــس بالثورة على المرابطين حتى تبعية القاعدين للحكم الموحدى

بلنســـيه	بلنســـيه	السنة	الأحـــداث
أبو محمد عبد الله بن غانية، آخر والى مرابطي (٥٣٨/٥٣٩هـ)		٥٣٨هـ/١١٤٣م ٥٣٩هـ/١١٤٥م	يحيى بن غانية ، والياً عل بالأندلس الثورة على المرابطين
أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز	أبو محمد بن الحاج ، حكم بضعة أيام أبو محمد عبد الله بن فتوح الثغرى أبو جعفر محمد بن عبد الملك ابن أبى جعفر الناصر لدين الله عبد الرحمن بن طاهر القيس، حكم بضعة أيام	٥٤٠هـ/١١٤٥م	
عبد الله بن سعد بن مردنيش، حكم باسم ابن عياض فى بلنسية، وسيف الدولة أحمد بن هود يحكم مرسيه وبلنسيه أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش والياً باسم ابن عياض، أميراً على بلنسيه ومرسيه ٥٤١هـ/٥٤٢هـ	عبد الله بن عياض والى مرسيه باسم سيف الدولة أحمد بن هود المستنصر بالله، سيف الدولة يملك مرسيه وبلنسيه عبد الله بن عياض، يحكم مرسيه وبلنسيه باسمه أبو محمد عبد الله بن فرج الثغرى يستعيد حكم مرسيه عبد الله بن عياض يسترد سلطته أبو الحسن علي بن عبيد، حكم بضعة أيام	٥٤٠هـ/١١٤٦م ٥٤٢هـ/١١٤٧م	وصول الموحدين إلى الأندلس موت آخر أمير مرابطى، وفتح المسيحيون المريه يحيى بن غانية يسترجع قرطبة للمرابطين
أبو الحجاج يوسف بن سعد ، والياً على بلنسيه باسم ابن مردنيش أمير مرسيه وبلنسيه ثورة أبو الحجاج يوسف بن حامد ومتمثلة ، ثم خلفه أبو	أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش أبو مرسيه وبلنسيه وأماكن أخرى	٥٤٣هـ/١١٤٨م ٥٤٤هـ/١١٤٩م	استيلاء رامون برنجير الرابع على طرطوشه استيلاء رامون برنجير الرابع عل بلارده وإفراغه

بلنسيه	بلنسيه	السنة	الأحداث
مروان عبد الملك بن شلبان ضد ابن مردنيش		٥٤٧هـ/١١٥٢م	معاهدة تودلين Tudilen
أبو الحجاج يوسف بن سعد واليًا على بلنسيه باسم محمد بن مردنيش ٥٤٧هـ/٥٦٧هـ (١١٥٢م/١١٧١م)		٥٥٢هـ/١١٥٧م	استرداد الموحدين مدينة المريه
		٥٥٧هـ/١١٦٢م	فتح جيان وأبده وبياسه بواسطة قوات ابن مردنيش
		٥٦٣هـ/١١٧٧م	قوات ابن مردنيش تحتل غرناطة
		٥٦٦هـ/١١٧٤م	رويث دى اساجراء سيد البرازين التى اقطعها له ابن مردنيش.
خضوع بلنسيه للموحدين			خضوع بلنسية للموحدين
أبو الحجاج يوسف بن سعد واليًا على بلنسيه باسم دولة الموحدين ٥٦٧هـ/٥٨٢م	أبو القمر هلال ٥٦٧هـ/١١٧٢	٥٦٧هـ/١١٧٢م	خضوع مرسيه للموحدين

الملحـــق الخامس

ولاة بلنسيه ومرسيه فى عصر الموحدين ، ثم حكامها المستقلين فى عصر الطوائف الثالث إلى أن سقطتا نهائيًا فى أيدى مملكتى أراغون وقشتالة

بلنســــيه	بلنســــيه	السنة	الأحــــداث
عبد الواحد (٦٢١هـ/١٢٢٤م) خليفة موحدى)	أبو عبد الله العادل (خليفة موحدى)	٦٢١هـ/١٢٢٤م	
أبو زيد: والى مستقل إلى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م			
أبو العلا: (٦٢٤هـ-٦٢٦هـ/ ١٢٢٧م-١٢٢٩م) (خليفة موحدى)	أبو العلا (خليفة موحدى)	٦٢٥هـ/١٢٢٧م	
	ابن هود المتوكل	٦٢٦هـ/١٢٢٨م	الثورة ضد الموحدين
زيان بن مردنيش (٦٢٦هـ - ٦٣٦هـ) (١٢٢٩ - ١٢٣٨م)		٦٢٧هـ/١٢٢٩م	اتفاق هدنة بين زيان وخايمى الأول
		٦٣٠هـ/١٢٣٢م	سقوط مورلة Morella
	أبو بكر محمد بن يوسف الواثق	٦٣١هـ/١٢٣٣م	سقوط بوريانة Borriana
	عزيز بن عبد الملك بن خطاب	٦٣٥هـ/١٢٣٧م	معركة أنيشه Elpuig
	زيان بن مردنيش	٦٣٦هـ/١٢٣٨م	سقوط بلنسيه
	محمد بن هود بهاء الدولة	٦٣٧هـ/١٢٣٩م	زيان فى دانيه
	أبو بكر محمد بن يوسف الواثق		
		٦٤٠هـ/١٢٤٢م	سقوط جزيرة شقر
		٦٤١هـ/١٢٤٣م	خضوع مرسيه ولقنت وألش وأريوله للمسيحيين
		٦٤٢هـ/١٢٤٤م	اتفاقية المسرة Almizre
			خضوع شاطبة لشروط الجزية للمسيحيين
		٦٤٣هـ/١٢٤٥م	نهاية سقوط مدن شرق الأندلس



(شكل ١) قدر من الفخار كبير الحجم يزدان بأشرطة تدور حوله تحمل كتابات زخرفية مطبوعة على الفخار على نحو يبرزها عن السطح. عثر عليها في أساسات السوق المركزية ببلنسيه.



(شكل٢) إناء من الفخار يزدان بأشرطة زخرفية أفقية ملونة بأكسيد الحديد، حفرت عليها بعض الزخارف الهندسية (بلنسيه، اكاديمية القديس كارلوس).



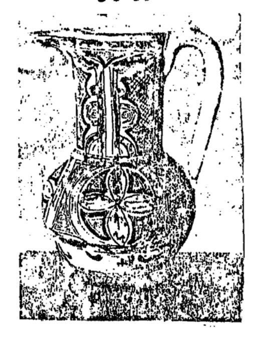
(شكل٣) إناء غير كامل من الفخار يزدان بأشرطة زخرفية ملونة بأكسيد الحديد الأحمر وبينها أفاريز مكسوه بمادة الانجولى البيضاء عثر عليه في السوق الرئيسى ببلنسيه (محفوظ بأكاديمية سان كارلوس ببلنسيه).



(شكل ٤): طبق من الخزف ذى الزخارف المكشوطه (الفن البيزنطى) تكسوه حلقه من أكسيد الرصاص. (محفوظ بمتحف اللوفر بباريس)



(شكل٥): اناء خزفى زخارفة من نوع الفواصل الجافة (ق ١٢ - ١٤م). عثر عليه فى موقع السوق الرئيسى ببلنسيه.



(شكل ٦): خزف بطرنه من القرنين ١٣، ١٤م ابريق تزدان زخارفه باللونين الأخضر والمنجنيزى.



(شكل٧): خزف من بطرنه من القرنين ١٣ ، ١٤ م قاروره دهان مزخرفة باللونين الأخضر والمنجنيزى.

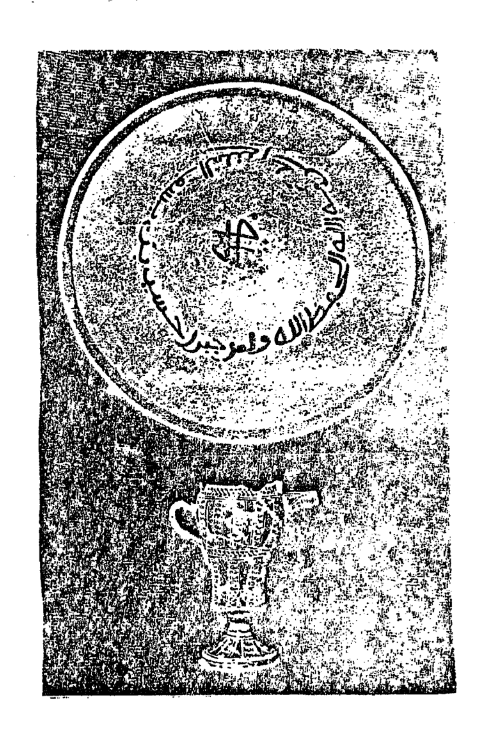


(شكل ٨): خزف من بطرنه من القرنين ١٤ ، ١٥م قاروره صيدلانية حشد فيها أغلب الموضوعات المميزة لهذا الخزف من خطوط متقاطعة فيما بينها على شكل زجزاج ومراوح نخيلية معروضة من وجهها (محفوظة بمعهد بلنسيه دون خوان بمدريد).

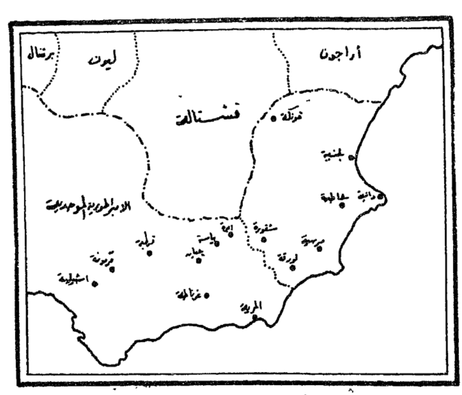


(شكل ١٠): خزف من منيشه، ق ١٥م، صحفه مقسمة زخرفيا من الوسط وزعت فى النصف الأيمن موضوعات زخرفيه طابعها من نفس طابع خزف بطرنه وقوامها مراوح النخيل ومناطق تملأها خطوط متوازية يقطعها خطوط زخرفية لولبية ونقط وفصلات فى حين توزعت فى النصف الأيسر توريقات وموضوعات لم تألفها قط فى أى مركز لهذه الصناعة الزخرفية ويبلغ قطر الصحفه ٢٦ سم.

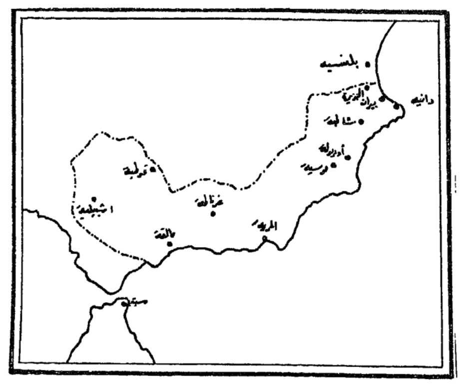
(شكل ١١): خزف مطلى من منيشه باللون الأزرق (ق١٥ م) قاروره صيدلية تزدان بصورة عقاب ناشرا جناحيه، ارتفاعها ٢٩ سم (محفوظة بمعهد بلنسيه دون خوان. مدريد).



شكل ٩) : كأس وصحفه من الخزف يزدان بكتابات عربية تدور حول قاعدة نصها: الحفظ الله والعز جبريل حسيب بن يوسف المبسى اكرمه الله)، ويرى توقيع الخزاف في الوسط.

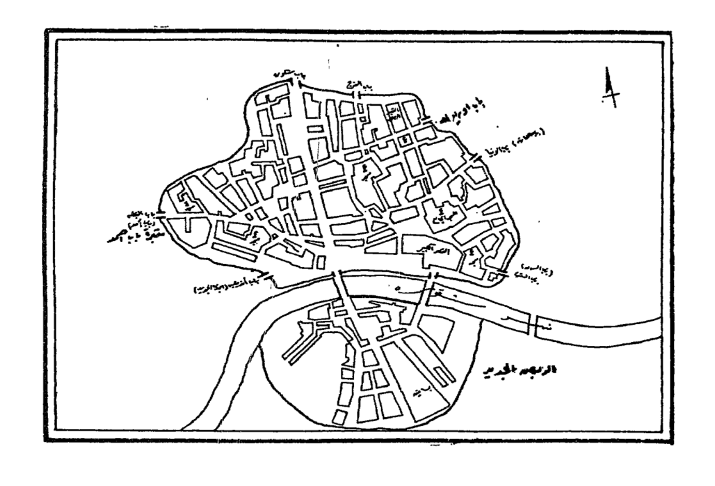


«دولة محمد بن سعد بن مردنيش»

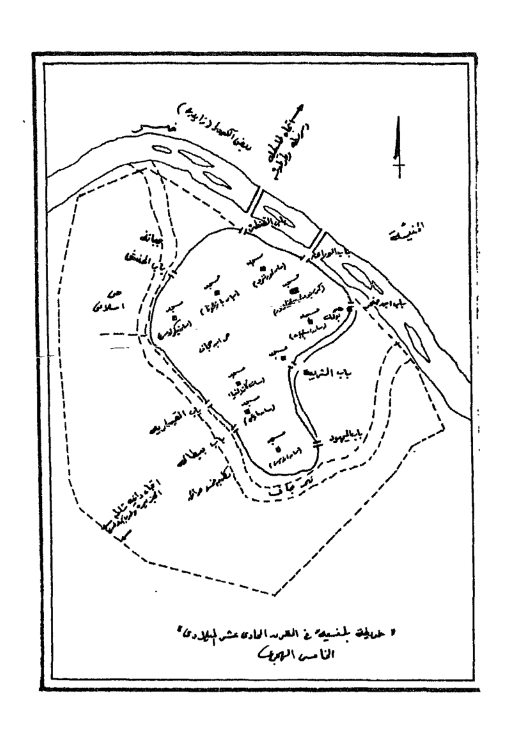


«أقصى أتساع لاملاك المتوكل بن هود»

(امتداد املاك الدولة الموحدية فى الاندلس)



تخطيط مرسيه وامتداد عمرانها في العصر الإسلامي من واقع تخطيطها الحديث الوارد في خريطة Plano de La Ciudad de Murcia والطبوغرافية التاريخية للمدينة



(خريطة بلنسيه فى القرن الحادى عشر الميلادى)

الخامس الهجرى

خريطة اقتصادية لاسبانيا الإسلامية

فهرس بموضوعات الكتاب

الباب الثاني
بعض مظاهر حضارة شرق الأندلس